القيادة العليا

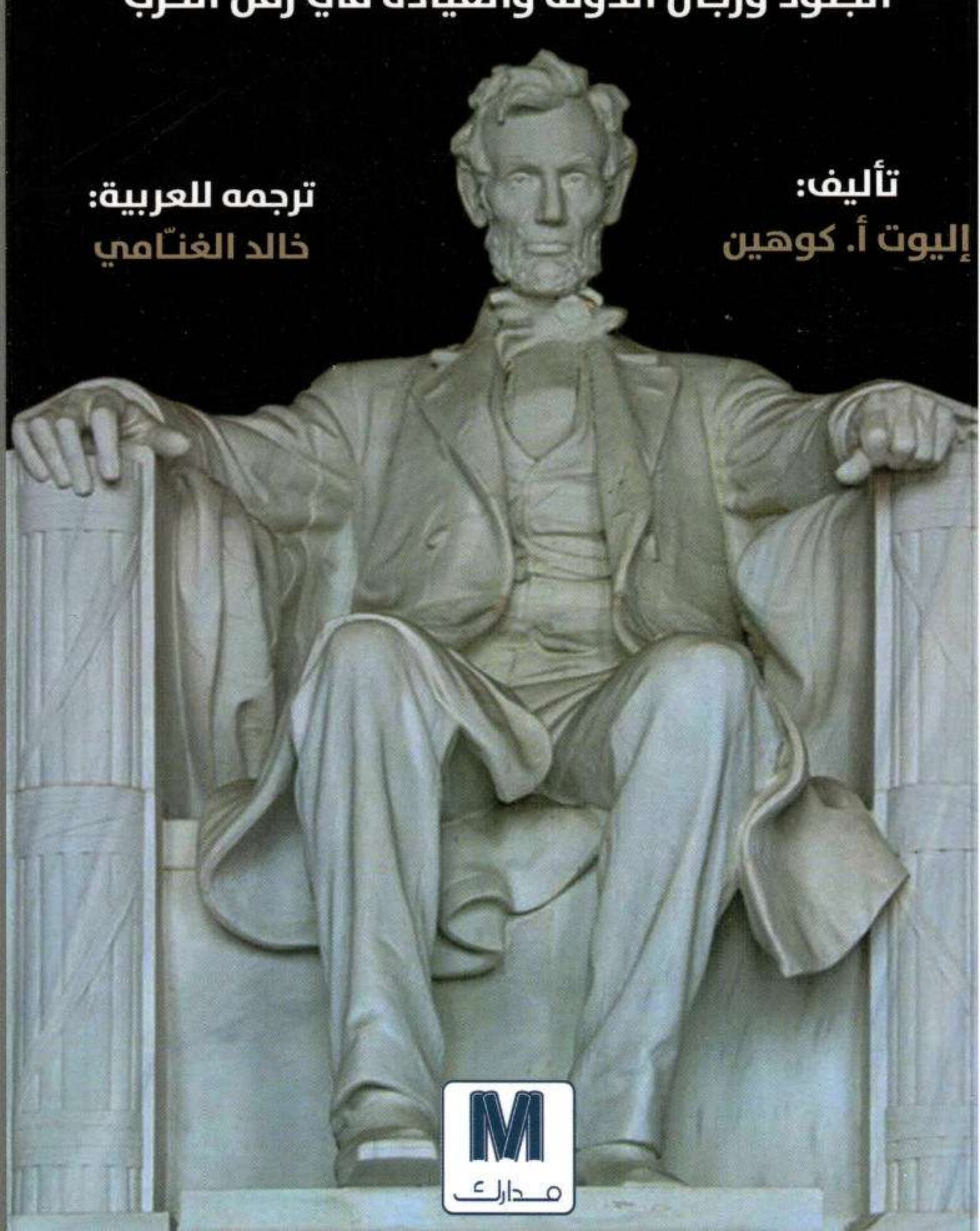
الجنود ورجال الدولة والقيادة في زمن الحرب

تأليف:

إليوت أ. كوهين

ترجمه للعربية:

خالد الغنّامي





القيادة العليا

الكتاب: **القيادة العليا**

المؤلف: **إليوت أ. كوهين**

ترجمه للعربية: **خالد الغنّامي**

التصنيف: **سياسة**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

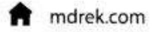
الطبعة الأولى: إبريل (نيسان) 2017

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 614 - 429 - 905 - 0



مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة
Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates

P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel:+966 1145 41148 Fax: +971 4 380 5977


mdrek.com


read@mdrek.com


DarMadarek

تأليف: إليوت أ. كوهين
ترجمه للعربية: خالد الغنّامي

القيادة العليا

الجنود ورجال الدولة والقيادة في زمن الحرب

المحتويات

الإهداء

أهدي هذا العمل لقيادتنا العليا

خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود

وولي العهد صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن نايف بن عبد العزيز آل سعود

وولي ولي العهد صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود

مقدمة المترجم

هذا الكتاب (القيادة العليا: الجنود ورجال الدولة والقيادة في زمن الحرب) من افضل الكتب السياسية التي كتبت في الألفية الثالثة، وهو كتاب يعلّم فن التحليل التاريخي وفن التحليل السياسي، في بضع مئات من الصفحات. هذا سبب كافٍ لحماستي الشخصية لترجمته ووضعه بين يدي المكتبة العربية، مع التحفظ على قضايا وأشياء جوهرية وردت فيه، واختلاف وجهة نظرنا عن رؤية المؤلف بصددها. إلا أن أهميته المعرفية التي تجعله جديراً بأن يدرّس في الجامعات، جعلتنا نتجاوز نقاط الخلاف مؤقتاً.

تكمن أهمية هذا الكتاب وخطره، في أنه يتحدث عن قضية في غاية الحساسية، ألا وهي تلك العلاقة شديدة التعقيد بين الحاكم المدني والقائد العسكري الميداني. ويخص المؤلف زمن الحرب بالحديث، لأنه الزمن التي تبرز فيه الخلافات وتكون على أشدها بين الطرفين المذكورين. زمن الحرب يختلف عن زمن السلم، حيث تُحبس العلاقة بين الطرفين في إطار المجاملات، وبقاء الخصومات - إن وقعت - حيث تُكنها الصدور، كالنار القابعة تحت الرماد.

أما في زمن الحرب، فالوضع يختلف تماماً، إذ لا يوجد وقتٌ

للمجاملات. هناك دولٌ بأسرها تواجه سؤال الوجود: نكون أو لا نكون. ومع هذا السؤال، يُفترض أن تصبح المصلحة الوطنية مقدمة على كل اعتبار، وكلا الطرفين سيعتقد في نفسه - بلا شك – أنه الأعرف بمكامن تلك المصلحة الوطنية. القادة العسكريون يريدون يداً مطلقة في الحرب، حرّة في اتخاذ القرارات الخطيرة، دون الرجوع أو الحاجة إلى موافقة الحاكم المدني. هذه هي مطالبة الجنرالات عبر التاريخ. أما الحكّام المدنيون، فكانوا ولا زالوا يرون أن السياسي وحده، هو من يملك الحق في أن يبدأ الحرب وفي أن يُنهيها. وهو دائماً في حالة توجس من القرارات التي لم تصدر ابتداء، من رأسه.

هناك نظرية متداولة في هذا العلم، علم وضع الاستراتيجيات، يسمّيها المؤلف (النظرية السائدة في العلاقات بين المدنيين والعسكريين) وهي النظرية التي تقول إن على الزعيم السياسي الذي يريد أن يتنصر في حرب ما، أن يقوم بتحديد الأهداف وتعبئة الجماهير واختيار القائد المناسب وتسليمه إدارة كافة شؤون الحرب، وأن واجب الحاكم المدني إن أعطى للقائد العسكري أمراً، فعليه أن يمنح له القدر الكافي من الحرية لتنفيذ ذلك الأمر. هذه النظرية كانت تحسم هذه العلاقة على مدى القرون الماضية، ألا أن هناك اعتراضات برزت على هذه النظرية فصارت في مجال تتنازعها فيه الأيدي، وتختلف رؤى الحكّام والقادة في تحديد حدودها وطريقة تطبيقها، وهناك من ينسفها بالكامل ولا يؤمن بجدواها.

أين ينتهي دور الحاكم المدني؟ وأين يبدأ دور القائد العسكري ثم ينتهي بدوره. هذا هو الموضوع الأساس لهذا الكتاب خطير الشأن.

لكي يناقش المؤلف مشكلة العلاقات بين المدنيين والعسكريين في زمن الحرب، اختار أربع شخصيات تاريخية، هي على التوالي:

١-إبراهام لنكولن:

هكذا كتبت اسمه متابعاً من سبقني من كتّاب العربية الذين اختاروا أن يكتبوا اسمه كما يُكتب بالإنكليزية وأن يضعوا حرفاً مكان كل حرف، وإلا فاسمه يُنطق هكذا: (لِنكن). إبراهام لنكولن هو الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة (١٨٦١-١٨٦٥). الزعيم العظيم الذي كان أكبر حدث تخلل فترتي رئاسته، هو نشوب الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب. وقد استهلكت هذه الحرب فترته الرئاسية الأولى ثم تم انتخابه لفترة رئاسية ثانية، لكنه لم يكملها بسبب اغتياله على يد الممثل المسرحي جون ويليكس بوث.

سبع ولايات جنوبية (الجنوب الأسفل)، كارولينا الجنوبية والمسيسيبي وفلوريدا وألاباما وجورجيا ولويزيانا وتكساس، قررت الانفصال عن الولايات المتحدة وتكوين اتحاد آخر. ثم أسمت كيانها: الولايات الكونفدرالية الأمريكية في مقابل الولايات المتحدة الأمريكية، واختارت لها رئيساً ودستوراً مختلفاً. كما اختارت مونتغمري عاصمة ألاباما لتكون عاصمة للكونفدرالية ثم استبدلوها في ٢٩ مايو ١٩٦١ بمدينة رتشموند في فرجينيا حتى نهاية الكونفدرالية في ٣ أبريل ١٨٦٥. سيأتي في نص الكتاب أن لنكولن كان شديد الحرص على أن يؤكد لقواته أن هدفه الحقيقي ليس سقوط مدينة رتشموند، بل إبادة جيش الكونفدرالية.

أما سبب الحرب، فهو أن تلك الولايات السبع يقوم اقتصادها على الزراعة، خصوصاً زراعة القطن الذي يعتمد قطفه على العبيد بشكل كبير. الإعلان عن الانفصال جاء كردّ على ما أعلنه المرشح الجمهوري الشاب إبراهام لنكولن في انتخابات نوفمبر ١٩٦٠ من أنه سيتوسّع في سياسة الحدّ من الرق في طول البلاد وعرضها. عندها تم الإعلان عن الكونفدرالية في فبراير ١٩٦١ قبل أن يدخل لنكولن البيت الأبيض في مارس ١٨٦١. ثم قامت أربع ولايات أخرى (ولايات الجنوب الأعلى) بالإعلان عن رغبتها في الانضمام للكونفدرالية، وقد وافقت الكونفدرالية على انضمام ميسوري وكنتاكي، إلا أن الكونفدرالية لم تحكمهما قط، كما أنهما لم تعلنا عن انفصالهما رسمياً.

بدأت الحرب في ١٢ أبريل ١٩٦١ عندما طلب حصن سمتر في تشارلستون، كارولينا الجنوبية، الإمدادات من الرئيس لنكولن ليقوّي تحصيناته ضد هجوم محتمل من الكونفدرالية في كارولينا الشمالية. أمر لنكولن بتزويدهم بتلك الإمدادات دون الدخول في اشتباك، إلا أن الكونفدرالية اعتبرت فعله هذا، بمثابة إعلان للحرب. ومع بداية الحرب، بدأ الخلاف بين وجهات النظر. فقد أجمع الجنرالات على أنه لا يمكن الدفاع عن حصن سيمتر، وأن الحل الأمثل هو الانسحاب الطوعي منه، بينما كان للثعلب الكبير لنكولن رأي آخر، فلم ينسحب ولم يبدأ الحرب. ها هنا برز أول خلاف بين الرؤيتين المدنية والعسكرية في فترة لنكولن.

لقد ترك للكونفدراليين مثلبة أن يطلقوا الطلقة الأولى وأن يريقوا الدم الأول من أجساد أبناء وطنهم من الأمريكيين ليزيد بذلك

تورّطهم في الدخول في موقف منبوذ من الجميع، مما سيتيح فرصة الفوز بحظوة وتقدير بقية الولايات التي أربكها الموقف الثوري الجديد.

لقد كان المؤلف ذكيّاً للغاية وهو يحلل - سياسياً ونفسياً - شخصية لنكولن من خلال رسائله المحفوظة، ليخرج لنا بوجه آخر للرئيس. ليس بالوجه الجميل الذي اعتاد تخيله من يستقون معلوماتهم من الأفلام السينمائية الأمريكية. إنه وجه ماكر ومفرط الدهاء، كما أنه وجهٌ في غاية الصرامة والقسوة، وهو نفسه من أنقذ البلاد. لقد اعتمد المؤلف في هذا الفصل على الوثائق والخطابات التي كتبها لنكولن لقادته، وهي خطابات أقل ما يؤخذ منها : سحر الصراحة عندما تنطلق من التفكير العقلاني المتجرد من العواطف بالكلية، فيما يتعلق بالقضايا الإنسانية.

٢-جورج كليمنصو

اشتُهر رئيس وزراء فرنسا ووزير دفاعها في أثناء الحرب العالمية الأولى بأنه كان يرى أن للحرب شأناً جللاً لا يجوز أن يترك للعسكريين، وأن الأولوية للمدنيين في هذا الشأن، كما في حال السلم. حجة كليمنصو هي أن الحرب تبدأ لأسباب سياسية، وتنتهي لأسباب سياسية، وهذا فنٌ لا يُحسنه رجال الحرب، بل رجال السياسة. وموقفه الحادّ أدى إلى صدامه مع ابن وطنه الجنرال فرديناند فوش، ذلك الزعيم المشهور الذي شغل منصب القائد الأعلى لجيوش الحلفاء حتى ١١ نوفمبر ١٩١٨. هل كان الحق مع كليمنصو، السياسي المحنّك المنتقص لعقول وخبرات واختيارات الجنرالات؟ أم أن الحق كان مع

الجنرال فرديناند فوش الذي لم تُرضه معاهدة فرساي برغم قسوة شروطها على الألمان، فقال مقولته الشهيرة التي لن ينساها أبداً من يقرأ سير القادة العظماء: «هذه ليست معاهدة سلام، هذه هدنة مدّتها عشرين عاماً»؟

لا شك أن دور النمر العجوز كليمنصو في صناعة النصر لبلاده كان أكبر وأهم، لكن كيف لنا ألا نذهل ونصاب بالدهشة الكاملة، ونحن نقرأ تلك الجملة المحفوظة عن فوش، ثم نرى أدولف هتلر بعد عشرين سنة تماماً، يشعل النار في أوروبا كلها، عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية في الأول من سبتمبر ١٩٣٩؟!

٣-ونستون تشرشل

في ١ سبتمبر ١٩٣٩ كان احتلال أدولف هتلر لبولندا (في مدة شهر) هو الشرارة التي أشعلت الحرب العالمية الثانية. وفي ١٠ مايو ١٩٤٠ بدأ هتلر باحتلال بلجيكا وفرنسا، بعد شهور مما يُعرف بفترة «الحرب الكلامية». في اليوم نفسه تم تعيين ونستون تشرشل رئيساً لوزراء المملكة المتحدة. إنه نفسه تشرشل : الرجل الذي يوصف بأنه أعظم قائد حرب في القرن العشرين، وهو نفسه الذي وعد الناس بالدم والدموع والعرَق.

في الفصل المخصص لتشرشل من هذا الكتاب، تبدأ القصة عند اكتشاف الاستخبارات البريطانية أن ألمانيا قد طوّرت جهازاً للإشعاع اللاسلكي يُستخدم للضربات الجوية الليلية، وبحيث تَعيّن على البريطانيين أن يجاروهم في هذا المضمار العلمي. في هذا الكتاب

سنتعرف على تشرشل الذي يكاد يتفجر بالطاقة، وهو يلهب في شعبه روح الحماسة والمقاومة، حتى تحقق النصر. «النصر» هو ما سلّط تشرشل كل طاقته باتجاهه، وإن شاب هذا فظاظة وقسوة مع قادته وجنوده. وعلى حد تعبير المؤلف: انطلقت علاقة تشرشل غير السهلة مع جنرالاته، في الجزء الأكبر منها، من رغبته في ضبط قادته الذين لا يتفقون معه – وقد فعل ذلك بصورة عنيفة.

٤-بن غوريون

الشخصية الرابعة والأخيرة من شخصيات هذا الكتاب هي بن غوريون، أول رئيس وزراء للكيان الصهيوني المغتصب، المجرم الذي حول الصهيونية إلى مشروع عملي في فلسطين، السفّاح المؤمن بضرورة التطهير العرقي الذي كان ضحيته الفلسطينيون. رئيس الوزراء الذي كان مسؤولاً رسمياً عن مجازر ارتكبت بحق الفلاحين العزّل من السلاح، حيث تم قتل النساء والأطفال والشيوخ بهدف بث الرعب ونشر الخوف، لكي يهرب الناس ويتركوا أرضهم. لقد كان يشنّ حروباً من طرف واحد، هو الطرف الإسرائيلي. يتناول هذا الكتاب بشكل أكبر، جزئية العلاقة بين المدنيين والعسكريين متمثلة في صراع المجرم بن غوريون مع المنظمات اليهودية الإرهابية، وكيف استطاع حلّها جميعاً، وضمّها للجيش الإسرائيلي.

هذا الفصل هو أضعف جزء في الكتاب، وقد ترددت كثيراً في ترجمته بسبب وضع المؤلف لبن غوريون مع هذه الكوكبة من الرجال (لنكولن وكليمنصو وتشرشل) الذين دافعوا عن أوطانهم بكل بسالة،

في سنوات تاريخية حرجة، كادت تُخفي معالم تلك الأوطان. بينما كان بن غوريون مجرد مجرم حرب ساعده ضعف العالم العربي في تلك الفترة على تحقيق أهدافه. لقد كانت محاولة بائسة من المؤلف أن يحشر بن غوريون هنا. إلا أن للكتاب ككل، أهمية كبرى لا يمكن الصبر عنها للمهتمين بقضايا التحليل السياسي وقضايا الفكر الاستراتيجي، فالكتاب يتجاوز بمراحل نظرية « اعرف خصمك » وكيف يفكر، على الرغم أن معرفة الطريقة التي ينظر بها المفكر الأمريكي المتخصص إلى هذه القضايا، هو أمر في غاية الأهمية.

٥- قيادة بلا عبقرية : هو اسم الفصل السادس الذي استعرض فيه المؤلف العلاقات بين المدنيين والعسكريين بعد الحرب العالمية الثانية، من خلال النظر إلى الكيفية التي خاضت بها الولايات المتحدة الأمريكية الحرب الفيتنامية في وجود قادة مثل(جونسون وماكنمارا) اللذين لا يملكان أي حس صحيح بما يتعين عليهما عمله لإدارة الحرب، ولا يقارنان بالقادة الذين تمت دراستهم في الفصول الأولى. وهو بهذا يدافع عن نظريته في تمجيد الأفراد المتميّزين الذين لا يتكررون بسهولة، على حساب العمل المؤسساتي الجماعي وكفاية التقنية للقيام بالعمل. المؤلف بلا تردد يؤمن بالرجال الطفرات الذين لا يمكن لأي شخص عادي أن يسد المكان الذي تركوه، وهؤلاء الرجال الطفرات لا يمكن أن يكونوا أنموذجاً يقتدي به الرجل العادي، لأنه ببساطة لن يكون مثلهم.

٦- حوار غير متكافئ : هو الفصل الأخيرُ في طبعة الكتاب الأولى، وفيه محاولة للخروج بنتائج عامة للديمقراطيات المعاصرة

ودارسي القيادة على العموم. كما أنه يقرر أن ما حدث من نقاش بين رئيس دولة أو رئيس وزراء وجنراله كان حواراً متكافئاً، بمعنى أن كلا الجانبين عبّر عن آرائه بصراحة، بل في بعض الأحيان بطريقة هجومية، هذا كان يحدث طوال الوقت، ولم تكن حالات عارضة. لكن هذا الحوار غير متكافئ في الوقت نفسه، بمعنى أن سلطة القائد المدني النهائية كانت صريحة وغير متنازع عليها، وكانت في جميع الحالات تخرج وهي في حالة أفضل وأقوى في نهاية الحرب مما كانت عليه في بدايتها.

٧- الملحق : هناك يناقش المؤلف أستاذه هنتنجتون في الوصفة التي قدمها لضمان السيطرة المدنية على القوات المسلحة، ويشرح أن هنتنجتون كان يوافق على ضرورة الفصل بين دور المدني ودور العسكري، بل يؤكد على هذه الضرورة. كما ناقش نظرية السيطرة الموضوعية، التي دعا لها هنتنجتون لفرض سيادة المدنية على العسكر من خلال زرع الصفات المدنية بين أوساط الضباط، ويقارن السيطرة الموضوعية بالسيطرة الذاتية وينحت لها مجالاً للعمل المستقل عن السياسة ويسعى إلى ترويض الجيش بتمدينه، وبهذا يجعله واعياً سياسياً، أو بالسيطرة عليه من الداخل بنخب مدنية مزروعة فيه. وفي هذا الفصل، يناقش المؤلف من ردوا على هنتنجتون وعارضوا نظريته، ويمتد به النقاش إلى دعاة العدمية من أمثال الروائي الروسي ليو تولستوي، في رؤيته القاتمة للحرب.

٨- ثم أضاف المؤلف في طبعة متأخرة للكتاب، فصلا أسماه (حرب رامسفيلد) مقدماً إياه كأنموذج للحوار غير المتكافئ بين المدنيين

والعسكريين، نتج عنه نصر سريع ورخيص نسبياً، ويؤكد أن الحروب التي خاضتها الولايات المتحدة منذ فيتنام إلى حرب رامسفيلد كانت كلها في إطار النظرية السائدة للعلاقات بين المدنيين والعسكريين. هكذا غطى الكتاب معظم الحروب التي خاضتها أمريكا منذ الحرب الأهلية ١٨٦١ حتى احتلال العراق في ٢٠٠٣ مستخدما كل تلك الحروب لتوضيح موقفه السياسي من قضية الكتاب وضرورة سيادة الحاكم على الجنرالات.

ما هو موقف المؤلف من قضية الكتاب؟

المؤلف يقف موقفاً وسطاً بين الفريقين، فهو يؤيد كليمنصو في أن شأن الحرب عظيم ويجب ألا يُترك للجنرالات. لكنه يُخطّئ من يتوقعون من الجيش أن يقوم بدور الشرطي، ومن ثم تحويله إلى نوع من القوات الشرطية المسلحة تسليحاً ثقيلاً مقارنة بالشرطة ذات التسليح الخفيف. كما أن المؤلف يرى أن الجنرالات لو كانوا فعلا مجرّد دمى يحرّكها السياسيون لاستسلموا بخنوع لآرائهم، ولحلت ببلادهم الكوارث. إنه رأي وسط يُدخل الشيطان في التفاصيل، لكنه بلا شك لا يتفق مع النظرية السائدة للعلاقات بين المدنيين والعسكرين. أضف لهذا أن السياسة تعاني من مشكلة أزلية، هي أن الأهداف السياسية غالباً ما تكون غامضة ومتناقضة وغير مؤكدة وتتغير كثيراً ما بين عشية وضحاها، وهذا لا يتناسب مع روح الضباط التي تتميز بالثبات والرسوخ. كما أن المؤلف يطرح مشكلة أخرى، وذلك عندما يُدرج الحرب نفسها كطرف مستقل يستطيع أن يقلب الطاولة في هذا النزاع، فالحرب تملك بطبعها القدرة على استمالة المدنيين

وعسكرتهم، لتجعلهم خاضعين لروح العمليات العسكرية، وهكذا يخسرون حسابات سياسية طويلة المدى لأولويات الحرب. هنا يتضح أن سيطرة المدنيين على ممارسة القوة العسكرية ليست سوى وهْم، فالسياسيون لا يتصرفون أكثر من متحدثين باسم أرباب الحرب، من وجهة نظر المؤلف.

كان الغرض من هذه المقدمة، إدخال القارئ العربي البعيد، في أجواء هذا الكتاب. ومع ذلك سوف تفاجئه فيه كثرة المعلومات، وأسماء المعارك، والشخصيات التي لا يعرف عنها شيئاً، وتفاصيل الحياة السياسية ومشكلات الديمقراطية وصناعة القرار في الولايات المتحدة وأوروبا وقضايا أخرى كثيرة تتجاوز شرط الكتاب، ومنها أن هذا الكتاب، نصٌ في فن الحُكم. وكنت قد باشرت في وضع حواشٍ توضح المناسبات التي قيلت فيها جملٌ مهمة، وتُعرّف بتلك الشخصيات والمعارك، إلا أنني وجدت أن ذلك سيطول جداً، وأن حجم الكتاب سيتضخم بمقدار الضعف، ففضلت الاكتفاء بهذه المقدمة.

خالد الغنامي

٢٧ نوفمبر ٢٠١٦

- يرى شكسبير أن العباءات والتيجان والمجوهرات أزياء تليق أكثر بالرجل لأنها لا تعدو أن تكون تجليّات خارجية لهيبته الداخلية، لكنه مشهد يبدو لنا سخيفاً، لأن من يرتديها، في تقديرنا، رجل ضئيل الشأن بصورة تدعو للشفقة. نحن لا نكتب عن الملوك، لأننا لا نؤمن أن بين الرجال من يستحقّ أن يكون ملكاً، ولا نكتب عن القصور لأن الأكواخ تبدو لنا مساكن تليق أكثر بالكائنات التي تسكن فيها.

جوزيف وود كروتش

طبائع الزمن الحديث The Modern Temper

مقدمة

يتناول هذا الكتاب موضوع القيادة في أثناء الحرب، وبعبارة أدق، ينحصر في دراسة التوتر بين نوعين من القيادة : المدنية والعسكرية. وفيه حاولت أن أكشف عن الطبيعة التي تقوم عليها صناعة الاستراتيجية في زمن الحرب من خلال تفحّص سيرة أربعة من عظماء رجال الدولة الديمقراطيين، والنظر في كيفية تعاملهم مع القادة العسكريين الذين خدموا تحت إمرتهم. وكان هدفي من هذا العمل هو استكشاف بعض الجوانب الأساسية لمفهوم القيادة. لذا فإنه ليس مجرّد تحليل تاريخي، بل دراسة لقضايا ظلت مطروحة حتى يومنا هذا.

آمل أن يروق هذا العمل لأولئك القراء الذين يرغبون في معرفة المزيد عن رجال الدولة الأربعة الذين أحدثكم عنهم في هذا الكتاب، ولأولئك المهتمين بصفة عامة بالكيفية التي يواجه فيها الرجال - أو النساء - أعظم التحديات التي يمكن أن تجابه القائد الوطني. وآمل أن يجذب اهتمام الآخرين من دارسي القيادة بصفة عامة، والجنود الذين يرغبون في تعلم المزيد عن المشكلات التي تشوب العلاقات بين المدنيين والعسكريين في زمن الحرب، والباحثين المهتمون بهذا المجال، إضافة إلى الساسة أنفسهم.

يبدأ الكتاب بمناقشة مشكلة العلاقات بين المدنيين والعسكريين من وجهة نظر عامة. ويمكن للراغبين من الغوص في التفاصيل، أن يرجعوا إلى الملحق، «نظرية سيطرة المدنيين». يقدّم الفصل الأول عرضاً مجملاً لما أسميه النظرية «المعيارية» للعلاقات بين المدنيين والعسكريين - معيار لطالما انتهكه القادة موضوع الدراسة في الفصول الأربعة التالية. وسوف أخصص فصلاً كاملاً لكل واحد من هؤلاء القادة : لنكولن وكليمنصو وتشرشل وبن غوريون، مع التركيز على العلاقات بين المدنيين والعسكريين. لا تتناول هذه الفصول كافة أوجه القيادة في زمن الحرب، (كالتعبئة الصناعية على سبيل المثال) إلا إذا كان لهذا الأمر تأثير مباشر على العلاقات بين المدنيين والعسكريين. أما الفصل السادس فيستعرض العلاقات بين المدنيين والعسكريين بعد الحرب العالمية الثانية من خلال النظر إلى الكيفية التي خاضت بها الولايات المتحدة الأمريكية الحرب في وجود قادة أقل فاعلية بكثير من القادة الذين تمت دراستهم هنا. وهنالك فصلٌ أخيرٌ يحاول استخلاص دروس عامة للديمقراطيات المعاصرة ودارسي القيادة على العموم.

تكوّنت فكرة هذا الكتاب عندما كنت أستاذا في الكلية الحربية البحرية في نيوبورت برود آيلاند، في أواسط ثمانينيات القرن العشرين. فقد أشرك قسمُ الاستراتيجية في الكلية، الضباطَ العسكريين الكبار، في مناقشة المسائل الأساسية التي تُبحث هنا، وذلك من خلال دراسة تاريخ الحرب في العصور القديمة والحديثة. وفي يوم، خاطبني أحد الضباط المحبطين قائلاً : «هذا ليس مقرّراً في الاستراتيجية بتاتاً،

إنما هو مقرّر في العلاقات بين المدنيين والعسكريين». وقد أصاب كبد الحقيقة، رغم أن ذلك لم يَسرّه كثيراً. الواقع أن دراسة العلاقة بين الجنود ورجال الدولة (والأمر هنا مختلف عن العلاقة بين الجندي والدولة كما يطرحها أحد الكتب المشهورة) تقع في صميم موضوع الاستراتيجية. في الفصل الأول من الكتاب. سأشرح كيف أن المفاهيم الاستراتيجية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلاقات بين المدنيين والعسكريين.

في إثناء وجودي في نيوبورت أتيحت لي فرصة التفكير العميق في بعض الوقائع والأحداث التي أناقشها هنا، خاصة تلك المتعلقة بأبراهام لنكولن وونستون تشرشل، باعتبارهما أعظم رجال الدولة المحاربين، ممن أنجبهم العالم الناطق بالإنجليزية. ولا بد لي أن أضيف هنا، أن الدافع الثاني لصدور هذا الكتاب قد جاء كنتيجة الافتتان زمناً طويلاً برجال الدولة الأربعة الذين استغرقت بهم الفصول الثاني والثالث والرابع والخامس، وبصفة خاصة تشرشل.

شأني شأن الكثيرين، أذهلتني شجاعة الرجل التي مكّنته من إنقاذ بريطانيا العظمى من الاستسلام لألمانيا الهتلرية. مع ذلك، كلما توسّعت في قراءة كتاباته (خاصة سيرة سلفه العظيم، دوق مارلبورو، التي كتبها تشرشل ونشرت في ثلاثينيات القرن العشرين) كلما زادت قناعتي في أنه (منظّر) في إدارة الحرب. إنه ليس رجل دولة فحسب، بل دارس متميّز لفن الحكم. فوق ذلك، كلما عرف المرء المزيد عن كيفية إدارته للحرب، ازداد يقيناً بأن الصورة التي رسمها له بعض كتاب السير والمؤرخين، كرجل غريب الأطوار وأرستقراطي رومانسي على نحو منافٍ للعقل، ليس لها في الواقع أي أساس من الصحة. لقد

فهم تشرشل الحرب الحديثة أكثر من جنرالاته، وتصرّف بمنهج يفوق كثيراً المنهج الذي يتبعه السياسيون اليوم. وقد تعامل المؤرّخون في السنوات العشرين الأخيرة مع طريقة خوضه للحروب بقسوة متزايدة - على نحو ما انتقدوا بن غوريون، ولكن بشكل أقل حدّة. ولا بد لي من الاعتراف ببعض الرغبة في الدفاع عن تشرشل ورفاقه في هذا الكتاب.

إنني أعلم تماما أنّ اعترافاً من هذا القبيل سيعرضني لاتهامات بأنني من دعاة عبادة البطل - وهذه نزعة لا تنسجم مع مزاج هذه الأزمنة، حيث يميل الناس في الغالب للخوض في قصص النزوات الجنسية للسياسي، أكثر من تقويم منجزاته أو أفكاره السياسية. وبما أن القادة السياسيين العظام، أفراد غير عاديين بحكم التعريف، فإننا لا نألفهم. وقد لاحظ هنري كيسنجر Henry Kissinger ذات مرة :

- أن الرجال العظماء نادرون، لذلك نحتاج، عندما نلقاهم، إلى وقت طويل لكي نعتاد عليهم.

فوق ذلك، يبدو لي أن الاختصاصات البحثية لعلم السياسة، وللتاريخ بدرجة أقل، قد ابتعدت بشكل متزايد عن التعاطف النفسي مع موضوعاتها. فالاعتقاد في عظمة رجل الدولة يعرّض للخطر، تلك النظريات التي تقوم على وصف القوى الاجتماعية ومؤسساتها، أو التحليلات القائمة بناء على مبدأ «الاختيار العقلاني». لقد كان فن الحكم الذي يمارسه الإفراد المميزون موضوعاً شائعاً ومشروعاً للبحث والاستقصاء، لكنه لم يعد كذلك اليوم. فإضفاء المهنية على المؤسسة العلمية يعني أن العديد من الباحثين باتت تجاربهم الشخصية أضيق،

وربما أن مجموعة معارفهم الاجتماعية أصبحت أقل، مما كان عليه الحال في الماضي. عن ذلك قال صموئيل إليوت موريسون Samuel Eliot Morison ذات مرة :

- المؤرخون العظام، مع استثناءات قليلة، هم أولئك الذين لم يدرسوا فحسب، بل عاشوا التجربة أيضاً.

وأبلغ قدامى المحاربين في الحرب العالمية الثانية بأن خبرتهم في الحرب سوف تمكنهم من :

- قراءة ممارسات الإنسان في الماضي بفهم أكبر بكثير، مما لو قضوا تلك السنوات في أماكن آمنة من ويلات الحروب.

وقد تعلّم طلاب موريسون الكثير، مثل معلمهم نفسه، من صدمات الحرب التي تعرضوا لها بصفة شخصية. لكن الأجيال اللاحقة أصبحت أكثر عزلة عن عالم الممارسة لتكون النتيجة، في الغالب، تاريخاً لا يبدي كبير تعاطف مع عطاءات القادة السياسيين ومسؤولياتهم. وقد علّق إدموند ويلسون Edmund Wilson ذات مرة على نقاد الأدب قائلاً :

- إن علاقة الأستاذ بطلابه، هي في تسعة أعشارها، علاقة متكلّفة ومحرجة. سيكون الأستاذ أكثر إحساسا بالضيق والحرج فيما لو كان عليه أن يقابل ويتمان أو بايرون، لأنه لن يحبّه – بل لا يحبه في الواقع.

ومع مراعاة الفوارق، ينطبق نفس الشيء على العديد من

المؤرخين العسكريين. ومع ذلك فإن هدف هذا الكتاب ليس محض الدفاع عن سمعة الشخصيات الرئيسية التي يتحدث عنها. بل غرضه أن يجعل طبيعة التحديات والتعقيدات التي واجهوها أكثر قرباً للأذهان. ولهذا فإن هذا الكتاب يقبل من غير تردد الفكرة القائلة بأن هنالك، من حين لآخر، رجال دولة عظماء، تتفوق مهارتهم في سياسة الحرب على المهارة العادية للساسة من الرجال والنساء. ولن أزعم أنني سأحيط بمجمل أساليب إدارة الحرب لكل رجل من هؤلاء القادة، فقد جذب كل واحد منهم انتباه الكتّاب فخطوا عنهم المجلدات. عوضاً عن ذلك، يستكشف هذا الكتاب أداء هؤلاء الرجال الأربعة كقادة حرب على النحو الذي يساعد في تسليط الضوء على المشكلة المستعصية، ألا وهي العلاقات بين المدنيين والعسكريين في زمن الحرب. ومن ثم فإنه يركّز على سماتهم الشخصية أو خصائصهم الأساسية، أكثر مما يركّز على مجمل تجاربهم، ولا يلتمس تبريراً لعدم تقديم وصف شامل لجهود كل قائد على حدة، وهو ما لن ينتج إلا نصاً سطحياً.

إن عرض الحجج المستمدة من تجارب الشخصيات الاستثنائية قد يجعل البعض يشعر بالضيق. ولهذا السبب يحتوي هذا الكتاب على فصل بعنوان « قيادة بلا عبقرية»، وهو عبارة عن نقاش عما ستؤول إليه الأمور عندما يجد الساسة والجنرالات العاديون أنفسهم في حالة حرب. وهو ينظر صراحة إلى المقولة بأن مناهج وأساليب القادة الاستثنائيين لا تفيد بمثابة نموذج يمكن أن يحتذي به نظراؤهم العاديون. وسأقف أيضاً على بعض الفروق بين ما يسميه المؤرخون بالحرب الشاملة والصراعات المحدودة. فقد دُهشت عندما تبين لي

أنّ هذين النمطين من الحروب لا يختلفان كثيراً في تحدّيهما الأساسي للقادة المدنيين كما يتوقّع المرء. فالظروف الصعبة بالغة التعقيد- بما فيها الحرب من أجل المحافظة على المصالح القومية الأكثر أهمية - تساعدنا في أن نرى بوضوح أكثر ما يمكن أن يفعله القادة العظام، بحيث تتكشف أمامنا معادنهم الثمينة. ذلك أن المرء إذا أراد أن يحصل على الحديد الأفضل جودة، فعليه أن يبحث عن الأفران الأشدّ حرارة.

الفصل الأول

الجندي ورجل الدولة

يظل اختيار كبار القادة من أكثر المسائل إرباكاً لسائر الهيئات والمؤسسات. وكثيراً ما تبحث تلك المؤسسات عمن يمتلكون خبرة عالية المستوى في مجالات مختلفة. فعلى سبيل المثال، سعت جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك لإقناع أعلى الجنرالات الأمريكيين رتبة، دوايت أيزنهاور Dwight Eisenhower، ليصبح رئيسا لها، بعد الحرب العالمية. واختار رونالد ريجان قطبا مالياً قوياً ليكون رئيسا لهيئة موظفي البيت الأبيض في عام ١٩٨٥. وفي بواكير تسعينيات القرن العشرين علق العملاق المتعثر، شركة « سيرز ريبك»، الأمل على قائد العمليات اللوجستية في حرب الخليج ليعيده إلى المسار الصحيح. وكثيراً ما تبوء عمليات الاختيار هذه بالفشل، حيث إنّ جميع المهارات والاستعدادات التي مكّنت شخصاً ما من النجاح في مجال محدد، قد يصعب تحويلها والاستفادة منها في مجال آخر، أو قد تتعطل تماماً في ذلك المجال. من الثابت أنّ قوانين السياسية تختلف عن قوانين المال والأعمال، كما أن الجامعات لا تسير على النحو الذي تسير عليه الشركات. وحتى في عالم الأعمال، قد تعمل شركات صناعة السيارات وشركات البرمجيات العملاقة بطرق مختلفة كل الاختلاف عن بعضها

البعض، كما أن صانع الأسلحة الخفيفة الذي ينتقل ليتولى إدارة شركة آيس كريم، قد لا يجد الاستقرار الكامل في بيئته الجديدة.

من المؤكد أن القادة في المستويات العليا يواجهون مهامّ متشابهة تقريباً، مثل تحديد الاتجاهات، واختيار المرؤوسين، ومراقبة الأداء، والتعامل مع الجمهور المستهدف، وغرس روح الإنجاز. كما أنهم يميلون في كثير من الأحيان إلى الاعتقاد بأن شخصاً ما في مجال آخر من مجالات الحياة قد يملك الإجابات الشافية لما يواجهون من مآزق، الأمر الذي يفسر انغماس الجنرالات في دراسة كتب الأعمال، وانكباب الرؤساء التنفيذيين على دراسة التاريخ العسكري. لكن تفاصيل عملهم تختلف كثيراً في الواقع، بحيث أنهم قد يغفلون عن أوجه الشبه، فلا تكتشف إلا بالبحث والتنقيب بصورة أعمق من المعتاد.

تقدم لنا العلاقة بين رجال الدولة والجنود في زمن الحرب حالة خاصة عن هذه الظاهرة. فالعديد من القادة الكبار يتعين عليهم في الحياة الخاصة إدارة مهنيين كبار أيضاً، أشخاص يمتلكون تجربة وخبرة قد تتضاءل أمامها خبرتهم. غير أن الساسة الذين يتعاملون مع الجنرالات في زمن الحرب يواجهون مصاعب استثنائية. هنا تصبح المخاطر عالية، وتتسع الفجوات في الفهم المشترك كثيراً، وتظهر الاختلافات في الشخصية والمحيط، على نحو صارخ. لدرجة أنّ التحديات تفوق كل شيء يوجد في القطاع المدني، ولذلك ربما تستحق هذه العلاقات أن نوليها اهتماماً كبيراً. لا من قبل المؤرخين ودارسي السياسات فحسب، بل أيضاً من قبل كل مهتم بالقيادة في أكثر جوانبها تعقيداً. ولكي نفهم كيف يستطيع رجال الدولة إدارة جنرالاتهم في وقت

الحرب، علينا أن نستكشف خصوصيات المهنة العسكرية والمناخات والقيم الاستثنائية التي تنتجها الحرب. إنها خصوصيات وظروف متفردة ومعقدة، وتترتّب عليها مواقف بالغة التعقيد، ولا يمكن أن يتوقّعها المواطن أو الجندي في زمن السلم، أو أن يقرّ حتى بوجودها في زمن الحرب.

دعوه يرافقني إلى مقدونيا

لمعرفة السبب وراء ذلك، دعوني أصحبكم إلى عام ١٦٨ قبل الميلاد. المكان هو مجلس شيوخ الجمهورية الرومانية، والموضوع المطروح هو اقتراح استئناف الحرب (للمرة الثالثة) على مقدونيا، والمتحدث هو القنصل لوشوس أميليوس Luccius Aemilius:

- أيها المواطنون، أنا لست واحدا من أولئك الرجال الذين يعتقدون، بأن القادة لا يحتاجون للنصح والمشورة. كلا، فأنا لا أصف مثل ذلك الرجل بالفاقد للحكمة فحسب، بل بالمتغطرس أيضا. إذ أنه ينفذ كل شيء من وجهة نظره فقط. ما الذي استخلصه من هذا إذن؟ على الجنرالات أن يقبلوا بالنصح والمشورة، أولاً: من الخبراء المتمرسين في الشؤون العسكرية ممن تعلموا من الخبرة ؛ ثم ثانيا : من أولئك الذين يوجدون في موقع الحدث، الذين يشاهدون الأرض والعدو ومدى تناسب وضعهم مع الحدث، والذين يعتبرون شركاء في تكبد المخاطر، بحكم وجودهم على نفس السفينة، إن جاز التعبير. وعليه، إذا كان ثمة من هو واثق من أنه سوف يقدم لي المشورة التي تخدم مصلحة

الأمة على أفضل وجه في هذه الحملة التي أوشك على بدئها، فلا يبخلن بتقديم خدماته للدولة، وليمض معي إلى مقدونيا، وسوف أوفر له من جانبي عبور البحر، وحصانا، وخيمة، وحتى أموالا للسفر. وإذا امتنع أي أحد عن فعل هذا، وفضّل الركون لراحة المدينة بدلاً من تكبد متاعب الحملة العسكرية، فعليه أن يتوقف عن إصدار توجيهاته إلى السفينة، وهو على الشاطئ. وحيث أن المدينة نفسها توفر موضوعات كافية للأحاديث، فلندعه يحصر ثرثرته في تلك الموضوعات، وليعلم أنني سوف اكتفي بالنصائح التي تقدم إلي من داخل المعسكر.

إن نداء هذا القنصل لإطلاق يده حرّة التصرف، ما هو إلا صدى نداءات مشابهة من كل الجنرالات على امتداد التاريخ. رغم أن المؤرخ ليفي Livy يذكر أن عدداً كبيراً وغير مألوف من الشيوخ قرّروا مرافقة القنصل في تلك الحملة العسكرية. مع ذلك فإن المطالبة بوجوب منح الجنرالات متى ما كُلفوا بمهمة ما، حرية تصرّف كاملة تقريباً، ما زالت قوية.

من التفسيرات الشائعة لحربي فيتنام والخليج، أن الأولى كانت صراعاً برز فيه تدخل المدنيين في تفاصيل الحرب كعلامة فارقة، والثانية تُقدم كأنموذج للإهمال العملياتي والتكتيكي المحدود من قبل قيادة مدنية مستنيرة. هذه التفسيرات تبدو وكأنها تؤكد على أهمية التمييز بين واجبات الجنود وواجبات المدنيين. وهكذا فقد علق رئيس الأركان الجنرال نورمان شوارتزكوف Norman Schwarzkopft، قائد القوات الأمريكية في جنوب غرب آسيا بقوله :

- لم يشكّك المدنيون قط في قرارات شوارتزكوف، وهذا ما يجب أن تسير عليه الأمور.

وعلى نحو مباشر أكثر، هنالك إعلان الرئيس جورج بوش الأب في ذلك الوقت، عندما استلم ميدالية جورج كاتليت مُشير من رابطة الجيش الأمريكي:

- تعهّدت ألا أرسل جنديا أمريكياً إلى القتال بيد مغلولة خلف ظهره. لقد قمنا بالعمل السياسي، وأنتم قاتلتم على نحو رائع.

لا غرابة إذن في أن يكتب محرر مجلة الكلية الحربية للجيش الأمريكي:

- ستكون هنالك حالات، يجد فيها مسؤولون مدنيون ممن يحملون عُقد نابليون وعقليات مغرقة في إدارة التفاصيل، أنهم مندفعون لتولي زمام السيطرة العملياتية. وبعد إحكام السيطرة، ستأتي أزمنة يبدؤون فيها بالتخبط في اتجاه الكارثة. وعندما توشك على الحدوث، على أعلى جندي في البلاد، أن يستجمع شجاعته ليخاطب سادته المدنيين قائلاً: «لا يحق لكم أن تفعلوا ذلك!» ثم يتقدّم إلى مركز اتخاذ القرار ليريهم كيف ينبغي أن تنجز المهمة.

هذا النوع من الأفكار عن دور المدني ودور الجندي هو حالة من حالات المفاهيم الشعبية أيضا. فالفيلم السينمائي «يوم الاستقلال» Independence Day المنتج في عام ١٩٩٦، على سبيل المثال، يُبرز شرّيراً واحداً فقط هو وزير الدفاع المتغطرس وهو يحاول بمفرده توجيه

الهجوم المضاد الذي يقوم به الجيش الأمريكي ضد الغزاة من الفضاء الخارجي. وبعد إبعاد المدني المختال عن الطريق، فقط الرئيس، وهو طيار سابق من سلاح الجوّ، هو من استطاع أن يعود لقيادة معركة جوية حاسمة، ويتمكّن مساعدوه العسكريون (بمساعدة عالِم مدني يقوم بدور فني محض) من إلحاق الهزيمة بالعدو.

إلى هذا الإجماع المريح لرأس المال والعسكر وهوليوود، يستطيع أن يضيف المرء ثقل النظرية الأكاديمية. ففي الكتاب الكلاسيكي «الجندي والدولة» The Soldier and the State وضع صموئيل هنتنجتون Samuel Huntington، وهو أعظم عالم سياسة أمريكي في عصرنا، ما أسماه نظرية «السيطرة الموضوعية» التي يرى فيها أن الشكل الأكثر صحة وفاعلية من أشكال السيطرة المدنية على العسكر، هو ذلك الذي يرفع من مستوى المهنية إلى أقصى حدّ، بعزل الجنود عن السياسة، وإطلاق أيديهم قدر ما أمكن في المسائل العسكرية.

النظرية السائدة في العلاقات بين المدنيين والعسكريين

نستطيع أن نسمي هذا الإجماع بالنظرية «السائدة» للعلاقات بين المدنيين والعسكريين، وهي تنصّ على ما يلي:

- الضباط أناس مهنيون، كالجراحين المدرَّبين تدريباً عالياً، أما رجل الدولة فهو في موقع المريض الذي يتطلب علاجاً عاجلاً. لهذا، صار للمريض مطلق الحرية في اختيار ما إذا كان يريد أن يخضع لعملية جراحية أم لا، وله أن يختار طبيباً معيناً وأن يرفض آخر، بل قد يتخذ قراراً بشأن الخيارات الجراحية

المتاحة، رغم أنّ ذلك نادر الحدوث. لكن لا يجوز له، أو على الأقل لا ينبغي له، أن يشرف على العمل الجراحي أو أن يختار مشرط الجراحة، أو أن يعيد ترتيب غرفة العمليات حسب مزاجه الشخصي. بل يُنصح حتى المريض الذي يدرس الطبّ، ألا يفعل ذلك. والواقع أنّ طبيبه سيتضايق منه لو فعل ذلك، حتى ولو كان زميله في المهنة. النتيجة هي درجة محدودة من السيطرة المدنية على المسائل العسكرية. فطرح الكثير جداً من الأسئلة (ناهيك عن إصدار الأوامر) حول التكتيك، أو قطع معينة من العتاد، أو تصميم الحملة، أو معايير النجاح، أو ممارسة ضغط شديد من أجل ترقية، أو استبعاد أي شيء سوى كبار الضباط، يعتبر من قبيل العبث والتدخل غير الملائم، وقد يشكل خطورة لا مراء فيها.

ومن المفارقات أن رجال الدولة من المحاربين العظام يفعلون هذه الأشياء غير السليمة، والأهم أنهم ينجحون عندما يقومون بذلك. يبحث هذا الكتاب سيرة أربعة من عظماء قادة الحرب : أبراهام لنكولن وجورج كليمنصو ونستون تشرشل وديفيد بن غوريون. وقد تولّوا الحكم مدداً ليست بالقصيرة، وحكموا أنواعاً مختلفة من الكيانات الديمقراطية. يشترك هؤلاء الساسة الأربعة فيما يكفي لعقد المقارنة بينهم، ولكنهم مع ذلك يختلفون بالقدر الذي يُظهر خواص مختلفة لمشكلة العلاقات بين المدنيين والعسكريين في زمن الحرب. وبما أن الكتاب يعالج أطروحته من وجهة نظر أمريكية، فقد كان من المنطقي أن يأتي واحد منهم فقط، من صفحات التاريخ الأمريكي.

قاد لنكولن وكليمنصو وتشرشل وبن غوريون أربعة أنواع مختلفة جداً من الديمقراطيات، تحت أصعب الظروف التي يمكن أن يتخيلها المرء. وجاء أربعتهم، بما لديهم من خبرات شخصية متباينة، من تقاليد مختلفة فيما يتعلق بنمط العلاقات بين المدنيين والعسكريين، وتعاملوا مع أطياف مختلفة من المرؤوسين والنظراء. كما أنّ طبيعة الديمقراطية الخاصة بكل منهم، أثّرت في طبيعة القيادة التي مارسوها وكانت مطلوبة منهم. ومع ذلك، فقد واجهوا الكثير من الظروف المتشابهة. فمؤسسات الصحافة الحرّة إلى حدّ ما والهيئات التشريعية، حدّت كثيراً من سلطاتهم. كما كان عليهم التعامل مع جماهير يؤثر مزاجها وميولها على تصرّفاتهم بشكل مباشر. وبحكم القوة التي اتصف بها كل منهم، كان عليهم أن يضعوا في اعتبارهم إمكانية أن تؤدّي طريقة إدارتهم للحرب إلى إسقاطهم من السلطة عبر القنوات الدستورية، أي المدنية. وفي الوقت نفسه، لم يكن عليهم أن يخشوا انقلاباً عسكرياً عنيفاً في تعاملهم مع العسكر. غير أنّ المعارضة العسكرية لهم يمكن أن تترجم، وقد ترجمت فعلاً، إلى أشكال مختلفة من المعارضة السياسية، وكان يمكن أن تطيح بهم في بعض الأحيان.

شهدت الفترة التي تتم تغطيتها هنا، وهي اقل من قرن بقليل، تطوّر نوع مميز من فنون الحرب، يسمى أحياناً «الحرب الشاملة»، وإن كانت التسمية الأكثر دقة هي «الحرب الصناعية»، حيث يعتمد النصر فيها إلى حدّ كبير على مدى الحصول على الأسلحة المصنوعة على نطاق واسع (من خلال الإنتاج أو الاستيراد). وفي الوقت نفسه، لم يكن يتعين على هؤلاء القادة التعامل مع أحد التحديات المتميزة

للفترة الاستراتيجية اللاحقة، أي أسلحة الدمار الشامل. ومما يثير الاهتمام أن تشرشل هو الذي أدرك في فترة مبكرة جداً، الطبيعة المتناقضة للسلام الناتج عن الرعب النووي، وأن بن غوريون هو الذي وضع الأساس للبرنامج النووي الإسرائيلي، في وقت كانت فيه القوة التقليدية الإسرائيلية تسير نحو التحسّن على المدى البعيد.

أدار رجال الدولة الأربعة حروبهم في أثناء ما يمكن اعتباره أول ثورة اتصالات، وذلك عندما أصبح من الممكن إيصال كميات مفيدة من المعلومات على الفور تقريباً، وتحريك أعداد كبيرة من الرجال والعتاد الحربي بسرعة عالية بالاستفادة من وسائط النقل الميكانيكي. وإذا كان حاصل ضرب السرعة والكتلة هو كمية الحركة (الزخم) في الفيزياء، فإن الأمر نفسه ينطبق على الحرب. وهكذا كان على هؤلاء الرجال إدارة الحرب عندما أخذت أدوات الصراع نفسها تتغيّر وتكتسب مزيداً من السرعة. يمكن القول إن ثورة اتصالات ثانية تداهمنا الآن، حيث تزداد كمية المعلومات التي يمكن توزيعها عالمياً، وسوف يعمل الدور الذي تلعبه تلك المعلومات في كافة أوجه الحياة المدنية على تغيير المجتمع مرة أخرى، ومن ثم تغيير سمات إدارة الحرب. وبالتالي تعرض تلك الحالات الأربع مشكلات القيادة في زمن الحرب خلال فترة تشهد تغيراً هائلاً. من خلال فهم تحديات هذه الأزمنة، يمكننا أيضا تكوين فهم أفضل لطبيعة التغيّرات التي تداهمنا اليوم، في عصر يبدو مختلفاً تماماً. فالمشكلات الأساسية لفن الحكم التي تواجه قادة اليوم لم تتغير بالشكل الذي يتخيله المرء. وتلك أمور سأستعرضها في خاتمة هذا الكتاب.

يبقى أن نقول إن اختلاف أزمنة هؤلاء السياسيين لا ينفي ارتباط بعضهم ببعض باحترام عميق. فقد زار كليمنصو الولايات المتحدة بعد الحرب الأهلية وعبر عن إعجابه الشديد بلنكولن؛ وأشاد تشرشل بكليمنصو وترسم خطاه في الخطابة (لحدّ الانتحال) في أكثر من مناسبة. وعبّر بن غوريون عن تقديره لقيادة تشرشل في مذكّرة كتبت قبل عدة سنوات من وفاة الأخير، وخاطب فيها عملاق مسنّ الآخر بالقول: «لم تنقذ فقط، حريات وشرف شعبك».

هكذا نرى أن ما يربط هؤلاء الأربعة خيط رفيع ولكنه محدد وشخصي، وليس نظرياً فقط. إن أوجه التشابه والتمايز بينهم جديرة بالتحليل. فثلاثة منهم (كليمنصو وتشرشل وبن غوريون) قد أخذوا بمقاليد القيادة العليا في سن متقدمة، واثنان منهما كان إعدادهما يسيراً لخوض حرب واسعة النطاق (لنكولن وكليمنصو، والأمر قد ينسحب أيضاً على بن غوريون). وقد أظهر كل منهم، وبطرق مختلفة، خصالاً متشابهة من القسوة، والغوص في التفاصيل والافتتان بالتقنية. كان أربعتهم قادة عظماء درسوا الحرب وكأنها حرفتهم، وامتلكوا ناصيتها بطرق شتى كما فعل جنرالاتهم. كما أنهم جميعاً وجدوا أنفسهم محاصرين في صراع مع العسكر.

عندما يقرأ المرء مدوّنات المشادّات الغاضبة بين بن غوريون عام ١٩٤٨ ورئيس أركان قوات الدفاع الإسرائيلية الفعلي، ييجال يادين، وهو عالم آثار عمره ٣٢ عاما لم يسبق له أن خدم في أي جيش نظامي، فإنه يجد أنها لا تختلف كثيراً عن المشادّات العاصفة بين ونستون تشرشل ورئيس هيئة الأركان الملكية المتجهّم المُشير ألان بروك، الذي

يكبر يادين بخمسة وعشرين عاماً، والذي أمضى حياته المهنية كلها، مرتدياً البزة العسكرية. وبسبب كل هذه الفوارق في الخلفيات، فإن هؤلاء الأربعة (المحامي المنعزل والطبيب الفرنسي المبارز الذي تحوّل إلى صحفي والارستقراطي الماكر والاشتراكي اليهودي المتشرد المعوز) وجدوا أنفسهم في مآزق مشابهة: يعجبون بجنرالاتهم ثم يفقدون الأمل فيهم، ويشجعون البعض ويصرفون الآخرين، ويراقبون الأفضل بحب يشوبه الحذر دائماً.

الحرب ليست مجرد عمل من أعمال السياسة إنما هي أداة سياسية حقيقية

لو قدّر لهؤلاء الأربعة أن يكون لهم مستشار عسكري واحد، لربما كان بلا شك المستشار كارل فون كلاوزفيتز Carl von Clausewitz، أعظم المنظّرين العسكريين، والذي صار كتابه «عن الحرب» On War نصّاً معيارياً للاستراتيجيين الطموحين، إلى يومنا هذا. وفقاً لهذا الجنرال البروسي، الذي أمضى معظم شبابه في الخدمة الفعلية وهو يحارب الثورة الفرنسية ونابليون، تعتبر محاولة فصل عمل الساسة عن عمل الجنود، مهمة بلا أمل. ولهذا السبب، رفض في بواكير القرن التاسع عشر النظرية «السائدة». ولكي نفهم على أعمق مستوى لماذا لم يفوّض هؤلاء الساسة واجب خوض الحرب إلى الجنرالات، على المرء أن يرجع إلى مقولة كلاوزفيتز الشهيرة وهي أن الحرب مجرّد استمرار للسياسة بوسائل أخرى. لكنه كان يقصد بذلك شيئاً أكثر جذرية مما يُعتقد على نحو شائع.

- لذا فإننا نرى أن الحرب ليست مجرّد عمل من أعمال السياسة، إنما هي أداة سياسية حقيقية، أي استمرار للخطاب السياسي، يجري تنفيذه بوسائل أخرى.

الجزء الأول من الجملة وهو « ليست مجرد عمل من أعمال السياسة» يلقي الضوء على الجزء الثاني ويشرح الطبيعة الجذرية للحرب. ووفقا لكلاوزفيتز، ليس هنالك مجال من مجالات العمل العسكري يخلو من الاعتبارات السياسية. ففي الممارسة العملية، قد لا تحدّد السياسة مكان المتاريس أو تسيير الدوريات، ولكنها قد تفعل ذلك نظرياً. (وربما يضيف المرء «بأنّ السياسة قد تفعل ذلك في زمان سي إن إن»). ورغم أن كلاوزفيتز يدرك تماماً أن الحرب قد تنفلت من عقالها لتطيح بالعقلانية السياسية - من خلال إذكاء شهوة سفك الدماء، أو بسبب صعوبة تحقيق الأهداف، وهو ما يسميه بالاحتكاك - فإنه ذهب إلى أن كل النشاط الحربي ينطوي على نتائج وتداعيات سياسية محتملة، ولذلك ينبغي بذل كل ما في الوسع لتطويع الحرب لخدمة أهداف السياسة.

وهكذا، فإن فكرة كلاوزفيتز لا تنسجم مع المبدأ الاحترافي المتضمن في النظرية «السائدة» عن العلاقات بين المدنيين والعسكريين. فإذا كانت هناك نتائج سياسية لكل وجه من وجوه الحياة العسكرية، وإذا لم يكن المرء يستطيع أن يجد ملاذاً من السياسة في كافة مستويات الحرب (بالقول مثلاً إن «الاستراتيجية الكبرى» تخضع للنفوذ السياسي، لكن «الاستراتيجية العسكرية» لا تخضع له) فستصبح العلاقات بين المدنيين والعسكريين مثيرة للمشاكل. فصيغة كلاوزفيتز

عن العلاقات بين المدنيين والعسكريين تتيح لرجل الدولة أن يقحم نفسه في أي جانب من جوانب صنع الحرب، رغم أنه من غير الحكمة في العادة أن يفعل ذلك.

ذلك أنه في أغلب الأحيان يفتقر القادة السياسيون إلى المعرفة أو الحكمة الكافية للتدخّل في قرار تكتيكي، علماً بأن معظم أحداث الحرب ليس بها سوى القليل من الدلالات السياسية، وقد تفتقر إليها تماماً. لكن وفقاً لوجهة نظر كلاوزفيتز لا يمكن أن يكون هناك خط اعتباطي يفصل بين المسؤولية المدنية والمسؤولية العسكرية، كما لا يوجد خط واضح يرسم مجالاً محدداً للعمل العسكري.

- عندما يتحدث الناس، كما يفعلون عادة، عن التأثير السياسي الضار في إدارة الحرب، فإنهم في الواقع لا يقولون ما يعنونه فعلاً، فشجارهم يجب أن يكون في الأصل مع السياسة نفسها، لا مع تأثيرها. وإذا كانت السياسة صائبة، أي ناجحة، فلا بد أن يكون أي تأثير من تأثيراتها المقصودة على سير الحرب في خدمة المصلحة العامة .

وتدفع الطبيعة السياسية للحرب، الفكر الكلاوزفيتزي لهذه النتيجة دفعاً، تماماً كما تفعل الطبيعة الغريبة للاحتراف العسكري. فالخصائص الغريبة لهذه المهنة (انظر الملحق المعنون «نظرية السيطرة المدنية») تمنح صلاحيات إضافية للسياسيين أكثر مما هو معتاد بين العملاء أو أصحاب العمل في المهن الأخرى. وتعيين وطرد الجنرالات هو أحد هذه النشاطات.

نادراً ما يقود الجنرالات في سابق حياته المهنية، قوات بحجم التي تخصّص لهم عند اندلاع الصراع، ومن ثم فإن كفاءتهم تكون غير مثبتة في الغالب. وكثيراً ما يقع على القيادة السياسية تحديد كفاءة القادة العسكريين - بل مهارتهم التكتيكية الضيقة في الواقع - في مواجهة المعلومات الملتبسة، إذ ليس كل الجنرالات المهزومين غير أكفاء. علاوة على ذلك، كثيراً ما يحدث أن يفشل الجنرالات الذين يفلحون في نوع ما من العمليات فشلاً ذريعاً في نوع آخر. كما أنّ القائد الهجومي قد يفتقر إلى مهارات رفاقه الأشاوس القادرين على تنفيذ مهمات دفاعية، أو إلى مهارات زملائه الأكثر لباقة في التعامل مع الحلفاء.

ومن المعتاد أن يطرد المدّعون محاميهم بين حين وآخر في الدعاوى القضائية، وأن يبحث المرضى عن أطباء جدد، والشركات عن مهندسين آخرين. بيد أنّ مشكلة اختيار قيادة عسكرية تعتبر الأكثر تعقيدا على الإطلاق. فهذه المشكلة ليست فقط أكثر انتشاراً (معظم المرضى لا يطردون أطباءهم في النهاية، وحتى لو قرروا ذلك، فإنهم عادة ما يصلون إلى هذا القرار في وقت متأخر جداً)، لكن مشكلة اختيار القيادة العسكرية تغطي في أحيان كثيرة مجالاً أوسع بكثير. فبدلاً من اختيار محترف واحد أو شركة واحدة للقيام بالمهمة، على الساسة أن يختاروا العشرات منهم. وهم في العادة لا يدرون أن الرجل التالي الذي يختارونه سيكون أفضل من سابقه، لأنهم جميعاً يفتقرون إلى الخبرة في أداء المهمة الموكلة إليهم. وفي العادة لا يوجد خبير

معروف يحمل سجلاً مثبتاً في إدارة العمليات العسكرية المعقّدة ضد عدو فاعل، إلا بعد خوض معارك طويلة.

هناك القليل في الحياة المدنية مما يماثل مشكلات الروح المعنوية وعدم الانسجام السياسي المحلي على النحو الذي يزعج السياسي فيقرر طرد جنرال من الخدمة. فمن المفهوم في الحياة اليومية بأن العملاء يتحمّلون عبء تعيين المحترف، لكن في عالم الحرب، يصبح الجنرالات شخصيات سياسية شبه مستقلة ولها وزنها. فالجنود ليسوا فقط أدوات محايدة في يد الدولة، وإنما محاربون، وفي وقت الحرب يحظى الجنود بالاحترام والإعجاب. معظم الجنرالات يعرفون ذلك، والكثير منهم يحمل من المشاعر الإنسانية ما يكفي للتصرّف على هذا النحو. في زمن الحرب نادراً ما ينقطع القادة العسكريون الكبار عن مستويات السياسة العليا، بل أنهم في الواقع يختلطون بالمشرّعين والصحفيين وكبار المسؤولين في الدولة (أكثر مما يفعلون ذلك في زمن السلم)، فيظهرون على الصفحات الأولى للصحف ويُكرّمون من قبل وجهاء المجتمع، وقد يحاولون أيضا إضعاف رؤسائهم الاسميين في منتديات الرأي العام. في المقابل، قد لا يهتم المحامي أو الطبيب المطرود من الخدمة بانتهاز مثل هذه الفرص.

غير أن المسؤولية الرئيسية للسياسي في الحرب لا تقتصر على اختيار الجنرالات وإعفائهم فحسب، ولا على الإفصاح عن الأهداف أو تخصيص الموارد (كما توحي بذلك المراجع العسكرية). فقد يجد السياسي أنه يدير التحالفات العسكرية، ويقرر طبيعة المخاطر المعقولة، ويؤثّر في الخيارات العملياتية، ويعيد هيكلة المؤسسات العسكرية.

في أثناء الحرب العالمية الثانية على سبيل المثال، وجدت حكومة الحرب البريطانية أن من واجبها اتخاذ قرارات حول أمور صغيرة مثل تحديد سرعة السفن العابرة للمحيط الأطلسي بثلاث عشرة عقدة أو خمس عشرة، والسبب هو أنه على الرغم من أنّه في وسع مستشاريها البحريين أن يوضحوا مزايا وعيوب كل قرار، فإن افتراض تعرض الخط الحيوي الذي يربط بريطانيا بالعالم الخارجي للخطر، كان يتطلب قراراً سياسياً.

لنأخذ حالة كاشفة أخرى، ففي يونيو ١٩٤٣ كان إدخال نظام تشويش الرادار «ويندو» لمساعدة القاذفات البريطانية في اختراق ألمانيا أو عدمه، من الخيارات التي على رئيس الوزراء اتخاذ قرار بشأنها. وكان سلاح الجو الملكي منقسما على نفسه، حيث أيّدت قيادة القاذفات هذا التدبير، غير أن المسؤولين عن الدفاع الجوي عن بريطانيا العظمي الذين توقّعوا أن يقوم العدو بتقليد هذه الخطوة، كانوا يخشون من أن يفقدوا في غضون نصف سنة القدرة على الدفاع عن الأجواء في الليل ببريطانيا.

هنا نقول للمرة الثانية أنّ توازن المخاطر اقتضى قراراً سياسياً. وفي كلا الحالتين، وغيرهما، كان على الساسة الإجابة عن أسئلة مهمة، ليس فقط بسبب نطاق القضية الموضوعة على المحكّ، ولكن لعدم اتفاق أصحاب الاختصاص المحترفين بشأنها. فالقادة العسكريون ينقسمون بحدّة في الغالب بشأن المسار الأفضل لا لاختلاف وجهات نظرهم فحسب، ولكن لخلفياتهم المهنية أيضاً. فقد كان على بن غوريون، على سبيل المثال، أن يلعب دور الحكم بين نخبة البالماخ الاشتراكيين الناشئين

داخل الوطن وبين قدامي المحاربين في الجيش البريطاني. وكما ذكر ستيفن روزن Stephen Rosen، يمكن فهم المؤسسات العسكرية، ليس فقط من خلال النظر إليها بمثابة مؤسسات محترفة، ولكن باعتبارها مجتمعات سياسية تتصارع في الداخل حول مسائل جوهرية: «إنها هي التي تقرر من سيحيى ومن سيموت في زمن الحرب وكيف، ومن سيكرم ومن سيجلس على الهامش عندما تبدأ الحرب».

في كل الحالات الأربع التي نقف عليها هنا، وقع جدال قليل بشأن خضوع الجنود للسيطرة المدنية. لكن ثمة تيار تحتي عميق من عدم الثقة المتبادل متعايش مع ذلك الخضوع، أي قبول شرعية السيطرة المدنية. أما في الممارسة الفعلية، فكثيراً ما يجد الجنود ورجال الدولة أنفسهم في أثناء الحرب في علاقة تعاونية متوتّرة يشوبها الصراع، ويكون للمدني عادة فيها اليد العليا (في الديمقراطيات على الأقل). وهو صراع غالباً ما يتفاقم بسبب الاختلافات في الخبرة ووجهة النظر التي تنتجها الحياة السياسية والعسكرية. وهذه الاختلافات ليست أيديولوجية بالضرورة، ولكن مزاجية وثقافية أيضاً.

<u>لهذا الرجل أيضا فمٌ واحدٌ ويدٌ واحدة</u>

توضح ذلك مذكرات اثنين من الجنود تحولا إلى ساسة. كان آرييل شارون، رئيس وزراء إسرائيل عند طباعة هذا الكتاب، يرتدي البزة العسكرية في كافة حروب إسرائيل في الأعوام ١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣، ولكنه أصبح في النهاية، في عيون الكثير من أبناء بلاده، وغدا مدنياً على رأس وزارة الدفاع في أثناء حرب عام ١٩٨٢ في لبنان.

تُظهر مذكراته جوهر شكوك الجنرال في الساسة وتعرض (ربما بشكل مخادع) دهشته الشخصية من ارتياد عالم السياسة. يقول في تأملاته عند التحاقه لأول مرة بالبرلمان الإسرائيلي، الكنيست :

- الحياة العسكرية نضال دائم، شأنها شان السياسة. ولكن ثمة قواعد معينة على الأقل رغم كافة المصاعب والمرارة التي قد تنشأ. في السياسة لا توجد قواعد، ليس هنالك حس بالتناسب، وليس هنالك تراتبية تنمّ عن حكمة. العسكري الإسرائيلي الذي يضع قدمه في هذا العالم الجديد قد شهد في أغلب الظن انتصارات عظيمة، وذاق هزائم رهيبة أيضاً. تعرّض للحظات من الفرح ولحظات من الحزن العميق. إنه يعلم ما الذي يعنيه أن يكون واثقاً من نفسه إلى حد الإلهام. لكنه عانى من الخوف العاصف والهلع العميق، أيضاً. وقد اتخذ قرارات تتعلّق بالموت والحياة، تخصه وتخصّ الآخرين. يدخل الشخص نفسه عالم السياسة ليجد أن لديه فماً واحداً يتحدث به ويداً واحدة يصوت بها، تماماً مثل الرجل المدني الذي يجلس إلى جواره. ولعل ذلك الرجل لم يشهد في حياته إي شيء دراماتيكي أو خارج عن المألوف. إنه لا يفهم أي شيء عن الارتفاعات أو الأعماق، ولم يختبر نفسه أو يتخذ قرارات مهمة، أو يتحمل مسئولية عن حياته أو حيوات رفاقه. ومع ذلك فان لهذا الرجل، على ما يبدو أيضا، فماً واحداً ويداً واحدة.

وقد التقط شارل ديجول، قبل ذلك بأكثر من نصف قرن، هذه الفوارق الأساسية بشكل لا يقل قوة :

- كثيراً ما يعتبر الجندي رجل السياسة أنساناً لا يُعتمد عليه، ومتقلّب المزاج، ومحبّاً للأضواء. فالمزاج العسكري، بما جبل عليه من طاعة الأوامر، يندهش بعدد الادّعاءات التي لا بد لرجل السياسة من الانغماس فيها. وكذا الانحرافات والتقلّبات المشحونة بالعاطفة، والقلق المهيمن عند انتظار النتائج، والسمت الذي يوحي بوزن الآخرين بناء على ما لهم من سلطة أكثر بما عندهم من كفاءة. كل هذه الخصائص لا بد من وجودها في المدني الذي تقوم سلطته على الإرادة الشعبية، وهي لا تكون إلا مصدر قلق للجندي المحترف الذي عركته حياة الواجبات الصعبة وجحود الذات وإظهار الاحترام التام للخدمات التي يقوم بتقديمها. على عكس ذلك، فإن الولع بالنظام، والثقة بالنفس، والصرامة التي غرست في الجندي نتيجة للقيود المطوّلة، تبدو مزعجة وفاقدة للجاذبية بالنسبة للساسة. وكل شيء مطلق وإلزامي وغير قابل للأسئلة في القانون العسكري، يعتبر غير مستحب لأولئك الذين يعيشون في عالم الحلول التقريبية والجاهزة والدسائس المتواصلة والقرارات القابلة للنقض في أي لحظة.

ويمضي ديجول إلى القول بأن هذا التباين يوضح تفضيل الساسة في زمن السلم للقادة العسكريين اللطفاء ممن يسهل انقيادهم، والذين كثيراً ما يجري استبدالهم لحظة اندلاع الحرب. هنا يكمن جوهر الحقيقة، مع أخذ فوارق الزمن والجنسيات، في الحسبان.

غير أنّ السيطرة النهائية للقائد المدني طارئة، وهشّة في غالب الأحيان. يلازمها دائماً افتقار المدني للخبرة التي تراكمت لدى القيادة العسكرية العليا، مما يجعله أيضاً عديم القدرة على اتخاذ القرارات الكبرى في الحرب. بالنسبة للسياسي، يعتبر إملاء العمل العسكري ضرباً من الحماقة في الغالب الأعمّ. ومن ثم فإن العلاقات بين المدنيين والعسكريين عبارة عن حوار لأطراف غير متكافئة، مما يجعل مدى تدخل المدنيين في الشؤون العسكرية مسألة اجتهاد لا مسألة مبدأ، لأنّ المبدأ يفتح كل مجال العمل العسكري للتدقيق والتوجيه المدني. وقد لاحظ ونستون تشرشل - ولعله أعظم القادة قاطبة - في تأملاته عن الحرب العالمية الثانية أن :

- من الصواب دائما أن ندقق.

<u>الذكاء البشري وقابليته المدهشة لارتكاب الأخطاء</u>

العبارات التالية لشخصية عسكرية خيالية:

- هل تذكرون ما قاله كليمنصو عن الحرب؟ قال: إن الحرب أخطر من أن تترك للجنرالات.

ربما كان على حق عندما قال ذلك قبل خمسين عاماً. غير أنّ الحرب اليوم أعلى شأنا من أن تترك للساسة أيضاً. فليس لديهم الوقت ولا التدريب ولا الميل نحو الفكر الاستراتيجي.

يشك المرء في أن تجد الكلمات السابقة قبولاً، إلا عند قلة من الممارسين ومراقبي العلاقات المعاصرة بين المدنيين والعسكريين، إلى

أن يدركوا أن قائلها هو العميد شبه المخبول جاك د. ريبرز، في فيلم ستانلي كوبريك Stanley Kubrick «الدكتور سترينج لوف أو: كيف تعلمت أن أتوقف عن القلق وأحب القنبلة» Dr. Strangelove or: How I Learned to Stop Worrying and Love the Bomb How i.

هنالك القليل، فيما لو وُجِدوا أصلاً، من أمثال العميد ريبرز في المؤسسة العسكرية الأمريكية، غير أنّ هذه المشاعر موجودة بالتأكيد ويتقاسمها معهم بعض الساسة. وقد كتب سكوت كوبر، وهو نقيب في مشاة البحرية لم يستسغ أفكار الجنرالات:

- الفكرة بأنّه من غير اللائق للقادة المدنيين أن يُقحموا أنفسهم في تفاصيل العمليات العسكرية، فكرة منتشرة بين العسكر، إلا أنّها فكرة مضللة.

إن الجنرالات والساسة الذين يتشبثون بالنظرية «السائدة»، إنما يفعلون ذلك لأسباب مفهومة. وهنالك الكثير مما يمكن أن يقال دفاعاً عن هذا الموقف. فالنظرية «السائدة» ترسّخ اعتقادنا في وجود «أسلوب عسكري» مميّز، كقانون ملزم وإن كان يبدو غير مناسب للعصر نوعا ما، يمكن أن يتمثّله معظم الضباط. هنالك قيم عسكرية تختلف في الواقع عن القيم التي يتميز بها المجتمع المدني، مثل نكران الذات، والإيثار، والولاء، والشجاعة بطبيعة الحال. ومن ثم فإن تهميش هذه الفوارق، أو إهمال أهميتها لا يعتبر طيشا فحسب، بل أمراً مدمراً للفاعلية العسكرية.

ولا ينبغي للمرء أن يلقي جانباً قيمة الحياد السياسي التي اكتسبت مزيداً من الأهمية في زمن يدعم فيه الساسة كبار موظفيهم السياسيين بالضباط، سواء كان ذلك في كابتول هيل أو في البيت الأبيض. غير أنّ النظرية «السائدة» تخطئ في إصرارها على الأساس «المبدئي» لا «التبصّري» لامتناع المدنيين عن الاستفسار عن العمل العسكري والتدقيق فيه، بل إملائه في الحالات القصوى. وهي في حدودها القصوى، تعفي الساسة من المسؤولية الحقيقية عن أخطر التحديات التي يمكن أن تواجه البلاد، وتنزع واجب الإشراف والمراقبة عمن يتطلّب عملهم القيام به.

الواقع أن القدرة المدهشة للذكاء البشري على ارتكاب الأخطاء، هي وحدها التي تفسّر رأي المَراجع البارزين الذين رغم إقرارهم بدور الساسة في الإعداد للحرب ووضع الخطط الأولية، يستبعدون احتمال أن تؤثّر السياسة على الاستراتيجية العسكرية متى ما اندلعت الحرب.

- إن السياسة التي تتخلى عن الاحتفاظ بسلطتها في قيادة حرب ما، وتقرّ بتفوّق الاختصاصيين العسكريين وتنصاع لمتطلباتهم بصمت، هي سياسة تقرّ بإفلاسها الذاتي.

تلك هي كلمات مفكّر استراتيجي روسي فذّ راح ضحية التطهير الستاليني، وكان قد انكبّ على دراسة الكارثة التي حلّت ببلاده وبقية أوروبا في أثناء الحرب العالمية الأولى، وخلص إلى أن ذلك يرجع جزئياً إلى السيطرة المدنية الخاطئة على العمليات العسكرية.

ما سبق ليس رأياً شائعاً أو حتى مقبولاً لدى معظم الناس. فقد

كتب القائد الأعلى الأسبق للقوات المتحالفة في الأطلسي، الأدميرال هاري ترين Harry Train، تحليلاً لحرب جزر فوكلاندز عام ١٩٨٢ يقول فيه :

- عندما تتولّى القيادة السياسية المسؤولة الدور العسكري في تحديد الكيفية التي تنجز بها القوات المسلحة واجباتها، تواجه البلاد مشكلة».

وعلى عكس ذلك، تواجه البلاد مشكلة عندما يتخلّى الساسة عن دورهم في اتخاذ تلك القرارات. وقد قال مراقب حكيم من جيل سابق وهو يتأمل كارثة فيتنام ودور المدنيين الضعاف والقيادة العسكرية الخالية من الإبداع في حدوثها :

- يجب ألا ترخي اليد المدنية قبضتها، بل عليها، من دون أدنى تردد، إحكام سيطرتها التي كفلها لها الحقّ بشكل دائم.

تحدثنا من قبل عن النظرية، وسننتقل الآن إلى الممارسة.

الفصل الثاني

لنكولن يبعث برسالة

في ٣٠ أبريل ١٨٦٤ كتب أبراهام لنكولن رسالة إلى يوليسيس جرانت Ulysses S. Grant، القائد العام الذي اختاره أخيراً لقيادة الحملة التي قدّر لها أن تقضي على قوات الكونفدرالية بعد سنة واحدة من تعيينها.

- لا أتوقع أن أراك مرة أخرى قبل بدء حملة الربيع، لذلك أرغب في أن أعبر لك بهذه المناسبة عن رضاي التام، استناداً إلى ما أنجزتَه حتى الآن. لا علم لي بتفاصيل خططك ولا أرغب في معرفتها. أنت يقظ وتعتمد على نفسك، وأنا سعيد بذلك، ولا أرغب في فرض شروط أو قيود عليك. ومع ذلك فإن أي كارثة كبيرة، أو أسر عدد كبير من جنودنا، أمران يجب تجنبهما. وأدركُ بأن مثل هذه الأمور لا يمكن أن تغيب عن تفكيرك مثلما هي لا تغيب عن بالي. إن كان هنالك شيء ينقصك وفي مقدوري أن أوفره لك، فكلي أمل ألا تتردد في إشعاري به. وكما تعرف حق المعرفة، نحن نتمتع بجيش شجاع وقضية عادلة، وأسأل الله أن يحفظكم ويرعاكم.

مثل الكثير من رسائل لنكولن، اشتهرت هذه الرسالة وذاع صيتها لبساطتها البليغة. وكما هو معروف من حال الزعيم نفسه، فإنها تبدو لنا مخادعة جداً. إذ أن رسائل لنكولن لقادته العسكريين تُظهر أنموذجاً لعقلٍ يتمتع بدهاءٍ ومكر. وعند دراستها ومعرفة الرجل الذي يقف وراءها، يرى المرء أنموذجاً لقيادة حربية تتظاهر بتجاهل التفاصيل العسكرية، كما في وعده لجرانت، بينما هي منغمسة في التفاصيل إلى أقصى حد.

وبالرغم من ذلك، لم يتبنّ المؤرخون هذا التفسير لسنوات طويلة. هناك اثنان من الكتب الأكثر شهرة عن لنكولن، باعتباره القائد الأعلى، هما كتاب ت. هاري وليامز T. Harry Williams «لنكولن وجنرالاته» Lincoln and His Generals وكتاب كينيث ب. وليامز Kenneth P. Williams، وهو كتاب كبير الحجم وغير مكتمل « لنكولن يعثر على جنرال» Lincoln Finds a General دعما الرأي القائل بأن إنجاز لنكولن الأساسي باعتباره قائداً أعلى تمثل في إيجاد قائد أو قادة لقيادة الأعمال القتالية وإعادة توحيد الدولة. واستناداً إلى هذه المقولة الشائعة، فإن لنكولن جدير بالمدح (وفي رأي الأقلية، يستحق اللوم) لأنه شقّ طريقه من خلال قائمة من قادة غير أكفاء حتى عثر أخيراً على الذهب متمثلاً في الجنرال جرانت، وعندئذ توقف عن التدخّل المباشر في الشؤون العسكرية. في رأي مناصر من غير قصد، قال ت. هاري وليامز إن لنكولن :

- يتمتع بتفكير استراتيجي رصين يدعو للدهشة بالنسبة لهاوٍ (لكنه)كان مستعدا للتنازل عن رأيه فيما يعتبره استراتيجية

جيدة، واعتماد رأي أي جنرال يعتبره قديراً. وكان مستعداً لتفويض السلطات بشأن العمليات الاستراتيجية المباشرة لأي قائد عسكري يثبت كفاءته في صياغة وتنفيذ استراتيجيته.

وهذه من بعض الوجوه، هي النظرية «السائدة» للعلاقات بين العسكريين والمدنيين التي تُطبّق على مدى التاريخ : الزعيم السياسي الذي يتنصر في حرب من خلال تحديد الأهداف وتعبئة الجماهير واختيار القائد المناسب وتسليمه الإدارة الكاملة لكافة شؤون الحرب.

لم يتقبل المؤلفون المتأخرون هذه الرؤية لمركز لنكولن باعتباره قائداً أعلى للجيش. وفي الحقيقة فإن المرء عندما يُمعن النظر في سجل أعماله يجد صعوبة في تزكية الفرضية القائلة بأن مشكلة القيادة العليا في الحرب الأهلية تنحصر فقط في إيجاد قائد، دون إرشاد وتوجيه القائد الذي وجده. من هنا تبرز الحاجة إلى قراءة متأنية لهذه الرسائل، لأن بعضها واضح تماماً بينما البعض الآخر مضلّل جداً. وفي هذه الحالة، مثلا، أرسل لنكولن هذه الرسالة إلى جرانت بعد أن أمضى شهرين في العاصمة، غير بعيد من الرئيس الذي لا بد أن يكون قد كوّن فكرة عما يخطط له غرانت. علاوة على ذلك، وبعد أسبوع من كتابة هذه الرسالة التي يُعبّر فيها عن عدم رغبته في الاطلاع على تفاصيل خطط جرانت، بعث الرئيس مندوباً خاصاً ليرسل له تقارير منتظمة - وفي بعض الحالات يومية - عما يفعله جرانت.

وبالرغم من صعوبة القول، إن أي جزء من حياة لنكولن العملية لم يجد اهتماماً كبيراً، فإن من الواضح أن معظم مؤرخي الحرب تركوا

ذلك المجال للمدرسة التاريخية التي ينتمي إليها مؤلّف «لنكولن يعثر على جنرال». ولذلك أبدوا اهتماما أقل مما ينبغي بإدارته للعمليات العسكرية، وتعامله حتى مع أكثر قادته نجاحاً. بل إن لنكولن مارس الإشراف المستمرّ على المجهود الحربي من البداية حتى النهاية. في ١ أبريل ١٨٦١، بعد أسابيع قليلة من توليه لمنصبه، أمر القائد العام للجيش، وينفيلد سكوت Winfield Scott، بتقديم «تقارير يومية قصيرة وشاملة عما يحدث في إدارته، بما في ذلك تحركاته هو نفسه وتلك التي تتم بموجب أوامره، وكذلك تقارير الاستخبارات».

استجاب سكوت لهذا الطلب، وفي الحالات القليلة التي لم يمتثل فيها، دوّن لنكولن ذلك في مذكراته. لم يتردد لنكولن في رفض آراء مستشاريه العسكريين، ليس فقط بعدما رسّخ أقدامه كقائد أعلى، بل حتى في مراحل الحرب الأولى حين اعتبره كثير من معاصريه، وعدد غير قليل من المؤرخين، زعيماً متردداً وغير واثق من نفسه، بل غير حاسم في اتخاذ القرارات. لا يتضح ذلك بجلاء أكثر مما حدث، عندما واجه الرئيس المنتخب حديثاً مشكلة ما سيفعله بحصون الموانئ على أطراف الولايات الجنوبية المنفصلة. كانت تلك حالة بارزة عن كيفية التقاء التفاصيل العسكرية والقرار السياسي معاً، ودليل على قدرة لنكولن على فعل ما هو أكثر من مجرد اختيار قائد عسكري.

في ١٥ مارس ١٨٦١ استشار لنكولن مساعديه فيما يتعلق ببذل الجهد لإعادة إمداد الحامية المعزولة في حصن سمتر. كانت الأوضاع سيئة للغاية حينها، اذ توالى سقوط الحاميات العسكرية الصغيرة للولايات المتحدة، وعندها انضم بعض الضباط إلى الكونفدرالية

الناشئة (فيما حافظ معظم المجندين على ولائهم). انفصلت سبع ولايات، وكان هناك ولايات أخرى تستعد للقيام بذلك. اختارت الولايات المنفصلة رئيساً ونائباً للرئيس واتخذت لها دستوراً. وسقطت ترسانات السلاح الفيدرالية في تلك الولايات (أو هُجرت) في أيدي الانفصاليين، وسارعت جموع من الرجال لجمع الأسلحة والانخراط في التدريب، إلا أن الحرب لم تكن قد اندلعت بعد، وبقي الكثيرون، في الجانبين، يتمّنون تجنّب وقوعها.

وقف كل من وزير الحرب، سايمون كاميرون Simon Cameron، والقائد العام للجيش وينفيلد سكوت، ضد محاولة نجدة الحاميات المعزولة على الساحل الجنوبي. وصرّح الجنرال سكوت بأن من الأفضل إخلاء حصن سمتر وحصن بيكينز. مُستنداً على عدم إمكانية الدفاع عن الحصون، وأشار إلى النتائج السياسية المرغوبة التي قد تترتب على الإخلاء الطوعي. التفت لنكولن إلى ضباط أدنى رتبة بكثير (ومن بينهم النقيب الصاعد مونتجمري ميجز Montgomery C. Meigs الذي أصبح قائد التموين وإمدادات الجيش) للحصول على وجهة نظر مختلفة. بعد ذلك أمر لنكولن بإعادة إمداد حصن سمتر بدون استخدام القوة، رافضاً رأي كبار مستشاريه. لقد أدرك بأن الجنوب سينجذب للطعم، وبذلك تتحمل الكونفدرالية مسؤولية إطلاق أول رصاصة في الحرب الأهلية. كانت حركة مراوغة بحق، إذ توارى وجهها الحقيقي خلف صفات التردد وعدم الحسم الظاهرية، وجه الإرادة الحديدية التي تتقبل كل مخاطر الحرب. وكان لنكولن قد كتب لأحد أصدقائه في ديسمبر ١٨٦٠:

- النضال قادم، ومن الأفضل أن يأتي الآن على أن يقع لاحقا.

كان يدرك أكثر من غيره ما الذي يعنيه بكلمة «النضال». ثم اختار تصرفاً يبدو حماقة عسكرية، رافضاً الانسحاب أو تدعيم حامياته التي يفوقها الخصوم عدداً، ليحقق مكسباً سياسياً عريضاً. وبذلك رفض نصيحة كبار مستشاريه العسكريين التي أجمعوا على تلك النصيحة. ولم تكن تلك هي المرة الأخيرة التي لا يصغي فيها إليهم.

في نهاية الحرب، كان لنكولن يترك لجرانت وزميله المقرّب، وليام تيكومساه شيرمان William Tecumseh Sherman، مساحة كافية للتحرك العملياتي، ولكن بعد أن يتوصلوا لخطة تتوافق مع تصوّره الاستراتيجي عن كيفية كسب الحرب، تصوّر يعود إلى المراحل الأولى من الصراع. وقد سبق اختياره لجرانت قائداً عاماً لجيوش الولايات المتحدة الأمريكية، سنوات طويلة من المراقبة والتقييم. والأهم من ذلك من وجهة نظرنا أن المراقبة لم تنته بترقية جرانت لمنصب القائد العام، كما لم تنته المتابعة المستمرة واللصيقة للعمليات العسكرية التي كان يقوم بها بأساليب أكثر دقّة وبراعة، لا تقلّ فعالية عن إصدار الأوامر المباشرة. لم يكن لنكولن يعثر على قادته فقط، بل كان يسيطر عليهم أيضاً. لقد أدار الحرب وفق رؤيته هو حتى آخر أيامها، وكان يعتزم أيضا السيطرة على صنع السلام في نهايتها.

قائد أعلى بدون مؤهلات

كانت مؤهلات لنكولن لتولي منصب القائد الأعلى أقل نظرياً

من تلك التي يتمتع بها خصمه جيفرسون ديفيز Jefferson Davies. فقد تخرج ديفيز من وست بوينت عام ١٨٢٨ وقضى سبع سنوات من العمل النشط والمستمر في الخدمة العسكرية، من ثم عاد لارتداء البزة العسكرية عام ١٨٤٦ لقيادة كتيبة متطوعين بشجاعة ونجاح في معركتي مونتيري وبوينا فيستا. وبعد عمله في مجلس الشيوخ أصبح وزيراً للحرب عام ١٨٥٣ وخدم في منصبه أربع سنوات. ومن خلال منصبه ذاك، سعى لإدخال استخدام ذخيرة ميني بول الجديدة (الرصاصة المطورة) على نطاق واسع واعتماد البندقية بمثابة سلاح قياسي في الجيش. ثم عاد إلى مجلس الشيوخ وظل منخرطاً بشدة في الشؤون العسكرية هناك. في المقابل، قضى لنكولن شهوراً قليلة من الخدمة الرمزية في سلاح الإشارة كضابط ميليشيا صغير في حرب بلاك هوك في العام ١٨٣٢، حيث شملت خبرته العسكرية نزال مصارعة مع نقيب آخر (خسره لنكولن) لتحديد أي من سريّتيهما تشغل موقع تخييم مفضّل.

مع ذلك فإن قلّة قلية تنكر أن لنكولن كان ببساطة، قائداً أفضل للحرب. كان ديفيز - الذي يوصف بأنه غير مرن في أسلوبه وصارم في تعامله -لا يتمتع بحس الدعابة والصبر والتعاطف الذي يجعل خصومه يتغاضون عن سوء السلوك وفشل القادة العسكريين. كان من السهل على ديفيز أن يستفيد من ضابط متميّز مثل روبرت لي Robert E. Lee الذي لم يكن فقط قائداً ميدانياً عظيماً فحسب، وإنما عسكري ممتثل لرؤسائه، أيضاً. يبدو أن الاختبار الأفضل لديفيز تمكّنه من الاستفادة من براكستن براج Braxton Bragg، وهو قائد قدير لكنه

سريع للغضب وغير اجتماعي. حاول ديفيز تسوية الصراعات التي قامت بين الجنرالات وأدّت إلى شلّ قوات الجيش في تينيسي خارج كاتانوجا في أكتوبر ١٨٦٣ لكنه فشل. لم يكن يتمتع بالحسم الكافي لفصل أولئك المناوئين والرافضين لبراج وللنقل، أو إعفاء الضابط الكبير نفسه من القيادة، كما أنه ساير جوّ القيادة الذي أدى إلى كارثة في الغرب بعد شهرين فقط من النصر الساحق في تشيكاماوجا.

كان لنكولن أكثر تفوّقاً بكثير في قيادة الرجال. وثمة رسالة أكثر دلالة على ذلك من رسالته إلى جرانت في أبريل ١٨٦٤ وهي تلك التي بعثها في ٢٦ يناير ١٨٦٣ بشأن تعيين الجنرال المتعالي جوزيف هوكر Joseph Hooker :

- لقد عينتك قائداً للجيش في بوتاماك. وبالطبع فإني قد فعلت ذلك استناداً إلى ما بدا لي، أسباباً كافية. ومع ذلك فإنني أعتقد أنه من الأفضل لك أن تعلم أن هنالك أشياء لديك لستُ راضياً عنها. أعتقد أنك قائد شجاع وقدير، وهذه أشياء تعجبني بالطبع. وأعتقد أيضاً أنك لا تمزج بين السياسة ومهنتك، وأنت على حق في ذلك. وأنت تتمتع بثقة في نفسك، وهذا صفة حميدة، إذ كان لا غنى عنها. أنت طموح، وهي صفة، في حدود معينة، تنفع أكثر مما تضرّ. لكنني أعتقد أنك قد أفصحت عن طموحك خلال قيادة الجنرال بيرنسايد (Burnside) للجيش، وأحبطت مساعيه قدر ما تستطيع، وقد ارتكبت بذلك خطأ جسيماً بحق البلاد، وبحق واحدٍ من أجدر وأنبل الزملاء الضباط. لقد بلغني قولك في الآونة الأخيرة أن كلاً من الجيش والحكومة بحاجة إلى

دكتاتور. بالطبع، ليس بسبب ذلك، بل على الرغم منه، منحتك منصب القيادة. فالقادة الذين يحققون النجاحات هم فقط من يستطيعون أن يوجدوا الدكتاتوريين. وما أطلبه منك الآن هو النجاح العسكري، وأنا سأتولى المجازفة فيما يتعلّق بالدكتاتورية. ستساعدك الحكومة بأقصى ما تملك من إمكانيات، وهو ما لا يقل ولا يزيد عما فعلتْه وما ستفعله مع كل القادة. إنني خائف كثيراً من أن الروح التي ساعدتَ في بثّها بين أفراد الجيش، تلك المتعلقة بانتقاد قائدهم، والإحجام عن الثقة به، ستنقلب عليك الآن. لا تستطيع أنت، ولا نابليون، لو كان حيّاً، أن تجني خيراً من جيش تسود فيه تلك الروح. وعليه، احذر التهوّر. احذر التهوّر، وإنما بنشاط ويقظة تامة، امضِ قدماً وأحرز لنا الانتصارات.

هذه الرسالة، التي ظلت سرية حتى وفاة هوكر، تبرز لنكولن في أفضل حالاته. إنها في الحقيقة تقدّم صورة عن قائد يتعامل مع مساعدٍ لا يخلو من عيوب وعنيد، إلا أنه هُمام ومفيد. لقد أوضحت الرسالة لهوكر أن الرئيس على دراية تامة به، يعرف عيوبه بقدر ما يقدّر ويدرك مزاياه. وقد حملت التأنيب والتشجيع معاً مع إحساس بالقلق الأبوي الذي يبدو أنه لا يحمل أياً من الحقد أو سوء الفهم. ولعلها لم تكن مصادفة أن هوكر، بغض النظر عن عيوبه الأخرى كقائد، وبالرغم من خصوماته ومشاحناته مع قادة الجيش الآخرين، كان بعد ذلك مطيعاً للنكولن، دون أدنى اعتراض.

كان لنكولن يمتلك فن الاستفادة من مساعدين قديرين لهم عيوب ولا يطيقون بعضهم بعضاً، وتلك مزية يشترك فيها مع أعظم

قائد ميداني في الحرب الأهلية، روبرت لي. استطاع لي أن يوجد فريقاً قديراً يتألف من ستونوول جاكسون Stonewall Jackson المتزمّت، وجيمس لونجستريت James Longstreet الصارم، وج. ستيوارت J. E. B. Stuart المتأنّق، وآخرين لا يجمع بينهم إلا الولاء التام لقائدهم الأعلى، والقضية العامة. واستطاع لنكولن التعامل مع مهام أكثر صعوبة، لا بالاستفادة من طاقات مجموعة واسعة ومتنوّعة من ضباط الجيش فحسب، بل أيضاً من وزير خارجيته الماكر والمراوغ، وليام سيوارد William Seward، ووزير حربه حادّ الطباع، إدوين ستانتون Edwin Stanton، وأعضاء آخرين في حكومة ضمّت أعداءه ومنافسيه السياسيين، بالإضافة إلى أصدقائه. صار سيوارد - الذي كان يعتزم أن يصبح رئيس وزراء فعلي لرئيس سمج من الغرب - واحداً من أكثر موظفي لنكولن إخلاصاً. وأصبح ستانتون - الذي كان قد سخر من لنكولن باعتباره رئيساً، وعامله بخسّة في مهنته السابقة باعتباره محامياً - أداته المفضلة. كما أن سالمون تشيس Salmon B. Chase، الذي كان لديه طموحه الخاص للرئاسة، نُقل بمهارة من الحكومة إلى المحكمة العليا، ولكن بعد أن أدار باقتدار الشؤون المالية أثناء الحرب. من السهل على السياسي أن يجد مساعدين طيّعين من الصف الثاني يدينون له بالولاء، ولكن الإنجاز بالغ الأهمية هو أن يستطيع تكوين فريق يحقّق النجاح، مكوّن من مساعدين من الصفّ الأول يتميّزون بالمشاكسة والطموح، بل حتى من غير الموالين له.

في نفس الوقت لم يكن لنكولن أقل استعداداً من ديفيز، بل أكثر استعداداً في الواقع، لعزل رجال عجزوا عن أداء مهامهم. ومقارنة

برؤسائنا الأخيرين، يبدو لنكولن رئيساً غير متسامح البتة. فقد استمر قائده الأول لما سمي لاحقا جيش بوتوماك، إروين مكدوويل Erwin McDowell، في العمل معه خمس أشهر فقط؛ وكان جون George McClellan، أفضل حالاً (قضى حوالي سنة)، ولم يكد جون بوب John Pope يمضي شهرين. واستمر مكليلان في دورته الثانية من أداء الواجب أكثر من شهر بقليل، ولم يتمّ أمبروز بيرنسايد الثلاثة أشهر. وعمل جوزيف هوكر خمس أشهر، أما جورج ميد George Meade فقد قضى سنتين تقريباً بالاسم فقط، فقد حل يوليسيس جرانت محله فعلياً خلال تسعة أشهر.

بالرغم من الجانب الإنساني للنكولن، فإنه اتسم بقدر من القسوة اللازمة لشن حرب شاملة. لذا لم يكن أمره لجرانت المثابر أواخر صيف ١٨٦٤ بأن «يستمر بقبضة كلب صيد قوي وينشب أنيابه ويخنق بكل ما أوتي من قوة»، إلا واحداً من المؤشرات على ذلك التصميم الذي تجلى في مطالبه المتواصلة لقادته العسكريين بأن يطوّقوا الأعداء ويقضوا عليهم. كما أنه تجلى في الأمر العام (٢٥٢) الذي نص على أنه مقابل كل جندي اتحادي يُعدم من قبل القوات الكونفدرالية سيقتل الشماليون واحداً من أسرى المتمرّدين، ومقابل كل جندي زنجي اتحادي يُستعبد، سيحكم على واحد من سكان الجنوب الأمريكي بالأعمال الشاقّة.

استعدّ لنكولن لقيادة الحرب بعقل مستنير ومنظّم جداً. ومع أنه لم يتلقّ تعليماً رسمياً، فإنه لم يكتف فقط بالتعمّق في دراسة الكتب المرجعية لمهنة المحاماة التي مارسها، بل في كتب شكسبير أيضاً،

(وبدرجة أقل درس لغة الإنجيل). عند التفكّر قليلاً، سنرى أنهما مليئان بالمعرفة العسكرية، وبمآسي الحرب وشخصيات المحاربين وخيارات قادة الحرب. لقد استعار كتباً من مكتبة الكونجرس ليتعلم فنّ الحرب، رغم أن مقدار ما قرأ يظل مثار جدل. وبخلاف كثيرين ممن علّموا أنفسهم دون تلقي تعليم رسمي، لم يكن لنكولن يتمتع بالذكاء الحاد فقط، بل على قدر عال من التنظيم والتوازن. والأهم من ذلك، إن لعقله قدرات لا غنى عنها لأي أحد تحتم عليه أن يقود البلاد في ظروف صعبة.

وصفه واحد من أهم مساعديه، مساعد وزير الحرب، تشارلز دانا Charles Dana، بأنه عقل يتميّز بخلّوه من الأوهام :

- ليس لديه توهم بأن أمراً ما هو هكذا، أو قد يكون هكذا، وهو ليس كذلك. كل تفكيره وتعليله، وكل ما يستند عليه عقله هو باختصار: تعامله المستمر مع الحقائق الفعلية، وعلى الحقائق التي - كما قلت - يدرك مغزاها.

تحدث شريك لنكولن في المحاماة سابقاً، وليام هيرندون William Herndon، عن مزيج الخبث والبرود والذكاء الحادّ الذي تجلى في ممارسة لنكولن للمحاماة قبيل الحرب :

- إن أي امرئ يعتبر لنكولن رجلاً ساذجاً، سيستيقظ بعد قليل ليجد نفسه ملقى على ظهره في حفرة.

بالرغم من المشاعر الجيّاشة، والتأثير القوي لخطب ورسائل لنكولن المشهورة، تُظهِر أوراقه في كثير من الأحيان، تفكيراً عقلانياً

متجرداً من العواطف تماماً، فيما يتعلق بالقضايا الإنسانية. تأمل مثلاً رؤيته في مسودة غير منشورة، والتي بدأت بتحليل بعيد عن العواطف للأسباب التي تدفع الرجال للالتحاق بالخدمة العسكرية :

- من بين تلك الدوافع : قد تكون الوطنية أو التحيّز السياسي، أو الطموح، أو الشجاعة الشخصية، أو حبّ المغامرة، أو الحاجة إلى العمل، أو الملاءمة، أو نقيض بعض هذه الأمور.

إن ميزة التخلي عن الأوهام تبدو ذات قيمة كبيرة في وقت الحرب، مع أنها نادرة. وفي هذا يقول كلاوزفيتز إن :

- للحرب طريقة في تغليف المشهد بقسوة جلية مصحوبة بأشباح مخيفة.

وهي ملاحظة تنطبق حقاً على من يشغل أعلى المناصب في مقرّات القيادة، كما تنطبق على من يعملون في الميدان. ويُظهر تاريخ الحروب أن كثيراً من القادة كانت لديهم صور ذهنية غير واقعية عن المآسي والنصر قبل قعقعة السلاح. بالمقابل، فإن من مميّزات لنكولن الفريدة هي عدم رغبته في استشراف نتائج العمليات العسكرية، ورفضه للتعامل مع أي أوهام. وقد لاحظ سكرتيره أنه :

- خلال سنوات الحرب الأربعة الشاقّة لم يتظاهر بمعرفة أي نبوءات ولم يسجّل أي توقّعات. عندما ينتابه شعور بضعف الثقة، وتعتريه مخاوف جمّة مع تساؤلات مستمرة، كان من الممكن أن يتحدث عما فعل، لكنه لم يكن يخبر أحداً بما ينوي فعله. كانت عبارته الأثيرة التي طالما كرّرها «سياستي هي ألا أعتمد أي

سياسة». ولهذا كان الكثيرون يرونه، بصورةٍ لا منطقية وتجاه في الحقيقة، بأنه بلا خطط أو وسائل مناسبة.

كانت له أمنياته ورغباته، لكن لم يكن يرتكب الخطأ الاستراتيجي الذي وصفه نابليون مرة بأنه: «اختلاق صور» للعالم كما يتمّناه المرء، لا كما هو في الواقع.

كان مكتب التلغراف بمثابة بيته

كانت مهارات لنكولن في إدارة الرجال، وقدرته العقلية في فهم الوضع الصعب، غاية في الأهمية بسبب التحدّي الكبير المتمثل في شغله منصب القيادة العليا في زمنٍ ثورة في الشؤون العسكرية بصفة عامة. وكثيراً ما توصف الحرب الأهلية بأنها كانت صراعاً محورياً في التاريخ العسكري، ذلك لأنها شهدت تحولاً في الحرب مدفوعا بثلاث عناصر: البندقية وسكك الحديد والتلغراف. كان لهذا التحوّل نتائج كبيرة على مفهوم القيادة العليا للحرب، لأنه يعني أن القادة العسكريين سيديرون العمل بوسائل غير مألوفة لهم من قبل. وترتّب على تطوّر الاتصالات ووسائل التموين والإمداد بصفة خاصة عواقب كبيرة على قيادة الحرب – تتعلّق بمن يتعيّن على لنكولن اختيارهم لقيادة الجيوش، وكيف يخوض هو نفسه الصراع. بعبارة أخرى، واجه القادة العسكريون، كما واجه الرئيس الذي لم تعركه التجارب بعد، تحدّيات حرب شُنّت بوسائل لم يكونوا يعرفونها، وهذه الوسائل أخذت مجرى الحرب لاتجاهات لا يمكن توقّعها. هذا التحوّل في الحرب جعل مهمة

لنكولن في القيادة العليا أكثر صعوبة وأكثر أهمية بالنسبة للاتحاد، وبالنسبة للانتصار في الحرب.

دشّنت التحوّلات في أواسط وأواخر القرن التاسع العشر الحقبة الحديثة لمفهوم القيادة العليا، حيث تستطيع فيها السلطة السياسية أن تراقب وتدير القوات العسكرية التي تقاتل بعيداً عن مراكز السيطرة السياسية. كان ذلك التطوّر- الذي تَسارَع اليوم كثيراً بدخول الهاتف والبريد الالكتروني ومؤتمرات الفيديو عن بعد - مؤشراً على حقبة جديدة. كما أن التحوّل الذي لا يقل أثراً في مجال السلاح والإمداد دلّ على أن أية حروب جديدة ستُبرز نسقاً جديداً من المشكلات لرجال الدولة والقادة العسكريين على حد سواء. وبغض النظر عن الدور الذي لعبوه وقت السلم، فإن أي صراع قادم، سيجري في ميدان غير مألوف وبقوانين جديدة وأدوات مختلفة.

لم تشمل القفزة النوعية للتكنولوجيا ذات الصلة بالأسلحة خلال الحرب الأهلية : البندقية فقط، بل أنواعاً جديدة من الأسلحة. بما في ذلك الألغام (التي تنفجر باللمس وكهربائياً)، والغواصات البدائية، والمدافع الرشّاشة البدائية، والمدفعية ذات السبطانات المحلزنة، والقذائف الحارقة، وصمامات المدفعية المحسّنة من أنواع عدة. بدأت الحرب في وقت كانت فيه كل جيوش العالم تعمل على استكمال التغيير من بندقية المشاة القصيرة ذات الجوف الأملس، التي ظلت سائدة منذ القرن السابع عشر، إلى سلاح ناري أكثر فتكا. فالتحزيز الحلزوني (أي صناعة ماسورة بندقية محزّزة ما يجعل القذيفة تدور) واستخدام رصاصات ميني الأسطوانية المخروطية، بدلاً من الطلقات

الدائرية لبندقية المشاة القصيرة (المسكيت) القديمة، يعني أن سلاح الجندي الفرد أصبح الآن يتمتع بمدى فعّال يمتد عدة مئات من الأمتار أو أكثر، مقارنة بجزء صغير من كل ذلك في الأوقات السابقة. وأصبح الهجوم بأعداد كبيرة من المشاة على مواقع محروسة جيداً، خاصة إذا تمت حمايتها بحدّ أدنى من التحصينات الميدانية، بمثابة شأنٍ تسفك فيه الدماء على نطاق واسع.

واعتُبر صعود البندقية الحديثة كإحدى الصعوبات التي واجهها القادة العسكريون أثناء الحرب الأهلية في تحقيق انتصاراتهم. فقد ظلت أساليب التدريب كما هي منذ عصر نابليون من حيث التركيز على التشكيلات المحكمة وعدم التعويل على التحصينات المغطاة بالحواجز والأشراك. لقد حصدت بنادق ومدفعية الكونفدرالية في كولد هاربر في ٣ يونيو ١٨٦٤ ما يقارب سبعة آلف من الجنود الاتحاديين في أقل من ساعة. وفي ٢٩ نوفمبر ١٨٦٣ شنّ جيمس لونجستريت، قائد القوات الكونفدرالية الذي يعرف قوّة البنادق في الدفاع، هجوماً على موقع اتحادي صغير، إلا أنه محاط بالحواجز (بما في ذلك الأشراك الشائكة) في حصن ساندر بولاية تنيسي. أوقعت القوة الشمالية المدافعة التي يبلغ قوامها حوالي ٢٥٠ عنصراً، خسائر وصلت إلى ثمانمائة قتيل من القوات الكونفدرالية المهاجِمة المكونة من عدة آلاف، مقابل حوالي مائة إصابة من الشماليين، وجميعهم، باستثناء ثلاثة عشر، كانوا في وحدات مساندة خارج التحصينات. وقد أثبتت هذه الواقعة أنّ الهجوم على التحصينات الميدانية أمر مدمر، وأن العامل

الحاسم في هذا الأثر هو قوة الأسلحة الجديدة المتوفّرة لقوات المشاة المدافعة من خلف التحصينات.

شهدت الحرب الأهلية أيضاً إدخال أسلحة أشدّ قوّة، وبوجه خاص البندقية التي تُعبّأ من الخلف وتذخّر من مخزن، وهذا مكّن الجنود من تعبئة أسلحتهم وإعادة تعبئتها وهم مستلقين على الأرض، بينما يطلقون النار بسرعة كانت قبلُ مستحيلة. لم تدخل تلك الأسلحة بكميات كبيرة وكافية لتصبح حاسمة إلا أنها كانت ذات تأثير كبير مع اقتراب الحرب من نهايتها. أصيبت القوات الكونفدرالية بالذهول من مقدار النيران التي تطلقها قوات اتحادية صغيرة نسبياً مزودة بتلك الأنواع الجديدة من الأسلحة. شارك أحد الضباط الاتحاديين في نهاية الحرب في هجوم خاطف مع كتيبة مسلحة ببنادق سبنسر سريعة الطلقات. واعترف له الأسرى بأنه «لم تكن هنالك أي جدوى من محاولة الوقوف في وجه بنادقنا السباعية الطلقات» كما اعترف أحد الضباط المتمرّدين :

- يخاف رجالنا حقاً من البنادق سباعية الطلقات، وكانوا يبغضونها وينتابهم الفزع حينما يرون حامليها قادمين.

في أغلب الحالات كان المشاة فقط هم الذين يستخدمون هذا النوع من البنادق الخفيفة، وغالباً ما تكون أقل مدى ودقة من البنادق الأكثر ثقلاً. مع ذلك وعلى الرغم من مداها القصير، فإن الأثر النفسي والمادي لهذه الأسلحة كان مدمراً.

أبدى لنكولن اهتماماً شخصياً بتطوير الأسلحة النارية خلال

الحرب الأهلية، بما في ذلك اختبار القوة النارية للأنواع الرئيسية، وإقامة علاقة مباشرة مع الضباط المسؤولين، وحتى الاجتماع مع مخترع رصاصات عجيبة كان يدفع باختراعاته للضباط المتذمّرين والمجهدين من العمل الزائد في إدارة العتاد الحربي.

ضغط لنكولن باستمرار منذ بداية الحرب على إدارة العتاد الحربي ورئيسها ضيق الأفق العميد جيمس ريبلي James W. Ripely لإنتاج مقدار كبير من الأسلحة التي تعبأ من الخلف. كما تدخل لنكولن لحماية وترقية واحد من ألمع التقنيين العسكريين وقت الحرب: جون أ. دالجرِن John A. Dahlgren، خبير العتاد الحربي الأول في البحرية. لم يحسم التفوّق التكنولوجي للاتحاد على الكونفدرالية نتيجة الحرب، لكنه ألقى بثقل متزايد، أدّى إلى توسّع الصراع. ومن دونه لم يكن للولايات المتحدة أن تستمر في حصار السواحل الجنوبية وتردع التدخّل الأجنبي. ولو استمرت الحرب، فإن ضغط تكنولوجيا الشمال (وبصفة خاصة البندقية التي تعبّأ تكراراً من الخلف) سيجعل جيوش الكونفدرالية المتبقية في وضع سيئ ومُقعِد.

لم يكن تأثير السكك الحديدية على العمليات العسكرية أقل أهمية، بل يفوق أحيانا دور الأسلحة نفسها. وقد نمت خطوط السكك الحديدية في الولايات المتحدة من أقل من ٣٠٠٠ ميل في سنة ١٨٤٠ إلى ١٠،٠٠٠ ميل في العام ١٨٥٠ وإلى حوالي ٣٠،٠٠٠ ميل في بداية الحرب الأهلية. وبالرغم من الدمار الذي أحدثته الحرب، فإن ٥٠٠٠ ميل إضافية من الخطوط قد دخلت الخدمة بنهاية الحرب. وقد لعبت السكك الحديدية دوراً محورياً منذ بدايات الحرب، عندما

شنّت القوات الكونفدرالية، قوات الجنرال جوزيف جونستون Joseph Johnston (بما في ذلك لواء ستونوول جاكسون) هجوماً امتد من شيناندوه حتى مفترق ماناساس على بعد حوالي ٣٥ ميلاً فقط من واشنطن. وتمكّنت قوات الجنوب من كسب المعركة الكبيرة في فيرست بول رن في ٢١ يوليو ١٨٦١.

لقد سمحت السكك الحديدية لكل من الطرفين، وخاصة جيش الاتحاد، بالمحافظة على أعداد كبيرة من القوات في الميدان طوال العام، وإعادة نشر تلك القوات في وقت وجيز نسبيا بعد المعارك الكبيرة. وخلال حملة أنتيتام في سبتمبر ١٨٦٢ بدا جليا أثر التفوق اللوجستي لقوات الاتحاد، ويعزى ذلك بدرجة كبيرة إلى الاستخدام الذكي للسكك الحديدية. في أثناء معركة جيتسبرج في العام ١٨٦٢، مثلا، استطاعت السكك الحديدية للاتحاد نقل ١٥٠٠ طن من المؤن والإمدادات يومياً عبر خط ميريلاند الغربي.

لتكوين فكرة عن هذا الإنجاز، نقول إن هذا القدر من المؤن يوفر ما يكفي فرقتين من فرق الحرب العالمية الثانية أثناء المعركة. وفي اليوم التالي للمعركة أوصل مهندس السكك الاتحادي المميز، هيرمان هوبت Hermam Haupt، نهاية خط السكك الحديدية لميدان المعركة. وكما أشار تيرنر Turner مؤرخ دور السكك الحديدية في الحرب :

- المسافة بين بالتيمور وجيتسبرج أكبر من المسافة بين ريتشموند وفريدريكسبرغ، ومع ذلك وخلال أربعة أيام من المعارك الشرسة استطاع هوبت أن يوفّر للقائد ميد ما لم تستطع أن

توفره مؤسسات الكونفدرالية للقائد لي، خلال أربعة أشهر من الهدوء.

طوال سنين الحرب لم يعان أي من الجيشين نقصاً في الذخيرة. يعزى ذلك - جزيئا على الأقل - إلى دور السكك الحديدية.

كان ممكناً في بعض الأحيان، كما حدث في فيرست بول رن، القيام بتحرك عملياتي بالخطوط الحديدية. يتجلّى أبرز الأمثلة، للطرفين معا، عن الإمكانيات العملياتية للسكك الحديدية خلال حملة كاتانوجا في سبتمبر عام ١٨٦٣. قبيل تلك المعركة حاولت الكونفدرالية خلال عدة أسابيع تحريك فرقتين بقيادة جيمس لونجستريت إلى كاتانوجا، وهي مسيرة تمتد ألف ميل فوق عشرة سكك حديد مختلفة. لكن، تمكن فقط نصف رجاله من الوصول في الوقت المناسب والمشاركة في القتال. في ٢٣ سبتمبر، بعد أسبوع أو أسبوعين من ذلك الحدث، اقترح وزير شؤون الحرب، ستانتون، بعد علمه بتأزم الموقف حول كاتانوجا، إرسال ٣٠،٠٠٠ رجل من جيش بوتوماك إلى ميدان المعركة وتنفيذ ذلك في خمسة أيام. وأقنع مساعديه المشكّكين بالموافقة على الاقتراح، وفي فترة وجيزة كانت قوات الفرقتين الحادية عشر والثانية عشر في طريقها إلى حيث المعركة. وبعد أحد عشرة يوماً من القرار كان ٢٥،٠٠٠ من الرجال وعتادهم، بما في ذلك المدفعية والأمتعة، قد قطعوا ١١٠٠ ميل في اتجاه الغرب. كان لدى الاتحاد البنية التحتية، وبدرجة لا تقل أهمية، المهارة التنظيمية لتحريك القوات عدة مرات في مسافة تستطيع الكونفدرالية التحرّك فيها مرتين فقط.

تستطيع السكك الحديدية الحدّ من فاعلية القوات بقدر ما تستطيع توفير احتياجاتها. لم يكن ليحدث التقدم الشاقّ للجنرال وليام تيكومساه شيرمان إلى أتلانتا من مايو وحتى نوفمبر ١٨٦٤ من دون بناء وصيانة ٤٧٢ ميلاً من خطوط الإمداد الممتدة على طول الطريق حتى لويزفيل. كان ذلك عملاً جبّاراً، إذ إن التقدم من كاتانوجا إلى أتلانتا وحده يتطلب بناء ما لا يقل عن أحد عشر جسراً للسكك الحديدية. من جانب آخر، وجد شيرمان نفسه، عقبة الحاجة إلى تأمين الخطوط الحديدية للشمال حيث كانت عرضة لهجمات فرسان الكونفدرالية. لذا تعيّن على القادة العسكريين في العصر الحديث التعامل مع مشكلة جديدة تتعلق بالإمدادات، عليهم التعامل معها، وكانت النتيجة إبداعات في عدة مجالات، بما في ذلك تكوين مؤسسات جديدة لبناء وصيانة السكك الحديدية.

العنصر الثالث من عناصر التغيير الثوري في مسيرة الحرب كان دخول التلغراف الذي لم يحدث تحولاً في القيادة الميدانية نفسها فقط بل، الأهم من ذلك، في العلاقة بين سلطات القيادة الوطنية والقادة العسكريين في الميدان. لم يكن للتلغراف سوى أثر عسكري محدود على الحرب المكسيكية، بالرغم من حدوث بعض الاتصالات بين واشنطن ونيويورك (حيث كان مقر قيادة الجنرال وينفيلد سكوت) في أوائل تلك الحرب. بحلول يناير ١٨٤٨ أصبحت خطوط التلغراف تصل لمسافة ٢٠٠٠ ميل، ويُعزى الدافع، ولو جزئياً، لنهم الجرائد المتزايد لأخبار الحرب. إلا أن التوسّع الكبير في خطوط التلغراف قد حدث بعد الحرب المكسيكية. فبحلول عام ١٨٥٠ كان يوجد في الخدمة ١٢،٠٠٠ ميل من

خطوط التلغراف وربما خمسة أضعاف هذا الرقم عند اندلاع الحرب الأهلية. وقد وجدت الكونفدرالية خلال الحرب صعوبة في المحافظة على خطوط التلغراف التي كانت قائمة قبل الحرب. غير أن الاتحاد لم يوسّع فقط نظام التلغراف المدني (أكمل في أوائل عام ١٨٦٢ أول خط تلغراف يمتد بين جانبي البلاد الشرقي والغربي)، بل أنشأ أيضاً نظام تلغراف عسكري منفصل كان يُشغّل بنهاية الحرب بضعة آلاف من الخطوط، بما في ذلك كوابل تحت الماء.

بحلول عام ١٨٦٤وفرت وحدات التلغراف الميدانية اتصالاً مع مراكز الإدارة المركزية، ووجد الجنرالات أنفسهم يستخدمون التلغراف عدة مرات في اليوم من داخل مقرّات قيادتهم. كان حجم الاتصالات عبر التلغراف ضخماً خلال الحرب. ففي سنة واحدة فقط نقل نظام التلغراف العسكري حوالي ١،٨٠٠،٠٠٠رسالة، وهو رقم استثنائي في ذلك الوقت. وخلال عام ١٨٦٤ وحده، عمل ألف رجل في تشييد وصيانة وتشغيل أكثر من ٥٠٠٠ ميل من خطوط التلغراف العسكرية.

غير أن التأثير الأكثر أهمية للتلغراف ربما كان محسوساً في الإدارات العليا للحرب. فقد أحدثت خدمات التلغراف منذ بداية الحرب تحوّلاً في دور السلطات السياسية العليا في إدارة الأحداث على أرض المعركة. في ٢١ يوليو ١٨٦١ كان الرئيس لنكولن القلق يستلم تلغرافاً كل عشر أو خمس عشرة دقيقة من قوات الاتحاد التي تقاتل في أول معركة كبيرة للحرب الأهلية : فيرست بول رن. ظلت خدمات التلغراف على مستوى القيادة العليا تحت إشراف وزير الحرب، إدوين

ستانتون، الذي لم يستجب لضغوط قيادة سلاح الإشارة الأمريكي الرامية للسيطرة على نظام الاتصالات الحربي.

كان نظام التلغراف العسكري منقسماً بين السلطتين المدنية والعسكرية نتيجة للارتباك الأولي خلال الفترة الأولى للحرب، وفيها منحت شركة التلغراف الأمريكية الحكومة ستة أشهر من الاستخدام المجاني للاتصال عبر التلغراف قبل أن يسدّد الكونجرس نفقاتها لاحقا. سمح وزير الحرب الأول في عهد الرئيس لنكولن، وهو السياسي الفاسد وغير الكفء القادم من بنسلفانيا، سايمون كاميرون Simon Cameron، لنظام خطوط تلغراف الشركة الناشئة أن يصل لمقر عمل اللواء جورج مكليلان. أما خلفه إدوارد ستانتون، المتحمس والمستبدّ، فقد حوّل محطة التلغراف العسكري من مكتب مكليلان وأمره أن يوصل الأسلاك لمقرّ وزارة الحرب، مع الإبقاء على خطوط تلغراف تكفي مكليلان لتوجيه الأوامر لجيوشه.

كانت غرفة التلغراف المجاورة لمكتب ستانتون ملجأ للنكولن الذي يأتي لتلك الغرفة يومياً ليقرأ الرسائل القادمة من الجبهة ويكتب ردوداً عليها. كما كان مكتب التلغراف يعمل كمركز استخبارات، حيث يؤدي موظفو التلغراف مهام أخرى بمثابة محلّلي شفرات وقارئي رموز، وهو مجال يعتقد الضباط الاتحاديون بأنهم قد أدوا فيه مهامهم باقتدار. واستطاع قائد سلاح الإشارة في عام ١٨٦٤ رفع تقرير لوزير الحرب بأنه :

- تأكد لنا الآن من دون أي شك، بأن العدو يستخدم مخططات

الرموز التي استخدمت أولاً لدى جيوشنا. وظل نظامه يراوح مكانه بينما تطوّر نظامنا كثيراً ليجعله آمناً من أي عمليات اختراق وخيانة. وهذا يجعلنا نتمكن من قراءة إشاراته بينما لا يمكنه فكّ شفرة إشاراتنا».

كان مكتب تلغراف لنكولن، من عدة وجوه، سلفاً لغرفة المؤتمرات ومركز إدارة الاستخبارات بالبيت الأبيض، المزودة بشاشات الفيديو والحاسبات الآلية، تلك التي تمثل مركز القيادة الرئاسية لأمريكا الحديثة في وقت الحرب. وخلال الأيام التي تشتد فيها المعارك، ربما كان لنكولن يبعث عشر رسائل أو أكثر للقادة العسكريين في الميدان. وعندما تمتد المعركة، فقد يمضي الليل أحياناً يقرأ رسائل التلغراف التي تصف سير المعركة. «كان يقيم تقريباً في مكتب التلغراف عندما تقع معركة ما»، كما ذكر مدير مكتبه. بطبيعة الحال، كان مساعدو لنكولن المباشرين، الوزير ستانتون والجنرال هالك Halleck، أكثر استخداماً للتلغراف منه، إذ كانوا يخبرون القيادة الميدانية بأحدث المعلومات الاستخبارية عن مسرح عملياتهم. أصبح في وسع كبار القادة في العاصمة أن يكون لديهم، بطريقة محدودة على الأقل، صورة أكثر وضوحاً للعمليات التي تدور في مسرح الحرب من القادة المحليين. وهذا في حدّ ذاته، تغيير مشحون بالدلالات عن تطوّر العلاقة بين المركز والأطراف التي تدور فيها الحرب.

التأثير المشترك للبندقية والسكك الحديدية والتلغراف، وليس تأثير واحد من تلك الاختراعات لوحده، هو الذي غير مجرى الحرب. فقد جعلت البندقية المطوّرة تحقيق فوز حاسم في الميدان أكثر صعوبة،

ووسّعت تدريجياً من نطاق وحجم القتال. وحافظت السكك الحديدية على بقاء الجنود مدة أطول في أرض المعركة، وسمحت بنقل قوات كبيرة عبر البلاد خلال وقت قصير نسبياً، ومكّنت الجيوش من القيام بعمليات متواصلة من دون الاعتماد كلياً على إمدادات الطعام المحلية.

بينما سهّل التلغراف تنسيق تحرّكات القوات من مسافات بعيدة، ونتيجة لارتباطه بنشر الأخبار، فقد زاد التأثير السياسي للمعارك والاشتباكات. في الواقع يصعب تخيّل تطوّر الصحافة على نطاق واسع من دون التلغراف ليشبع نهمها للأخبار. فقد عزّزت الاتصالات التلغرافية الآنية الاقتران الرخو بين أحداث المعارك وردود الأفعال السياسية. وزادت التقنيات الجديدة معاً من أهمية دور القيادة العليا في المركز السياسي: وبالتالي لا يستطيع قائد ميداني واحد الآن أن يأمل بمفرده تكرار مآثر رجال مثل نابليون Napoleon أو ولينجتون Wellington، مع أنه يتطلّع في الواقع إلى ذلك. لن يكون هنالك معركة حاسمة، مثل معركة يينا Battle of Jena ، أو أوسترليتز Battle of Austerlitz يمكن أن تضع نهاية لهذه الحرب، كما لا يمكن لرجل واحد السيطرة على العمليات في الميدان لوحده. وقد أدّت المتطلبات اللوجستية الضخمة للحرب الحديثة، بما في ذلك الإنتاج واسع النطاق، والاقتناء المركزي للمُعدّات والإمدادات، ونقل أعداد كبيرة من الجنود والإمداد لمسافات طويلة بواسطة السكك الحديدية، إلى تعزيز دور السلطة المركزية في التنسيق وتحديد الأولويات.

ربما لم يبتدع لنكولن نظام قيادة جديد، كما يرى بعض المؤرخين، لكنه قاد إحدى أوائل الحروب التي تمارس فيها القيادة

العليا للدولة تأثيراً يومياً ومباشراً على سير المعارك في الميدان. علاوة على ذلك، كان عليه أن ينشئ مؤسسة عسكرية تتكيّف مع الظروف الجديدة للحرب. إلا أن هذه المؤسسة لم تكن لتكون ذات مغزى يذكر، من دون مجموعة الأفكار الواسعة عن الكيفية التي يجب على الاتحاد أن يخوض بها حربه.

إذا وقفت كلها ضدّنا فسيصبح العمل الذي نضطلع به أكبر مما نحتمل

كانت مسؤولية لنكولن الكبرى، كقائد أعلى، هي ابتداع استراتيجية جديدة لكسب الحرب، وهو دور يتوافق، إلى حدّ ما، مع النظرية «السائدة» عن العلاقات بين المدنيين والعسكريين. لقد قام بذلك في بداية الحرب، ليس بكلام كثير، ولكن بسلسلة من المذكرات والرسائل، ومن خلال محادثات مع كبار مستشاريه. كان تصوّره الأساسي بسيطاً ومن الممكن اختزاله في النقاط المتداخلة الخمس التالية:

١- الهدف الأساسي للحرب هو استعادة الاتحاد ولكن بشرط ألا يتوسّع الرِّق خارج الولايات التي كان سائدا فيها قبل عام ١٨٦٠. ولن يكون هنالك تسوية على الدستور من أجل تحقيق السلام. كتب لأحد زملائه السياسيين بعد انتخابات عام ١٨٦٠ مشيراً إلى التسوية المحتملة بشأن توسّع الرق «أرفض كل ذلك. وأثبت على موقفي». كان لنكولن مستعداً لصنع السلام وتقديم تنازلات كبيرة ولكن لم يكن من بينها التنازل عن السبب

الحقيقي لاندلاع الحرب، وهو إصرار الجنوب على ما يعتبره حقّه في توسيع المناطق المحافظة على الرق. في نظر لنكولن، كان سبب الحرب رغبة الجنوب في عكس المسار الطبيعي والمرغوب فيه بالقضاء على الرق.

٢- بالرغم من حتمية الحرب في غياب تنازل الجنوب عن تلك النقطة، كان يجب أن تبدأ الحرب بأعمال عدائية من الجنوب، وعلى لنكولن أن يحافظ على الائتلاف المبدئي الهش في الشمال. لهذا السبب كان على الجنوب إطلاق الرصاصة الأولى على حصن سمتر. علاوة على ذلك، لن يستطيع الاتحاد معاداة الولايات التي يسود فيها الرق ما دامت موالية للاتحاد، بما في ذلك ديلاوير وميريلاند وكنتاكي. كتب لنكولن مبيّناً لأورفيل براوننج Orville Browning لماذا كان من الضروري عكس إجراءات جون فريمونت John C. Frémont غير المدروسة بشأن تحرير العبيد في الغرب: «أعتقد أن خسارة كنتاكي تساوي تقريباً خسارة اللعبة بأكملها. إن ذهبت كنتاكي، لن نستطيع الاحتفاظ بميسوري ولا بميريلاند، فيما أعتقد. وإذا وقفت كل هذه الولايات ضدنا، فيصبح العمل الذي نضطلع به أكبر مما نحتمل».

٣- يجب حرمان الكونفدرالية من الدعم الخارجي ومنع التدخّل الفاعل للقوى الأوروبية، وعلى رأسها بريطانيا، سواء باستخدام أسلوب المسايرة أو أسلوب التهديد. كان لنكولن في هذا الصدد يخالف بوضوح وجهة نظر وزير خارجيته، وليام سيوارد، الذي

اقترح خلال الأزمة (١٨٦٠/١٨٦١) استغلال أزمة خارجية لاستعادة الوحدة الوطنية. كان لنكولن مستعداً لفعل ذلك بالقدر الذي يعني قبول بعض الانتهاكات لمصالح أمريكا الحربية في البحر. وربما كان ما سمّى بمسألة «ترنت» في نوفمبر/ديسمبر ١٨٦١ - التي وبّخت فيها الولايات المتحدة ضابطاً بحرياً تصرف بشكل مفرط الحماس، وقبض على مندوبين من الجنوب على متن سفينة بريطانية - أكثر اللحظات حساسية في العلاقات البريطانية الأمريكية، أثناء الحرب الأهلية.

٤- من أجل إحراز نصر نهائي، على جيوش الاتحاد أن تقوم بسحق نظرائها التابعين للولايات المتحالفة. كتب لنكولن «تتمثل قوة التمرّد في قوته العسكرية : الجيش»، وألمح إلى أنها ليست في رؤوس أموالهم أو في أراضيهم ولا حتى في عدد سكانهم. كان لنكولن يتمسك بوجهة النظر هذه باستمرار، بدءاً من إصراره على شن هجمات على جيوش الكونفدرالية حول مدينة ماناساس في صيف ١٨٦١ واستمر على ذلك حتى نهاية الحرب «أعتقد أن النقطة المحورية الحقيقية هي جيش لي، وليست ريتشموند». لن نحرز النصر في الحرب بالمناورة ولكن بالقتال الشرس، ولن تنتهي الحرب بسقوط ريتشموند أو أي موقع جغرافي آخر ولكن بانهيار جيوش العدو.

٥- الوسيلة الأكثر فاعلية لتحقيق تدمير جيوش الكونفدرالية سيتمظهر في هجوم منسّق حول محيط الجنوب، وبهذا سنجعل التفوق الشمالي في العدد والعتاد يؤتي أكله. ردّد لنكولن هذه

الفكرة في عدد من المذكرات التي كتبها في أوائل الحرب. سيكون مفتاح النصر في الحصار المصحوب بهجمات متواصلة - وليس بالضرورة الهجوم على أي جزء من البلاد.

يبدو أن استراتيجية الاتحاد كانت واضحة بقدر كاف. إلا أن أربع من هذه النقاط احتاجت إلى تعديل في أثناء فترة الحرب الطويلة والشاقّة. وكما يحدث كثيراً، تتغيّر الأهداف الرئيسية نتيجة للتفاعلات التي تصاحب الحرب. تُصور النظرية «السائدة» عن العلاقات بين المدنيين والعسكريين رجلَ الدولة، على أنه واضع سياسات وخطوط عريضة للحرب، لكنه لا يأخذ في الاعتبار الأحداث التي تجعل الأهداف والأساليب الاستراتيجية تتغير. لم يصمد التصوّر الاستراتيجي للنكولن، مع أنه منطقي جداً، أمام اختبار المعركة. ولا تعكس التغييرات التي تبين له أنها ضرورية، نقصا في دقة تصوراته الأساسية، بل تعكس طبيعة الحرب نفسها التي تجبر من يخوضونها على تغيير أهدافهم وخططهم، علاوة على أساليبهم. فأكبر الاختبارات التي يجدها رجل الدولة في الحرب يكمن في قدرته على التكيّف، وليس في قدرته على وضع الخطط الكبرى.

بالرغم من أن الحرب لم تكن في أساسها حرباً لإنهاء الرق -«إن كان في وسعي إنقاذ الاتحاد من دون تحرير أي عبد، سأفعل ذلك» - فإنها أصبحت كذلك. وبهذا تحوّلت إلى نضال ثوري خلافاً لرغبة لنكولن. وكما عبّر عن ذلك مكفيرسون James McPherson :

- إن الحرب نفسها وليست الشعارات الأيديولوجية للنكولن هي

التي ولّدت القوة المحركة الراديكالية التي جعلتها ثورة أمريكية ثانية.

اختلف المختصون فيما إن كان لنكولن قد اعتمد هذا التغيير أم قاومه قدر ما يستطيع. لكن، من الواضح على أي حال أن الحرب أصبحت قابلة للتوقع، وإن كان غير راغب في طريقة سيرها. وعندما حدث ذلك، وتحديداً في أواخر صيف ١٨٦٢، لم يلتفت لنكولن إلى الخلف. وبقبوله توسيع أهداف الاتحاد لم يتمسك بهدفه الأصلي المحدود الذي لم يعد كافياً لتعبئة الدعم المحلي أو ردع التدخّل الأجنبي.

نجح العنصران الثاني والثالث من استراتيجية لنكولن - المحافظة على سيطرة الاتحاد على الولايات الحدودية وعزل الكونفدرالية عن الخارج - وإن كان هذا قد تم بصعوبة كبيرة. فأمله في التمسك بالولايات الحدودية من خلال مزيج من القيود والاستخدام الحكيم للقوة، تعرّض لضغط كبير، وبصفة خاصة خلال الشهور الستة الأولى للحرب. إذ دفع الاتحاديون المتشددون، وبصفة خاصة في ميسوري، سكان الولايات المؤيدة للجنوب بالفعل للجنوح نحو التطرّف مما أدى لسنوات من حرب العصابات. كما أن استغلال المشاعر المعارضة للرقّ في بريطانيا، لمنع تلك الدولة (ومعها فرنسا) من التدخّل في الحرب، تطلّب تحرير العبيد في النهاية. كان من المرجح أن يختار لنكولن هذا المسار في كل الأحوال، إلا أنه ساهم في زيادة اشتعال عنيف وبغيض للحرب.

تبيّن أن الركن الرابع من استراتيجية لنكولن، أي تدمير جيش

الكونفدرالية، أشدّ صعوبة بكثير مما تصوّر لنكولن. فقد اتضح جلياً بعد معركة فيرست بول رن، أن القضاء على جيش المتمرّدين سيستغرق سنوات طويلة. ثمة أمر آخر- لم يتضح إلا في عام ١٨٦٣- وهو أن سحق القوات المسلحة للمتمرّدين، أمرٌ لا بد منه، ويجب أن تصاحبه استراتيجية هجومية توجّه للاستعداد المعنوي والرغبة في القتال لدى السكان المدنيين المؤيّدين للاتحاد. يبدو أن لنكولن ظن أن ظهور الجيوش الاتحادية في عدة أجزاء من الجنوب سيسمح للسكان المؤيدين للاتحاد بالثورة والإطاحة بالحكومة المتمرّدة. إلا أن هذه الثورات التلقائية لم تحدث، مع بعض الحالات الاستثنائية الملحوظة. وكان لا بد أن تتحوّل الحرب إلى «الحرب العسيرة» في سنتي ١٨٦٤-١٨٦٥.

أخيرا، الهجوم المشترك المنسق، رغم أنه مرغوب نظرياً، إلا أنه قد ثبتت استحالة تنفيذه في الواقع حتى عام ١٨٦٤. وعندئذٍ نجحت اثنتان من أصل خمس من الحملات المخططة - ملاحقة جرانت للقائد لي، وحملة شيرمان عبر جورجيا ولاحقاً كارولينا الجنوبية. فيما فشلت الجهود الأولى للتصرف بقسوة في الغرب، وبصفة خاصة، فشلت المساعي لإقامة صلة مع المؤيّدين للاتحاد في جبال تنيسي الغربية.

وهكذا بالرغم من أن المبادئ الرئيسية لاستراتيجية لنكولن -«نظريته لإحراز النصر» - قد أثبتت جدواها، فإنها تطلبت تعديلات جوهرية عند التطبيق. وكما أشار جيمس مكفيرسون، كانت التعديلات أحيانا تتعلّق بالتوقيت -المثال الأوضح على ذلك إعلان تحرير العبيد الذي حرّر العبيد في الجنوب باعتباره تدبيراً حربياً، فقد تم توقيته

بدقة لإحداث التأثير المطلوب في الداخل والخارج. إلا أن القضية الجوهرية تظل على حالها. حتى أقوى الخطط الاستراتيجية لن تمر بتجربة الحرب القاسية دون تعديل. بل إن لنكولن بحنكته السياسية الفذة لم يستطع أن يتوقّع مسار الحرب الكبيرة، وكان عليه أن يعدّل ويغيّر المسار، مع إبقاء الأهداف النهائية دون تغيير. ولتحقيق ذلك، كان على لنكولن القيام بأكثر من مجرد اختيار القادة المناسبين – ومع ذلك لم يكن هناك مفر من اختيارهم.

لم تتمكن الحكومة من الاستفادة من الكفاءات المهنية المتوفرة لديها

إذن تخطّت مهمة لنكولن اختيار الجنرالات - لكن ذلك لا يقلّل من أهمية العثور على القادة العسكريين الذين يمكنهم التكيّف مع وسائل الحرب الحديثة واتباع خططه الاستراتيجية التي لا تكفّ عن التطور باستمرار. لم يقد أحد من القادة العسكريين الأمريكيين من قبل، غير وينفيلد سكوت الثمانيني، قوة عسكرية يصل عددها إلى عشرة ألف في زمن الحرب، فكيف بالجيوش التي تضمّ مائة ألف أو أكثر، والتي كانت تتشكل حينذاك. وكما هو الحال في معظم الحروب واجه الجنرالات مشكلات في قيادة تشكيلات مختلفة جداً عن تلك التي ألفوها في وقت السلم. وقد أنّب النُقّاد لنكولن لأنه عيّن «جنرالات سياسيين» وفشل في الاستفادة بوجه أمثل من مستشاريه العسكريين. «لم تعرف الحكومة كيفية الاستفادة من المهارة المهنية المتوفرة لديها»، كانت تلك الكلمات الأقسى من اللواء إيموري أبتون (Emory Upton)

عام ١٨٨٠، وهي تعكس جزئياً على الأقل كراهية العسكريين في وست بوينت للجنرالات المدنيين؛ ولا يزال هذا النقد قائماً.

في الواقع فإن جودة الضباط العسكريين المحترفين في الحرب الأهلية تحتاج إلى فحص دقيق. فمن وصلوا إلى رتبة جنرال في الجيش الاتحادي يمكن تصنيفهم إلى أربع مجموعات :

١- المحترفون ذوو الخبرة الطويلة.

٢- قدامي المحاربين ممن تركوا الخدمة العسكرية بعد خمس أو عشر سنوات من الخدمة.

٣- شباب ارتقوا سلّم الرتب في أثناء الحرب نفسها.

٤- مدنيون من دون خبرات عسكرية.

كل واحدة من المجموعات الأربعة أظهرت مزيجاً من نقاط القوة والضعف. ضمّ قدامى المحاربين - ممن التحقوا بالخدمة العسكرية ولم يتركوها - بعض الضبّاط الأشدّاء في الجيش الاتحادي. وينفيلد سكوت وجون رينولدز، مثلاً (خريجا الأكاديمية العسكرية الأمريكية الدفعة ٤٠ و٤١) أنقذا الموقف في غيتيسبرغ؛ وهما الأكثر تميزاً من المدرسة القديمة في بعض الجوانب –يتميّزان بالشجاعة واليقظة وقدر عال من الانضباط. وقد قادا فيالق في جيش بوتوماك في سلسلة من المعارك الدامية وحافظا على معنوياته العالية خلال مسيرات ممتدة حدثت خلالها نكسات محبطة. جورج توماس George Thomas، خريج الأكاديمية الأمريكية العسكرية، الدفعة ٤٠ أدى خدمات مشابهة

في الغرب، وحاز على لقب «صخرة تشيكاموجا» لدفاعه المستميت عن خطوط الاتحاد بعد أن شتّت اختراق ناجح للكونفدراليين جيش كمبرلاند بقيادة وليام روزكرانز William Rosecrans في معركة تشيكاموجا في سبتمبر ١٨٦٣. هؤلاء وغيرهم من الضباط المحترفين لم يُستبعدوا في بداية الحرب، بل إن لنكولن لجأ إليهم أولاً لقيادة الجيوش الجديدة. ومعظمهم خدم بتميّز في الحرب المكسيكية. لكن لم يحصل أي منهم على تعليم عسكري يتجاوز التدريب في وست بوينت التي تركز على الجوانب الهندسية. علاوة على ذلك، (وخلافا لحالة لي في الجنوب) لم ترتقِ إلا القلّة منهم، أعلى مراكز القيادة خلال الحرب التي كان من الممكن أن تُنحي جانباً غير الأكفاء بسرعة. كما أن عدداً لا يستهان به من العسكريين المحترفين، بما في ذلك من كان يحظى باحترام كبير في بداية الحرب، أثبتوا بأنهم غير جديرين بالقيادة العليا.

على سبيل المثال، رغم أن صموئيل هينتزيلمان Samuel Heintzelman، خريج الأكاديمية العسكرية الأمريكية، الدفعة ٢٦ شجاع على المستوى الشخصي، لكنه خشي التفكير في الهجوم على تحصينات الكونفدراليين في شبه جزيرة فيرجينيا عام ١٨٦٢، وكشف عن عدم الدراية وسوء التدبير في التعامل مع الجنود في معركة بول رن الثانية (٢٩/ ٣٠ أغسطس ١٨٦٢) وأحيل بعدها إلى مناصب قيادية إدارية. نجح دون كارلوس بويل Don Carlos Buell، خريج الأكاديمية العسكرية الأمريكية، الدفعة ٤١ في إحباط الغزو الكونفدرالي لولاية كنتاكي في خريف ١٨٦٢ لكنه لم يتعقّب العدو المنهزم مما أدى لاستبداله في أكتوبر من ذلك العام. وكان الشاب أوليفر أوتيس هوارد

Oliver Otis Howard، خريج الأكاديمية العسكرية الأمريكية، الدفعة ٥٤ يتمتّع بحياة مهنية ناجحة على ما يبدو، بالرغم من توليه قيادة سلسلة من الفيالق التي هُزمت فيها قواته (تشانسلرزفيل)، أو شُتّتت (جيتيسبيرج)، أو لم تُظهر تميّزاً (تشاتانوجا). وبهذا ندرك أن سجل المحترفين الخلّص مختلط. وعند التمعّن في مختلف العوامل يمكن القول إن إسهاماتهم في قضية الاتحاد كانت الثبات والتنظيم. ومما يثير الإعجاب أن بعضاً من أكثر الجنرالات كفاءة ممن لم يتركوا الخدمة العسكرية أبداً، كانوا شباناً بدؤوا الحرب بعد تخرّجهم حديثاً من وست بوينت برتبة ملازم. أنهى إيموري أبتون خريج الأكاديمية العسكرية الأمريكية، الدفعة ٦١ الحرب برتبة لواء وقائد فيلق في جيش بوتوماك. وأنهى جيمس ويلسون خريج الأكاديمية العسكرية الأمريكية، الدفعة ٦٠ أيضاً الحرب برتبة لواء وقائد الفرسان لدى وليام شيرمان. وقد وفّرت هذه المجموعة من الشبان الكثير من الاندفاع الذي تفتقر إليه المجموعة الأكبر سناً.

المجموعة التي قد تكون أكثر إثارة للإعجاب هي مجموعة شبه المحترفين من الجنرالات الذين قضوا فترة في الخدمة العسكرية ثم تركوها لفترات ما قبل العودة للانخراط بنشاط في العمل العسكري. استقال جرانت (خريج الأكاديمية العسكرية الأمريكية، الدفعة ٤٣ من الجيش عام ١٨٥٤، وخلع شيرمان خريج الأكاديمية العسكرية الأمريكية، الدفعة ٤٠ البدلة العسكرية في العام الذي سبقه، وكذلك فعل أمبروز بيرنسايد؛ واستقال مكليلان خريج الأكاديمية العسكرية الأمريكية، الدفعة ٤٦ عام ١٨٥٧؛ وترك روزكرانز خريج الأكاديمية

العسكرية الأمريكية، الدفعة ٤٢ الجيش عام ١٨٥٤ وغادر هوكر خريج الأكاديمية العسكرية الأمريكية، الدفعة ٣٧ عام ١٨٥٣. من هذه الطبقة الرفيعة من الضباط حصلت الجيوش على كبار القادة العسكريين، المتميّزين والسيّئين وغير المبالين. السؤال الجدير بالإجابة هو: لماذا حدث ذلك؟ ربما ترك الخدمة العسكرية في أثناء السلم، الرجالُ الأكثر طموحاً والأشدُ بأساً؛ ومن المحتمل أن خبراتهم خارج الجيش جعلتهم أكثر قدرة على القيادة في عصر تحوّل الجيوش والنظم اللوجستية. (ليس مصادفة، مثلاً، أن مكليلان كان مدير خطوط حديدية ناجح جداً في السنوات الأربع بعد ترك العمل العسكري).

أثار تعيين لنكولن للسياسيين في مناصب جنرالات في الجيش غضب كتّاب مثل أبتون بعد الحرب. إلا أنه كان هناك مبالغة في إعطاء هذا الأمر كل تلك الأهمية. وفي الحقيقة فإن بعضاً منهم كان ضعيفاً لدرجة مثيرة للشفقة. على سبيل المثـال، ناثانيـل بانكس Nathaniel Banks، الرئيس السابق لمجلس نواب ولاية ماساتشوستس وحاكم تلك الولاية، هزمه مرتين ستونول جاكسون، وقاد عام ١٨٦٤ حملة (رد ريفر) الفاشلة. لكن كان لبعض المدنيين الآخرين مسيرة عسكرية مثيرة للإعجاب. وبعضهم لم يكن سياسياً أبدا: جوشوا لورنس تشامبرلين Joshua Lawrence Chamberlain، الذي ربما ضُخّمت أهميّته في التاريخ بصورة تتجاوز إنجازاته نتيجة لرواية مايكل شارا Michael Shaara «قاتل الملائكة» (Killer Angels، ١٩٧٤) عن معركة غيتيسبرغ، كان أستاذاً جامعياً قبيل الحرب وأصبح لواءً وقائد فيلق. تلقى تشامبرلين خبر استسلام لي في أبوماتوكس، وهو شرف

تلقاه من جرانت شخصياً. نلسون مايلز Nelson Miles، ابن فلاح من ماساتشوستس، ترقى في الرتب ليصبح قائد فيلق بعد الحرب مباشرة، وأصبح لاحقاً القائد العام للجيش. وتميّز جون لوجان John Logan، وهو ديمقراطي من حزب فري سويل في ايلينوي، في الغرب حتى وصل لمنصب قائد جيش تنيسى بالإنابة. كما حارب بسجل ناصع جاكوب كوكس Jacob Cox، السياسي القادم من أوهايو، كقائد فيلق في جيش بوتوماك ولاحقاً في الغرب في معركتي فرانكلين وناشفيل.

بل إن بعضاً من أسوأ الجنرالات السياسيين سمعة تدور حولهم قصّة أكثر تعقيداً. دانيال سيكلس Daniel Sickles من نيويورك – كان قد قتل عام ١٨٥٩ عشيق زوجته (ابن مؤلف «الراية المرصعة بالنجوم») رمياً بالرصاص أمام البيت الأبيض، ودافع عن نفسه بنجاح بحجة الجنون المؤقت - سجّل اسمه في التاريخ باعتباره هاوٍ متمرّد، عرّض دون حاجة ميسرة جيوش الاتحاد لكارثة في غيتيسبرغ، حيث فقد ساقاً في تلك الحادثة. إلا انه في الواقع كان محبوباً ومحل تقدير بين رجاله وضباطه في الفيلق الثالث الذي يقوده. وفي تشانسلرزفيل أظهر فهماً سليماً لتضاريس ساحة القتال وثباتاً في القدرة على خوض المعركة.

كما اشتُهر بن بتلر Ben Butler، وهو ديمقراطي آخر شغل منصب حاكم ماساشوستس، بانعدام الكفاءة في حصار ريتشموند، وبالفساد في أوائل الحرب. ولكن بغض النظر عن إخفاقات بتلر، فإنه هو الذي قاد كتيبة من ماساشوستس لإنقاذ واشنطن عام ١٨٦١، كما قاد عدة عمليات برمائية ناجحة وعمل باقتدار حاكماً عسكرياً لنيو أورليانز. كما كان بتلر شغوفا أكثر من أي جنرال آخر باستغلال

التقنيات الجديدة بما في ذلك مدافع جاتلنج، والبنادق الآلية، وقاذفات اللهب، والأشرطة الشائكة، وعربات السكك الحديدية المصفّحة. كما أنه أول جنرال أمريكي يستخدم الاستطلاع الهوائي بالاستعانة بقائد منطاد في صيف ١٨٦١. وإن كان قد انتهى به الأمر بهزيمة الكونفدراليين له خارج ريتشموند، فهو ليس الجنرال الأمريكي الاتحادي الوحيد، الهاوي أو المحترف، الذي تعرض للإذلال على أيدي لي وبيرجارد وأمثالهم.

بل إن جرانت، الذي كان منحازاً على العموم ضد المدنيين المتحوّلين إلى جنرالات، اختار محامياً، جون رولينز John Rawlins، ليعمل (بنجاح كبير) رئيساً لأركانه. وكذلك اختار جوزيف هوكر مدنياً آخر، دانيال بترفيلد Daniel Butterfield، رئيساً لهيئة أركانه، وهو الذي أدخل نظام العلامات والشارات التي تعطي كل فيلق في الجيش سمة مميزة. كما أن الأنظمة الإدارية لجيوش الاتحاد اعتمدت على خدمات رجال مثل هيلمان هوبت الذي نظم الخطوط الحديدية للاتحاد في بداية الحرب، وبذلك أدى خدمة لا تقدر بثمن – وكان هوبت قد استقال من مهامه بعد ثلاثة أشهر من تخرّجه من وست بوينت في عام ١٨٣٥.

حظي الجنرالات المدنيون أحياناً بحماية من لنكولن، ولكن نادراً ما كان ذلك من دون سبب. فقد كان الاتحاد من عدة وجوه يشبه ائتلافاً أكثر من دولة متكاملة. وللمحافظة على الدعم، كان على لنكولن أن يتوجه نحو الممثّلين السياسيين للدوائر الانتخابية الهامة. كان الديمقراطيون المؤيّدون للحرب والأمريكيون من المهاجرين الألمان

على درجة خاصة من الأهمية، وقد تلقوا الكثير من الترقيات. كما أن الكثير من السياسيين اشتكوا، لأسباب وجيهة، بأن خريجي وست بوينت غير الأكفاء، كثيراً ما فُضّلوا على مدنيين أعلى كفاءة منهم. وتعتبر حالة جون لوجان الذي تم تجاوزه بعدم تعيينه قائداً لجيش تنيسي وتفضيل أوليفر أو. هوارد الأدنى كفاءة، مثالاً على هذا النهج.

لم يكن يتوفر للنكولن كوادر من الجنرالات الذين يتمتعون بالكفاءة. وفي الحقيقة فإن كلمة «كفاءة» نفسها مصطلح مطاط. وعندما اندلعت الحرب لم يكن أي منهم (ربما باستثناء سكوت) يتمتع بالخبرة العسكرية الشاملة التي يحتاج إليها لنكولن. مع ذلك فإن بعض هؤلاء الرجال، مثل مكليلان، كانوا مدرِّبين متميّزين وملائمين لتنظيم الجيش وتعليمه أساسيات المهنة، ولكن لا أكثر من ذلك. وكان في وسع آخرين أن يقدموا خدمات جليلة، ولكن في مهامّ محددة فقط (كالهجوم بالفرسان مثلاً) أو تنفيذ عمليات ذات طبيعة محددة (الدفاع مثلاً). وهنالك آخرون لا تبرز مهاراتهم إلا بعد سلسلة من الكبوات والعثرات، مما يثير علامات استفهام حول كفاءتهم وقدرتهم. وينطبق ذلك بوضوح على شيرمان وجرانت. عدم الاستقرار الذهني للأول، وإكثار الثاني من تناول الكحول والفشل في اليوم الأول من شيلو، أثارت شكوكاً حول قدراتهما العسكرية ولزم بعض الوقت لتبديدها. كان على لنكولن تطوير معايير أحكامه العسكرية لمعرفة مميّزات الأشخاص، والإخفاقات العسكرية التي عليه غضّ الطرف عنها، وتلك التي تنمّ عن عجز جوهري في أداء المهام. لم يكن أحد من هؤلاء القادة العسكريين كاملاً: كلهم ارتكبوا أخطاء من التهوّر

(جرانت في كولد هاربر) أو الحذر (شيرمان في حملة أتلانتا) في آخر الحرب كما في أولها. أما بالنسبة للنكولن، فحاله كحال أغلب الزعماء في زمن الحرب، يعتبر اختيار القادة العسكريين مسألة غرس، وإزالة للأعشاب الضارّة، لا مسألة اختيار للثمرات الطيّبة من مزرعة صغيرة واضحة المعالم.

راقب على مدار الساعة واضغط من أجل التنفيذ

لم يكن العثور على الجنرالات المناسبين إلا شرطاً استباقياً واحداً فقط من شروط النجاح الاستراتيجي. وثبت للنكولن، كما ثبت لآخرين من رجال الدولة، بأن توجيه الجنرالات، هو الأمر الحاسم. فالقواعد الأساسية التي وضعها لنكولن تحتاج لإدخال تعديلات عليها عند الممارسة، وتنفيذها يتطلب منه المراقبة والتدخل المستمر. ليس كافياً أن تُتلى هذه القواعد مرة أو مرتين، بل يجب أن تُغرس غرساً في أذهان القادة الضباط الذين تظهر منهم اعتقادات وتصرفات، تقف على النقيض منها. وليس أدل على ذلك من تدخّلات لنكولن المتكرّرة لمعالجة ما ينجم من مشكلات نتيجة تصرّفات عفوية تتصل بتحرير العبيد من قادة الاتحاد العاملين في الجنوب. منذ بداية الحرب، كان العبيد يهربون للاحتماء بحاميات الاتحاد التي بدأت تتأسس على تخوم الكونفدرالية. استغل بعض القادة مفرطي الحماس، هذه الحالات لبدء عملية تحرير العبيد. هذه الأفعال زادت الحرب اشتعالاً قبل أن يكون لنكولن مستعداً لاتخاذ تلك الخطوة. في كثير من الحالات تدخّل لنكولن لثني أولئك الضباط، كما حدث في مايو ١٨٦٢ ، عندما

أصدر إعلاناً رسمياً نقض فيه قرار تحرير مفترض لكل العبيد في جورجيا وفلوريدا وكارولينا الجنوبية، أصدره الجنرال ديفيد هنتر David Hunter، القائد العسكري بسواحل كارولاينا.

اعتبر لنكولن أن التهديد الأخطر لاستراتيجيته هو رفض عدد كبير من قادة الاتحاد العسكريين لمفهوم كسب الحرب من خلال نصر عسكري في الميدان:

- جيش لي وليس ريتشموند هو هدفكم الحقيقي.

هذه العبارة قالها لنكولن للقائد الثالث لجيش بوتوماك، جو هوكر، الذي كان سيخذله كما فعل آخرون. لذلك، لا نستغرب ذاك الإحساس العميق بالارتياح في رسائله لجرانت، لأنه وجد جنرالاً يتصرّف وفق مفهوم لنكولن الجوهري للحرب.

وفي نظر لنكولن لم يتمثل الخطر في الموقف الدفاعي لقادته العسكريين الأوائل - والأمر له علاقة بنوعية الأعداء الذين يواجهونهم - بل في أن كثيراً من الضباط، وخاصة في جيش بوتوماك، كانوا في الواقع معارضين لسياساته. وقد أدرك استناداً لأسباب منطقية، أن عدداً لا يستهان به منهم كان يتطلع إلى سلام قائم على التسوية مع الجنوب. لم تكن آراء مكليلان بعيدة عن هذا المنحى، لكنها اشتهرت أكثر من غيرها. في ٢٦ سبتمبر ١٨٦٢ كتب شخصيا للرائد جون كي John J. Key مساعد القائد العام، هنري هالِك، وشقيق العقيد توماس كي Thomas M. Key، أحد أقرب المساعدين للجنرال مكليلان، وعضو مجلس شيوخ سابق وعضو بارز في الحزب الديمقراطي. أشار الرئيس

إلى أن أنباء وصلته بأن الرائد كي سُئل في حوار خاص، من قبل أحد زملائه الضباط، وهو الرائد ليفي تيرنر (Levi C. Turner) :

- لماذا لم يُهاجَم جيش المتمرّدين مباشرة بعد المعركة التي بالقرب من شاربسبرغ؟

فأجاب كي :

- اللعبة ليست هكذا. القصد ألا يحقق أي من الجيشين انتصاراً حاسماً على الآخر. يجب الإبقاء على الجيشين في الميدان حتى ينال منهما الإنهاك والتعب، وعندئذٍ نتوصّل إلى تسوية ويتم تحرير العبيد.

كتب لنكولن :

- سأكون سعيداً إن برهنت لي، خلال أربع وعشرين ساعة من استلام هذه الرسالة، بواسطة الرائد تيرنر أنه لم تصدر منك الإجابة المشار إليها، سواء حرفيا أو ضمنياً.

في اليوم التالي مثل كي أمام لنكولن، وبرفقته الضابط الذي تحدث معه (والذي دافع بقوة عن ولاء كي لقضية الاتحاد). لكنهما لم ينكرا أنّ كي صدر منه ذلك التعليق. أعطى لنكولن كي رسالة ورد فيها جزئياً :

- ليس مقبولا البتة أن تصدر أقوال من أي رجل يتولى مهامّ عسكرية بتكليف من الولايات المتحدة، كتلك التي ثبت أن كي تفوّه بها.

ومن ثم فُصل كي لاحقا من الخدمة مبيناً لسكرتيره بحزم :

- إن كانت هناك (لعبة) قَط، بين رجال الاتحاد، تجعل جيشنا لا ينتصر على الأعداء عندما تتاح له الفرصة، فإن هدفي الآن هو كسر هذه اللعبة.

وفي ٢٤ نوفمبر ١٨٦٢ كتب لنكولن رسالة ثانية للرائد كي، الذي سلّم للتوّ مجموعة من الرسائل يتوسل فيها إعادته للخدمة، مرسلة (وربما موقّعة) من قبل الجنرال هالِك.

من السهل أن يتوقع المرء أن الوقت قد حان للنكولن لتقديم عرض عن رأفته المعهودة، بعد أن أزيح مكليلان من القيادة وخلفه أمبروز بيرنسايد الأكثر مرونة. وكان أسف كي، العميق صادقاً دون أدنى شك، علاوة على ذلك فإنه قد قدّم للاتحاد أكبر تضحية يمكن تقديمها، فقد قُتل ابنه البالغ من العمر ثمانية عشر ربيعاً، وهو قائد متطوعي أوهايو، نتيجة إصابات في المعركة، قبل أسبوعين فقط. علم لنكولن بذلك. فأرسل رسالة إلى كي بدأت بتقديم تعازيه للرائد المفصول الحزين على وفاة ابنه، إلا أن الرئيس أعقب كلمات التعاطف تلك بالتالي :

- أنا لا أتهمك ولا أنوي أن أتهمك بعدم الولاء، لكنني جُبلت على الخوف من صنف من ضباط في الجيش، ليسوا قليلين عدداً، يمارسون (لعبة) ألا يهزموا العدو عندما يتمكّنون من ذلك، استنادا إلى مفاهيم غريبة مثل دعاوى امتلاكهم للأسلوب السليم في المحافظة على الاتحاد. وعندما ثبت لي بحضورك

شخصياً، بأنك فعلاً مؤيد لتلك (اللعبة) ولم تحاول إنكار ما ثبت عليك، فصلتك لتكون مَثَلاً وإنذاراً لذلك الصنف من الضباط. أنا لا أتهمك بسوء النية، وآسف لأني لم أستطع أن أضع نموذجاً لذلك الزجر دون أن تتأذى أنت شخصياً. ولكن هل يمكنني الآن، بالنظر إلى المصلحة العامة، أن أعيدك للخدمة، وبالتالي يفهم الجيش بأني أؤيّد وأدعم تلك (اللعبة) أنا الآخر؟ لو كان هنالك أدنى شك في اعترافك، لكان الأمر مختلفاً. أنا آسف للألم الذي سبّبه لك ذلك الحدث، ولكني لا أستطيع أن أعدل عنه، مع الاستمرار في التزاماتي تجاه الواجب.

كانت رسالة قاسية لرجل قدّم للتوّ أعظم تضحية يمكن أن تخطر على بال الاتحاد، إلا أن لنكولن ظل مصراً على موقفه. وقد راجع الأمر للمرة الأخيرة بعد يومين من عيد الميلاد ولخّص رأيه :

- عند التمعن بروّية، لا أجد أسباباً كافية للعدول عن الخلاصة التي توصلت إليها.

وهكذا طغى التصميم الذي لا يلين على التعاطف والرأفة التي عُرفت عنه.

غير أن قسوة لنكولن فيما يتعلق بقضية الاتحاد كانت تأخذ التوازن من حكمه على ما يمكن توقّعه. عندما هزم جيش بوتوماك بقيادة الجنرال جورج ميد جيش فيرجينيا الشمالية بإمرة روبرت إي. لي في بتسبرغ، تحدث الجنرال عن طرد (الغزاة من أرضنا) وهي عبارة أغضبت الرئيس.

هذا استرجاع مخيف لمكليلان. إنها نفس الروح التي دفعته ليدعي تحقق نصر عظيم لأن : «بنسلفانيا وميريلاند أصبحتا آمنتين».

- ألا يستطيع الجنرالات تنحية تلك الأفكار عن أذهانهم؟ كل هذه البلاد أرضنا .. لقد حبس جنودنا الحرب في تجويف أكفهم ولم يقبضوا عليها .. لقد أجهدنا أنفسنا في الحرث وغرس محصول وفير، وعندما نضج لم نحصده.

قدم ميد استقالته، تعبيرا عن استيائه، بعدما علم بخيبة أمل لنكولن الكبيرة فيه لتوانيه عن تدمير جيش الكونفدرالية الذي تقهقر ووجد نفسه محاصراً وخلفه نهر بوتوماك الفائض. كتب لنكولن :

- عزيزي الجنرال، لا أظنك تدرك حجم الكارثة التي حدثت بهروب لي. لقد كان في متناول يدك وبكل يسر، ولو أنك أطبقت عليه، وأضفنا ذلك إلى نجاحاتنا الأخرى في الآونة الأخيرة، لكانت نهاية الحرب. لكن استناداً إلى ما حدث، فإن الحرب ستطول حتماً. أنت لم تستطع مهاجمة لي يوم الاثنين الماضي، فكيف ستستطيع فعل ذلك في جنوب النهر حيث لا يمكنك أن تصطحب إلا ما يربو بقليل على ثلثي القوة التي كانت معك؟ من غير المنطقي أن تتوقع، وأنا لا أتوقع لك، نجاحاً كبيراً. لقد ضاعت فرصتك الذهبية، وما أشعر به من استياء حيال ذلك، يعجز عنه الوصف.

لم يرسل لنكولن تلك الرسالة قط. أقنع هالِك، ميد بسحب الاستقالة وامتنع لنكولن عن الإشارة إلى الموضوع مرة أخرى. ولكن

عندما عجز ميد عن الدخول في معركة جديدة مع لي في سبتمبر، نقل لنكولن قسما كبيراً من جيش بوتوماك إلى الغرب، ليحرزوا نصراً هنالك في تشاتانوجا. وفي شتاء ١٨٦٣/١٨٦٤ أحضر يوليسيس أس. جرانت إلى الشرق لا ليخدم قائداً عاماً للجيوش فحسب، بل قائداً فعلياً لجيش بوتوماك أيضاً. لقد اختار لنكولن مجاملة ميد وحمايته، ومن المرجح أنه كان يدرك أنه جنرال صلب ومقاتل لا يميل لدفع الجيش نحو الالتحام الأخير، ولذلك لم يكن لنكولن يثق بأنه سيخوض المعركة الفاصلة بدون إشراف، على العكس من جرانت.

مال لنكولن منذ البداية إلى عدم توجيه الأوامر، بل كان يستفسر ويحثّ ويقترح. وكان يفعل ذلك بعد الحصول على نصائح عسكرية من مصادر متعدّدة. وقد أشرنا سابقا إلى استعداده لاستشارة صغار الضباط فيما يتعلق بإمكانية نجدة حصن سمتر، مما أزعج الجنرال سكوت كثيراً. في المقابل عندما استبدل الجنرال سكوت بالجنرال مكليلان، استمر لنكولن في استشارة القائد العسكري المتقاعد وطلب نصحه. وقد زاره لهذه الغاية في وست بوينت في ٢٤/٢٥ يونيو ١٨٦٢ في أثناء حملة شبـه الجـزيرة. كمـا كـان إيثان ألين هيتشكـوك Ethan Allen Hitchcook مستشاراً عسكرياً يطلب لنكولن رأيه كثيراً، فهو حفيد بطل حرب التحرير إيثان ألين، ومؤلف أكثر من ستة كتب في السيمياء وفلسفة سويدنبورج الدينية. وكان لإيثان سيرة تحتذى في عمله مفتشا عاماً لجيش سكوت في مكسيكو. لجأ إليه لنكولن في عدة مواقف حرجة بما في ذلك عندما ساورت كلاً من الرئيس ووزير حربه ستانتون شكوك بأن مكليلان قد ترك واشنطن غير محصنة

جيداً ضدّ هجوم الجيش الجنوبي. بينما جيش بوتوماك يتجه بحراً نحو شبه الجزيرة. في تلك المناسبة أشار كل من هيتشكوك ومساعد القائد الجنرال لورنزو توماس Lorenzo Thomas بأن مكليلان لم يلبّ طلبات لنكولن بأن تبقى واشنطن في «أمان تام» فيما يحاول جيش بوتوماك أن ينتزع ريتشموند من شبه الجزيرة.

علاوة على ذلك، كان لنكولن يستقي معلوماته مباشرة عن العمليات الحربية من ملاحظاته الشخصية واللقاءات مع كبار القادة العسكريين. على سبيل المثال، في يوليو ١٨٦٢، زار لنكولن جيش بوتوماك في شبه الجزيرة، ولم يكتف بسؤال مكليلان وحده، بل سأل كبار مساعديه العسكريين عن صحة الجنود ومعنويّاتهم وعن سير العمليات. وكرّر تلك الزيارات للجبهات عدة مرات بما في ذلك زيارته، من ١ – ٥ أكتوبر من ذلك العام، بعد معركة أنتيتام، وفي أبريل ١٨٦٣ قبل حملة الجنرال هوكر الفاشلة على تشانسلرزفيل، وكذلك بعدها مباشرة أيضاً، في ٤-٦ و١٩ أبريل عام ١٨٦٣ ومرة أخرى في ٧ مايو. كما تفقّد الخطوط الأمامية في أثناء زحف جوبال إيرلي Jubal Early على واشنطن، وتعرّض لنيران معادية عندما فعل ذلك في ١١ يوليو ١٨٦٤، كما زار بعد ذلك بفترة وجيزة جرانت في حصن مونرو ليتدارس معه الأوضاع، ثم اصطحبه معه عائداً إلى واشنطن في الأسبوع الأول من شهر أغسطس، وبقي حتى تم تنظيم القيادة هنالك. استمر لنكولن في التحدّث مع قادة الفيالق طوال الحرب، أو على الأقل حتى أصبح جرانت القائد العام للجيش. وبالرغم من أنه لم يعجب بما كان يسمع في الغالب، فقد حذره هوكر من الزُمر التي تشكّلت من كبار الضباط في

جيش بوتوماك - ولذلك أبقى أصبعه يتحسس نبض الجيش. وتصرّف في إحدى المناسبات بناء على نصيحة بعض مساعديه من الجنرالات عندما فرض هيكلاً إدارياً على مستوى الفيالق على جورج مكليلان غير المتحمّس لذلك، والذي لا يرغب في رؤية تلك المجموعة من قادة الفرق الأدنى منه.

قد يكون الأمر اللافت للنظر في كل آليات السيطرة لدى لنكولن، استخدامه بالإضافة إلى ستانتون، مساعد وزير الحرب تشارلز دانا، كمراقب خاص لجيوش الاتحاد في الميدان. بلغ عمر دانا أربعة وأربعين عاماً عندما اندلعت الحرب، وعمل كمساعد مدير تحرير صحيفة «نيويورك تربيون» (وكان يمتلك حصة فيها تبلغ الخمس). بعدما فصله هوراس جريلي Horace Greely المهيب بسبب آرائه السياسية، التقى دانا بكل من ستانتون ولنكولن قبيل الحرب وأُرسل باكراً إلى الغرب في عداد لجنة (التدقيق في الدعاوى التي لم يبتّ فيها على إدارة الإمداد والتموين البحري في كايرو، إيلينوي). في ضوء أنشطته الأخيرة، لنا أن نتساءل: هل كانت تلك مهمته الحقيقية في تلك البعثة؟

بغض النظر عن هدف ضمه لتلك البعثة، فبعد تجارب في شركات تجارية في مجال تجارة القطن على الحدود متقلّبة الهوى بين الاتحاد والكونفدرالية (تجربة أدانها بشدّة لاحقاً)، استدعاه ستانتون إلى واشنطن في مارس عام ١٨٦٣ وكلفه بمهمة. أخبره ستانتون أنه والرئيس يرغبان في معلومات «تمكّن السيد لنكولن ونفسه، من اتخاذ قرار بشأن جرانت الذي كانت عليه بعض الشكاوى، وتحوم حوله آنذاك الكثير من الشكوك». كان غطاء دانا أنه «مفوّض خاص من

وزارة الحرب للتقصي عن أوضاع رواتب جيوش المناطق الغربية : «إلا أن عملك الحقيقي هو أن ترفع لي تقارير يومية عن مشاهداتك». ولهذا الغرض منح شفرة خاصة يستخدمها في اتصالاته مع ستانتون. سافر دانا إلى الغرب الأمريكي والتحق بجرانت الذي لم يخفِ عنه شيئاً عن قصد، بالرغم من هواجس العاملين معه. وفي وقت قصير أصبح دانا ملازماً لجرانت بل أصبح في الحقيقة، واحداً من أشرس المدافعين عنه في واشنطن.

وجّه ستانتون، دانا بألا يقدم أي نصيحة لأي من القادة الذي لازمهم لاحقاً – وذلك أمر حكيم أدركه دانا فيما بعد. بعث ستانتون، دانا بعد حملة فيكسبيرغ الناجحة ليراقب الجنرال وليام روزكرانز وجيش كمبرلاند الذي تبعه في أثناء حملة تشاتانوجا الشاقة. وعاد دانا إلى واشنطن في ديسمبر عام ١٨٦٣ حيث عين لاحقاً مساعداً لوزير الحرب. وعندما بدأ جرانت في مايو من العام التالي، حملته الطويلة التي انطلقت من وايلدرنس لمحاصرة بيترسبرج وألحقت بالكونفدرالية الهزيمة الساحقة في النهاية، بعث لنكولن دانا شخصيّاً ليرسل له تقارير بانتظام عن تحرّكات جرانت. بقي دانا مع جرانت طوال الصيف وعاد إلى العاصمة ليعمل منسقاً بين جرانت ووزارة الحرب إبان الوضع المشحون بالهلع بسبب زحف جوبال إيرلي على واشنطن. ومن ذلك الحين وحتى نهاية الحرب، ظل دانا في واشنطن للتحقيق مع «المقاولين المقصّرين في التزاماتهم والعملاء المخادعين وإصدار أوامر باعتقال أشخاص متّهمين بعدم الولاء للحكومة»، علاوة على تعيين جواسيس للعمل ضد الكونفدرالية. وكان دانا من أوائل من

استدعاهم ستانتون بعد اغتيال لنكولن للمساعدة في الإشراف على الاعتقالات الجماعية للمتآمرين الذين شاركوا في عملية الاغتيال.

أدّى تمرّس دانا في مجال الصحافة إلى جعله أداة مناسبة لتحقيق الأهداف التي خطط لها لنكولن وستانتون. ولأنه مراسل يتصف بالانضباط والإخلاص، كان تصويره للمعارك دقيقاً وبليغاً. لكن الأهم من كل ذلك، كان قدرته على تحليل الشخصيات. فيما يلي وصفه لروزكرانز في كاتانوجا :

- من واجبي أن أوضح أن قلّة من الناس يظهرون مزايا اجتماعية جديرة أكثر بالتقدير، لكنني لم أرَ رجلاً قط ممن تولّى منصباً عاماً يمتلك مهارة، مع قدرات إدارية ضعيفة، وعدم وضوح وثبات عند الشدائد، وضعف في القدرات العملية مثلما رأيت في الجنرال روزكرانز. إنه يتميّز بالخصوبة الإبداعية والمعرفة، ولكن لا يملك الإرادة القوية، ولا التركيز على الهدف. كان ذهنه مشتتاً ولا يتبع نظاماً في يومه المليء بجسيم المهمات ولياليه القلقة. كما أنه يفتقر للشجاعة في مواجهة من يأتمرون بإمرته، ومع حبه العظيم للقيادة إلا أنه قائد ضعيف. إنه رجل ذو علم ونزاهة بقدر ما هو تآمّري ومولع بالجدل. هو دائماً ذو نزوة طائشة وميل شديد لنيل الاستحسان من أصدقائه المقرّبين والجمهور في الخارج. وفي ظل الظروف الراهنة، لا أعتقد أن هذا الجيش في أمان على الإطلاق تحت قيادته، ولكني لا أعرف رجلا غير توماس يمكن أن يحل محله الآن، ويوفّر قدراً من الإحساس بالأمان. الطقس لطيف إلا أنه ملبد بالغيوم».

في أغلب الحالات كان يقتصر عمل دانا على تزويد لنكولن وستانتون بسيل من التقارير ذات المصداقية العالية عن العمليات مما يمكنهما من تقييم القادة المقصودين. من المرجح أن رأيه الإيجابي بجرانت الذي برز من خلال تقاريره، أسهم كثيراً في تبديد ظلال من عدم الثقة المستندة إلى أخطاء حقيقية في أثناء حملة شيلو علاوة على تقارير - تستند إلى الواقع أيضاً -عن إسرافه في شرب الكحول أحياناً. وجد لنكولن، القارئ الحذر للتقارير المرسلة، مصدراً للمعلومات يمكنه الوثوق به، وكان مصدراً أكثر استفاضة وبساطة وأقل مدحاً للذات، من التقارير المعتادة للجنرالات عن أنشطتهم.

وبعد أن نال جرانت ثقة لنكولن وستانتون، أبقى الرئيس دانا ملازماً لمركز إدارة جرانت ليبعث له بتقارير عن تحركات الجنرال الاتحادي. هذا دليل إثباتٍ آخر، بأن لنكولن لم يكن متساهلاً في تسليم المسؤولية الكبرى عن إدارة الحرب لجرانت. بحلول ذلك الوقت أصبح دانا داعماً بشدة لجرانت، إلا أن ذلك لم يقلل أبداً، من مقدار الاستفادة منه. لم يظل دانا مدوناً حصيفا للعمليات العسكرية فقط، بأسلوب صحفي، بل أصبح يمتلك معلومات دقيقة عن القيادة العليا للدولة. ومن خلاله موقعه مراقباً متعاطفاً، وفّر لجرانت معلومات دقيقة عن البيئة السياسية التي على الجنرال التعامل معها. فعلى سبيل المثال، حذر دانا صراحة الجنرال رولينز، رئيس هيئة أركان جيش جرانت بشأن «الحقيقة الداخلية» للأوضاع السياسية في صيف ١٨٦٤، بعد حملة دامية كلفت ٧٠،٠٠٠ قتيل وجعلت العاصمة غير حصينة ضد هجوم كبير شنته الكونفدرالية. وبالرغم من أن مسؤولية

أغلب الكوارث التي لحقت بالجيش كانت تقع على عاتق الجنرالين بتلر وميد، فإن جرانت بوصفه القائد العام أختار ألا يغيث أياً منهما. وعلّق دانا على ذلك بقوله «هذا وقع بالفعل، ولا أجد له تفسيرا».

ومع اقتراب نهاية الحرب، أبقى لنكولن مراقبة لصيقة على أنشطة جرانت. وفي ٣ مارس ١٨٦٥ وجه لنكولن تعليمات صارمة لجرانت (عن طريق ستانتون) :

- عليك ألا تتحاور مع الجنرال لي، ما لم يكن ذلك من أجل استسلام جيشه، أو من أجل أمور ثانوية وعسكرية محضة. عليك ألا تقرر أو تناقش أو تتفاوض بشأن أي مسائل سياسية. تلك المسائل يحتفظ بها الرئيس، فلا تبْسطها لأي حوار أو نقاش عسكري. وفي المقابل عليك أن تستفيد من مكاسبك العسكرية لأقصى درجة.

لم تكن مخاوف الرئيس نظرية البتة. بعد أيام قليلة من مقتل لنكولن في ١٨ أبريل ١٨٦٥، وافق شيرمان على شروط استسلام سخية جدا لجيش الجنرال جوزيف جونستون، آخر قوات كبيرة متبقية للكونفدرالية. شملت شروط تلك الاتفاقية بنوداً مثل اعتراف حكومة الولايات المتحدة بحكومات الولايات الجنوبية، والموافقة على الرجوع إلى المحكمة العليا للبت في أي منازعات حول صلاحيات الولايات، وضمان الحقوق السياسية الكاملة لسكان الولايات الجنوبية وعفواً عاماً. وهي سياسات ما كانت لتستحسنها إدارة لنكولن. بناء على أوامر ستانتون، وجه جرانت أمراً إلى شيرمان بإلغاء تلك الهدنة في

الحال؛ وأصدر وزير الحرب تنصلاً علنياً منها. الأمر الذي أغضب شيرمان كثيراً- لدرجة أنه رفض أمام الملأ أن يصافح ستانتون عند الاستعراض العام للجيش في واشنطن بعد شهر من تلك الحادثة.

من جانبه، لا يكاد يُعرف عن جرانت شيء سوى تأدبه في تعامله وخضوعه لسلطات لنكولن، وهي صفات تتجلى في أفعاله ومراسلاته المباشرة القليلة مع الرئيس. ورد تعبير مطابق لذلك في رسالة بتاريخ ١٩ يوليو ١٨٦٤ حينما طلب بتوسل إرسال ٣٠٠،٠٠٠ جندي إضافي ليحسم الحرب:

- أقدم هذا الطلب من وجهة نظري الشخصية تماماً، من دون أي إملاءات قد تُتصوّر، مع استعداد دائم لاستغلال الموارد التي تتوفر على أفضل وجه ممكن.

ورد لنكولن مع الإشارة ضمناً إلى أنه لا يتوقع تذكّر جرانت لطلبه ٥٠٠،٠٠٠ جندي أضافي، في اليوم السابق! لقد أبدى جرانت خضوعاً مثيراً للتساؤل فيما يتعلق بكل ما يمس السياسة أكثر من أي جنرال أخر عيّنه لنكولن، وطول صبر مماثل، فيما يتصل باستفسارات لنكولن واقتراحاته وملاحظاته.

لم يتوقف انشغال لنكولن بالعمليات الجارية عند تعيين جرانت قائداً عاما للجيش. فخلال الهجوم الأخير للكونفدرالية على الشمال، وتحديداً في حملة جوبال إيرلي على واشنطن في يوليو ١٨٦٤، لعب لنكولن دوراً فاعلاً هنا أيضاً. كان لنكولن وستانتون أول من أحس بالقلق من تحرّكات إيرلي خلافاً لوجهة النظر الأكثر تفاؤلا في مركز

قيادة جرانت بأن قوات الكونفدرالية لن تتوغل في تحركاتها بعيداً باتجاه الشمال. اقترح لنكولن أن تكون عودة جرانت إلى واشنطن لترتيب دفاعات المدينة بقدر ما هي لتدمير قوات إيرلي. أرسل جرانت القوات بينما ظل هو في بيترسبرج، وظل لنكولن يراقب العمليات ويتواصل مع الجنرالات المشتركين في المعارك.

تعقّدت المطاردة نتيجة لتضارب الصلاحيات بالإضافة لعدم استعداد الجنرال هالِك، رئيس أركان الجيش، أو عجزه عن توحيد القوات المتعدّدة المتجمعة في منطقة واشنطن، بأمر من لنكولن. حينها استدعي لنكولن جرانت لاجتماع في حصن مونرو في ٣١ يوليو بعد يوم من هجوم فاشل على جيش لي في بيترسبرج. لم يكن لنكولن راضياً عن قوة عمليات قوات الاتحاد ضد قوات الكونفدرالية - التي أحرقت للتو مدينة تشامبرسبيرغ في أثناء هجومها على بنسلفانيا انطلاقا من مواقعها في وادي شيناندوا -وأعقب ذلك برسالة صارمة إلى جرانت :

- اطلعت على رسالتك التي تقول فيها: «أريد أن يكون شيريدان قائداً لكل القوات التي في الميدان، وإرسال التعليمات بأن يتمركز جنوب العدو وأن يتبعه حتى القضاء عليه. أينما اتجه العدو دع قواتنا تكون خلفه». أعتقد أن هذا صائب تماماً فيما يتعلق بكيفية تحرّك قواتنا. لكن أرجو أن تطلع على الرسائل التي تسلّمتها منا منذ أن أصدرت ذلك الأمر واكتشف، إذا كنت تستطيع، إن كانت هنالك فكرة خطرت على بال أي واحد منا هنا بشأن «تمركز جيشنا جنوب العدو» أو أن يتتبعه «حتى القضاء عليه» في أي اتجاه. أكرّر لك بأن لا شيء من ذلك سينفذ أو تجري محاولة

تنفيذه ما لم تراقبه كل يوم وكل ساعة وتضغط من أجل تنفيذه.

قدم جرانت إلى واشنطن اليوم التالي. وخلال الأيام القليلة التالية نظم القوات العسكرية المتعددة لولايات الأطلنطي مكوّنا منها جيش شيناندوا ووضعه تحت قيادة الجنرال فيليب شيريدان Philip Sheridan الذي تتبّع جيش إيرلي حتى قضى عليه.

القيادة العسكرية والقيادة السياسية توأمان لا يمكن فصلهما ويكمل أحدهما الآخر

لم يتوقف إشراف لنكولن على العمليات العسكرية حتى وفاته. لا شك في أنها تغيّرت بمرور الوقت، فقد كانت ثقته في جرانت - مع أنها ليست مطلقة - قوية بما يكفي لتسمح له بتخفيف المراقبة التي مارسها مع سابقيه. ومع ذلك، كان لا يتردد في تأكيد سلطاته عندما يتعلق الأمر بمفاوضات السلام وخلال تأزّم العمليات العسكرية. وكما كان في بداية الحرب، ظل لنكولن منغمساً في تفاصيل العمليات العسكرية، متابعاً حتى النهاية تحركات الجيوش والرسائل التي يبعث بها القادة العسكريون. وحتى وفاته، ظلت قراءته للعمليات العسكرية جيدة مثل جنرالاته وأحياناً أفضل منهم.

مثل كثير من الزعماء السياسيين، فضّل لنكولن العمل بصورة غير مباشرة مستخدماً هنري هالِك وإدوين ستانتون بمثابة وسيطين، بالرغم من أنه قلما أخفى دوره الشخصي. وكثيرا ما يجد المرء في الرسائل التي بعث بها الرجلان للقادة الميدانيين إشارة إلى توجيهات

الرئيس لهما. فيما يُظهر ستانتون لنفسه صلاحيات غالباً ما يتجنبها هالِك، فإن كليهما يدرك جيداً من هو : السيد في البيت الأبيض.

كان لنكولن يستغل جوانب القوة في الرجلين ويتغاضى عن نقاط ضعفهما. وفّر هالِك للنكولن الخبرة التقنية، فأدّى دور المترجم العسكري للقائد الأعلى للقوات المسلحة. وبالرغم من أنه يُصوّر بسخرية على أنه إداري كثير الشكاوى صعب الإرضاء ومراوغ، وفق تعبير أحد النقاد، إلا أن الرجل كان يمتلك مميزات حقيقية. لقد نال تقدير واحترام أكثر من قائد كبير. كتب شيرمان لأخيه السناتور جون شيرمان في ديسمبر ١٨٦٣ :

- يمتلك هالِك قدرات لا يمتلكها أي ضابط آخر في الجيش. نعم، لجرانت مزايا معينة لا يمتلكها هالِك، إلا أنها ليست بالقدر الذي يؤهله لقيادة جيش كامل. لم تأت الحرب بمكافئ له منافس لمنصب القائد العام للقوات المسلحة.

إن الرجل الذي نال لقب «العقول التليدة» لهو عسكري متمكّن من الجيل القديم لم يجد نفسه البتة منسجماً مع ثورة في زمن الحرب. وهو مؤلف كتب حوت فكراً رائداً في مجال الشؤون العسكرية والقانون الدولي وكان «ناقداً جيداً لأفعال الآخرين وتصرفاتهم» لكنه عاجز عن العمل بقوة، لضعف في «الاستعداد والشجاعة والثبات»[٨١] وفق عبارات نقد لاذعة لسكرتير لنكولن للشؤون البحرية، جيديون ويلز Gideon Welles.

- لم يكن رجلاً قوياً في الملمّات!

هكذا قال لنكولن بوضوح عندما خذله هالِك إبان أزمة فقدان جيش بوتوماك الثقة بالنفس في ديسمبر ١٨٦٢، ومرة أخرى في الأيام العصيبة حين هجوم إيرلي على واشنطن في صيف ١٨٦٤ - مع أنه قدم خدمات جليلة في إدارة سيل الرسائل بين القادة السياسيين وجيوشهم المرتبكة. وعندما أصبح جرانت القائد العام للجيش، لم يكن راغباً في استبدال هالِك باعتباره رئيساً للأركان، بالرغم من أن هالِك لم يعامل جرانت باحترام في وقت مبكر من الحرب. وقد وصف جرانت، هالِك في أبريل ١٨٦٢ بأنه «واحد من أعظم الرجال على مرّ العصور»، رغم أنه غيّر هذا الرأي في نهاية الحرب.

عمل هالِك لدى لنكولن بمثابة قناة اتصالات ومترجم ومراقب إداري. أما إدوين ستانتون فقد كان شخصية مختلفة تماماً. كان يمتلك طاقة هائلة وطموحاً مع حدة في الطبع. كان رجل حرب من الحزب الديمقراطي، وقد بذل قصارى جهده للحفاظ على الحكومة إبان أزمة شتاء ١٨٦٠/١٨٦١ عندما كانت إدارة جيمس بوكانان تتخبط في جو من المؤامرات والفرقة. وأثبت ستانتون سابقاً أنه منافس محترف وناجح للنكولن. وظل حتى تعيينه يحمل نفس وجهة النظر السلبية السائدة عن الرئيس في دوائر واشنطن. إلا أنه منح لنكولن منذ تلك اللحظة، كامل مهاراته وقدراته التي لا يستهان بها. ومع أن لنكولن سيطر على كل شيء كما أشار وزير الخارجية سيوارد بعد الحرب، إلا أن تلك العلاقة بين الرجلين كانت تتميز بتقارب استثنائي. كان ستانتون لا يثق بأغلب الضباط العسكريين، معتقداً أنهم يفتقدون الحماسة الكافية لإكمال أعمال إعادة الوحدة الوطنية. أما ثورة غضبه على مخالفة

شيرمان الوقحة للتعليمات بعقده هدنة مع جونستون فيجب فهمها في ذلك السياق.

نشأت بين لنكولن وستانتون علاقة تقارب واضح، وغالباً ما كان لنكولن يدخل مكتب ستانتون لتفحّص التلغرافات ومناقشة سير العمليات العسكرية في كل ساعات الليل أو النهار. ومع أن ستانتون حصل على نصيبه وأكثر من العداوات في حكومة لنكولن وبين كبار القادة العسكريين، فإن ذلك لم يقلّل من منفعته للرئيس الذي يحتاج حاجته الملحّة للنشاط والعمل الدؤوب لدعم المجهود الحربي. وقد وفّر له ستانتون ذلك، منذ أول يوم عُيِّن فيه وحتى نهاية الصراع.

تعرفنا في الفصل السابق إلى الفهم السائد للدور التقليدي لقائد حرب مدني: تحديد الأهداف السياسية العامة وتعبئة الموارد واختيار كبار القادة العسكريين. وقد تحمّل لنكولن عبء تلك المهام، رغم أنها كانت ثقيلة بما يكفي، لأنها تحتاج على الأقل إلى دراسة خيارات متعددة. فكبار القادة العسكريين الذين يتمسكون بقوة وقناعة بسياسة الرئيس ليسوا بالضرورة ممن يملكون أفضل القدرات العسكرية، والعكس صحيح.

لهذا السبب أظهر لنكولن وستانتون انحيازاً للسياسيين الذي تحوّلوا إلى جنرالات والجنود غير المحترفين الذين يملكون الحماسة والرغبة في سحق التمرّد، وهي صفات يفتقدها بعض أمهر الخبراء. وفي نفس الوقت كان عليهم أن يعبئوا طاقات الشمال من خلال ممارسات فعالة وناجحة. ومن هنا جاءت ميزة الشمال في تكوين أفواج جديدة

تحل محل قوات أنهكها الصراع، بدلاً من إرسال أفراد لتقوية الوحدات القديمة. هذا النمط من الممارسة أوجد أعداداً كبيرة من الوحدات ذات القدرات المتدنية وحرمت الجنود الجدد من اكتساب الحنكة والقوة التي كان يمكن الحصول عليها، وهم بين قدامى المحاربين. في المقابل مكّن هذا النهج الزعماء السياسيين، بما في ذلك كل الحكام العسكريين البارزين، من استخدام رعايتهم السياسية والاستفادة من التأثير السياسي لتكوين كتائب جديدة.

بالرغم من صعوبة المهام التقليدية للقيادة المدنية للحرب التي واجهها لنكولن، فإنها لم تشكّل سوى جزء من فهمه لمسؤولياته باعتباره قائداً أعلى للجيش. وقد فعل أكثر من ذلك في الواقع: لم يختر لنكولن قادته العسكريين فقط، بل عمل على تعليمهم وتدريبهم وتوجيههم. ولهذا السبب أدرك بأن عليه أن يطّلع بدقة على تفاصيل الحرب، من التكنولوجيا إلى تنظيم الجيوش وتحريكها، كي يتمكّن على الأقل من إصدار أحكام مبنية على معلومات موثوق بها عن كبار القادة العسكريين.

في أوقات المخاض العسير للحرب نفسها، لا يمكن الاعتماد على الخبراء العسكريين لإصدار أحكام دقيقة بشأن الوسائل والأساليب الأكثر ملاءمة للقيام بالمهام العاجلة. وكمعظم الناس، يفضل هؤلاء أحياناً قدامى الرفاق والأصدقاء: تحيز شيرمان وجرانت مثلاً ضد الجنود المدنيين لصالح النظاميين قاد لعدم إنصاف جون لوجان، الذي يستحق بحق أن يكون قائداً لجيش، وتفضيل ديفيد هنتر غير الكفء الذي هزمه جوبال إيرلي في صيف ١٨٦٤.

لم يكن كبار القادة العسكريين مثل جرانت ولي، يدركون تماماً تأثير التقنيات العسكرية الحديثة (وعلى وجه التحديد البندقية التي تطلق رصاص ميني) كما لا يدرك الإداريون العسكريون مثل هالِك، إمكانيات التقنيات المدنية الجديدة مثل السكك الحديدية. وكثيراً ما أخطأ القادة العسكريون في قراءة الوضع العسكري، حتى بعد أن استقرت الحرب على نمط يعتمد التقنية والمناورة الشاملة، بصورة أو أخرى. من أفضل الأمثلة على ذلك فشل جرانت نفسه في إدراك نوايا إيرلي في مهاجمة واشنطن وتأخّره في اتخاذ القرارات التنظيمية والشخصية لتكوين قوات تستطيع تدمير قوات التحالف المهاجمة. عجز جرانت عن استحضار الصورة الشاملة للحرب مؤقتاً عندما أولى اهتمامه، كما يفعل القادة العسكريون أحياناً، لمسرح الأحداث الأقرب والمهام الآنية، كما حدث عند حصار بيترسبرج، وتركيز جهوده على تدمير قوات لي بينما تدكّ قوات شيرمان قلب الجنوب. وإن حدث هذا لجرانت، الذي يملك أكثر من أي قائد آخر، رؤية وإرادة للحرب التي تَصوّرَها شاملة للبلاد بأكملها، وأنه يجب التعامل معها على هذا الأساس، فمن الممكن جداً أن يحدث هذا لمن هو دونه شأناً.

كان على لنكولن أن يطلع قادته على أهداف الحرب وأن يذكرهم بأسسها السياسية الرئيسية. لم يقتصر دوره على إيجاد المنهج الاستراتيجي لإدارة الحرب، بل أصرّ على التزام القادة العسكريين به. لم يكن مساعدوه على توافق معه دوماً أو مع بعضهم بعضاً، وكثيراً ما وجد نفسه مرغماً على التدخّل لتسوية منازعات بين القادة العسكريين حين يختلفون حول قضايا تافهة أو كبيرة. باختصار، كان قلما يتلقى

نصائح عسكرية يتفق عليها جميع مستشاريه، بل كان يجد في أكثر من مناسبة نفسه في مواجهة مستشارين ليست لديهم أدنى رغبة في تقديم أي نصيحة على الإطلاق.

يمكن القول إن أفضل سيرة ذاتية للنكولن تلك التي كتبها اثنان من الرجال الذين عملوا معه وهما سكرتيريه جون نيكولاي John Nicoly وجون هاي John Hay . ولا تتوافق رواياتهما عن الحرب مع التحليل الذي كتبتُه هنا في «لنكولن يعثر على جنرال» فيما يتصل بدور لنكولن، قائداً أعلى للجيش. وكان وصفهما لمحاولاته بصدد التحكم في مسار الحرب، على توافق كبير مع كلمات كارل فون كلاوزفيتز بشأن العلاقة بين السياسة والحرب. وبعد شرحهم لسبب اضطرار لنكولن لإصدار أوامر بهجوم مبكر على الكونفدرالية في يوليو ١٨٦١، بالرغم من ارتياب قادته العسكريين، علق نيكولاي وهاي:

- يخضع إصدار حكم تاريخي على حرب ما، لقانون غير مرن، فهي إما أن تُفهم بطريقة شوهاء وإما أن لا يُدرك منها إلا النزر اليسير. يفضل الكتّاب العسكريون أن يتعاملوا مع المعارك العسكرية التاريخية بقوانين رقعة شطرنج المحترفين فقط، ودائماً ما يقلّلون من شأن البعد السياسي أو يتجاهلونه تماماً. هذا يمثل خطأ قاتلاً، فكل الحروب تبدأ وتنتهي لاعتبارات سياسية. ولن تكون هنالك حرب دون شعب وحكومة وأموال واعتمادات مالية وحماسة شعبية ترفدها بالمتطوعين ودعم شعبي يتحمّل الخدمة العسكرية - كما أنه لن تكون هنالك بداية أو نهاية لعداوات تستند إلى مبادئ. الحرب والسياسة،

الحملة العسكرية وفنّ الحكم، توائم متماثلة لا يمكن فصلها، وإنما يكمل بعضها بعضاً. ومن العبث التحدّث عن العمليات العسكرية من دون توجيه وتدخّل من إدارة سياسية، مثلما يعتبر عبثاً التخطيط لحملة عسكرية من دون جنود أو رواتب شهرية أو إعاشة.

أدراك لنكولن لشأن التفاعل بين الحرب والسياسة، بالتوازي مع قدرته على استيعاب التفاصيل العسكرية، وفهم الطبيعة البشرية، هو ما جعله أعظم رئيس أمريكي في زمن الحرب.

الفصل الثالث

كليمنصو في زيارة

٣٠ مارس ١٩١٨، في ذروة هجوم ألماني مدمّر، زار فرنسا وزير الذخيرة والعتاد الحربي البريطاني المعيّن حديثاً، ونستون تشرشل، بناء على طلب من رئيس الوزراء لويد جورج. في تلك الآونة كان الجيش البريطاني الخامس قد تلقى أشد الضربات قسوة وإيلاماً، وتراجع الجيش الفرنسي أمام هجوم ألماني غير مسبوق في الشدّة والمهارة التقنية. كانت الخطوط الدفاعية للحلفاء تتصدّع، ولاحت في الأفق معركة كارثية على أبواب باريس. زار وفد تشرشل القيادة العليا للجيش البريطاني برفقة رئيس الوزراء جورج كليمنصو الذي استمع لطلبات القيادة البريطانية المتمثلة في حاجة ملحة لتعزيزات فرنسية لضمان صمود المقاتلين. ردّ كليمنصو بالإنجليزية :

- حسنا، إذن الأمور على ما يرام. قد استجبت لما ترغب فيه. لا تهتم بأمر الترتيبات السابقة. إن كان رجالك قد تعبوا وتوفر لنا رجال على مسافة قريبة ولم ينلهم التعب بعد، سيأتي رجالنا لنجدتكم في الحال.

واستطرد قائلا : وأنا أطلب مكافأتي.

- وما تلك سيدي؟

سأل قائد الجيش البريطاني الرابع الجنرال السير هنري راو لينسون Henry Rawlinson.

- أريد ان أعبر النهر وأن أشاهد المعركة.

هزّ قائد الجيش رأسه. وأردف قائلا:

- ليس من الصواب أن تعبر النهر.

- ولم لا؟

- لسنا مطمئنين بشأن الوضع وراء النهر. إنه غير مستقر تماماً.

- حسنا ، سنعيد ترتيبه. بعد قطع كل تلك المسافة وإرسال فرقتين لك، لن أرجع من دون أن أعبر النهر. ستأتي معي سيد تشرشل وأنت يا لوشير. قليل من الطلقات النارية مفيد.

وأشار كليمنصو إلى رئيس أركانه، ضاحكاً.

استجابة لرغبة كليمنصو استدعى الجنرال راولنسون قوة حماية وانطلقت المجموعة الصغيرة حتى وصلوا إلى موقع يشاهدون منه آخر الجنود البريطانيين - خطّ رفيع يبعد حوالي ثلاثمائة ياردة عنهم. ترجل كليمنصو من سيارته وسارت معه بقية المجموعة.

- ظللنا هنالك حوالي ربع ساعة نسأل المتخلّفين ونتعجب من المشهد. لم تنفجر أي قذيفة على مسافة أقل من مائة ياردة منا. كان لوشير وكليمنصو في أفضل الحالات. وكانا يتعاملان بلا

مبالاة وعدم مسؤولية، مثل طلاب مدارس في إجازة.

إلا أن الضباط الفرنسيين كان يساورهم قلق متزايد على سلامة رئيس وزرائهم. طلبوا مني بإلحاح أن أقنعه بالرجوع. ليس هنالك المزيد لرؤيته، وهنالك مسافة طويلة علينا قطعها قبل أن تنتهي جولتنا التفقدية. كان النمر العجوز في تلك اللحظة يصافح ضباطاً بريطانيين منهكين تعرفوا إليه وحيّوه فمنحْنا أولئك الضباط محتويات علب سجائرنا. قلت حينها «أعتقد أن علينا الذهاب» فوافق بطيب خاطر.

عندما وصلنا الطريق انفجرت قذيفة بين سرب من الخيل التي أمامنا على مسافة لا تبعد عنا كثيراً، فتفرق السرب. جاء حصان جريح من دون راكب يعرج على جنبات الطريق نحونا. كان الدم يتدفق شلّالا من الحيوان المسكين. تقدم النمر العجوز، ابن الرابعة والسبعون، نحوه بسرعة فائقة وأمسك بلجامه فأوقفه في الحال. تجمع الدم في بركة على الطريق. ناجاه الجنرال الفرنسي برهة ثم استدار وسار إلى سيارته على مضض. وعندها نظر إلي بطرف عينه وقال بصوت خافت :

- ما أروعها من لحظات!

كانت لحظة لا تنسى، حتى لتشرشل الذي ألف الرصاص المتطاير وكان ميالاً إليه بطريقة غريبة :

- ليس هناك ما هو أبهج من أن تتعرّض لإطلاق النار، بدون إصابات.

خلال الفترة التي أدار فيها كفاح فرنسا العظيم أثناء الحرب، كان كليمنصو يزور الخطوط الأمامية مرة في الأسبوع تقريباً. كان يفعل ذلك، دون ان يتظاهر بالشجاعة أو الفرح الطائش بصخب الحرب ومفاجآتها السريعة – إنه إغراء قد لا يستطيع أن يقاومه أي سياسي آخر. كانت زيارات كليمنصو، مثل رسائل لنكولن، تعكس نمطاً من القيادة المدنية في وقت الحرب المدروسة بعناية، مثل أي ورقة رسمية أو خطاب جماهيري. ما الذي دفع الرجل العجوز لقضاء يوم كامل في الأسبوع بين الرصاص المتطاير يحادث الجنود في خنادقهم؟ وما المكسب الذي يحققه من وراء ذلك؟

النمر

- الحرب أهم من أن تترك للجنرالات.

تبقى عبارة جورج كليمنصو الأكثر شهرة بالنسبة لطلاب العلوم العسكرية الناطقين باللغة الإنجليزية. القليل منهم يعرف شيئاً عن كيفية وصوله إلى ذلك المشهد وإلى تلك القناعة. في أذهانهم صورة باهتة بأنه بثّ روح المقاومة في فرنسا المنهكة عام ١٩١٨ وأنه كان يحاول أن يُحرز لدولة تنزف دماً، سلاماً صعباً مع ألمانيا عام ١٩١٩. ما عدا ذلك لا نعرف عنه إلا القليل. أما في بلده، فالقصة مختلفة، رغم أن تجارب وانتصارات فرنسا بعد عام ١٩١٩ ألقت ظلالاً شاسعة على إنجازاته.

أتى النمر، كما كان يُعرف بعد عام ١٩٠٣، إلى السلطة متأخراً.

قضى ثلاث سنوات ونصف وزيراً للداخلية ثم أصبح رئيساً للوزراء بين عامي ١٩٠٦ و١٩٠٩، ولم يعد للحكومة مرة أخرى إلا في ١٧ نوفمبر ١٩١٧، قبل سنة تقريباً من نهاية الحرب العالمية الأولى. عمل رئيساً للوزراء حتى يناير ١٩٢٠ بعد أن قرر الترشّح لرئاسة جمهورية فرنسا إلا أنه هُزم. في عام ١٩١٧، عندما عاد لمنصب رئيس الوزراء، كانت فرنسا تمر بأكبر أزمة حتى ذلك التاريخ. كان في سن السادسة والسبعين وجعبته مليئة بعدد كبير من العداوات، إلا أنه كان مستعداً لخلق المزيد من تلك العداوات وبمنتهى السعادة. قال لاحقاً للجنرال إدوارد سبيرز Edward Spears، الضابط البريطاني الأنيق المسؤول عن التنسيق مع الجيوش الفرنسية :

- كانت لديّ زوجة فهجرتني، وكان لي أبناء فانقلبوا علي، وكان لي أصدقاء فخانوني. لا أملك الآن إلا مخالبي، وسوف أستعملها.

خلافاً للنكولن وتشرشل وبن غوريون، صنع كليمنصو حرباً وسلاما هشّاً، إلا أنه حقيقي. دخل الرجل في صراعات مع شخصيات مرموقة ومشهورة : قائدي فرنسا العسكريين فليب بيتان Philippe Pétain وفرديناند فوش Ferdinand Foch، ورئيس ذكي ومتعاون - على نحو متقطّع - ريمون بوانكاريه Raymond Poincaré. كما كانت له عداوات مع شخصيات أجنبية لا تقل أهمية، بما في ذلك شخصيات بريطانية مثل رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج David Lloyd George والقائد البريطاني المُشير دوجلاس هيج Douglas Haig، وشخصيات أمريكية مثل قائد القوات الأمريكية الخارجية الجنرال جون بيرشينج

John J. Pershing. قاد كليمنصو دولة عانت ويلات حرب مدمّرة لم يشهدها سوى عدد محدود من الدول الديمقراطية، حيث بلغت حصيلة ضحايا فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى ١،٣٨٥،٠٠٠ قتيل و٣،٠٤٤،٠٠٠ جريح، بين جنود ومدنيين.

يمثل هذا العدد أكثر من عُشر عدد السكان الذي بلغ حينذاك أقل من أربعين مليوناً. وفق رؤية عسكرية بحتة، كانت الخسائر جسيمة بدرجة يصعب تصوّرها. إذ كان لفرنسا خلال سنوات السلم جيش قوامه ٨٢٣،٠٠٠ فرد بينما عبأت للحرب ما مجموعه ٣،٧٨١،٠٠٠ رجل: لذا فإن خسائرها خلال فترة الحرب كاملة بلغت تقريباً قوتها العسكرية الأولية بأكملها. واحتلت القوات الألمانية حوالي ١٠ بالمئة من الأراضي الوطنية الفرنسية، بما في ذلك أهم مناجم الفحم والحديد. واقتربت القوات الألمانية مرتين من العاصمة باريس- مركز الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بلا منازع - وتعرّضت في الحقيقة إلى قدر كبير من القنابل والقذائف التي لا يمكن وصفها إلا بالمرعبة والمدمرة بمعايير الحرب الأولى.

كان على كليمنصو خلال فترة رئاسته لمجلس الوزراء أن يشحذ الهمم ويرغّب في القتال جيشاً ظل ينزف ثلاث سنين بلا انقطاع. خسرت فرنسا في معركة فيردان وحدها، ما بين فبراير وديسمبر ١٩١٦، حوالي ١٦٢،٠٠٠ بين قتيل أو مفقود في أثناء العمليات، وما لا يقل عن ٢٠٠،٠٠٠ جريح. وكما لاحظ غاي بدرونسيني Guy Pedroncini :

- إن كان الجرس سيقرع مرة في الدقيقة لكل ضحية فرنسية، فسيستمر جرسنا يقرع أربعة شهور دون توقف.

وبتعبير آخر فإن خسارة فرنسا في تلك المعركة التي حدثت في سنة واحدة من الحرب، تعادل ثلاثة أضعاف ما خسرته الولايات المتحدة خلال حرب فيتنام، مع مراعاة أن عدد سكانها كان يعادل سدس سكان الولايات المتحدة في ستينيات القرن العشرين. وبعبارة أخرى، للمرء أن ينظر لخسائر فرنسا في معركة فيردان وحدها من زاوية أنها تعادل في سنة واحدة ثمانية عشر ضعف ما خسره الأمريكيون في فيتنام.

عندما أصبح كليمنصو رئيساً للوزراء كانت روسيا تغادر الحرب، مما سمح لألمانيا بتوجيه كامل قوتها نحو الحلفاء المترنحين في الغرب. لم تكن الولايات المتحدة قد دخلت الحرب بعد؛ وتعرضت بريطانيا نفسها لخسائر هائلة في وحل باشنديل، في معركة استمرت ثلاثة شهور تقريبا – من أغسطس حتى نوفمبر ١٩١٧- مما كلّف قوات المُشير هيج ٧٠،٠٠٠ قتيل و١٧٠،٠٠٠ جريح من الجنود البريطانيين وجنود المستعمرات البريطانية.

شاهد كليمنصو ما تتعرّض له فرنسا من هجوم ألماني خلال ربيع وأوائل صيف ١٩١٨ وهي معركة استُخدمت فيها، وبتأثير مدمر، أساليب قتالية طوّرت وأتقنت في أثناء معارك الدفاع الباسلة في الجبهة الغربية، وهي معارك تجلّت فيها ملامح حرب ضروس ستندلع في أوربا بعد عشرين سنة لاحقة. سعى النمر حينها للحفاظ على

تحالف مضطرب مع بريطانيا والولايات المتحدة (وكانت الأخيرة «قوة مشاركة» ولم تصبح بعد حليفاً عملياً) حتى حان النصر الحاسم. وترأس أخيراً مفاوضات اتفاقية السلام التي- رغم أخطائها - أعادت لفرنسا مقاطعتي الألزاس واللورين بعد أن خسرتهما فعلا. معاهدة تركت ألمانيا مقيّدة، لكن غير عاجزة، ومنحت فرنسا مواقع على ضفّة نهر الراين، إذا رغبت في المحافظة عليها، لردع أي تطلع ألماني مستقبلي محتمل لاستخدام القوة.

كان لتلك الإنجازات عدة وجوه. وتهمنا ثلاثة هنا. أولاً : أسلوب كليمنصو في القيادة، وهو يتضمن اهتماماً ملحوظاً بتفقد أرض المعركة المباشرة. ثانياً : إدارته للعلاقة ثلاثية الأضلاع بينه وفوش (الذي أصبح أخيراً القائد الأعلى لقوات الحلفاء)، وبيتان (القائد العام للجيوش الفرنسية في الجبهة الغربية). بما في ذلك نزاعه مع فوش في كيفية التعامل مع التعزيزات الأمريكية. ثالثاً : إدارته للعلاقة بين المدنيين والعسكريين في أثناء عملية صنع السلام التي توجّها صراعه مع فوش حول شروط اتفاقية السلام النهائية.

وقد أكّدت هذه المهام انخراط كليمنصو بعمق في إدارة ائتلاف لا تلعب فيه أي دولة دوراً مهيمناً، ويتطلب السيطرة على جيوش لا يشك أحد في كفاءتها، كما لا يساور الجيوش أنفسها، أدنى شك في ذلك.

ولد كليمنصو في بريتاني عام ١٨٤١، لأب معارض عنيد لحكم حفيد نابليون بونابرت، نابليون الثالث. بعد أن حصل على شهادة في الطب عام ١٨٦٥ سافر إلى الولايات المتحدة في تلك السنة ومكث

هنالك ثلاث سنوات. أعجب خلالها كثيراً بأبراهام لنكولن الذي قُتل للتوّ. وتزوج سيدة أمريكية (طلقها عام ١٨٩٢) إلا أنه رزق منها بثلاثة أبناء. ثم بدأ مهنة الكتابة. عندما عاد إلى فرنسا انتخب في الجمعية الوطنية عام ١٨٧١ وأصبح عمدة لإحدى نواحي باريس خلال الثورة التي أصبحت تعرف باسم «الكومون». ومنذ ذلك الحين مزج بين الطب (بدرجة أقل) والسياسة والصحافة وعمل في مجلس النواب من عام ١٨٧٦ حتى ١٨٩٣ ولاحقاً في مجلس الشيوخ.

كان كليمنصو اشتراكياً راديكالياً، وهي عبارة لها دلالة تختلف كثيراً عما تعنيه بلغة اليوم. كان يؤيّد بشدّة حرية الصحافة والتجمّع، يعارض عقوبة الإعدام ويسخر بشدة من السياسة الاستعمارية الفرنسية. وفي قضية درايفوس المثيرة للجدل وقف إلى جانب النقيب اليهودي في الجيش ألفريد درايفوس Alfred Dreyfus الذي اتهم بالتجسس من دون إثبات. ونشرت صحيفته «لورور» في ١٣ يناير ١٨٩٨ استنكار الروائي الشهير إميل زولا Emile Zola ما يثار ضدّ درايفوس، بعنوان «إني أتهم». كان جانب كبير من «القضية» يتمثل في محاولة تغطية جهود هيئة الأركان للضغط على درايفوس ومن ثم منع إدانة المجرم الحقيقي وهو ضابط على صلة بالطبقة الارستقراطية يدعى فرديناند إسترهيزي Ferdinand Esterhazy. وكان كليمنصو خصماً شرساً لرجال الكهنوت، ومتعصبٌ بلغ درجة جعلته يناقض مبادئه الليبرالية، فيعارض توسيع حق الاقتراع ليشمل النساء بحجة أنهن سهلات الانقياد، ويستسلمن لتأثير الكنيسة.

وخلال أغلب فترات عمله كان ينظر إلى الجيش الفرنسي

بمشاعر مختلطة. عندما كان عمدة لناحية مونمارتر، وهو في الثلاثين من عمره، في عام ١٨٧١ فشل في إنقاذ اثنين من الجنرالات من جموع الغوغاء الثائرة في باريس خلال ثورة الكومون الدموية. نازلة أعقبت هزيمة فرنسا من بروسيا وحلفائها الألمان في السنة السابقة. كانت حادثة جعلته ينظر دوماً بامتعاض إلى الغوغاء والرغبة في سفك الدماء؛ كما إنها أبرزت استعداداً للاعتماد على النفس طبع كل حياته. قال أحد الضباط الذين استطاع كليمنصو إنقاذهم في وقت لاحق أمام الجمعية الوطنية:

- لو رأيتموه وهو يشق طريقه بين القتلة، فلن تستطيعوا أن تتصوروا كيف نجا هو نفسه من طلق ناري!

كان كليمنصو يحب أن يروي للجنود الأمريكيين أنه وصل إلى ريتشموند قبل يوليسيس جرانت بقليل. وأنه استطاع أن يجري حواراً مع الجنرال الأمريكي، وكيف دُهش من مقدار خضوع جرانت للسلطات المدنية. وباعتباره يعقوبياً من المدرسة القديمة، فقد كان يعتقد أن الجيش يجب أن يبقى خاضعاً للسلطات السياسية ومحايداً في السياسية. لخّص جان باتسيت دوروسيل Jean Baptiste Duroselle وجهة نظر كليمنصو وقت قضية درايفوس:

- عاش الجيش، مع الخضوع للسلطات المدنية طبعاً؛ جيشا وطنيا وجمهوريا؛ وتباً للمتطلعين للقيادة السياسية؛ والرفض لكل القوى الأوليجاركية المؤيدة لحكومة الأقلية، وبخاصة تلك المنبثقة عن الجيش.

لم يهتم النمر كثيراً بالاتجاهات السياسية، فقد كان يبغضها كلها، يسارية كانت أم يمينية. كان مستاء مثلاً من «قضية السجلات» التي احتفظ فيه الجمهوريون الفرنسيون – من خلال الماسونيين الأحرار- بملفات عن الانتماءات المختلفة لضباط الجيش، وبصفة خاصة معتقداتهم الدينية. آلاف القصاصات الورقية أخذت طريقها لوزير الحرب المعادي لرجال الدين والملَكية، والذي استقال من منصبه عام ١٩٠٤ عندما ذاع خبر البرنامج الذي تسبب في انهيار الحياة المهنية لكثير من منتسبي الجيش. وبالرغم من ذلك فإن كليمنصو المعادي للكاثوليكية، عندما تقلد منصب رئيس الوزراء للمرة الأولى، هو الذي عيّن فرديناند فوش - سترد عنه تفاصيل إضافية لاحقاً - في منصب قائد الكلية الحربية، وهو منصب رفيع وعلى قدرٍ عالٍ من الأهمية. ووفق بعض الروايات فإن الحوار بينهما جرى على النحو التالي :

- أعرض عليك منصب قائد الكلية الحربية.

- أشكرك سيدي الرئيس، إلا أنني أدرك بأنك على علم بأن أحد إخواني يسوعي.

- أعلم ولا أعير ذلك اهتماماً. ستُخرِّج لنا ضباطاً متميّزين ولا يُهمني أي شيء آخر.

وبما أن كليمنصو نفسه مهني، فإنه يحترم الكفاءة المهنية في الآخرين، رغم أنه لا يعير اهتماماً للزي العسكري أو الرتب العسكرية بحدّ ذاتها :

- الأمر يتطلب أكثر من مجرد قبعة بشعار ذهبي لتحويل أبله إلى رجل ذكي.

ومثل بن جوريون لاحقا، يعتقد كليمنصو أن :

- لا علم يعلو على القانون الأسمى لحسن التصرّف.

وقد التزم بذلك. وفيما يتعلق بالجيش الفرنسي باعتباره مؤسسة، فقد كتب وقت قضية درايفوس عام ١٨٩٨:

- لا شرف للجيش ولا شرف للقضاء ولا شرف لمجلس الدولة، أرفع من شرف المزارعين أو بائعي السجائر. هنالك أخطاء شخصية تترتب نتائجها على المذنب فقط. يتكون الجيش من مدنيين يلبسون بطريقة معينة ويخضعون لنظام معيّن من أجل هدف محدّد. الرجال لا يعتبرون أفضل أو أسوأ إن لبسوا سراويل حمراء أو رمادية، قبعات عسكرية أو قبعات بولر.

الرجل ليس مسالما، كيف له أن يكون مع تلك الموهبة بالسيف والمسدس ؟! محارب قديم خاض عشرات المعارك في السياسة والحب. يكره كليمنصو المغامرات العسكرية ولا يملّ من إدانة التوسّع الاستعماري الفرنسي، كما ساعد في إسقاط مجلس الوزراء الذي بدأ العمل على تكوين الإمبراطورية الفرنسية في الصين الهندية، وأدان المشاركة الفرنسية في الحملة على تمرّد الملاكمين في الصين. كرّس جهوده لقضية مقاطعتي الألزاس واللورين المحتلتين، ولم يكن ثأريّاً، بالرغم من أنه مع نهاية الحرب كان تحريرهما، واحداً من أهم أهدافه.

كان كليمنصو يعرف الجيش الفرنسي جيداً. خلال الحرب وحتى ١٩١٧ جعل من واجبه معرفة الجيش بصورة أفضل. كانت صحيفته «لوم ليبر» (الرجل الحر) تنتقد بشدة تعامل الجيش مع جرحاه، فتعرضت بعد فترة وجيزة لحملة شديدة من المخبرين العسكريين مما دفع كليمنصو لتغيير اسمها إلى «لوم إنشان» («الرجل المقيّد بالسلاسل»).

في عام ١٩١٥ صار نائباً لرئيس لجنة الشؤون العسكرية بمجلس النواب وتقلّد بعد ثلاثة شهور نفس المنصب في لجنة الشؤون الخارجية بمجلس الشيوخ. كان مؤمناً قوياً بضرورة إشراف البرلمان على المجهود الحربي ومهتماً جداً بمشكلات الحصول على الإمدادات والروح المعنوية للجيش ونحوها. وقد استهجن فشل القوات الفرنسية في الاستجابة على نحو مناسب لموضوع إدخال الأسلحة الكيميائية، مثلاً، وعدم رغبة الحكومة الفرنسية في اعتقال المخرّبين.

صعد كليمنصو للسلطة بعد سقوط حكومة باينلوفي في نوفمبر ١٩١٧. بول باينلوفي (Paul Painlevé)، هو عالم الرياضيات المتميز، ورئيس الوزراء ثلاث مرات ووزير الحرب منذ مارس ١٩١٧. وكان قد تولى رئاسة مجلس الوزراء ذلك العام بعد هجمات نيفيل المدمّرة وحالات العصيان في الجيش الفرنسي التي تلت ذلك. كانت نظرته في بعض الجوانب تتوافق مع نظرة كليمنصو إلا أنه يميل للخطط الدفاعية أكثر. وسيراً على منوال ممارسات الجمهورية الفرنسية، تعرّض لموجات من الفضائح (تشمل قضية بولو باشا التي انتهت بإعدام مغامر اكتُشف بأنه كان أداة لنقل الأموال الألمانية التي تذهب

لصحيفة فرنسية يمتلكها أحد أعضاء مجلس الشيوخ وعضو لجنة الشؤون العسكرية). أثبتت الحكومات السابقة لكل من رينيه فيفياني (René Viviani) وأريستيد بريـان (Aristide Briand) وألكسنـدر ريبـو (Alexander Ribot) أنها غير قادرة على السيطرة على الجيش أو المحافظة على ثقة الجماهير. وقد اندلعت الحرب بسبب ما أطلق عليه جير كليمنس كينج Jere Clemens King، الدارس المهتم بالعلاقات الفرنسية بين المدنيين والعسكريين خلال الحرب، مسمى (الدكتاتورية العسكـرية). وقد بذل وزيـر الحــرب ألكسنــدر ميلــران Alexander Millerand قصارى جهده لمنع أي زيارات برلمانية للخطوط الأمامية، وذهب بعيداً لحد توبيخ رئيس الجمهورية لاجتماعه مع ضباط من دون موافقته. لم يبدأ البرلمان بتأكيد حقه بنجاح في الإشراف على القوات المسلحة الفرنسية حتى منتصف عام ١٩١٦ وحتى ذلك الوقت كانت تواجه زياراته بعقبات متكرّرة تعيق تنفيذها.

عرف الجنرال سبيرز السياسيين جيداً، ووصفهم بدقة وإن كان وصفه لهم قاسياً بعض الشيء:

- الرجال الذين اعتاد الناس الالتفات إليهم للتوجيه والإرشاد وجدوا أنفسهم مثل بقية الرجال تماماً، صغاراً ومرتبكين وخائفين ويواجهون معضلات لا تستطيع عقولهم إدراكها. وجد الوزراء أنفسهم وهم يشبهون قليلا الدمى المعروضة من دون أضواء المسرح. الموظفون المدنيون المدربون جيداً، لا حول لهم في بث الحيوية بمسرح ليس لهم فيه أية خبرات أو تدريب. والخيوط

التي كانت معلقة في أيديهم صارت ملقاة متشابكة لا يمكن أبدا إعادة فرزها. لقد بدوا بلا جدوى وصغاراً، وكانوا يتعاملون مع الحرب كما يتعاملون مع حوادث غير متوقّعة ومرهقة ومثيرة للقلق.

كان من الممكن أن يصل كليمنصو للسلطة مبكراً لولا تكاثر أعدائه. أما الآن فلم يعد للرئيس متوقّد الذكاء، ريمون بوانكاريه، خياراً آخر غير استدعاء النمر الذي يُكنّ له عداوة شخصية. وكان سبب العداوة هو معارضة كليمنصو لانتخاب بوانكاريه.

أقدم على ذلك لأن الوضع العسكري كان محفوفاً بالمخاطر، وكان نزيف الدماء رهيباً. الهجوم الأول وحده كلف فرنسا عام ١٩١٤ حوالي ربع مليون بين قتيل وجريح، ولم تكن تلك سوى ضربة البداية. تلتها معارك دامية مثل هجوم الجيش الفرنسي على شامبين (سبتمبر – أكتوبر ١٩١٥، بحصيلة بلغت ١٤٤،٠٠٠ قتيل وجريح) وفي معركة سوم (يوليو –أكتوبر ١٩١٦ بحصيلة بلغت ١٩٥،٠٠٠ قتيل وجريح). ثم صارت معركة فيردان الطاحنة، فكانت القشة التي قصمت ظهر البعير. هجوم نيفيل في أبريل – مايو ١٩١٧ حصد ١٨٧،٠٠٠ فرنسي سقطوا بين قتيل وجريح ومفقود.

هنا بدأت حالات العصيان تدبّ في الوحدات الفرنسية وكانت مخيفة بحق، وإن لم تبلغ المستوى الذي تُصوَّر به أحياناً. ربما تأثّر ٣٥،٠٠٠ رجل بأعمال التمرّد (أشارت إليها القوات في الغالب بأنها إضرابات)، لكنها أدت لصدور ٥٠٠ حكم بالإعدام (نُفذ خمسون

منها فقط) و١٣٠٠ حكم بالسجن لخمس سنوات وأكثر. وفشلت حملة الحلفاء على الدردنيل، حيث شاركت فيها القوات الفرنسية (وكثيرا ما ينسى الناس ذلك). لكن هجمات الحلفاء اللاحقة في البلقان أدت إلى تكوين رأس جسر انطلاقاً من سالونيكا. من المفارقة أن يشير إليه الألمان بأنه كان أكبر معسكر اعتقال لهم في أثناء الحرب.

كما تباطأت عمليات القوات البريطانية في العراق وتوفي قائدها هنالك للتو بسبب الكوليرا. كانت قوات الإمبراطورية البريطانية تتقدم في فلسطين بكل تأكيد وقد استولت على بغداد، إلا أن انهيار الإمبراطورية العثمانية لا زال بعيداً. أما على الجبهة الإيطالية فهنالك بداية كارثة. ففي هجوم مدمّر ما بين ٢٤ أكتوبر و٩ نوفمبر مزّقت الجيوش النمساوية والألمانية القوات الإيطالية في كابوريتو (تعرف أيضا، مع دلالة أكثر مأساوية، باسم معركة إيسونزو الثانية عشرة)، محدثة خسائر بلغت ٦٠،٠٠٠ قتيل وجريح مع أسر نصف مليون جندي، والاستيلاء على أكثر من ثلاثة آلاف قطعة مدفعية. يضاف إلى تلك الأحداث خروج روسيا من الحرب، الأمر الذي مكّن ألمانيا من توجيه قوات كبيرة (الفرقة ٤٢) أكثر من نصف مليون رجل، نحو الغرب.

كان الخبر السعيد الوحيد هو ولوج الولايات المتحدة في الحرب. بالرغم من أن الولايات المتحدة أصبحت قوة مشاركة (وليست حليفاً) في أبريل ١٩١٧، إلا أن تأثيرها لم يُشعر به بعد، ولم يكن ذلك إلا في أبريل ١٩١٧ حين صمد الجنود الأمريكيون في الخطوط الأمامية أكثر من الجيش البلجيكي المنهك. وبالرغم من أن الوعد بقوات أمريكية كبيرة كان حقيقياً (سيصل إلى أوروبا في المراحل الأخيرة ما يقرب

من المليونين) ألا أنه لم يبحر حتى ذلك الوقت إلا حوالي ٢٥،٠٠٠ إلى ٥٠،٠٠٠ رجل شهرياً خلال الفترة من يونيو وحتى نوفمبر ١٩١٧.

في تلك الظروف غير المواتية، صعد كليمنصو للسلطة. وفي ١٩ نوفمبر ١٩١٧ خاطب مجلس النواب قائلاً:

- كل شيء في فرنسا ينزف .. من أجل مجدها .. حان الوقت لأن نكون فرنسيين، فرنسيين ببساطة، ولنقلها بكل فخر. وهذا يكفي.

ولكن هل كان الأمر كذلك؟ سيُنظر إلى كليمنصو في سنوات لاحقة على أنه مجرد روح العناد الصاخب وأبو النصر، مثل تشرشل الذي يشبهه في عدة جوانب. لقد كان قيادياً يتنفس حزماً وإصراراً بكل تأكيد. ألقى في ٨ مارس ١٩١٨خطاباً لازمته المتكرّرة «أنا أصنع الحرب» وقد تردّد صدى خطابه هذا في جميع أنحاء فرنسا :

- أتريد سلاما؟ وأنا كذلك. جريمة أن تكون لديك فكرة أخرى. إلا أن الصياح طلباً للسلام لن يسكت آلة الحرب البروسية. طريقتي هي نفسها في كل مكان. السياسة المحلية؟ أنا أصنع الحرب. السياسة الخارجية؟ أنا أصنع الحرب دوماً. أنا أصنع الحرب. أسعى للحفاظ على الثقة المتبادلة مع حلفائنا. هل خانتنا روسيا؟ أستمر في صنع الحرب. هل أجبرت رومانيا البائسة على الاستسلام؟ سأستمر في صنع الحرب وسأستمر حتى آخر خمس عشرة دقيقة، لأننا نحن الذين ستكون لهم ربع الساعة الأخيرة.

إنها نفس الروح التي بثّها في قواته العسكرية في مايو ١٩١٨ عندما كانت باريس نفسها في خطر:

- نعم، من الممكن أن يسيطر الألمان على باريس وذلك لن يوقفني عن صنع الحرب. سنحاربهم في اللوار وبعدها في جارون إن اضطررنا لذلك وحتى في جبال البرانس. وحتى إن طردنا من البرانس، سنواصل الحرب من خارج فرنسا. أما فيما يتعلق بصنع السلام، فلا! لن يستطيعوا الحصول على ذلك مني.

وبعد أسابيع قليلة قال كلاماً مشابهاً أمام مجلس النواب :

- سأحارب أمام باريس، سأحارب من داخل باريس؛ وسأحارب خلف باريس.

وقال لمستشاره العسكري الخاص :

- أما بالنسبة لنا نحن الاثنين، يا رفيقي الصغير، سنكون آخر من سيغادر على طائرة ليلتحق بالجيوش.

كانت الروح المعنوية لهذا العجوز الأشيب الذي بلغ السادسة والسبعين مثيرة للإعجاب، وثمة حاجة شديدة إليها. لقد مرّ أكثر من ثلاث سنوات قاسية وفرنسا تروي طين الخنادق دماً. بدأت الحرب باذلة جهوداً بشرية أكبر بكثير من حليفتها الرئيسية بريطانيا العظمى. ففي ربيع ١٩١٥، مثلاً، بعد تسعة أشهر من الحرب تفوّقت القوات الفرنسية على نظيرتها البريطانية بمعدل خمسة إلى واحد. وخلافاً للبريطانيين، لا يمكن للفرنسيين أن يفاخروا بأي نصر في البحر أو

غزو رومانسي في الخارجي، وإن بدا تافهاً من الناحية الاستراتيجية. خلافاً للبريطانيين، الذين بدأت قواهم في التراجع. وبينما كان في وسع الإمبراطورية البريطانية تعبئة الفِرق وتوسيع الجبهة، استنفد الفرنسيون مواردهم. وبحلول ديسمبر ١٩١٧ توصلت القيادة الفرنسية العليا إلى أنه ربما يتعيّن عليها أن تسرّح ما يصل إلى اثنين وعشرين فرقة.

علاوة على ذلك فإن الإرادة السياسية الفرنسية كانت قد تآكلت، حيث الأثر المدمّر للقيادة السياسية متوسطة القدرات، كما أن توالي الفضائح في زمن الحرب، أفقدها تلك القيمة المسلية السوداوية التي كانت تمنح السياسة الفرنسية قدراً من الحيوية وقت السلم. وظهر أن كليمنصو بحاجة لبثّ روح الحماسة في شعب بلده المنهك والمثخن بالجراح. ولكنه، كما سنرى، فعل شيئاً أكبر من مجرد إلهام أمة محطّمة وقادة يائسين.

يوميات شاهد

كان كليمنصو رجلا منظماً. فقد حافظ على نظام يتسم بالحيوية والنشاط طوال حياته. وبالرغم من مشكلات صحية كان يتعرض لها أحياناً، كان رجلا نشيطاً معافى. يستيقظ في الرابعة صباحاً ليمارس تمارين منشطة للعضلات ويتلقى رسالة ممن يمكن أن يطلَق عليه اليوم لقب (المدرب الشخصي). كان يملي الرسائل باستمرار ويحافظ على شهية واضحة للكلمة المكتوبة. اعتاد أن يتناول الغداء في البيت ويخلد للراحة مبكراً في حوالي الساعة التاسعة مساء. كان رجلا حادّ

الطبع يعرف نفسه جيداً، لذا يحتفظ بقراراته الشخصية لمدة أربع وعشرين ساعة، ليسمح لعقله بالتغلّب على غضبه.

اعتمد كليمنصو فيما يتصل بعمله في رئاسة الوزراء ووزارة الحرب على رجلين: جان جول هنري مورداك Jean-Jules-Henri Mordacq وجورج ماندل George Mandel. لفت مورداك انتباهه قبل الحرب باعتباره عسكرياً مفكراً لديه عدد من الكتب باسمه بما في ذلك كتاب عن السياسة والاستراتيجية في النظام الديمقراطي. زار كليمنصو قبل توليه منصبه، مورداك في الجبهة، حيث كان يقود الفرقة الرابعة والعشرين. طلب من مورداك أن يعمل لديه في منصب قائد هيئة أركانه العسكرية، وهذا يعني أن يتخلى عن الترقية إلى رتبة قائد فيلق، وهي الرتبة التي يبدو أن مورداك كان يتطلع إليها.

كان مورداك مفكراً استراتيجياً بطريقته الخاصة، إلا أنه كرس جهوده لخدمة رئيسه وأشار إلى ذلك بقوله:

- إننا بحاجة إلى أوثق تحالف : السياسة والاستراتيجية.

وخلافاً لكثير من الضباط في عصره، لم يكن يرى الاثنتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى. لقد عمل له، مثلما عمل هالِك للنكولن مترجماً للشؤون العسكرية، ووسيطاً بينه وبين كبار الضباط. كان مراقباً دقيقاً للرجال والتاريخ، ويرجع الفضل إليه في القدر الأوفر من معلوماتنا عن كليمنصو في أثناء الحرب، من خلال دفتر يومياته. خصوصاً أن كليمنصو أتلف أغلب أوراقه قبل موته.

ولرئاسة هيئة الموظفين المدنيين اختار كليمنصو، جورج ماندل، وكان اسمه عند ميلاده لويس روتشيلد. كان ماندل رجلاً بارداً وحصيفاً، رجلٌ بعقلية تشبه خزانة ترتيب البطاقات –«شيء لا يمكنك أن تسمع له صوتاً وإن أثرته»، يظل نبضه وعقله غير متأثرَين بالأحداث مهما كانت غير متوقّعة ومفاجئة ومربكة. علق أحد الانكليز بأنه «رجل يمتلك نوعاً من (شجاعة الزواحف). شجاعة لا تثير الاعجاب، لكنها تدفعك لتغبطه». كان ماندل مكافئاً لمورداك في مجال الإدارة ومن خلاله تمكّن كليمنصو من نشر الشرطة الفرنسية لاتخاذ إجراءات صارمة بشأن الانهزامية التي ظهرت تقريباً حال وصوله للسلطة. كان مسؤولا عن اعتقال جوزيف كايّو Joseph Caillaux، أحد أشهر السياسيين الفرنسيين الذين بحثوا عن السلام من خلال التفاوض في أثناء الحرب، وقد سجن واتُهم بالتآمر بعد ذلك.

كانت نهاية ماندل نفسه مأساوية، على الرغم من أنه كان من الممكن لذكائه وقدراته أن تؤهلاه لأعلى المناصب، حيث عمل خلال ثلاثينيات القرن العشرين وزيراً في مجلس الوزراء، إلا أن مزيجاً من الخوف منه وشكوكاً بمعاداته للسامية وقفا حجر عثرة أمامه. ولأنه كان عدواً لدوداً لهتلر، فضّل مواصلة الحرب. ورغم نكبات مايو/ يونيو ١٩٤٠ إلا أنه لم ينتصر. وبعد هروبه إلى أمريكا الشمالية، عاد إلى فرنسا ليتعرض للسجن من قبل أعدائه في أثناء نظام فيشي. وفي النهاية أطلقوا النار عليه في عام ١٩٤٤ وهو يقول:

- الموت لا شيء. الشيء المحزن أن تموت قبل أن ترى الحرية واستعادة الجمهورية.

كان انضباط وتنظيم كليمنصو الشخصي أمراً غير عادي، مع أنه ليس خارقاً للمألوف. أما ما خالف فيه أغلب قادة الحرب، فهو حرصه على زيارة الخطوط الأمامية، وهي عادة بدأت مبكراً خلال الحرب، منذ أن كان لا يزال يعمل بمجلس الشيوخ. وبالطبع سهّل قرب الخطوط الأمامية من باريس تلك المهمة. كما أن نظام السكك الحديدية الممتاز سهّل أيضاً الرحلات للقطاعات الأخرى نحو الخط الأمامي. وقد قضى كليمنصو وقتا أطول في الخطوط الأمامية - وفي نطاق مرمي النيران أحياناً - أكثر من أي قائد آخر توجد لدينا عنه سجلات. وأصبح منذ يناير ١٩١٨ يقضي في المتوسط يوماً واحداً وأحيانا أكثر من يوم كل أسبوع، في الخطوط الأمامية.

لماذا فعل ذلك؟ يرجع الأمر جزئياً لرغبته في التواصل مع القادة العسكريين في مقرات قيادتهم، ليس من أجل توفير مشقة سفرهم إلى باريس، بل ليأخذ معلوماته من الميدان مباشرة. يتذكر مورداك إلحاح كليمنصو القوي على استبدال كادر من الضباط الذين أنهكهم الإجهاد في أثناء الحرب، أو من كانوا يتسترون على بعضهم بعضاً، بحكم علاقة الزمالة. كان كليمنصو قاسياً في التعامل مع كبار القادة العسكريين :

- من الضروري تقليل عدد القادة العسكريين غير الأكفاء أو المنهكين أو حتى من لم يحالفهم الحظ «.

لقد راجع اختيار الجنرالات حتى مستوى قائد فرقة، معتقداً بأن هذا هو مستوى القيادة الأهم، وأن الكثير من الجنرالات ممن

يتبوؤون مناصب عليا صاروا كباراً في السن ومنهكين بحيث عجزوا عن القيام بتكاليف القيادة بالمستوى المطلوب.

كما يمكن أن تعزى زيارات كليمنصو بدرجة ما إلى رغبته في التثبت من تنفيذ التوجيهات التي تصدر، وبصفة خاصة ترتيب الدفاعات في العمق لمواجهة الهجمات الكاسحة الألمانية المتوقّعة في الربيع والصيف. وكما سنرى، فقد كانت لديه أسباب للخوف من أن توجيهاته لن تُطاع وهي مخاوف جعلته يأمر بإعداد خرائط مفصلة بمواقع الدفاع الجديدة كل أسبوعين. كما أن تلك الزيارات خدمت أهدافاً سياسية أوسع. فقد كان كليمنصو يحرص على اصطحاب كبار أعضاء مجلس الشيوخ ومجلس النواب معه - كان يأمل في أن يستبق نوعاً من التدخّل البرلماني الذي شكل مسار الحرب الفرنسية بعد سقوط جوفر (Joffre)، أول قائد عام فرنسي - رداً على مقاومة العسكريين للسيطرة المدنية في بداية الحرب. أظهرت زيارات كليمنصو المتكرّرة عيوباً ثانوية في النظام الإداري العسكري الفرنسي يترتّب عليها أثراً كبيراً في الجوانب المعنوية، مثل نقص التبغ ونحوه.

ومن الواضح أن زياراته كانت تستهدف رفع الروح المعنوية للقوات والقائد نفسه. إن منظر الرجل العجوز الأبيض الشعر في الخنادق، وعصاه في يده، وشاربيه الكثيفين، يحتوي على دلالة رمزية لأولئك الرجال. ولقد احتوى تابوت كليمنصو بعد سنين لاحقة على تذكار وحيد، عبارة عن حزمة زهور جافة تلقاها من الجنود في أثناء واحدة من زياراته للجبهة، احتفظ بها في خزانته طوال الفترة المتبقية

من حياته. كانت قوات المشاة الفرنسية ترغب في رؤية قيادة صلبة للحرب وهو انطباع وفّره كليمنصو بكل تأكيد. ولهذه الزيارات مفعول في اتجاهين، فما أكثر ما أشار كليمنصو بأنها كانت إيجابية لمعنوياته هو أيضاً.

لم يكن مصطلح «الإدارة عن طريق التجوّل» قد ابتُكر في عصر كليمنصو. لقد استغرق الأمر ستين أو سبعين سنة أخرى ليرى النور، إلا أن المفهوم نفسه كان في موجوداً. لعل تجربة كليمنصو في العمل الإعلامي وعمله قبل ذلك طبيباً في عيادة طبية جعلته يدرك أهمية المعلومات التفصيلية - معلومات لا يحصل عليها من قراءة التقارير- بل بالنظر إلى عيون الناس، ومراقبة الطريقة التي يظهرون بها أنفسهم والاستماع إلى شكاواهم الصغيرة، ومشاركتهم طريقة عيشهم، وإن كان ذلك لفترة وجيزة.

ككل زعماء الحرب الآخرين الذي وردت سيَرهم في هذا الكتاب، شعر بدافع قوي للاختلاط مع الرجال في جبهات القتال. ومن الممكن للمرء أن يتأمل أسباب ذلك : المخاطر المشتركة تعزّز القيادة إلا أن السياسيين في أثناء الحرب يمرون بتجربة الجنود على فترات متقطّعة. ألمح كليمنصو بطريقة ما بأن تلك الزيارات لم تكن تصرفاً ينمّ عن التزام، لكنها ذات أهمية محورية لشخصيته كقائد للحرب، ولا ينظر إليها بأنها استهلاك غير مفيد لوقته، لأنها قد تكون الأسلوب الناجع لديه للحصول على المعلومات والتأثير على سير الأحداث.

هنالك سبيل وحيد للحصول على أي شيء : القتال

لعب كليمنصو دوراً في العديد من جوانب المجهود الحربي الفرنسي عام ١٩١٨، بما في ذلك تعبئة اقتصاد الحرب، واختيار القيادة العليا، وقمع المعارضة الداخلية للحرب. ومن المثير للاهتمام فعلاً، أنه لم يكن يعتقد أن لتحديد أهداف الحرب أهمية كبيرة، برغم أن هذا التحديد كان مهمة رئيسية وفق ما يسمى بالنظرية «السائدة» عن العلاقات بين المدنيين والعسكريين. إلا أنه لم يكن لذلك التحديد مغزى كبيرا. فمن المعروف أن أهداف الحرب ستظل تتأرجح مع نتائج العمليات العسكرية. في شتاء ١٩١٧-١٩١٨ لم يكن هناك سبب كبير يعزز التوقّع بأن تجد فرنسا وحلفاؤها أنهم يتعاملون مع ألمانيا جاثية على ركبتيها. كان الحد الأدنى لأهداف القادة واضحاً :

١- طرد الجيش الألماني من الأراضي الفرنسية.

٢- استعادة المقاطعتين اللتين استولت عليها ألمانيا، الألزاس واللورين.

٣- فرض نوع من التعويض على ألمانيا.

٤- بعض الترتيبات لأمن فرنسا المستقبلي.

من الممكن تأجيل ذلك حتى كسب الحرب، ولتحقيق هذا الهدف هنالك الكثير مما يجب فعله للتصدي لهجمات الألمان في النصف الأول من عام ١٩١٨ وأخذ زمام المبادرة منهم. في ذلك الوقت، كان تنقيح الأهداف السياسية بعناية يعني القليل لفرنسا التي كانت حتى

منتصف ١٩١٨ مهددة بخسارة الحرب وخسارة استقلالها الوطني.

إن إدارة كليمنصو للقائدين العسكريين الأرفع رتبة في فرنسا، فوش وبيتان، تظهر بجلاء المزايا التي كان يتمتّع بها باعتباره قائد حرب. أصبح كل منهما برتبة مُشير فرنسا، وحازا على إعجاب وتقدير منقطع النظير من مساعديهما، كما أن كليهما ضابط على قدر رفيع من التدريب. ولسوء الحظ أن «لا شيء يجمع بينهما سوى فرنسا والعمل العسكري» كما لاحظ أحد الكتّاب بذكاء. والأسوأ من ذلك أنهما كانا على خلاف بشأن القضايا الجوهرية.

ولد فرديناند فوش عام ١٨٥١ وارتدى الزي العسكري للمرة الأولى مع نهاية الحرب الفرنسية / الروسية. كان يتذكر بوضوح تام وجود القوات الألمانية في ميتز واللامبالاة التي عاملت بها القيادة العليا الفرنسية المجنّدين من ذلك الجيل. أصبح فوش مناهضاً للجنرالات غليظي الطباع وقليلي التعليم الذين ظنوا أن الطريقة التي حصلت بها فرنسا على إمبراطورية استعمارية في شمال إفريقيا - طريقة القسوة ومهارة المناورة بالوحدات الصغيرة - كانت كافية لتحرز لفرنسا نصراً في حرب ضد جموع المشاة البروسيين ذوي التكوين العلمي الرفيع والتدريب الجيد.

التحق فوش بمعهد البوليتكنيك وتخرج بترتيب الرابع في صفه. كان يجيد اللغتين الألمانية والإيطالية، وترقى عبر نظام الترقية الشاقّ للجيش الفرنسي قبل ١٩١٤ حتى أصبح قائد الكلية الحربية الفرنسية عام ١٩٠٨ في سن السادسة والخمسين. درّس هناك مبدأ الهجوم

المنفذ بعناية، إذ كان هذا المبدأ العسكري الفرنسي قبل الحرب العالمية الأولى مرتبطاً بسوء الفهم أحياناً. لم يكن فوش يعتقد بأن الحماسة الفرنسية وصيحة «جهزوا الحربات» ستحقق النصر. ومن خلال محاضراته، ولاحقاً كتابه عن مبادئ الحرب (طبع لأول مرة عام ١٩٠٣ وأعيدت طباعته مراراً بعد ذلك) وضع أسساً لمبدأ أكثر تعقيداً، وإن كان غامضاً في بعض جوانبه باعتباره بديلاً عن المبدأ السابق. كان يؤمن بأهمية الهجوم في الحرب كما آمن معظم العسكريين في أغلب الأوقات في التاريخ. الهجوم وحده هو الذي يحسم الصراع في نهاية الأمر. وقد شدّد على سيكولوجية المقاومة، مستبقاً، كما فعل كُتاب فرنسيون آخرون، نوعاً من الكتابة في علم النفس الاجتماعي تعتبر حالياً عنصراً محورياً في العلوم الاجتماعية للحرب. لم يستمدّ تركيزه على النظرية العليا للحرب (نظرية تبتعد كثيراً عن السياسة أحياناً) من الفلسفة الفرنسية فحسب، بل من المراجع العسكرية الألمانية مثل فون مولتك von Moltke وفون در جولتز von der Goltz. وإن كان يخطّئ في شيء، فهو هوسه المرضي بإنجازات نابليون بونابرت، والانجراف لتقليدها بدلاً من استكشاف المبادئ الثابتة التي ترتكز عليها تلك الإنجازات. على كل حال، هذا نهج عسكري لم يقتصر على زمانه أو بلده. إلا أن فوش احتفظ باحترام متزن للتكنولوجيا، عززته - في الواقع - التجارب الأولية للحرب العالمية الأولى:

- تظل نتائج الحرب مرهونة دوماً بالآلات التي يمتلكها المقاتل. الإنسان وحده لن يستطيع إحداث التغيير، مهما كان شجاعاً، لأنه ضعيف من دونها. ولأن الآلات تتغير باستمرار في أثناء

الحرب، ثم تصبح متوفرة أكثر فأكثر، فإن مهمة الجندي الأولى في الجبهة أن يستخدمها بفاعلية وأن يعمل على صيانتها. تلك أشياء تعلمناها قبل نهاية عام ١٩١٤.

آمن فوش بضرورة الهجوم باعتباره الأداة الأمثل في العمليات. إنه الوسيلة الوحيدة لحمل ألمانيا على التخلّي عن الحرب وطردها من التراب الفرنسي. إلا أنه كان أكثر حكمة مما يشاع عنه بشأن أساليب القتال.

حانت لحظة فوش الأولى مع المجد في سبتمبر عام ١٩١٤ لمساهمته في «معجزة المارن» التي كسرت الاندفاعة الألمانية عندما كان قائداً للجيش التاسع. وهو تشكيل مرتجل استُخدم لسد ثغرة خطيرة في الخطوط الفرنسية فُتحت خلال الهجوم الألماني الكاسح عبر بلجيكا. ولهذه المأثرة مُنح فوش في ١٨ سبتمبر ١٩٢٤ وسام جوقة الشرف من رتبة ضابط أكبر، وأصبح قائد الجيش الشمالي. إلا أن اجتماع مشاكل صحية وحادث سيارة وحملة السوم غير الناجحة في صيف ١٩١٦ أدت إلى سحبه من القيادة في ديسمبر من نفس السنة. كتب له كليمنصو، الذي عرفه وأعجب به، مذكرة مواساة:

- صديقي العزيز، يبتلى المرء عند الاختبار. أنا متعاطف معك. مخلص لك دوماً.

فوش، عسكري منضبط وواضح ورابط الجأش، تقدّم مذكراته إشارة عابرة فقط إلى موت ابنه الوحيد وصهره، يفصل بينهما بضعة

أيام في أغسطس ١٩١٤. وقد أظهر فوش في القيادة معنويات عالية دائماً. العبارة التي تُنسب إليه :

- يمناي غائر جرحها، ويساري عاجزة، وكل شيء على ما يرام. أنا أهاجم.

ربما تكون ملفقة في الغالب، لكنها تعكس صورة صحيحة لروحه القتالية. في مؤتمر دولونس الذي عيّن فيه فوش القائد الأعلى لقوات الحلفاء في ٢٦ مارس ١٩١٨، سئل عن خططه فردّ :

- أوه ! خطتي ليست معقدة. أريد أن أحارب. سأحارب في الشمال، سأحارب في السوم، سأحارب في إين، وفي اللورين، وفي الألزاس. سأحارب طوال الوقت وفي كل مكان من الآن فصاعداً. و بقوة الهجوم سأنهي الأمر بسحق الألمان.

إنها روح معنوية تتوافق وروح كليمنصو نفسه:

- انظر، للحصول على أي شيء، هنالك سبيل وحيد : القتال.

أضاف فوش للمهارة المهنية والتفاؤل الدائم وقوة الشخصية المطلقة ميزتين أخريين :

١- حسن التعامل مع زملاء المهنة.

٢- الحذر من السياسيين المدنيين.

أشار تشرشل ذات مرة إلى أن حرب الائتلاف ما هي إلا «قصة شكاوى متبادلة بين الحلفاء». ولم تشذّ الحرب العالمية الأولى عن

ذلك: يُكنّ كل من العسكريين البريطانيين والفرنسيين، مثلاً، احتراماً أكبر لعدوهم الألماني من احترامهم لشركائهم، حيث يعتبرونهم غير قادرين على حفر خندق جيد، دَعك من وضع خطة هجوم ناجح. يذكر أن ضابطاً فرنسياً قال بشيء من الغلظة بعد تجربته في قيادة الائتلاف: فقدت شيئاً من احترامي لنابليون لأنه لم يحارب سوى الائتلافات.

كانت متاعب فرنسا في التعامل مع الحلفاء شديدة الحدّة في الحرب العالمية الأولى. فقد تحملت العبء الأكبر في الغرب. قوات حليفتها بلجيكا الصغيرة كانت ترتجف على شفا الانهيار. وعبّأ البريطانيون قواتهم في وقت متأخر وبانعدام كفاءة مخيف بمعايير دولة تمتلك جيشاً ضخماً متأهباً. ثم جاء الأمريكيون في وقت أكثر تأخيراً، مشحونين بالتعالي والأنفة ودفعوا ثمنهما غالياً لذلك. يشاع أن كليمنصو صرّح قائلاً:

- إن لم يسمح الأمريكيون للفرنسيين بتعليمهم، فسيتولى الألمان أمر ذلك التعليم.

سواء كان بإحساس فطري بالصواب أو نتيجة لدراسة تاريخية نبهته بأن على كل جيش أن يواجه مشكلاته الخاصة به، كان لفوش حساسية مفرطة تجاه مشكلات الحلفاء:

- لكل جيش روحه، وتقاليده الخاصة، وعلى الكل أن يلبي متطلبات حكومته الخاصة بها؛ والأخيرة بدورها لها احتياجاتها ومصالحها التي عليها أخذها بعين الاعتبار.

غير أن سعة الصدر هذه امتدّت للعسكريين لا للسياسيين. أما بالنسبة للسياسيين، وكما قال أحد ضباطه :

- كان لفوش عدم ثقة غريزي في ثلاثة أصناف من الرجال: الخطباء والسياسيين والصحفيين، لأنه يعتقد بأن هؤلاء جميعا يفسدون العالم أكثر مما يصلحونه.

وإن كان من عيب فيه فهو التكبر، من النوع الذي جعله يقول لُموت Mott عندما سأله عن سبب شهرة عدد كبير من أساتذة الكلية الحربية الفرنسية في الحرب :

- لتدريس مبدأ ما بنجاح، عليك أن تكون على يقين تام بصحته. وهذا يعني دراسة عميقة وتأمّل طويل في الاعتراضات الواردة عليه. وعندما تتأكد من صحته، يمكن أن تتقدّم بثقة وتتقاسم الاقتناع مع طلابك. الرجال الذين درسوا في الكلية مرّوا بتلك المراحل. النكبات الأولى في الصراع لم تهز إيمانهم بمبادئهم. استمروا في تطبيقه وأخيراً انتصروا.

لم يخطر على بال فوش أن تكون تلك النكبات لها صلة بإيمانهم بمبادئهم. وفي عام ١٩١٧ عاد فوش للنفوذ والشهرة رئيساً لهيئة أركان الجيش الفرنسي مع سلطات جديدة باعتباره المستشار العام للحكومة.

اشتُهر فيليب بِيتان بأنه العجوز الخرف الهرم الذي اختار في عام ١٩٤٠ التعاون مع ألمانيا بقيادة هتلر وأسس نظاماً سيلطّخ إلى الأبد اسم المدينة الجميلة المرحة : فيشي. من الغريب أن أفعال رجل في منتصف الثمانينيات - ولد عام ١٨٥٦ - تلقي بظلال كثيفة حاجبة

لبقية حياته المهنية. في الواقع حتى عام ١٩١٤ كانت تلك الحياة المهنية ناجحة، لكنها غير متميّزة بشكل عام. كان بيتان ابن فلاح من الشمال، لذا تنقصه العلاقات العائلية القويّة، وهو أمر أعاق ترقيته للرتب الأعلى. التحق بسان سير (وست بوينت الفرنسية) وشق طريقه لرتبة عقيد عام ١٩١٤، وهو في سن الثامنة والخمسين. كان قوي البنية ومنضبطاً وقد بدأ يفكر في التقاعد. عندما كان مدرباً في الكلية الحربية، افترق عمن يفضلون الهجوم، مثل فوش، ممن كانوا يتأمّلون بعمق في حروب نابليون ومولتكه von Moltke.

كان اهتمام بيتان منصباً على حرب البوير والحرب الروسية/ اليابانية، والحقيقة الكئيبة التي حوّلها إلى مثل سائر «النار تقتل». الأمر لا يتعلق كثيراً بمعارضته للهجوم، بقدر يقينه بأن الآلات التي تستعمل جيداً، وليست الإرادة ولا البراعة التشغيلية، هي الضرورية لتحقيق النجاح. لم يكن ذا شخصية متميزة إلا أنه كان يُبدي اهتماماً واحتراماً للعسكري الفرنسي متوسط الحال مما جعله محبوباً لدرجة لم يصل إليها إلا عدد قليل من الجنرالات. كان يزور الجرحى في المستشفيات ويبذل الجهد بلا كلل ليتأكد بأن رجاله عندما يذهبون للمعركة يُقدمون عليها مسلحين جيداً ومعهم عتاد كافٍ، وقد تلقوا قدراً كافياً من الراحة والطعام. لذا من غير المستغرب أن ينظروا إليه باحترام وتقدير. كان رجلاً قليل المزاح ومتحفظاً؛ يكره الظهور العام ويحتقر السياسيين. وذهب بعيداً ليخبر الرئيس ريمون بوانكاريه نفسه بأن:

- لا أحد في مكان أفضل من الرئيس ليدرك أن فرنسا لا تُقاد ولا تُحكم.

فجأة في سن التاسعة والخمسين بدأ صعوداً سريعاً وأصبح العقيد المتقدّم في العمر، جنرالاً يرأس فرقة ثم فيلقاً وبعد ذلك جيشاً. وخلال ثلاث سنوات من إطلاق الطلقات الأولى للحرب، صار قائداً لكامل الجيش الفرنسي الذي يواجه ألمانيا. في أواخر فبراير ١٩١٦ أرسِل ليعيد النظام لجيش يعاني فوضى خطيرة في فيردان، حيث لفت الانتباه العام لأول مرة. ولأنه غاية في التنظيم والانضباط، أشرف بنفسه على المدفعية. والأهم من ذلك، أنه بنى خط إمداد يمكّن من إمداد قوة كبيرة، يصل عددها إلى نصف مليون مقاتل، بالعتاد والمؤن. أصبح رئيساً لهيئة أركان الجيش لاحقاً، وهو منصب احتفظ به حتى مايو ١٩١٧ حين أعفاه فوش. وخلال تلك السنة استطاع إخماد العصيان الذي بدأ ينتشر وسط الجيش الفرنسي بمزيج من الرعاية والصرامة وتوفير الإمدادات: خمسون حالة إعدام وحوالي ألف وأربعمائة حالة سجن لخمس سنوات وأكثر، وبها خمدت ثورات دامت لفترة وجيزة، ونجح في إبقائها في نطاق محلي.

في وضع مثل ذلك الذي ساد في عام ١٩١٨ كان لا بدّ من حدوث بعض الاحتكاك بين بيتان وفوش. كانت شخصيتاهما مختلفتين جداً. والأهم من ذلك، أن من الطبيعي أن ينشأ صراع بين رئيس هيئة الأركان - القائد العسكري للقوات المسلحة والمستشار الأعلى للحكومة المدنية - وأقوى قائد عسكري للقوات الموجودة على تماسٍ مع العدو. وعندما كان سهلاً على قائد هيئة الأركان أن يؤثر في الأحداث مباشرة، كما هو

الحال عام ١٩١٨، أصبح الأمر الآن مرجحاً. ولكن في هذه الحالة، كان هنالك قوى أخرى تتحرك وتعمل، خاصة عندما عُيّن فوش قائداً أعلى لقوات الحلفاء في ربيع ١٩١٨.

أبرزت الحرب العالمية الأولى مشكلات وقضايا حرب الائتلافات على مستوى أكبر من أي وقت مضى. ورغم أنه من المعتاد أن تصاحب كل ائتلاف دائماً مشكلات صعبة، إلا أن جوانب التخطيط للحرب في الفترة ١٩١٤-١٩١٨ استحدثت مزيداً من التحديات الجديدة والأكثر إرباكاً. فنتيجة لزيادة أعداد الجيوش وقوتها النارية خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين، شهدت الحرب العالمية الأولى نمواً لجبهة عمليات متصلة، من حدود سويسرا وحتى القناة الإنجليزية. وصار نشوء الثغرات بين جيوش الحلفاء الأربعة (البلجيكية والفرنسية والبريطانية والأمريكية إضافة إلى القوات الأجنبية الصغيرة مثل البرتغالية) أمراً مدمراً يجب تجنبه مهما كان الثمن. كما أن الاحتياجات اللوجستية الكبيرة للجيوش الحديثة تعني أن هذه الآلة القتالية أصبحت عبئاً ثقيلاً على مناطق العمليات الخلفية المنظمة جيدا، إذ أصبحت تميل للرجوع إليها أو خوض عمليات على أقرب مسافة ممكنة منها. ويضاف إلى تلك التحديات، تحديات أخرى قديمة متمثلة في أداء جيوش خضعت لمستويات مختلفة من التدريب، وعلى رأسها قادة عسكريون يدفعهم كبرياؤهم وتنتابهم شكوك متبادلة بينهم، وبالتالي يميلون للعمل الانفرادي متى ما كان ذلك ممكناً أو كما توجههم حكومات ذات خطط وأهداف متباينة.

يعتبر التعامل مع الائتلافات في الحرب من أكثر المهام صعوبة على القيادة العليا. إذ تتغير القدرة النسبية على المساومة مع مرور الزمن في كل ائتلاف، استناداً إلى ثلاث أنواع من الحسابات. قد يتصور المرء أن الحليف الذي يوفر العدد الأكبر من القوات العسكرية هو المهيمن، إلا أن الحال ليس هكذا دائماً. فالحليف الذي دفع أو يدفع الثمن الأكبر من الدماء والجهد قد تكون له اليد الطولى، وعلى المرء أن يتذكر أيضاً عنصر المجازفة. كما أنّ الحليف الأكثر عرضة للخطر قد يتمتع بدرجة أقل من الخيارات. واستناداً إلى ذلك قد تكون له، نسبياً، قدرة أكبر على المساومة. لذلك سيطرت فرنسا على قوات الحلفاء وفق الحسابات الثلاث خلال الفترة من ١٩١٤-١٩١٨ أو على الأقل خلال السنوات الثلاثة الأولى من الحرب. إلا أن زيادة المجهود الحربي البريطاني والأمريكي قللا من نفوذ فرنسا تدريجياً. ولهذا كان كليمنصو ومشيريه يلعبون لعبة البوكر مع حلفاء متداخلين، بيد أنهم فقدوا امتيازهم مع مرور الزمن.

دعا القادة السياسيون وبعض القادة العسكريين لقيادة موحدة للائتلاف منذ بداية الحرب. وكانت القيادة العليا البريطانية برئاسة دوجلاس هيج يسانده رئيس هيئة الأركان الإمبراطورية المُشير وليام روبرتسون William Robertson، أكثر القيادات ريبة وحذراً :

- باستثناء حالات قليلة، أنا على قناعة تامة بأن وضع الجيوش بصورة مطلقة تحت سيطرة جنرال أجنبي، ليس مسؤولا أمام برلمان الدولة التي ينتمي إليها، لا يمكن أن يكون أبداً خطوة يُوصي بها من دون تردد، أي عسكري أو أي حكومة تتمتع

بمصداقية. فمن المسلّم به أن الجيوش تحارب تحت قيادة عليا من وطنها بشكل أفضل من قيادة أخرى أجنبية. كما أن هنالك اعتراضات جلية تتعلق بالإصابات والانضباط والتعيينات. ومن الضروري أيضا، قبل إقامة (قيادة موحدة) أن تتفق الحكومات المتحالفة فيما بينها على سياسة عامة يجب الالتزام بها، وأن تقتنع الأطراف بأن تلك الاتفاقية لن تُنتهك. من دون سياسة موحّدة قد تسعى القيادة الموحّدة لتنفيذ العمليات في مصلحة أحد الأطراف المتحالفة دون الأخرى وبهذا تُفشل أهدافها بنفسها. وفي أكثر من مناسبة بدت السياسة الموحّدة بين حكومات الائتلاف بعيدة تماماً عن الوضوح والثبات.

أزاحت الاستقالة الإجبارية لروبرتسون في أواخر فبراير من عام ١٩١٨ عقبة رئيسية عن سبيل تكوين قيادة موحدة، ومحت الكوارث الناتجة عن الهجوم الألماني في مارس عام ١٩١٨ العقبات المتبقية. على مضض أدرك الجنرالات البريطانيون والأمريكيون أهمية وجود رجل واحد للإشراف على تنسيق العمليات القتالية بأكملها، والأهم من ذلك تعيين قوات احتياطية للجبهات المختلفة.

كان فوش، المتعاون وحاضر البديهة، الاختيار الطبيعي للقيادة العليا للحلفاء، وبدوره استطاع أن يؤسس في وقت وجيز علاقة وئام مع كل من هيج، وبيرشينج الذي يمكن أن تثبت ألويته الأمريكية المتعدّدة في النهاية أنها العامل الحاسم في الحرب، بالرغم من أنها لم تزل بعد، في المراحل الأولى وغير منظمة جيداً. كان فوش متردداً في إصدار أوامر لهما لأنه مدرك لمشكلاتهما وعلى دراية تامة بحدود صلاحياته.

علاوة على ذلك كان يتمتع بميزة مهمة أخرى، فضلاً عن مهارته في إدارة الناس : كان لديه تصور لمعالم الطريق الذي سيؤدي لتحقيق النصر. أعتقد فوش أنه عندما يفقد الهجوم الألماني زخمه، سيكون باستطاعة الحلفاء أخيراً اختراق الخطوط الألمانية في الشمال، بشرط أن يتمكنوا من تجميع عدد كبير من قوات الاحتياط - تلك التي أطلق عليها الفرنسيون اسم : المناورة الكبرى.

كانت للقائد بيتان رؤية مختلفة جداً. فهو يميل إلى الإعلان عن وعود أقل، ويفضل، كما أشار إلى ذلك، «انتظار الدبابات والأمريكيين». ويفضّل - مع مرور الوقت - شن سلسلة من الهجمات القصيرة ذات الأهداف المحددة بغرض استنزاف الجبهة الألمانية الممتدة. ولأنه مخطط صبور، هزّ رأسه عند رؤيته للوحدات الأمريكية غير المنظمة وغير المنضبطة واعتقد أنها بحاجة إلى اكتساب المهارات من خلال توزيعها على الفرق الفرنسية في الخطوط الأمامية. ولكونه متشككاً بشأن القوات الأنجلو/سكسونية، فإنه يفضّل عندما يحين الوقت المناسب شن هجوم على اللورين بدلاً من الفلاندرز حيث كانت الخطوط الألمانية غاية في القوة والتماسك، بحيث تحوّلت الأرض هنالك نتيجة للقصف إلى كتل زلقة من الطين والعفن. كان بيتان مشغولاً بصفة خاصة خلال شتاء ١٩١٧-١٩١٨ بالتفكير في حجم الهجوم الألماني الذي عليه أن يصمد أمامه في الجبهة. كان يملك حلاً، بسيطاً من الناحية النظرية لكنه مشحون بملابسات جمة : الدفاع في العمق.

خلال المراحل المبكّرة من الحرب العالمية الأولى، كانت جيوش المقاومة تقاتل بتماسك شديد على أي شبر من الأرض. وعندما طُردت

من خنادقها بفعل مزيج من القصف والهجوم، بذلت كل جهد ممكن من أجل استعادة الجبهة الأمامية، محتملة خسائر كبيرة في كثير من الأحيان. هذا المبدأ التكتيكي غير المرن، كلّف الطرفين خسائر هائلة. وهذا يعني أن القصف التمهيدي الكثيف سيقتل أو يجرح أو يصيب بالذهول، أغلب المدافعين في أي جبهة. وسيتطلب الأمر هجمات مضادة في منطقة مكشوفة وسيمنع مغادرة المناطق المنخفضة ، مثلاً، تلك التي تطل عليها مواقع العدو في المناطق الأعلى.

توصل الألمان مبكراً إلى الحل الذي بدأ بالعودة إلى الوراء واضحاً : الدفاع في العمق. فبدلاً من التشبّث بمجموعة أولى من الخنادق المكتظة، كانوا يوجدون مناطق قتال بين مناطق متقدّمة تباعد بينها مسافات قصيرة ونظام خنادق ثان (وأحيانا ثالث) ومراكز عسكرية خلفية على بعد أربعة أو خمسة كيلومترات تكون مختفية أحياناً خلف انحدار في الاتجاه المعاكس بارتفاع تدريجي في الأرض. يتفرق المدافعون في خنادق عميقة أو حفر واقية من القذائف في انتظار القصف التمهيدي الحتمي، ومن ثم يشنون هجوماً مضاداً في مجموعات صغيرة حين يتقدّم المهاجمون فيسقطون في كمين من الخلف والجوانب. علاوة على ذلك، كان الألمان على استعداد لترك الأرض. فانسحابهم الكبير في مارس عام ١٩١٧ إلى خط هندنبيرج وفر لهم خطوطاً قصيرة يسهل الدفاع عنها. وقد أثبت هذا النظام جدواه بعد أقل من شهر لاحقا، في أبريل عام ١٩١٧، عندما انهار هجوم نيفيل الفرنسي بعد أن أوقع ١٣٠،٠٠٠ إصابة. فضل بيتان، استناداً إلى خبرته في فيردان، الدفاع في العمق وأصدر في ٢٢ ديسمبر

١٩١٧ الأمر التوجيهي رقم ٤ (وعُمم بأمر لاحق في ٢٤ يناير ١٩١٨) ألزم فيه الجميع بالعمل بالنظام الدفاعي الجديد. بدا أن هذا القرار في البداية هو الخيار التكتيكي الذي لا بد منه، وكان على السياسيين أن يكونوا عقلاء بما فيه الكفاية، فلا يعترضوا عليه. في الواقع كان الحال عكس ذلك تماماً إذ انغمس كليمنصو في الحال في دراسة نتائج وعواقب مبدأ بيتان وبرزت له ثلاث نقاط على وجه التحديد.

أولاً : الدفاع في العمق كان يعني للجنود الفرنسيين ولفرنسا شيئاً مختلفاً جداً عما يعنيه للألمان. فعشرة في المائة من أكثر المناطق إنتاجاً في فرنسا احتلها الأعداء، وباريس نفسها كانت على مسيرة يومين فقط من الخطوط الأمامية. لذلك كان التنازل عن الأرض أمراً صعباً نفسياً، إن لم يكن مستحيلاً. وينطبق ذلك أكثر من أي وقت سبق في أعقاب كارثة فردان حيث ضحى ١٦٢،٠٠٠ فرنسي بأنفسهم من أجل حصن لا قيمة له - حصن انسحب المدافعون عنه من البداية.

ثانياً : أن تدافع في العمق يعني استخداماً مختلفاً تماماً لقوات الاحتياط التي تندرج في نظام القيادة الموحدة الفرنسية/البريطانية. بينما وِفقَ تكتيك الدفاع في العمق كان على القوات الفرنسية أن تستعد لهجمات مضادة محلية حالما يبدأ هجوم الأعداء، والنهج الأكثر وحدة يقتضي استخدام عدد كبير من قوات الاحتياط من أجل المصلحة العامة ، حسبما أصبح ضرورياً في الواقع.

في المؤتمر المشترك بين الحلفاء في يناير ١٩١٨ تنازع فوش وبيتان مراراً وتكراراً حول مسألة تكوين قوة احتياطية مشتركة بين الحلفاء،

ساندها الأول بينما عارضها الثاني. أخيراً ثبت أن الدفاع في العمق يتطلب قوة بشرية أكبر من توزيع الرجال في نظام خنادق أحادي. وأبرز هذا حتماً قضية ما سيدافع عنه الفرنسيون مقابل ما سيدافع عنه حلفاؤهم البريطانيون. في يناير ١٩١٨ انتشر الفرنسيون على طول ٥٢٠ كيلومتراً من الجبهة من أصل ٧٥٤ كيلومتراً أي حوالي ٦٩٪ من إجمالي طول الجبهة، بعد حوالي أربع سنوات من الحرب. اعتماد مبدأ الدفاع في العمق من قبل كل من البريطانيين والفرنسيين سيعزز رغبة كلا الطرفين في تقصير خطوطهما، وسيعلن كل منهما ويصرّ بأن حليفه اختار المهمة الأسهل. وهكذا ازداد إحساس الفرنسيين بالغُبن في صيف ١٩١٨ عندما ازدادت نسبة الخطوط التي انتشر فيها الفرنسيون إلى ٧٣٪ بعد تراجع القوات البريطانية.

لم يكن بيتان جنرالاً ذا تفكير دفاعي خالص كما يُصور أحياناً، بل كان يفضل استئناف الهجوم في نهاية المطاف، وأعدّ بالفعل الصورة المعاكسة لمبدئه الدفاعي. وكثيراً ما يميّز مؤرخو الجبهة الغربية بين مفهومي «الاختراق» و«الاقتحام». الأول يتوافق مع نظرة نابليون للحرب وفيه تؤدي العمليات القوية والمركزة للمدفعية والهجمات الكاسحة من قبل المشاة في النهاية إلى إحداث فتحة في صفوف العدو مما يسمح لفرق الفرسان بالتدفّق من خلال الثغرات فيستكملون هزيمة العدو المنكسر.

هذه النسخة ذات الصورة المثالية للمعركة شكلت بكل تأكيد كثيراً من أساليب العمليات خلال السنوات الأولى للحرب، بما في ذلك استبقاء فرق للفرسان (غير ذات قيمة كما ثبت لاحقاً) لاستثمار

نصر لم يتحقق أبداً. في نهاية الحرب ظهر أسلوبان مختلفان. اعتمد الألمان أسلوباً للهجوم يستند إلى تحضير قصير بالنيران إلا أنه مركّز وقوي جداً (بما في ذلك استخدام مفرط للعوامل الكيميائية) تعقبه تكتيكات التغلغل التي تتجاوز خطوط العدو القوية وتتوغل توغلاً عميقاً في أرض العدو ما أمكن ذلك. هذا المفهوم، بما فيه استخدام قوات النخبة (جنود العاصفة) كان سابقة وتمهيداً، من عدة وجوه، لأسلوب العمليات الألمانية التي قضت على القوات البولندية والفرنسية بعد عشرين سنة لاحقة.

أما الخيار الآخر الذي فضّله الحلفاء فكان يتضمن هجمات منسقّة ذات أهداف محدودة وتنطوي على أكبر قدر من استخدام الآلات، وبصفة خاصة الدبّابات والطائرات. هذا «الاقتحام» المنهجي هو الأسلوب الذي دافع عنه بيتان. فهو يريد تدمير الخطوط الألمانية رويداً رويداً بواسطة نظام الخنادق بدلاً من مطاردة (وَهْم المعركة الفاصلة) الذي أغرى الجنود وتملّص من أيديهم عام ١٩١٤.

لكن هنا أيضا تثار مسائل كبيرة. فقد تعلّم بيتان واستوعب الدرس البسيط «النار تقتل». الحماسة والقوة الجسمانية والشجاعة لا تجدي نفعا أمام أسلاك شائكة وأسلحة نارية ومدفعية سريعة الطلقات. ما يجب أن يعول عليه هو التدريب والسلاح المناسب (مع الكفاءة في استخدامه) وفريق عمل بمؤهلات عالية. لن يؤدّي الجيش الأمريكي دوراً هاماً في معارك ١٩١٨على وجه التحديد حتى يتدرّب بإتقان، ويفضّل أن يتم ذلك بإشراف فرنسي. فقد أثار عدم كفاءة القادة الأمريكيين - الذي تجلى في الزحام المروري خلف الخطوط

الأمريكية - شكوكاً بشأن قدرة القوة الأمريكية المرسلة للعمل كجيش مستقل. وعلق كليمنصو بعد إصرار الأمريكيين على تكوين جيش موحّد تحت قيادة الجنرال جون بيرشينج (بدلاً من قوات منفصلة توزع على الحلفاء كما كان يرغب) بقوله :

- كل ممثلي السلطات العسكرية الأمريكية العليا يميلون علناً إلى آراء بيرشينج، عدا الجنرال بليس الذي يمثل استثناء. أرادوا جيشاً أمريكياً وكان لهم ما أرادوا. كل إنسان رأى، مثلما رأيت، ذلك الارتباك والزحام في ثيوكور، سيشهد بأنهم سيهنئون أنفسهم لعدم حصولهم على جيش قبل ذلك.

كان بيتان يفضّل بشدة دمج الفرق الأمريكية وحتى الأفواج في وحدات فرنسية أكبر، وهو وضعٌ يتناقض مع الرغبة الأمريكية في إثبات الجدارة، من خلال مجهود حربي مستقل. ويشارك بيتان في هذا الرأي كليمنصو ومستشاره العسكري مورداك الذي رأى أن «العناد» الأمريكي بشأن رفض النصيحة الفرنسية كلف أكثر من ٢٥،٠٠٠ قتيل في أرجون في سبتمبر ١٩١٨.

وكما يحدث كثيرا في الحروب، كانت المسائل التكتيكية أو حتى التقنية مشحونة بانعكاسات كبيرة على الحس القومي الفرنسي، وخطط القوى البشرية والاستراتيجية والعلاقات مع الحلفاء. لقد كانت مبادئ بيتان التكتيكية تندرج - كما يحدث للمبادئ أحياناً - ضمن فرضيات عامة، وأحياناً غير محددة المعالم، إلا أنها قوية. ولهذا

ليس مستغرباً أن يتطلب الأمر تدخلاً سياسياً لتحويل هذه المبادئ إلى واقع.

كان كليمنصو مرتاباً في بادئ الأمر من مبادئ بيتان. فشخصية الجنرال الصارمة واستعداده للتخلي عن مزيد من الأراضي الفرنسية لا تتوافق مع روح كليمنصو الغيورة المتحمسة. وحسبما أشار كليمنصو للرئيس بوانكاريه فإن من الأفضل أن يكون بيتان في المرتبة الثانية بدلاً من الأولى. مع ذلك كان كليمنصو مقتنعاً بكفاءة بيتان، بتأثير مورداك (الذي يوافق بيتان في آرائه) وبنظرته السليمة. تحولت زياراته للجبهة الآن إلى جهود للإشراف على تنفيذ أمر بيتان الذي لم يجد القبول من كل القادة الفرنسيين، وقد تطلب مجهوداً كبيراً من الجنود المتعبين الذين كان لزاماً عليهم الآن العمل، بالمعول والمجرفة، لبناء أنظمة تحصينات جديدة وواسعة وفقاً للمبدأ الجديد. كما أنه أمر القيادة العليا أن ترفع تقارير نصف شهرية عن سير تنفيذ الدفاعات الجديدة التي هي قيد الإنشاء.

كان فوش يرى منذ البداية شن هجوم مضاد عاجل لإبطال الهجمة الألمانية ومن ثم الحصول على «نتائج حاسمة» من خلال هجوم مشترك مع الحلفاء عام ١٩١٨ . كان اعتراض فوش الرئيسي على مبدأ بيتان يتمثل في رغبة الأول في السيطرة على قوات الاحتياط الفرنسية لمساندة النقاط التي تبدو ضعيفة في الخطوط الأمامية وإعداد العدة لهجومه المضاد الكبير. وفي سلسلة من المشادات الحادّة بشأن تكوين مجلس الحرب الأعلى للحلفاء، جادل بيتان وهيج بشدة ضد كلا الفكرتين : شن الهجوم وبناء قوات الاحتياط المشتركة الكبيرة.

ولأن بيتان كان متشككاً في مهارات نظرائه البريطانيين والأمريكيين التقنية، فقد فضل شن هجوم مضادّ نهائي - ولكن بعيداً عن ساحات معارك فلاندرز حيث يلتقي البريطانيون والفرنسيون. وبالطبع فإن شن هجوم في اللورين سيكون له مميزات إيجابية في نظر الفرنسيين لتعجيل تحرير واحدة من المقاطعتين اللتين احتلتا عام ١٨٧٠. كما أن فوش، بحكم مزاجه، كان أكثر حساسية من بيتان لمخاوف واحتياجات شركائه في الائتلاف. فهو لا يرى إمكانية ليّ ذراع الأمريكيين ليتغاضوا عن استقلالهم ويتوافقوا مع وجهة النظر الفرنسية في التكتيكات. كما كان متعاطفاً مع محنة الجيوش البريطانية التي تحمّلت عبء الهجمات الألمانية في ربيع ١٩١٨. وعندما أحسّ بتصدع الروح المعنوية للألمان وتماسكهم بحلول خريف ١٩١٨ فضل هجمات تشبه «الاختراق» عوضاً عن «الاقتحام».

أمّن التدخّل الشخصي لكليمنصو نجاح المبادئ التكتيكية لبيتان. في الوقت نفسه خلص إلى أن رغبة فوش في تجميع قوات الاحتياط الفرنسية كأساس لأغراض هجومية كبيرة، كانت صائبة. ووافق على نقل العمليات الهجومية بعيداً عن اللورين، حيث أرادها بيتان، إلى الفلاندرز. وفيما يتعلق بالأمريكيين كان كليمنصو متعاطفاً مع بيتان لكنه أذعن على مضض، لوجهة نظر فوش.

تطلبت إدارة كليمنصو للمشورة والفلسفة العسكرية المتنافسة سلسلة من القرارات وليس انحيازاً عاماً لجانب هذا الطرف أو ذاك. فقد كان مدركا بأن لكل من موقفي الجنرالين مزاياه بالرغم من أنهما غير متوافقين في النهاية. وحتى نهاية الحرب كان يميل مرة لهذا

وأخرى لذاك، وكان عليه أن يستجيب بدرجة ما لتأثير شخصيتين قويتين. فوش قوي ومتفائل ومندفع، بينما بيتان صارم وكفء.

بعد مؤتمر مجلس الحرب الأعلى للحلفاء في دولونس، في مارس عام ١٩١٨، علق مورداك بأسى «ظن بيتان بضميره النقي وولائه الفطري أن من واجبه توضيح كافة الجوانب السلبية للوضع بينما يقوم بكل شيء ضروري لإصلاحه.» لذا من غير المستغرب أن يشاع عن بيتان، الذي يفعل أكثر مما يَعِد، أنه انهزامي.

من شبه المؤكد أن كليمنصو فضّل فوش بسبب إصراره وحماسته المتوقدة ولقناعته، بأن الحلفاء يستطيعون كسب الحرب. كما أقرّ مهارة فوش العالية في التعامل مع الحلفاء، لأنه بالرغم من أن رئيس الوزراء الفرنسي يمكن أن يكون حليفاً مزعجاً، فإنه يعرف الأمريكيين والبريطانيين بدرجة كافية ليقدّر الحاجة إلى التعاون معهم. بينما من جانب آخر يمتلك بيتان اليد الطولى في مجال التكتيك والأساليب القتالية، وقد أدرك كليمنصو بفراسته مميزات مبدأ الدفاع الجديد الذي صمد بنجاح لكسر موجة الهجمات الألمانية الأولى التي بدأت في مارس عام ١٩١٨.

في ٢٧ مايو عام ١٩١٨ أتى الاختبار الكبير الثاني. خلال هجوم ألماني استمر أسبوعاً على نهر إين بالتوازي مع آخر على شيمان دي دام في اتجاه باريس. فتح ٤٠٠٠ مدفع نيران القصف لمدّة ساعتين ونصف قبل أن يهجم الألمان بأربعة وعشرين ضد ثمانية فرق ضعيفة فرنسية وبريطانية، حقق الألمان اختراقا مدهشا مسافة اثني عشر كيلومتراً

على الجبهة الفرنسية / البريطانية. وهنا أتى دور الوحدات الأمريكية، في معركة مارن الثانية، للمساعدة في الصمود أمام الهجوم الألماني، حين بدا لبعض الوقت أن باريس نفسها في خطر.

كان كليمنصو غاضباً لأن قائد الجيش الفرنسي السادس، الجنرال دوشان (Duchêne)، فشل في تطبيق مبدأ بيتان المتمثل في الدفاع في العمق، فأعفاه في الحال وبدأ حملة تصفية لكبار الرتب بالجيش. في هذه الأثناء وجه بعض اللوم للقيادة العليا التي قاومت أمر بيتان التوجيهي؛ وبعض اللوم لفوش الذي ضعف مع أول هجوم، وأرسل أعداداً كبيرة من قوات الاحتياط بعيداً نحو الشمال حيث كان يتوقع أن يحدث الهجوم الألماني القادم. يتذكر كليمنصو ذلك الوضع لاحقا :

- رداً على استفساراتي الأولى أُخبِرت بإيجاز بأن تلك أشياء لا بد منها في أي حرب؛ وبأن أي أحد، عسكرياً كان أم مدنياً، قد يرتكب الأخطاء، كما أنه لا فائدة من اجترار الحقيقة المرة. لقد دافعت عن القيادة العليا أمام مجلس النواب. لكني أدركت جيداً، من خلال زياراتي للجبهة أن الوقت قد حان، وأن الواجب يملي عليّ استبدال مجموعة من القيادات العليا التي شاخت. يدرك فوش جيداً ما توصلت إليه، بل من المحتمل أن يكون بصورة أفضل، ولكن بالنسبة لكبار الضباط فإن عبارة «الرفيق القديم» كانت تمثل له سحراً قوياً. القائد العام لم يواجه المشكلة ولو لمرة واحدة، رغم أنه كان يدرك نقاط ضعف كل واحد. وعند ذكر أسماء معينة

أراه يهز كتفيه ويتمتم «رفيق قديم». وقد قمت بالتضحية بهم كلهم، مع استثناءات قليلة.

نظر كليمنصو باحترام إلى رباطة جأش بيتان الذي قدم استقالته، متحملاً مسؤولية لا تقع عليه بأكملها، إلا أن رئيس الوزراء رفضها. وارتبك فوش شيئاً ما، لكن الأزمة انجلت.

هل تعلم أني غير خاضع لك؟

نشب صراع أكبر مع القائد الأعلى لقوات الحلفاء عندما بدأ الحلفاء الهجمات المضادّة التي جعلت ألمانيا تجثو فعلاً على ركبتيها في النهاية. كانت المسألة تتمحور حول الدور الذي ستلعبه الجيوش الأمريكية الكبيرة العدد في المعارك القادمة. وفي نظر كليمنصو كانت المشكلة واضحة وبسيطة :

- تكمن المشكلة في حقيقة واحدة وهي أننا كنا نحارب لمدة طويلة عندما انضمت إلينا الأعداد الأولى من الألوية والتي لم تكن تتمتع بخبرات قتالية كافية. كانت المهمة الحقيقة للقوات الأمريكية أولاً وأخيراً هي مساعدتنا لتعويض الوقت الذي ضاع بانضمامهم للقتال حال وصولهم، إلا أن كبرياء الديمقراطية العظمى جعلها ترمي بكامل ثقلها في النصر الأكبر بساحة المعركة الأخيرة. هنالك نقطة سوداء واحدة: الإصرار المستميت لكبار القادة العسكريين الأمريكيين لتأخير وصول الراية المرصعة بالنجوم إلى ساحة المعركة. التنظيم البطيء للقوات الأمريكية

الضخمة كلفنا نحن وحلفاءنا شلالات من الدماء. إلا أنهم ظلوا يكررون لنا بأن قرار حل كل المشكلات العسكرية سيكون بضربة واحدة. ما حدث أن الحرب كانت قد حُسمت عملياً عندما برهنت أرجون لأولئك الجنود الأمريكيين الوسيمين والشجعان من أمريكا الباسلة، أن الشجاعة التي تتحدى الموت ليست كافية لإحراز نصر إستراتيجي.

ها هنا قضايا متعددة : هل كان الأمريكيون على استعداد للالتزام بالتدخّل في الحالات الطارئة في ربيع وصيف ١٩١٨ كوحدات تعزيز للوحدات الفرنسية والبريطانية المنهكة؟ وهل كان يمكنهم لاحقاً شن هجوم شبه مستقل كجيش بدلاً من فرق موزّعة على قطاعات التحالف؟ علاوة على ذلك رأى كليمنصو أن بيرشينج يجب أن يكون تحت قيادة فوش باعتباره القائد العام لقوات الحلفاء.

رأى فوش الأمور بطريقة مختلفة، وقد يعزى ذلك لكونه النموذج النمطي لقائد قوات الحلفاء. إن مصطلح «القيادة الموحّدة يوحي بفكرة خاطئة عن السلطات التي يمارسها ذلك الشخص المعني -إذ إنه يقود فقط بالمعني العسكري للكلمة ». ولأن فوش أكثر واقعية من كليمنصو، قبِلَ أن تتجسد سلطاته، في الإقناع والحوار وليس في إصدار الأوامر. لقد أنقذ الانهيار المفاجئ للألمان خريف ١٩١٨ الرجلين من صدام وشيك عندما أصرّ كليمنصو بأنَّ على فوش أن يحضُر لإبلاغ الرئيس ويلسون Wilson بطلب إعفاء بيرشينج من القيادة لعدم تعاونه مع الفرنسيين. فكتب في ٢١ أكتوبر لفوش :

- بفضل عناده الذي لا يلين يعني بيرشينج، تغلّب عليك كما تغلّب على مساعديك المقربين. أنا القائد الأعلى للقوات الفرنسية دستورياً، أرى إن مصلحة هذا الجيش تستند بوضوح تام إلى التنظيم المتوازي لكل القوات التي تحت قيادتك. سأكون مجرماً إن سمحت للجيش الفرنسي أن يُستنزف في معركة إلى أبعد الحدود من دون فعل شيء في وسعي القيام به لأضمن أن جيش الحلفاء الذي أسرع لنجدته قادر على القيام بدوره العسكري الذي أرسل من أجله.

يرى المرء في هذه الرسالة الإنهاك الشديد الذي أصاب القوات الفرنسية. ولكن، وراء تحدي النمر يكمن شعور عميق بضعف وهشاشة معنويات وإرادة الفرنسيين أيضاً. أما شكوك فوش حيال السياسيين، فقد قادته لأن يتعاطف مع بيرشينج ويقف إلى جانب الجنرال الأمريكي بدلاً من رئيس وزراء بلده. كان فوش سعيداً بزملائه العسكريين، مشيراً بفخر في نهاية الحرب :

- أنا سعيد بأن أجد نفسي في نهاية الحرب صديقا شخصيا لكل الجنرالات الأمريكيين، ابتداء من بيرشينج. ولأن لدي معرفة أشمل بالصعوبات التي يعاني منها الجيش الأمريكي، فإنني لم أذعن للحلول الراديكالية التي يراها السيد كليمنصو.

هنا أيضاً كان لكليمنصو سبب وجيه للشكوى، وهو الأداء البطيء وغير المقنع للقوات الأمريكية تحت قيادة وبسبب بيرشينج إلى حدّ كبير. خاض بيرشينج مخاطر قاسية وغير ضرورية للمحافظة في

ساحة المعركة على جيش أمريكي كبير، غير منضبط وغير كفء، لكنه موحّد. وكان هوسه بمهارة الرماية الفردية ومهارات المعارك - مقروناً بنفور من القتال في الخنادق - جعله يتجاهل الدروس القاسية المستمدة من القتال بقوات مشتركة، تلك الدروس التي تعلمها الفرنسيون بعد تجارب مؤلمة. وعلق كاتب السيرة الذاتية للجنرال بيرشينج قائلا:

- لو أن الحرب انتهت في ٣١ أكتوبر بدلاً من أحد عشر يوماً بعد ذلك التاريخ، لكانت شهرة الجنرال الأمريكي التي اكتسبها قبل الحرب ستتلاشى تماماً.

لأنّ الاختراقات التي تحققت في الأيام العشرة الأخيرة من الحرب عكست بصورة رئيسة «تدهور العدو» بدلاً من أن تعكس كفاءة القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية في العمليات القتالية. فقد تضمّنت تلك الأيام الأخيرة حوادث مؤلمة مثل الاندفاع الأرعن الذي نفذته الفرقة الأولى عبر جبهة فرقة الحرس الوطني المجاورة من أجل الاستيلاء على سيدان- مسرح الهزيمة الفرنسية في عام ١٨٧٠- قبل أن يتمكن الفرنسيون الغاضبون من تحرير المدينة.

كان التوتّر بين كليمنصو وفوش حول التعامل مع الأمريكيين يعكس توتّراً أكبر، وهو توتّر شائع في العلاقات بين العسكريين والمدنيين أثناء التحالفات الكبيرة في الحرب. كتب كليمنصو:

- قال لي المُشير ذات يوم: هل تعلم بأني لست تحت قيادتك؟ لا لست أعلم.(أجبت بضحكة) ولا أرغب في أن أعرف من وضع هذه الفكرة في رأسك. أنت تعلم بأني صديقك. وأنصحك

صادقاً ألا تتصرف استناداً إلى تلك الفكرة، لأنها لن تفيد. لم يكن هنالك رد.

قد لا يكون هنالك رد، إلا أن الأمر لم ينته. وحتى بعد أن أوشكت الحرب على نهايتها، اشتكى فوش لمورداك بأن كليمنصو لم يكن يطلعه بصورة شاملة على المفاوضات مع قوى المركز التي كانت تطلب الصلح واحدة تلو الأخرى. لقد هُيِّئ المسرح لاختلافات أكثر عمقاً.

الرب العظيم اكتفى بعشر فقط

كسرت هجمات الحلفاء في سبتمبر وأكتوبر ١٩١٨ ظهر المقاومة الألمانية وانهار حلفاء ألمانيا واحداً تلو الآخر: بدأت تركيا محادثات هدنة في ٢٦ أكتوبر وتوصلت إلى اتفاق بعد أربعة أيام. واقترحت الإمبراطورية النمساوية/ الهنغارية إجراء مفاوضات قبل شهر من ذلك التاريخ - تحديداً في منتصف سبتمبر - وانفضّ تحالفها مع ألمانيا قبل نهاية الحرب. وفي ٣ أكتوبر أخبر الجيش الألماني قيادته أنه بحاجة إلى هدنة عاجلة لأن الوضع أصبح في غاية في الخطورة مع هروب آلاف الجنود من الخدمة (وصل العدد إلى ما يقارب المليون بحلول الأسبوع الأخير من الحرب) ولأن هيئة الأركان فقدت أعصابها بالكامل.

عندما حان وقت تحقيق السلام واجه كليمنصو أكبر تحدٍّ للسيطرة المدنية على القوات العسكرية. فأول القضايا التي يجب التعامل معها هي شروط الهدنة مع الألمان. هنا بدا جلياً أن تسوية

طويلة الأمد تتطلب مؤتمراً دولياً، ولكن بنفس الأهمية، هنالك حاجة لشروط يستند إليها وقف أطلاق النار. هنا برزت مدرستان فكريتان. إحداهما، يتقاسمها بيرشينج وعلى نحو مثير للاهتمام بيتان، ويدعمها الرئيس الفرنسي ريمون بوانكاريه، وهي تفضل الزحف إلى برلين واحتلال ألمانيا، ومن هنالك يستطيع الحلفاء فرض الشروط لتركيع ألمانيا. والثانية، فضّلها فوش وهيج، وهي تدعو إلى فرض شروط قاسية تركع العدو، ومع ذلك تبقي الجيش الألماني متماسكاً، وإن كان ضعيفاً، بحيث تبقى الحكومة الألمانية مسيطرة على معظم أراضيها. وقد زاد الاختيار صعوبة مع قرار الحكومة الألمانية إجراء مفاوضات هدنة من خلال الأمريكان لأنها تتوقع أن يكونوا أكثر مرونة من الأوروبيين. في النهاية، دخل الأمريكيون الحرب كشركاء أكثر من كونهم حلفاء ومنحت نقاط ويلسون الأربعة عشر أملاً في مرونة أكبر في مواقفهم، وبذلك أصبحت المفاوضات مطولة وصعبة.

كان المأزق مماثلاً لذلك المألوف في معظم الحروب التي تنتهي بانتصار صريح في الميدان: هل يتصور أحد وقف إطلاق نار يترك العدو ضعيفاً لكن متماسكاً؟! أم يضغط من أجل خضوع تام للعدو المنهك؟ الخيار الأخير يتجلى دائماً بوضوح عندما يلتفت إليه الإنسان كحدث في الماضي، ولكن نادراً ما يكون بذلك الوضوح في حينه. ومن الممكن للمرء أن ينظر إلى نهاية الحرب العالمية الأولى كدراسة في الانهيار التنافسي : قادة الحلفاء، باستثناء بيرشينج الذي لم ينخرط جيشه على نطاق واسع في القتال، كانوا مدركين تماماً لمدى ضعف قواتهم والثمن البشري الباهظ الذي دفعته بلدانهم في الحرب. وكانت هزيمة

ألمانيا واقعاً جلياً، إلا أن هنالك أسباباً تدفع للتفكير بأن أي محاولة من الحلفاء لشق طريقهم إلى برلين ستتسبب في مئات آلاف من الإصابات الإضافية التي يمكن تجنبها.

بالإضافة إلى ما سبق هنالك جدل سياسي حام مؤيد لإنهاء مبكر للحرب. اتصلت الحكومة الألمانية بالرئيس ويلسون الذي كان لطيفاً خلال كلمته أمام الكونجرس في ٨ يناير ١٩١٨ والتي أعلن فيها نقاطه الأربعة عشر التي جعلت كليمنصو يجأر متبرّماً :

- الرب العظيم جعلها عشر وصايا فقط.

منحت تلك النقاط عدداً من الدول (فرنسا وبلجيكا ورومانيا وصربيا والجبل الأسود) حق العودة لحدودها القديمة، وحكماً ذاتياً أو استقلالاً للشعوب الأخرى (أولئك الذين في المجر- هنغاريا - بولندا) لكنها خلت من أي إشارة لمعاملة قاسية للألمان. كما أنها تضمنت هذا النص:

- ليست لدينا غيرة من عظمة ألمانيا ولا شيء في هذا البرنامج يسعى لتقويضها. نحن لا نحسدها على إنجازاتها ولا على تفوّقها في العلم أو مشاريعها السلمية التي جعلت لها سجلاً ناصعاً تُغبط عليه. نحن لا نرغب في إيذائها أو منعها من نفوذها وقوتها المشروعة، كما لا نرغب في محاربتها سواء بالأسلحة أو بترتيبات عدائية تجارية إن كانت ترغب في التعاون معنا ومع الشعوب الأخرى المحبة للسلام في العالم استناداً إلى العدل والقانون والتعامل المنصف. ما نتطلع إليه منها أن تقبل بموقع

التساوي مع شعوب العالم الأخرى - العالم الجديد الذي نعيش فيه الآن - بدلاً من مكان تسوده الهيمنة والقهر والاستبداد.

بانهيار النظام الإمبريالي الألماني أصبح ويلسون معارضاً بشدة لفرض سلام يستند إلى شروط تكرّس حقوق المنتصرين بدلاً من إيجاد نظام جديد للسياسة الدولية كما كان يرغب. وبدا واضحاً ومبكراً، حلول التوتّر بين القوى المنتصرة في أثناء مناقشة شروط الهدنة. فبينما اتفق الجميع على ضرورة انسحاب ألمانيا من الألزاس واللورين باعتبارهما جزءاً من شروط الهدنة، كانت فرنسا ترغب في الألزاس واللورين بحدودها عام ١٨١٤ في حين تمسك الحلفاء بحدود عام ١٨١٥ فقط.

رغب كل من فوش وكليمنصو في هدنة، استناداً إلى شروط تمنع ألمانيا من مواصلة القتال. بينما كان كليمنصو على وجه التحديد يأمل في رؤية تسريح الجيش الألماني بالكامل. كتب فوش من جانبه مسبقاً لكليمنصو مدافعاً عن شروط هدنة تشمل إعادة توطين سكان الألزاس واللورين، علاوة على صيانة الحدود الفرنسية على الراين :

- يمكن لفرنسا أن تكون مطمئنة إن كانت لها قبضة قوية على الراين لأنها عندئذ تضمن الحصول على تعويضات خسائر الحرب والأمن، ومن دون الراين لن تنعم بأي من هذه.

شارك كليمنصو فوش رؤيته، وفي الرغبة في الحصول على الراين، مع امتداد في العمق على اليمين أو على الساحل الألماني كوسيلة لنزع سلاح الجيش الألماني مؤقتاً. وكان يرى أيضاً أن تضم شروط

الهدنة الانسحاب من كل الأراضي المحتلة (بلجيكا وفرنسا والألزاس واللورين) واستعادة الخطوط الحديدية لفرنسا وبلجيكا. والأهم من ذلك اتفق كليمنصو مع فوش بأنه لا حاجة إلى السفر إلى برلين إن كان يمكن تحقيق هدنة مناسبة في فرنسا. إلا أن كليمنصو انزعج من خطاب فوش في ١٩ أكتوبر الذي يشتكي من عدم اطلاعه بشكل جيد على المفاوضات السياسية التي ستنهي الحرب. وكان ذلك إرهاصاً لما سيلي.

كان اضطراب العلاقة بين كليمنصو وفوش يختمر منذ زمن، خاصة بعد تلكؤ فوش عن مطالبة ويلسون بإعفاء بيرشينج. أصرّ فوش أيضاً أن على السياسيين تجاوز مجلس الحرب الأعلى (الذي يتكون من الممثلين العسكريين للحلفاء) بشأن مفاوضات الهدنة لإشراكه هو والقادة الميدانيين الآخرين. وخاطب كليمنصو في ١٦ أكتوبر قائلاً:

- المستشارون العسكريون الوحيدون المؤهلون للتعامل مع شروط الهدنة هم القادة العامون للقوات المسلحة. إنهم المسؤولون أمام حكوماتهم عن سلامة جيوشها والشروط التي بموجبها تستأنف الأعمال العدائية في حال عدم الالتزام بالهدنة. إنهم وحدهم الذين يملكون معلومات كافية عن أوضاع جيوشهم وأوضاع القوات المعادية التي تواجهها.

كليمنصو، الذي يعتقد أن للقادة المدنيين أن يطلبوا المشورة العسكرية متى يشاؤون، لم يجد حاجة إلى العسكريين الذين يُملون عليه من يستطيع استشارتهم.

كان مورداك محقاً عندما وصف القضية بأنها «المسألة الأبدية بين السياسة والاستراتيجية.» حيث تتغلغل السياسة في كل شؤون الحرب. والقول بأن على السياسيين أن يتنحوا جانباً في أثناء الحرب، قول خاطئ وغير مرغوب فيه نظرياً. وتمثل مفاوضات الهدنة، اللحظات الأكثر حساسية في التفاعل بين المدنيين والعسكريين عادة. ففي نوفمبر ١٩١٨ اتضح أن الحدود الفاصلة بين الاعتبارات العملياتية (جعل الألمان غير قادرين على مزيد من المقاومة حال استئناف الأعمال العدائية) والقضايا السياسية (ما يمكن للحلفاء غضّ الطرف عنه عملياً مما يحدد اتجاهات نتائج مفاوضات السلام) أصبحت دقيقة جدا. وعندها بدا فوش غير مستعد (باعتباره القائد الأعلى لقوات الحلفاء) لرؤية اختلاف واضح بين تقديم نصيحة خبير وممارسة سيطرة كاملة على ما يعتبر في آخر الأمر، مشكلات سياسية.

يعكس تدهور العلاقة بين فوش وكليمنصو عدة ظواهر شائعة في العلاقات بين السياسيين والعسكريين على مستوى القمة. فقد كان فوش دائم التوجّس من السياسيين، كما لاحظنا، فهو لا ينظر إلى القادة العسكريين بوجه عام، وإلى نفسه تحديداً، باعتبارهم مجرد منفذين لخطط وسياسات، بل شركاء في وضعها. وظهر ذلك جلياً في تصريحه لصحفي مقرب منه عن الحرب وما يليها:

- الحرب لا تمثل ازدواجية بل وحدة، وهكذا السلام. لا تقسم هذه إلى إدارات مدنية وتلك عسكرية. فالوجهان متصلان بإحكام دقيق ولا يمكن فصلهما. ولأن الحلفاء لم يدركوا ذلك، ارتكبوا لمدة سنوات : سلسلة من الأخطاء التي أخرت النصر

كثيراً. فقد كان كل واحد من رجال الدولة والقادة العسكريين يعمل استناداً إلى رؤيتهم الخاصة ولم يسعوا لتنسيق جهودهم، وبذلك كانوا يستخدمون وسائل تأكدَ ضررُها.

يلاحظ هنا أنه لم يُشر أدنى إشارة إلى القادة العسكريين باعتبارهم خاضعين لرجال الدولة. والتعبير الذي استخدمه فوش هو «التنسيق» وليس «النصح» دعك من «التبعية». وكان صريحاً أكثر في تعليقه بأن :

- تعتبر عوالم السياسة والدبلوماسية في بعض جوانبها، غير منفصلة عن مجال الشؤون العسكرية؛ ولهذا فإن انغماسي في تلك المجالات يعتبر مشروعاً تماماً.

علاوة على ذلك كان فوش واعياً تماماً لمكانته الشخصية، ليس فقط كقائد أعلى لقوات الحلفاء (بالرغم من إدراكه أكثر من غيره حدود قدرته على القيادة حقاً، بدلاً من الإقناع) بل لمكانته كبطل حرب. فقد منح في ٥ أكتوبر ١٩١٨ لقب مُشير الجيش الفرنسي، قبل بيتان بكثير. ومع هذا، فكثيرون يرون بأنه لا يقل جدارة عنه باللقب (تقلده في ١٩ نوفمبر). وحاز فوش تكريماً مماثلاً من مجلس النواب الذي قدّم في ١١ نوفمبر «ولاء مقدساً وأبدياً» للجيش وللحكومة ولرجلين فقط هما بالاسم «المواطن جورج كليمنصو» و«المُشير فوش». وكما يحدث كثيراً في نهاية الحرب، قد تكون لعسكري متميّز شهرة أكثر من رئيسه السياسي، وقد كان فوش يدرك ذلك جيدا. ومع تمتعه بمكانة القائد الأعلى، كان يعتقد بجدارته ليلعب دورا مستقلا. ولم يتجلّ ذلك

بصورة أكثر وضوحاً من محاولته إملاء التسوية الوحيدة التي يرى أنها تضمن الأمن الفرنسي على حكومات الحلفاء: الاحتلال العسكري للساحل الغربي (أو الفرنسي) للراين ودعم الحكومات الانفصالية هنالك.

أخشى أن يخلط المشير بين السياسة والإستراتيجية

رأى فوش أن الرقابة الصارمة، أو الضمانات الخطية، أو إجراءات نزع الأسلحة، أو يقظة الجيش الفرنسي، لا يمكن أن تصمد على المدى الطويل أمام ثقل القوة البشرية الألمانية والصناعة الألمانية. إلا أن حاجزاً مادياً يمكن أن يقوم بذلك، ولهذا رأى فوش ضرورة إبقاء الجيش الفرنسي على الضفة الغربية للراين سواء عن طريق الاحتلال أو إلحاق الضفة بفرنسا أو تكوين كيان للراين تحت الحماية الفرنسية. هذا الهوس يعكس الحاجة الملحة للأمن، إلا أنه غير واقعي، لأنه يتغاضى عن الحقائق السياسية في المقام الأول. فالحرب التي تمحورت أهدافها عند معظم الشعوب الأوروبية في النقاط الأربعة عشر، لا يمكن أن تترك عدداً كبيراً من السكان الناطقين بالألمانية تحت الحكم الفرنسي. ومع ذلك، وبعد مرور سنوات من ذلك الحدث، ظل فوش يعتقد أن أهداف حدود الراين كان يمكن تحقيقها، وأن عناد كليمنصو هو السبب الوحيد لخسارتها.

- من غير المقبول حقا ألا يعتقد السيد كليمنصو في المقاوم الأول بأني الشخص المناسب للتغلّب على ممانعة الرئيس ويلسون ولويد جورج. لقد كان محظوظاً لأن القائد الأعلى لقوات وجيوش

الحلفاء كان فرنسيا. ولا يمكن أن يستغرب أي من ويلسون أو لويد جورج أن يقدم القائد الأعلى رأيه في القضايا العسكرية؛ فمستقبل أمن فرنسا والحلفاء وتجنّب مزيد من العدوان من ألمانيا، التي شنت حرباً الآن وخسرتها، تعتبر أموراً ذات طبيعة عسكرية في المقام الأول. بل ومن حق وواجب القائد العسكري أن يُعبّر عن رأيه. وكذلك، من الممكن لممثلي فرنسا في المؤتمر أن يستعينوا به لشرح وجهة نظرهم للتغلب على الاعتراضات. كان من الممكن لكليمنصو أن يقول «أنا أفوّض فوش في كل ما يتعلق بالأمن». لن يقبل فوش أي حل أقل من اعتماد الراين كحدود عسكرية لفرنسا. كل شيء يمكن أن يقدم لنا في المقابل - كنزع سلاح ألمانيا، أو المواثيق أو الاحتلال المؤقت، هو غير كافٍ تماماً. لا أستطيع أن أتجاهل مقاومته أو أن أعترض على تفكيره. لأن كل الدولة تسانده في هذه القضية تحديداً.

من الصعب معرفة ما هو الأوضح هنا، سذاجة فوش بشأن مؤتمر السلام، أو السذاجة الأعظم بشأن ملاءمة أن يعلن سياسي عجزه عن الاختلاف مع مستشاره العسكري. بطبيعة الحال، لم يقبل كليمنصو بأي من ذلك، فاستبعد فوش من المفاوضات في فيرساي من يناير وحتى يونيو ١٩١٩، مما أغضب فوش كثيراً. بغض النظر عن امتهان كرامته، اعتقد فوش أن المعاهدة المزمعة ستضحي بأمن فرنسا الحقيقي الذي يمكن أن تحققه بعد الحرب. وبالرغم من اتفاق كليمنصو مع فوش بأن حدود الراين مرغوب فيها فرنسياً، إلا أنه كان يرى استحالة تحقيق ذلك في ظل معارضة بريطانيا وأمريكا. والواقع

أنّ الاستيلاء على مناطق حدودية بشكل أحادي، سيخلق مشكلة مع البريطانيين والأمريكيين، ولا تستطيع فرنسا احتمال ذلك، آخذين في الاعتبار بأن الثورة البلشفية حرمتها في ذلك الوقت من حليفتها السابقة روسيا.

واصل فوش الاحتجاج ضد كليمنصو ولجأ لعدة تكتيكات معرقلة ذات طبائع متنوّعة، مثل طلب المساعدة من بعض السياسيين الفرنسيين، وأعمال خفية تقوم بها القوات العسكرية الفرنسية في الراين نفسها، وحملة إعلامية منسقة ضد الموقف التفاوضي لحكومته. كما حاول تخطي كليمنصو والعمل مع الرئيس الأكثر تعاطفاً معه، ريمون بوانكاريه، الذي شاركه كلاً من آرائه المتشددة وكراهيته المتزايدة للعدو المشترك : كليمنصو.

وهنا تجدر الإشارة إلى طريقة اختيار الجنرالات أحياناً، وخاصة الناجحين منهم، للسياسيين الذي يرغبون أو يفضلون العمل معهم. كان في استطاعة فوش أن يستغل الاختلاف بين رئيس فرنسا اللامع، لكن غير المؤثّر، ورئيس وزرائه المهيمن، وقد فعل، كما كان باستطاعة بوانكاريه التعاون مع فوش ضد كليمنصو. وبنفس الطريقة استهان وليام ماكسول أيتكن William Maxwell Aitken، اللورد بيفربروك، بلورد بريطانيا الأول السير إدوارد كارسون Edward Carson، الرجل القادم من أولستر والذي وقف عام ١٩١٧ مع إدارة البحرية في معارضتها لاستخدام سفن حراسة، حتى وإن تعرضت التجارة البريطانية للاختناق. قال كارسون :

- طالما بقيت في إدارة البحرية سيكون للبحارة كامل حرية التصرف. لن أتدخل في شؤونهم كما لن يتدخلوا في شؤوني.

وعلى هذا علق بيفربروك قائلا:

- بهذا وقف كارسون في عداء وتحدّ سافر لأي ضغط يمارسه السياسيون على ضباط البحرية. وعند تحليل هذا الموقف، يبدو الأمر غريباً بل متناقضاً مع نفسه. فهو سيحرص على السماح لضباط البحرية العمل وفق ما يرون واتباع استراتيجيتهم الخاصة. ولكن إذا حدثت عواقب وخيمة ، فمن المسئول ومن الذي سيُنتقد؟ ليس ضباط البحرية حسبما يبدو. سينصب النقد على السياسيين وحدهم.

إن واحداً من أهم دروس التاريخ الهامة للحرب العالمية الأولى، وينطبق ذلك بصورة خاصة على بريطانيا العظمى وفرنسا، هو أن التوتّر بين القادة المدنيين والعسكريين قلما يأخذ شكل انقسام صرف بين المدنيين والعسكريين. بل الغالب أن ينحاز بعض السياسيين للعسكريين (الذين هم أنفسهم منقسمين) ضد سياسيين آخرين. وكما في الحالة البريطانية، قد يمثل ذلك مصالح متبادلة أو قد يعكس وفاقاً صادقاً وحقيقياً. إلا أن الأمر يظل في جذوره واحداً : حالات توتر وشدّ بين مدنيين وعسكريين.

في ١٠ فبراير ١٩١٩ نُشر في بريطانيا حوار مع فوش في صحيفة «الديلي ميل»، التي لا تخضع لرقابة الحكومة الفرنسية، أشار فيه إلى أن ألمانيا تستطيع رفع عدد جنودها إلى مليون جندي خلال ثلاثة أشهر،

وفي المقابل لا يكاد يستطيع الحلفاء حشد نصف ذلك العدد. يمثل ذلك جهداً آخر للضغط على الحلفاء لمنح فرنسا الحدود الاستراتيجية التي يعتقد أنها تحتاج إليها. وفي ١٧ أبريل أوشك أن يعصي صراحة أوامر الحكومة عندما أعلن أن من المستحيل إحضار الوفد الألماني إلى فيرساي لاستلام نص الشروط المتفق عليها بين الدول الأربعة. وفي الأزمة التي تلت، والتي سوّاها مورداك، أعلن الرئيس ويلسون أنه يشعر بخطورة تسليم قيادة جيش الولايات المتحدة لجنرال لا يطيع أوامر حكومة بلده. تراجع فوش، إلا أن الضرر كان قد وقع. وحقيقة الأمر أن كليمنصو طلب من مورداك التحضير، لإقالة فوش وإحلال بيتان محله. وبعد أسابيع قليلة تالية تجلت الأزمة في كامل صورتها. ففي أبريل ١٩١٩ وبعد أن صوّت مؤتمر الدول الأربعة ضد فصل الراين عن ألمانيا، دست مجموعة فوش مقالاً في صحيفة «لوماتان» نقلاً عن مصادر من هيئة أركان الجيش الفرنسي تعلن تمسكها بحدود عسكرية على الراين. كما قرّر فوش نفسه تجاوز الرقابة الفرنسية وادلى لصحيفة «الديلي ميل» المتعاطفة معه، بالتصريح التالي الذي نشرته في ١٩ أبريل ١٩١٩:

- الآن بعد وصولنا للراين يجب أن نبقى هنالك.

وتابع المُشير بتصميم واضح :

- بيّنْ ذلك لزملائك من أبناء بلدك. إنه أمننا وأمنهم الشخصي. يجب أن نوجد حاجزاً وأن نوصد الباب بمزلاج مزدوج. الديمقراطيات مثل التي نتمتع بها يجب أن تكون لها

حدود عسكرية طبيعية. تذكر بأن أولئك السبعين مليوناً من الألمان سيظلون دائماً مصدر تهديد لنا. ونحن لا تخدعنا المظاهر الحالية، وهم شعب حسود ومحب للحرب. لن تتغير صفاتهم الطبيعية في أربع سنوات، بل ولا بعد خمسين سنة من الآن، سيكونون كما هم في الوقت الراهن.

أعطى رئيس الوزراء فوش فرصتين لتحقيق تطلعاته، واحدة في ٣١ مارس قبل مؤتمر «الأربعة الكبار»، كما كان يُعرف، وهم الزعماء السياسيين للولايات المتحدة وبريطانيا العظمي وفرنسا وإيطاليا. والثانية أمام مجلس الوزراء الفرنسي في ٢٥ أبريل. إلا أن كليمنصو رفض حضوره مداولات كل من الحكومة الفرنسية أو القوى الحليفة. وحاول فوش مسبقاً وبوسائل مختلفة التأثير على الأربعة الكبار. ففي ٢ مايو أخبر فوش بوانكاريه بأن الاتفاقية تمثل «استسلاما» بل حتى «خيانة». وفي ٦ مايو خاطب قادة جيوش الحلفاء شاجباً الاتفاقية ومصرّاً على فحصها من قبل الخبراء العسكريين المناسبين، وإنه إن فشل في تحقيق ذلك سيستقيل من منصبه. كان البريطانيون بوجه خاص غاضبين، وأشار بونار لو Bonar Law إلى أنه «لو أن ضابطاً بريطانياً صدر منه هذا السلوك، لما بقي في منصبه خمس دقائق». استدعى كليمنصو، بيتان ليحل محل فوش، وقال لمورداك :

- بعد الكفاح خلال الأسابيع الماضية من أجل مصالح بلدي، أرى من غير المحتمل أن أحصل على هذا النوع من الرسائل من شخص لم يرغب قط في فهم أن الأمر يتعلق بتحقيق السلام مع ألمانيا. لن نستطيع أن نكون وحدنا، مثلما لم نستطع ذلك

من قبل، ونحن نحاربها. عليه أن يتذكر بأنه في نهاية الحرب، عندما كان القائد الأعلى، الذي له كل الحق في إصدار الأوامر، لم يستطع تطويع الأمريكيين. علي أن أتوصل لاتفاقية سلام من دون أي سلطة لإصدار أوامر، ومع ذلك حصلت تقريباً على كل شيء أستطيع تحقيقه. ماذا يريد أكثر من ذلك؟!

أقر كليمنصو أن علاقته السيئة مع بوانكاريه أفسحت المجال لتحرّكات ومناورات فوش، بما في ذلك نشر بعض الأعمال في الصحافة الفرنسية. ولم تكن لدى كليمنصو رغبة في افتعال عاصفة سياسية حول إقالة أعظم جنرال فرنسي بعد نابليون، إلا إذا اضطر لذلك. وأضاف كليمنصو «سيكون فوش في وضع سيئ كذلك». إلا أن المُشير فوش لم يستفد من هذا التهديد.

قام فوش بمحاولة أخرى لتغيير سياسة الحلفاء. ففي ١٦ يونيو ١٩١٩ استدعاه مجلس الأربعة –الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا – للاستفسار عن خططه في حال رفضت ألمانيا التوقيع على الاتفاقية. وبالرغم من نزع سلاح ألمانيا، أوضح فوش أن مهمة احتلال ألمانيا ستتطلب قوات كبيرة من أجل الوصول إلى برلين؛ فقواته «ضعيفة جداً لا تستطيع توجيه الضربة القاضية».

- من أجل تجنب هذا الاحتلال المدمر. السبيل الوحيد هو إخراج جنوب ألمانيا من المشاركة. ويعني ذلك أن نفكر في استراتيجية انفصالية. لكن لكي تحقق هذه الاستراتيجية الانفصالية النتائج المرجوّة، يجب أن تستكمل بخطة تفرض تجريداً من

السلاح وسلاماً على دول الجنوب.

ردّ لويد جورج غاضباً:

- أخشى أن المُشير يخلط بين السياسة والاستراتيجية ويسمح لآرائه السياسية بخلق شكوك في ذهنه حول مسائل عسكرية بحتة.

وفي وقت لاحق، اجتمع هو وويلسون وكليمنصو ليتشاوروا جميعاً. علّق ويلسون:

- لقد رأى خططه تنهار ولا يرغب في مساعدتنا لتنفيذ خططنا.

وكان كليمنصو أكثر حدة حين قال:

- إن وضع في ذهنه ألا يذهب إلى برلين، فلن يذهب. ما يقلقني أنه في اجتماعاتنا الأخيرة، لم يكن المُشير فوش صريحاً دائماً. تحدثت إليه قبل أيام عن مقال صحفي أعرف أنه أوعز به، إلا أنه أنكره. قلت له بعد ذلك: هل تريدني أن أقدم لك اسم الضابط من هيئة أركانك الذي صاغ المسودة الأولى؟ فلم يستطع الرد.

طلب كليمنصو بضيق واضح منحه أربعاً وعشرين ساعة لتوضيح الأمور مشيراً إلى أنه ينوي التحدث مع بيتان الذي يعدّه للجلوس على كرسي فوش. لكن بعد أسبوع، وفي ظل توتّر شديد، وافقت ألمانيا على شروط الاتفاقية. ولم يعارض فوش (الذي غالباً ما كان يتفادى المواجهة الشاملة مع النمر) الاختبار النهائي لخضوع العسكري للقيادة السياسية.

أنت تتحداني؟ ها أنا ذا

واصل فوش المعركة بعد الحرب مع ذلك من خلال تصريحات ومقابلات مع صحفيين مقرّبين منتقداً كليمنصو باعتباره «يعقوبياً متسلّطاً» ويضمر عدم ثقة مرَضية بالمؤسسة العسكرية. كانت رصاصته الأخيرة : مذكرات نشرت من دون الإشارة إلى مؤلف معروف، كان من شأنها أن دفعت كليمنصو للرد بإدانة غاضبة في مذكراته الخاصة « العظمة وبؤس الانتصار» :

- أطلق البارثي، في أثناء هربه بأقصى سرعة، سهماً إضافياً خلفه. وعندما ابتلعته عتمة الليل البهيمي بدا أن المُشير فوش ترك خلفه، جعبة من السهام الشاردة لقوس غير محكمة يملكها رامٍ عرَضي.

اكتشف كليمنصو أن العلاقات بين المدنيين والعسكريين في زمن السلم لا تقل صعوبة عن زمن الحرب. فالجنرالات المنتصرون أبطال، وبالتالي تكون للرتب العليا من العسكريين صلات وثيقة بالقادة السياسيين، ويكون ذلك أكثر وضوحا في حروب التحالف، مع التأكيد بأنها لازمة لكل صراع. ولهذا ينمّون مفاهيمهم الخاصة لعالم السياسة، ويشعرون بأنهم على دراية بعالم السياسة في أثناء الحرب أكثر مما يشعرون بها في وقت السلم. وعند مشاهدتهم، وأحياناً إحساسهم، عن قرب بالتضحيات الكبيرة التي تقدم من أجل كسب الحرب، يشعر هؤلاء القادة العسكريون بالجزع وأحياناً بالرهبة من رؤية الخسائر الهائلة التي وقعت نتيجة دوافع تافهة. وغالباً ما ترى

الشخصيات المهيمنة أن من حقها، بل من واجبها تحقيق السلام لدولها. هوّن الجنرال ماكسيم ويجان Maxime Weygand، رئيس هيئة أركان فوش، من انزعاج كليمنصو بقوله إنه لا يرى خطأ في معارضة فوش لرئيس الوزراء.

- الانضباط ليس عبودية. الرجل رجل في النهاية.

على المرء أن يفهم هذه الكلمات البريئة إزاء خلفية ويجان المهنية (بما في ذلك أربع سنوات من العمل قائداً عاما للقوات الفرنسية) تضمنت انخراطاً في سياسة ردود الأفعال طوال فترة ما بين الحربين وتُوّجت بالعمل عن قرب فيما يتصل باستسلام فرنسا والتعاون مع ألمانيا النازية عام ١٩٤٠.

ولكن كليمنصو صاحب القناعة التامة بتفوق السياسة وحيادية الجيش، لن يسمح بأي من هذا. قدم تنازلات قليلة لصالح صورة فوش المتضخّمة عن دور لائق به في مفاوضات السلام، وتنازل قليلاً لمطالب المشير اللحوح بشأن أهميته الشخصية أو وجهة نظره بشأن التسوية المناسبة في نهاية هذه الحرب. وقد كانت لفرنسا قدرات ضعيفة تحدّ من دورها وكان كليمنصو على دراية كاملة بتلك القدرات.

تراجع قلق البريطانيين حيال ألمانيا تراجعاً حادّاً بعد تدمير الأسطول الألماني واعتماد بنود نزع سلاح البحرية التي يعتبر فرضها أسهل كثيراً من فرضها على القوات البرية. وشاطر كليمنصو البريطانيين الخوف من ثورة شيوعية في ألمانيا نفسها، علاوة على روسيا. وكان عليه أن ينافس الولايات المتحدة التي تمتلك ثروة

ومصادر هائلة وتكاد تكون غير متأثرة بالحرب، مع إدراكه الجيد بأن فرنسا المدمرة التي استنزفت كثيراً، لا رغبة لها في خوض غمار حرب جديدة.

بالرغم من شراسة كليمنصو وتصميمه الذي لا يلين على القتال من أجل فرنسا، فإنه كان يدرك جيداً مبدأ عدم تجاوز الحدّ. فهو وفق عبارات آرثر لينك Arthur Link كاتب سيرة ويلسون «الأعقل والأبعد نظراً بين الأربعة». لذلك تعتبر الشروط التي حصلت عليها فرنسا، جيدة إجمالاً. جُرّدت ألمانيا من السلاح وتقلّصت قواتها من المتطوعين أولي الخبرة الطويلة وحُرمت من معظم التقنيات المتطورة التي تحتاج إليها لشن حرب حديثة، كما أصبحت الضفة اليسرى للراين منزوعة السلاح (وكذلك الضفة اليمنى بعمق خمسين كيلومتراً كما أن إعادة تسليحها يعتبر سبباً لحرب جديدة). وفوق كل ذلك، ألزمت ألمانيا بدفع تعويضات كبيرة وأنشئت مجموعة من الدول المعادية لألمانيا إلى الشرق منها. وقدمت الولايات المتحدة وبريطانيا ضمانات لفرنسا - سُحبت لاحقا - بأن يَهُبّا لنجدتها حال تعرضها لتهديد ألماني آخر. وكان كليمنصو محقاً عندما كتب :

- تمت مهاجمتي بقسوة لأني رفضت أن أمنح وطني حدوداً استراتيجية. كيف لي أن أتعامل بجدية مع أولئك، الكبار والصغار، الذين يؤنبونني على عدم ضمّ أرض الراين من دون تفكيك تحالفنا الذي لا يجرؤ أحد على المساس به؟

لم يتجرّأ فوش على مناقشة هذا الموضوع أبداً، فضلاً عن رفضه.

وبغض النظر عن طبيعة المطالب غير العملية -والأساليب غير الملائمة لطرحها -فإن تقديراته الاستراتيجية تبدو غير جديرة بالاحترام، حتى عند الالتفات إليها كأحداث ماضية.

لا تستطيع فرنسا كما عرفها كليمنصو أن تضمن أمنها من خلال حدود الراين وحدها، ليقينه أنّ السلام الذي يبنى على مبدأ تقرير المصير، لا يمكن أن يجرّد ملايين الألمان في الراين من حقوقهم، وهم بلا شك يفضّلون أن يظلوا ألماناً بغض النظر عن رغبة الأقلية في دولة مستقلة. ويستند الأمن الفرنسي على اعتبارين أساسيين : تكوين قوة عسكرية فرنسية تعوّض ضعف فرنسا في مجال القوة البشرية، والاستفادة من نزع سلاح ألمانيا، للتقدّم بفارق كبير وطويل الأمد في القوة العسكرية، علاوة على تأسيس علاقة جيدة مع الحلفاء. هذه الغاية لن تتحقق من خلال سلام مزعوم مع ألمانيا، وإن استند إلى أكثر العقوبات تشدداً. ومع ذلك فإن فرنسا الأكثر حزماً في التعامل خلال ثلاثينيات القرن العشرين، وبريطانيا الأقل وقوعا في مشكلة قصر النظر رغم مشكلاتها الداخلية، والولايات المتحدة الأكثر انفتاحاً على مسؤولياتها الدولية، والأهم من ذلك كله، ألمانيا الأكثر مقاومة لعدوى النازية، كل هذه العناصر كان بإمكانها أن تتجنّب الكارثة التي تلت صعود هتلر.

وبحلول ذلك الوقت كان الرجل العجوز الباسل الذي أنقذ وطنه من كارثة قد رحل أخيراً عن المشهد. أصيب في محاولة اغتيال في أثناء مفاوضات السلام، وهوجم مراراً وتكراراً من أعداء لدودين وأصدقاء سابقين، ورفضته فرنسا عندما ترشح لرئاسة الجمهورية

في يناير عام ١٩٢٠. فتقاعد، لكنه لن يتقاعد قبل أن يسدي خدمة أخيرة لبلده: ذهب في جولة للولايات المتحدة عام ١٩٢٢ حاثّا البلاد التي أحبها وعرفها جيداً ألا تتخلى عن فرنسا. توفي عام ١٩٢٩ بعد أن ترك تحذيراً قويا لأبناء وطنه:

- هنالك أمم يبزغ فجرها، وأخرى تقترب من نهايتها. إن إدراكنا لأفعالنا يتضمن أن نتحمل مسؤولياتنا. ستكون فرنسا ما يستحقه إنسان فرنسا. ستكون هنالك أيام مرعبة، وعندها سوف يتضرع الناس للرب الذي سيخلق من عظامنا البالية بطلاً آخر تجري على يديه تصاريف القضاء والقدر.

كانت توقّعاته صادقة بدرجة تفوق التصور.

وعلى الرغم من أن كليمنصو فارق الحياة حزيناً على ما آلت إليه حال فرنسا - خيانة حلفائها وعداوة أعدائها وضعف معنوياتها - فقد غادرها بإرث إيجابي كذلك، إرث الشجاعة في أصعب الظروف. وسيلتفت إليه فرنسيون آخرون في أيام قادمة. بعد ربع قرن لاحق، سار مرة أخرى تحت قوس النصر جيش فرنسا المهزومة ثم المولودة من جديد والمنتصرة بعد ذلك. ومثل قائدها - البطل كليمنصو الذي يجري الرب على يديه تصاريف القضاء والقدر - جاء عاشق فرنسا الجديد شارل ديجول في مقدمة جيش فرنسا الحرة المؤلف من قدامي المحاربين، أوسمتهم جراح المعارك، يسيرون على طول الطريق حيث شاهد الباريسيون المصدومون قبل أربع سنوات جيوش هتلر المنتصرة

تدوس ترابهم في استعراض خطوة الإوزة. نظر ديجول إلى أعلى، وحيّا تمثال كليمنصو، مفكراً لبرهة وهو يمر بذلك الرجل العجوز: «يبدو كما لو أنه سينهض ليسير معنا». وقد سار النمر معهم بطريقة ما.

الفصل الرابع
تشرشل يطرح سؤالاً

قمة المسرة

في ٢١ يونيو ١٩٤٠، وصل عالم شغوف في الثامنة والعشرين، قضى نحو سنة يعمل في مجال الاستخبارات العلمية إلى مكتبه ليجد رسالة من صديق له، تبلغه بوجوب حضوره إلى مجلس الوزراء في مبنى رقم ١٠ شارع داونينج ستريت. توقف ر. في. جونز (R. V. Jones) برهة – وهو مشهور بكثرة المزاح ويستمتع بإعطاء ذرائع معقولة للآخرين ليرموا بهواتفهم في سطول الماء – ليدرك أن هذا الاستدعاء، جدي للغاية. فأسرع خطاه إلى شارع داونينج حيث اقتيد إلى قاعة مجلس الوزراء. هنالك وجد ونستون تشرشل رئيس الوزراء ووزير الدفاع وعلى جانبيه مستشاره العلمي ووزير إنتاج الطائرات ووزير الطيران والقيادة العليا لسلاح الجو الملكي بالزي الرسمي: رئيس الأركان الجوية والقائدان العامان لقيادة الطائرات المقاتلة وقيادة الطائرات القاذفة القنابل ومستشاريهما العلميين. كان الاجتماع يتعلق بمناقشة احتمال أن يكون الألمان قد طوّروا وسيلة للملاحة الدقيقة في كل حالات الطقس – إلى جانب القدرة على إسقاط القنابل عبر غطاء السحاب

- مما سيمنحهم ميزة حاسمة في معركة بريطانيا، أي الهجوم الجوي الألماني على بريطانيا في ذلك الوقت. كانت الأدلة قليلة ومجزأة، بما في ذلك اعتراضات لاسلكية مبهمة مثل:

- جهاز نيكيبين في كليفز محدّد في الموقع ٥٣ درجة ٢٤ دقيقة شمالاً وواحد درجة غرباً جهاز إرسال يستخدم للضربات الجوية الليلية.

وجهاز استقبال لاسلكي غريب استرجع من قاذفة ألمانية تم إسقاطها قبل عدة ليال، وادّعاء أحد أسرى الحرب أن الألمان طوّروا نظام ملاحة جديد، وبعض الأبراج الغريبة الشكل التي التُقطت صورها في جزيرة سيلت في شمال ألمانيا.

طلب تشرشل من جونز أن يشرح له مغزى تلك المعلومات.

- تحدّث مدة عشرين دقيقة أو أكثر بصوت منخفض النبرة كاشفاً سلسلة من الأدلة الظرفية التي لا تضاهيها في سحرها وبراعتها إلا قصص شيرلوك هولمز أو مسيو ليكوك.

في لحظة مرت بخاطر الرجل العجوز أبيات من قصيدة «أساطير إنجولدزبي»:

- لكن الآن .. السيد جونز تقدم وشهد أنه، قبل خمس عشرة سنة،

سمع أنّات وهو في طريقه إلى ستون هينج

(لفحص الحجارة التي وصفت في كتاب الراحل سير جون سونز)

وأنه قد تبع الآهات وقادته نبراتها

فشاهد غراباً يجمع ما تبقى من عظام ولد ضارب الطبل.

مرت هذه القصيدة على مخيلته، إذ بعد الاستماع إلى محدّثه، قام تشرشل بامتحان الشاب، الذي قدّم الحجة بأن الألمان يستخدمون إشارات لاسلكية للعثور على أهدافهم.

شكّك الحاضرون الآخرون، وبينهم علماء بارزون، ومُشيرون في سلاح الجو الملكي، في استدلاله - إذ إن تحقيق ذلك وفقاً لقوانين الفيزياء صعب جداً - وفي النهاية، كل الطيارين البريطانيين قد تدرّبوا على الملاحة بواسطة النجوم، وكانت هي الوسيلة لرصد أهدافهم بصورة موثوقة، أو هكذا اعتقدوا، إلى أن يظهر دليل آخر يثبت خلاف ذلك. إلا أن جونز ثبت على ما قال وقدّم الحجّة لصالح الإشارات اللاسلكية.

فكّر تشرشل في الأمر ملياً وسأل عما يمكن فعله. هل بالإمكان تأكيد وجود هذه الإشارات؟ هل من الممكن زرع ألغام جوية على طول مسارها؟ هل يمكن خداعها أو التشويش عليها؟ رد جونز على هذه الأسئلة المباشرة. وذكر لاحقاً، أنه شعر ببهجة شابّ يحظى باهتمام أي رئيس وزراء، ثم تصاعدت سعادته فصارت أكثر بكثير:

- هي نفس السعادة التي أشعر بها كلما قابلته في أثناء الحرب

-شعور الاتصال بمصدر طاقة حية ومتقدة تتمثل في تشرشل رمز القوة والصمود والمرح والاستعداد للاستماع والتمعّن في السؤال، واتخاذ إجراء عند الاقتناع. نادراً ما كان مجاملاً في ذلك الوقت. إلا أن مدحه عندما يأتي لاحقاً يكون في غاية الجمال، لأنه نشأ في أجواء تتسم بالصرامة. في سنة ١٩٤٠، كان استدعاء أي أحد من قبل تشرشل في وقت الأزمة يعتبر إطراءً في حد ذاته. أما أن تصمد أمام هجوم أسئلته ومن ثم إقناعه، فكان قمة البهجة.

أما بالنسبة لتشرشل فكتب :

- بما أنني السيد، ولا أميل كثيراً إلى الجدل، عندما اقتنعت بمبادئ هذه اللعبة الغريبة والمميتة، أصدرت كل الأوامر الضرورية في نفس ذلك اليوم من شهر يونيو بافتراض وجود هذه الإشارات، ومنح التدابير المضادّة وجعلت لها الأولوية المطلقة. وأن أي تردد أو أقل انحراف عن تنفيذ هذه السياسية يجب أن يبلغ لي مباشرة.

بهذا الأمر المختصر ومن خلال بعض عمليات التشويش والخداع، حرم الإنجليز أجهزة نيكيبين من معظم فعاليتها.

يا له من خطر جسيم

قليل من الرموز التاريخية ينجون من المراجعات لجدارتهم باعتبارهم رجال دولة. وينطبق ذلك بشكل عام على كل القادة في

زمن الحرب، وعلى ونستون تشرشل بشكل خاص. وعلى الرغم من أن بعض الرؤساء ورؤساء الوزراء قد ذاع صيتهم لا سيما هاري ترومان Harry Truman أو حافظوا على سيرهم العظيمة (كأبراهام لنكولن)، فإن إعادة الفحص تحطّم عادة التماثيل التاريخية بدلاً من تلميعها. في حالة ونستون تشرشل، يبدو النقد مثيراً للاهتمام على وجه الخصوص، وذلك لأنه لا ينصبّ فقط على شخصية قائد بريطاني بل على جوهر النشاط الذي كان منخرطاً فيه. ولا تنطوي مراجعة قيمة وأهمية تشرشل كقائد حرب فقط على رؤية متغيّرة للرجل، لكن رؤية متغيّرة للاستراتيجية التي صاغها، إذ إن تشرشل كان رجل الدولة والحرب في القرن العشرين، دون منازع.

هناك أوقات أميل فيها إلى الحكم على المؤرخين من خلال وجهة نظرهم وموقفهم من ونستون تشرشل لأنه مهما كانت المآخذ يظل، وبكل بساطة رجلاً عظيماً. وكثير من المؤرّخين المعاصرين يرسبون عند الحكم عليه بمقاييس المؤرّخ ج. ر. إلتون G. R. Elton. فخلال العقود العديدة الماضية، تعرّضت قيادة تشرشل الحربية لهجوم خطير متصاعد، توّج بالسيرة الذاتية المتوحشة له في نظر المؤرّخ جون تشارملي John Charmley وبالفعل، تمثل الفورة الحالية من النقد أحدث الموجات العديدة من هجمات ما بعد الحرب على تشرشل كأمير حرب.

أتى المدّ الأول من النقد بشكل رئيسي من المؤلفين العسكريين، وعلى وجه الخصوص من رئيس أركان تشرشل نفسه ورئيس الهيئة العامة للأركان الملكية ألان بروك Alan Brooke. لقد صدم نشر

أجزاء من مذكّراته في نهاية خمسينيات القرن الماضي القراءَ الذين اكتشفوا في المدوّنات التي وصفها بروك نفسه بأنها «سيّئة» أن الأمور لم تكن تجري بسلاسة بين تشرشل وجنرالاته. في الواقع، أمسك بروك عن بعض الانتقادات الموجّهة لرئيس الوزراء، والتي كثيراً ما كان يدوّنها بعد النقاشات التي تدور بينه وبين تشرشل في آخر الليل. وتعاظم حنقه على رئيس الوزراء بينما كانت المعارك في قمتها. في ١٠ سبتمبر ١٩٤٤ كتب بروك في مذاكراته (في مدخل لم يُعرض أولاً في النسخة المطبوعة) :

- كان تشرشل يمتلك نصف الصورة في ذهنه، وكان يتحدث بالسخافات، مما يجعل دمي يغلي في عروقي عند الاستماع لحديثه غير المنطقي. كان من الصعب جداً عليّ أن أبقى مهذباً. والشيء المذهل أن ثلاثة أرباع سكان هذا العالم يعتقدون أن ونستون تشرشل هو واحد من أعظم المنظّرين الاستراتيجيين في التاريخ، وأنه مارلبورو (Marlborough) آخر. أما الربع الآخر من السكان فليس لديه أدنى تصوّر عما كان يمثله من خطر على العامة طوال فترة الحرب! كان من الأفضل ألا يعلم العالم مطلقاً وألا يشك مطلقاً في أن رِجلي ذلك المخلوق الذي حسبوه شبيهاً بسوبرمان كانت من طين. من دونه كانت إنجلترا ستضيع بلا شك، ومعه قاربت إنجلترا من حافة الكارثة مرات عديدة. إذا استثنيناه، فأنا لم أعجب قطّ برجل واحتقره بالقدر نفسه في آن معاً.

لم يكن بروك وحيداً في هذا الموقف. آخرون عبروا عن أنفسهم

بلغة أكثر اعتدالاً، وكانت لديهم، وجهات نظر أقل حدّة. أورد أحد المستشارين العسكريين المتحيّزين المتزمتين، اقتباساً حسناً لروبرت منزيز Robert Menzies، رئيس الوزراء الاسترالي في أوائل الحرب العالمية الثانية:

- لم يعوّض حس تشرشل الاستراتيجي البائس إلا قيادته العظيمة والشجاعة.

مع استمرار الحرب، يبدو أن عدم رضا العسكريين عن «سيّدهم السياسي» قد أخذ في التنامي. وفي نهاية الحرب في أوروبا، تذكر الجنرال هاستنجز إزماي Hastings Ismay بعد عقد من الزمان أن تشرشل أقام احتفالاً بالنصر لرؤساء الأركان في ١٠ داونينج ستريت، حيث امتدح بإفراط وإسهاب رؤساء الأركان الثلاثة ووصفهم بأنهم «مهندسو النصر». بينما لم يردّ أي أحد منهم بأن ونستون أسهم قليلاً في صنع ذلك النصر.

وقد خرج العديد من المُشيرون والعمداء البحريين الميدانيين من الحرب العالمية الثانية ليعتنوا بالكدمات التي سببها لهم التعامل مع تشرشل. لقد مقتوا اهتمامه الزائد بما يدركون أنه تفاصيل عسكرية في المقام الأول، وخشوا من خياله وبحثه المتواصل عن مسارات جديدة. فبالنسبة لهم، كما بالنسبة لبعض المؤرّخين الذين تعاطفوا مع وجهات نظرهم، فإن أكبر أخطاء تشرشل كأمير حرب هو أنه يتدخّل على نحو لا يمكن علاجه ولا غفرانه في الشؤون المهنية للمستشارين العسكريين.

- لم يكن رئيس الوزراء يفهم التفاصيل العملياتية، ولا القيود

والفرص اللوجيستية، ومع ذلك كان لديه شغف كبير بها. لقد أزعج القادة في الميدان طلباً للمعلومات، وأمطرهم بوابل من النصائح والتحذيرات التي تعتبر خارج نطاق مسئولياته.

وجاءت الموجة الثانية من النقد ممن دقّقوا وبحثوا في الوثائق بعيداً عن الأحداث الواقعية. وهكذا كتب ديفيد رينولدز David Reynolds أن «قرار» (أقواس الاقتباس من عنده) بريطانيا بالقتال في عام ١٩٤٠ كان «سياسة سليمة، لأسباب خاطئة». وأن تشرشل «ذو روح عسكرية رومانسية». ويتحسر رينولدز على الشباب التافهين الذين رغم اطلاعهم على الوثائق لا يكفون عن إثارة أسئلة خرقاء!

بعض المؤرخين الآخرين لم يكن أقل دعابة في سرده. حيث أورد بعضهم أن تشرشل:

- نادراً ما يكون متناسقاً في تفكيره وكثيراً ما كان يتصرف تحت وطأة الانفعال.

فلا عجب إذاً أن «إدارة للحرب لم تكن انعكاساً لأي خطة كبرى، أو استراتيجية، ولكنها سلسلة من وجهات النظر المتضاربة والمتغيرة، وسوء الفهم والمصالح الشخصية والتخبّط». ومن هذا المنظور فإن تشرشل «مثل كل الرجال الآخرين، مهما كان عظيماً، إلا انه كان عديم الحيلة وعاجزاً عن اتخاذ القرارات التاريخية الكبيرة. وبالنسبة للمؤرخين الجدد، فإن مثالب تشرشل لا علاقة لها بالتنمّر والتطفّل وإنما هي نتيجة لفقدان البصيرة وعدم القدرة على تقديم أي خطة

ناجعة. وأينما كان تشرشل على صواب فان ذلك يُعزى إلى أسباب خاطئة. وإذا ما عَدّل رأيه، وقد فعل ذلك كثيراً، فتلك شهادة على عدم استقراره وتقلّبه المحموم. وإذا ما وصف الموقف الاستراتيجي للحلفاء بنثر مفعم بالقوة، فإن تلك خدعة لفظية تغطي على نزعته العشوائية التي لا تمتلك حكمة ولا ثباتاً في الرأي.

وهكذا لدينا اتهام آخر، لا يقل خطورة عن ذلك الموجه للجنرالات، وهو أن تشرشل أخفق استراتيجياً لأنه لم يضع استراتيجية متماسكة للحرب. وقد يجادل بعض من هؤلاء المؤرخين، أنه كان أقل شأناً من موقعه، وكان يجب إزاحته لأنه ضلّل معاصريه وعلى الأقل الجيل التالي له. في أفضل حالاته، كما ينحو بعض المؤرخين المعاصرين، لم يكن تشرشل أفضل من أي رجل دولة آخر يمكن أن يحل محله. لقد كرّس تشرشل كماً هائلاً من العناية، على سبيل المثال، بعلاقته الشخصية مع الرئيس فرانكلين روزفلت Franklin D. Roosevelt، التي اعتبرها محوراً للتحالف الأنجلو/أمريكي، الذي به تحقق النصر. غير أن المؤرخ وارن كمبل Warren Kimball يقلل من أهمية العلاقة بين تشرشل وروزفلت.

- لو كانت بين نيفيل تشامبرلين ووينديل ويلكي - وهو احتمال جدير بالتصديق – لما اختلفت علاقات الحرب بين البلدين اختلافاً جوهرياً.

قد يتعاطف المرء مع مجموعتي النقاد. فقد عانى الجنرالات في نهاية المطاف، من الإهانة في عملهم مع رجل ظل يمنعهم من النوم،

وهو يمطرهم بأسئلة مفرطة عن التفاصيل. رجل قليل التسامح، لاذع وعنيف، مثل تعليقه عند وصفه لرئيس الأركان العامة الملكية بأنه «يد الوَهن الميتة» أو تعليقه عند خروج رؤساء الأركان من اجتماع :

- لقد تعين علي أن أخوض حرباً حديثة، بأسلحة قديمة.

ويروى أنه علّق في أثناء سيره أمام ملجأ مضاد للقنابل :

- لقد شيدوا مكاناً قوياً جداً هنا - كتل من الإسمنت وأطنان من الفولاذ. وبما أن رؤوسهم تتكوّن من عظم مصمت، يجب أن يكونوا مطمئنين جداً في الداخل.

بالنظر إلى المسؤوليات التي يضطلعون بها، ولأنهم يدركون أفضل من أي شخص آخر الضغوط التي تعاني منها قوة تقاتل في ظروف غير مواتية في كثير من الأحيان، فلا عجب أنهم يشعرون بعدم رضا لا حد له تجاه انتقادات تشرشل. ولم تخفّف عادات العمل لدى تشرشل عليهم عبء حياتهم. فالعمل وفقاً للروتين العسكري يحتّم عليهم النهوض مبكراً، لكن العمل في خدمة سيد اعتاد تسيير أعماله بعد عشاء متأخر، يوجب عليهم في الغالب السهر حتى الساعات الأولى من الصباح.

كان يحيط بسيدهم الساخر والعنيف زمرة من الشخصيات الغريبة : بروفسورات في غاية الفظاظة، مثل فريدريك لاينمان Fredrick Linemann، وسياسيون قراصنة مثل ماكس بيفيربروك Max Beaverbrook وبريندن براركن Branden Bracken ، وجنود مارقون مثل أورد وينجيت Orde Wingate الذي نال شهرته في بورما،

أو بيرسي هوبارت Percy Hobart، جنرال دبابات شهير أعيد للخدمة الفاعلة بعد أن وجده تشرشل مغموراً برتبة عريف في الحرس الوطني. وكان إرجاع هوبارت إلى الخدمة الفاعلة هو ما دفع تشرشل لإبداء ملاحظته للمُشير ديل Dill، الذي عارض الفكرة :

- ليس فقط الشبان الجيدون هم الذين يكسبون الحروب، بل الجبناء والحقيرون أيضاً.

في هذا الخصوص، تعهد ضابط بريطاني عصري بإعادة إحياء مقام المُشير ديل، وبالتأمّل بعد مضي حوالي خمسين عاماً من ذلك الحدث الذي جرح مشاعر ذلك الرجل المحترم المحدود:

- كان تشرشل مولعاً بالجبناء والساقطين من كافة الأنواع. وربما كان الفاشلون فقط هم من كتبوا سيرته. يجب ألا يُسمح بأن تكون له الكلمة الأخيرة.

كان للمؤرخين أيضاً بعض العذر في صبرهم. فالحمل الخانق للمعتقد المساند لتشرشل والذي هيمن ليس فقط على كتابة التاريخ، ولكن أيضاً على الرأي العام لعقود بعد الحرب العالمية الثانية، أثار في نهاية المطاف ردة فعل عاصفة لدى الكثير من الأكاديميين، الذين هم بطبيعتهم مشككون دائمون في حكمة القادة السياسيين. علاوة على أن مذكرات تشرشل نفسه عن الحرب العالمية الثانية، والتي ظهرت بعد وقت قصير من نهايتها، وكانت مدعومة بكميات ضخمة من الوثائق الرسمية، سيطرت على الساحة لعدة سنوات وأسهمت في تشكيل فهم نظري وعملي للحرب. كان ذلك مصدراً لعدم الرضا في أوساط

الدارسين المهنيين للماضي، الذين كانوا من خلال تدريبهم وطبعهم، يطالعون بارتياب الروايات الشخصية للقادة السياسيين، وقد تمردوا تلقائياً على الحكمة التقليدية والتفسير الموروث للأحداث الكبيرة.

علاوة على ذلك، فإن بعضهم كان يساوره شك عميق في الروايات التي تمتدح بشكل عام هؤلاء السياسيين والضباط ورجال الخدمة المدنية الذين عملوا بشكل لصيق بتشرشل، وحافظوا على احترامه وتقديره عالياً - وهي «مجموعة حصرية ومنغلقة ومعزولة »، كما كان يسميهم ألكيس داشيف Alex Dacshev..

كان أكثر ما يثير حفيظة العديد من المؤرخين موقف القادة السياسيين في يومنا هذا، من الذين أعلنوا تبجيلهم لتشرشل. إن شعبية تشرشل لدى السياسيين التقليديين مثل دان كوايل Dan Quayle، أو كاسبر واينبرجر Caspar Weinberger، أو مارغريت تاتشر Margret Thatcher لم تعزّز من موقفه لدى البروفسورات على جانبي المحيط الأطلنطي. وكأيقونة شعبية بقدر ما هو شخصية تاريخية، يثير تشرشل ذلك النوع من الإعجاب الجارف في دوائر ضيّقة كتلك التي تقتصر عادة على نجوم الرياضة بنحو عريض. إن تأسيس جمعية تشرشل العالمية (بما تتضمنه من مؤتمرات سنوية ومجلة مطبوعة على ورق مصقول ودكّان للتذكارات يبيع ملصقات «تفعيل هذا اليوم») يجسد ذلك النوع من تبجيل البطل الذي يرفضه بوضوح معظم المؤرخين. بل إن مؤرخاً متعاطفاً مثل مايكل هاورد Michael Howard يعلق بأن «المشكلة بالنسبة للمؤرخ» هي :

-كيف لشخص بمثل هذه الخلفية غير الواعدة وسجل كارثي، أن يظهر في الأربعينيات من القرن الماضي كمنقذ لهذه البلاد؟!

لقد عانى الجنرالات من قربهم اليومي من الرجل الذي اشتهر بطلباته المفرطة على حساب طاقاتهم ووقتهم وصبرهم وصاروا أول ضحايا تخليهم عن امتيازات وإغراءات النبالة، وعقيدة دور الرجل العظيم في التاريخ. كلا المجموعتين تعرضتا للتجريح من معسكر تشرشل. فحتى مذكرات الطبيب الشخصي لتشرشل لورد موران Moran وفيها عرض لسجل الأمراض التي بدأت تؤثر على رئيس الوزراء خلال الحرب العالمية الثانية، لم تنج من النقد. (أحد أعضاء الدائرة الداخلية لتشرشل قال إن موران «لم يكن موجوداً ولا طرفاً في النقاشات ذات الأهمية السياسية والعسكرية، ولكن عادة ما كانت تتم دعوته للغداء بعد ذلك»). مع ذلك تواصلت أسطورة تشرشل المنهكة بأمراض القلب والإرهاق والمشوّشة بالكحول مع ظهور علامات الخرف المبكر، على الرغم من أنه كابد ضغوط الحرب بحالة بدنية أفضل، وبحضور ذهني أكبر مقارنة بالسياسيين والضباط الأصغر سناً.

لدى نقاد تشرشل وجهة نظر مشتركة عن العيب المحوري في تكوينه كرجل دولة : المزاجية وعدم الاستقرار. وهم يرون أنه كان صنيعة حماسته ويشهدون لعبقريته، لكن يرونه متعصّباً كثير النزوات والأخطاء. فشغفه البالغ لحملة الدردنيل عام ١٩١٥، ودفاعه الدون كيشوتي عن الملك إدوارد الثامن، ومعارضته لاستقلال الهند، وسعيه الدؤوب للنهايات الاستراتيجية في الحرب العالمية الثانية - يشمل ذلك

غزو النرويج مبكراً في الحرب والوثوب على فيينا عبر ثغرة ليوبليانا في نهايتها - مثلت الافتقار إلى الوعي السياسي والعسكري.

لقد كانت ساعات عمله الغريبة ونوع الحياة المرحة (يشمل هذا ذوقه المشهور لنبيذ شابليز مع الإفطار، وتناوله الويسكي طوال ساعات عمله)، وحبه للأزياء العسكرية وتعقبه لمرؤوسيه العسكريين حول التفاصيل التكتيكية والفنية خارج نطاق سلطته (اقتراحاته دفاعات مضادّة للطائرات مبنية على الصواريخ بدلاً من المدافع، على سبيل المثال، أو اقتراحاته بخصوص موانئ اصطناعية يتم تركيبها على الشاطئ الفرنسي مباشرة بعد الغزو) كل هذا يبدو معززاً لتلك الآراء.

في ضوء ذلك، وبصورة متزايدة بالنسبة لدارسي تشرشل الحديثين، يبدو خطيباً لامعاً لكنه أيضاً، رجل جعلت منه وجهات نظره المتخلّفة وخياله الجامح وتدخّله المتواصل، وحماسته اللامنطقية، خطراً بقدر ما هو مصدراً لإنقاذ بريطانيا المنهكة. ويمكن القول إن هذا هو رأي الباحثين إلى حدّ كبير الآن في تشرشل.

هذا خطأ الدماغ البشري المكوّن من فصين

في الحقيقة، إن الانطباع أعلاه، بغض النظر عن شيوعه، كان زائفاً بالكلية، لأن تشرشل كان رجل نظام - نظام غير قويم وحيوي - لكنه نظام على الرغم من ذلك. ذكر بيرسي سكوت Percy Scott قبطان البحرية الملكية ورائد الحرب البحرية، بعد اجتماع له مع

ونستون تشرشل، وكان في ذلك الوقت في الخامسة والعشرين من العمر عام ١٨٩٩ أنه قال للرجل :

- إنني فخور جداً بمقابلتك... إنني على يقين أنني سأصافحك ذات يوم وأنت رئيس لوزراء إنجلترا. أنت تملك المؤهلَين الضروريين لهذا الموقع، العبقرية والمثابرة.

والمثابرة لا تقل أهمية عن العبقرية. كان تشرشل - البعيد بطبعه عن أن يكون أرستقراطياً متكاسلاً - محبّاً للعمل، شعاره لمساعديه الإداريين في الحرب العالمية الثانية هو «KBO» أي واصلوا العمل. وسمحت له عادات العمل المنضبط السعي وراء مهنة صعبة شملت وظائف قيادية في السياسة، وسلسلة متواصلة من الكتابات الصحفية، وتأليف خمسة كتب من عدة مجلدات على الأقل، وكتب أخرى تاريخية من مجلد واحد ومقالات شخصية.

كان طاقم موظفيه مكوناً على الأقل من سكرتير خاص وثلاثة موظفين آخرين أو أكثر، يعملون بالتناوب للتمكّن من مجاراة فيض الخطابات، والمقالات، والكتب التي يمليها عليهم. ولقد كانت ساعات عمله، في الحقيقة، قاسية على مرؤوسيه، وتمتد كما هي العادة حتى الساعات الأولى من الصباح. لكن هنا أيضاً، أظهر ليس فقط الانغماس الذاتي، ولكن أيضاً أسلوباً مكّنه من توزيع عبء العمل الطاحن. الاستيقاظ في الثامنة صباحاً، والقراءة عدة ساعات في السرير - متصفحاً الصحف، وتقارير الاستخبارات والبرقيات ومتابعة الاجتماعات وإملاء محاضر الاجتماعات ثم الغداء وقيلولة

لساعة واحدة أو أكثر، مما يسمح له بالعمل حتى ساعات الصباح الأولى. ويستذكر قائلاً:

- بهذه الطريقة، أصبحت قادراً على إنجاز عمل يوم ونصف في يوم واحد.

وقد حافظ على هذا الروتين طيلة زمن الحرب.

وكان يستمتع وبصورة بهيجة، بوجبات الغداء والعشاء، غير أن للمرء أن يتساءل لماذا لا يظهر ذلك فهماً حكيماً للحاجة إلى الاسترخاء في الظروف الاجتماعية بعيداً عن ضغوط الحرب غير العادية. بالتأكيد، في هذا الخصوص، وكما في الحالات الأخرى على سبيل المثال، كانت أوامره ألا يتم إيقاظه إلا في الظروف الملحة جداً. أظهر تشرشل شعوراً حكيماً بأهمية النظام والترتيب، سمح له وهو في السبعينيات من العمر في عام ١٩٤٤، بالمحافظة على برنامج عمل وسفر يمكن أن ينهك شخصاً أصغر سناً منه بكثير.

شملت شهية تشرشل للمعلومات قدرة حصيفة على ضمان وصولها إليه في شكل قابل للاستخدام. لقد لجأ إلى البروفسور فردريك لاينمان بجامعة أكسفورد (لاحقاً لورد شيرويل)، الذي كان يمتلك موهبة خارقة في كتابة الشروح الموجزة لبعض القضايا الفنية والشؤون المرتبطة بالحرب العصرية، وهي خدمة لا تقدر بثمن لتشرشل الذي كان لديه اهتمام كبير بالتكنولوجيا، لكن من دون خلفية في العلوم. علاوة على ذلك، كان البروفسور يدير مكتب إحصاء صغير يقوم بإعداد الخرائط والبيانات والجداول الدقيقة المفهومة لرئيس

الوزراء، مما سمح له باكتساب صورة جيدة عن أوجه الحرب العديدة (على وجه الخصوص معركة الأطلسي) التي لم يكن من الممكن قياسها والحكم عليها إلا بهذه الطريقة، بدلاً من تحريك خطوط المعركة. في كثير من الأحيان كانت خدمات بيانات البروفسور التي قدمها لرئيس الوزراء أفضل من العروض الإيضاحية المنحازة المعدة من قبل الإدارات الحكومية المختلفة. يضاف إلى ذلك أن البروفسور كان مصدر تحليل عسكري مستقل – مضلّل في بعض المناسبات - ولكنه مفيد في التحليل العسكري. على سبيل المثال، كان لاينمان أول من شكّ في عام ١٩٤١ أن قيادة الطائرات القاذفة كانت أقل نجاحاً بكثير في إصابة أهدافها مما تدعيه. الأمر الذي دعا تشرشل إلى أن يطلق سلسلة من الدراسات والإصلاحات التي أدت إلى تكوين سلاح جوّ ملكي أفضل قدرة بكثير من السابق، بحلول عام ١٩٤٤.

كان النظام وليس النزوة هو العنصر المهيمن على آلة حكومة تشرشل. وقد تألف طاقم موظفيه المباشر طيلة زمن الحرب بشكل رئيسي من الرجال الذين كانوا يعملون من قبلُ لدى سلفه نيفيل تشامبرلين، ويحترمونه. ولقد كانت أوامره الصارمة هي أن تنفيذ العمل لا بد أن يقوم على الكتابة :

- ليكن مفهوماً للجميع، كافة التوجيهات مني يجب أن تكون مكتوبة، أو يجب تأكيدها كتابة فيما بعد، وإنني في هذا الصدد لن أقبل أي مسؤولية عن أمور تتعلق بالدفاع الوطني يزعم فيها أنني اتخذت قرارات، لم تكن مسجلة كتابة.

هذا النظام مغاير لعادات عمل روزفلت وهتلر وستالين، الذين كانوا يعتمدون بصورة رئيسة على الكلام الشفهي، بما يحمله من احتمالات متزايدة من الغموض وسوء التفسير. ووفقاً لأوامره، اتبع موظفوه المثابرون، على قلتهم، المذكرات التي تصدر من مكتبه، للتأكد من أن أوامره قد تم التقيد بها، وان أسئلته تمت الإجابة عنها، وأن البيانات والمعلومات التي طلبها قد تم تجميعها. من بين الأوامر، كان القليل منها فعلياً، يتعلق بالأمور العسكرية على وجه الخصوص، كما سنرى فيما بعد. إلى جانب ذلك، اعتمد تشرشل طيلة فترة الحرب على موظفيه لتأمين آلية عمل سلسة لتوجيه شؤون الحرب. كان الجنرال هاستنجز إزماي، أمين هيئة رؤساء الأركان، يعمل كحلقة وصل لا غنى عنها بين رئيس الوزراء سريع الغضب وقادته المنهكين. ووفقاً لما وصفه إزماي لاحقاً عن دوره :

- شعرت بأن دوري هو تفسير وإعادة تفسير ما يقوله رئيس الوزراء لرؤساء الأركان وما يقوله رؤساء الأركان لرئيس الوزراء.

ولقد نفذ هذا الدور بصورة فائقة. وقد يعتقد المرء أنه في حال غيابه قد ينفجر الصراع بين تشرشل ورؤساء الأركان بصورة كارثية. على سبيل المثال، ذكر إزماي في سنة ١٩٦٤ أنه قبل قمة كيبيك الثانية، كان رؤساء الأركان على حافة تقديم استقالة جماعية. وقد قفز إزماي في خضم النزاع واستقال بشكل رسمي، إلا انه فوجئ بأن استقالته مُزّقت وأن العلاقات قد عادت لطبيعتها، مؤقتاً على الأقل.

تكشف عادات العمل لدى تشرشل عن ترتيب وانضباط عالٍ

أكثر مما هو معروف عنه لدى العامة، وينطبق الأمر نفسه على أسلوبه شبه الملتوي والمتعرّج في صناعة القرار. وفي عمل تاريخي سابق، كتب تشرشل عن معاصر دوق مالبورو الأول، لورد هاليفاكس، قائلا:

- حب الاعتدال والإحساس العملي يظهر فيه بشكل جلي، كبديل للمسارات الفاترة. يمكن أن يسعى بكل قوة لتحقيق تسوية، كما هو الحال بالنسبة لمعظم القادة من أجل تحقيق النصر.

وسواء كان هذا الوصف يلائم أو لا يلائم بشكل دقيق رجل الدولة في القرن الثامن عشر، فإنه بالتأكيد قد يناسب تلميذه في القرن العشرين.

- اعتقدت أنه كان يجب علينا هزيمة الإيرلنديين ومن ثم إعطاؤهم حكماً ذاتياً: أي أنه كان يجب علينا تجويع الألمان ثم تزويدهم بالمؤن. وأنه بعد توجيه الضربة العامة الساحقة، يجب علينا تلبية مطالب عمال المناجم. وغالباً ما أواجه مشكلة، لأن القليل من الناس يتبعون هذا التفكير. في نهاية الأمر، هذا كله خطأ الدماغ البشري لأنه مكوّن من فصّين، واحد منهما فقط يقوم بالتفكير. فالمرء منا إما أعسر وإما أيمن، بينما لو أننا خلقنا بالصورة الصحيحة، لكان من المفترض أن نستخدم اليد اليسرى واليد اليمنى بقوة ومهارة متساويتين وفقاً للظروف. أما وأن الحال كذلك، فإن الذين يحسنون كسب الحرب نادراً ما يصنعون سلاماً جيداً، ومن يستطيعون صنع سلام جيد، لا يكسبون الحرب على الإطلاق.

هذه المقولة هي بمثابة النظرية التي كان يهتدي بها تشرشل في كل مواقفه وقراراته المصيرية في الحرب والسلام وفي أكثر من مناسبة.

لفهم التاريخ، يجب على القارئ أن يتذكر دائماً أن ما تم تسجيله ضئيل للغاية مقارنة بما حدث فعلياً. وفوق كل شيء عليه الا ينسى كيف تم ضغط واختزال عامل الزمن بشكل خطير. إذ تمر السنين على فصول الكتاب وفي بعض الأحيان على الصفحات، وفجأة تضيء الرواية التاريخية جوانب جديدة، حيث تظهر علاقات متغيرة وأجواء مختلفة. وعليه، فإن شخصيات الماضي يتم إظهارها أيضاً ربما بصورة أكبر أو أقل مما كانت عليه بالفعل.

جلب تشرشل للحرب العالمية الثانية معرفة ثرية للغاية بصورة مباشرة، وفي نفس الوقت بديلة، فيما يتعلق بالشؤون العسكرية. ويُحسب فريداً بين رجالات الدولة، من حيث شهد العديد من الحروب الكبيرة في حياته مرتين - واحدة في الواقع والثانية في الدراسة - حسبما كان ينظر إليها من حيث بنائها ومعناها. ففي مقتبل حياته المهنية كضابط صغير ومراسل صحفي خاض القتال في عدة قارات : في الهند وكوبا والسودان وجنوب إفريقيا. ورأى بعض المؤرخين أنّ هذه الحملات الاستعمارية نقشت في ذهنه صورة رومانسية عن الحرب. وشارك، حسبما تم وصفه لاحقاً باستمتاع وحماسة، في واحدة من هجمات الفرسان الكبيرة والناجحة الأخيرة في معركة أم درمان في عام ١٨٩٨.ألم يكتب، في استعادة للماضي، أن :

- ليس هناك ما هو أبهج من أن تتعرّض لإطلاق النار، بدون نتيجة؟

لكن في الحقيقة، تتكشف فيه شخصية طالب حرب يتسم بالوعي المتنامي والثاقب. ففي المجلد الأول من كتابه «حرب النهر»، على سبيل المثال، نجده يبدى احتراماً بالغاً لأهمية خطوط اتصالات القوة الإنجليزية/المصرية ولعمليات النقل والتموين التي كانت حاسمة لحملة اللورد كتشنر Kitchener في السودان.

النصر جميل، مثل زهور مشرقة الألوان. النقل هو الساق الذي بدونه لا يمكن للزهور مطلقاً أن تتفتح وتزهر. ولكن حتى الطالب الحربي، في حماسته لتعلّم التشكيلات المذهلة للنزاع الحقيقي، كثيراً ما ينسى تعقيدات التموين المتداخلة بشكل كبير. مستفيداً من الأريحية البلاغية، خصّص تشرشل فصلاً كاملاً يصف فيه بدقّة ووضوح العمليات اللوجستية المعقّدة للورد كتشنر.

في هذه الصراعات، كان تشرشل مشاركاً مبتدئاً، وكتاباته تنمّ عن شابّ واعد. وخلال السنوات التي أدت إلى الحرب العالمية الأولى كان شخصية رائدة، خدم بمثابة لورد أول في وزارة البحرية الملكية من عام ١٩١١ وحتى ١٩١٥، ودخل لفترة وجيزة معمعة الحرب في خنادقها، ثم عاد بعد ذلك إلى الخدمة العامة كوزير للذخيرة والعتاد الحربي ولاحقاً كوزير دولة للحرب. وقد تضمن كتابه «أزمة العالم» (The World Crisis) المكون من أربعة أجزاء، على الرغم من أن جورج برنارد شو قد وصمه بأنه :

- ذكريات مقنّعة توهم بأنها تاريخ للكون.

تأملات موسعة عن كافة خواص الحرب، شملت عمليات الابتكار التكنولوجي والتكتيكات ومشكلة حرب الائتلافات. على سبيل المثال، في الفصل المعنون «رومانسية التصميم» ينتقل القارئ من مشكلة تأثير حجم المدفع على السفن الحربية إلى مقايضات أكبر (السرعة والدرع والقوة النيرانية) في تصميم السفينة الحربية، ثم إلى قضية الدفع، التي هيمنت بدورها على القرار الثوري لتغيير اعتماد سفن البحرية الملكية على الزيت بمثابة وقود رئيسي لها عوضا عن الفحم - يبدو كأنه قرار تقني بحت ولكنه ذو تبعات سياسية وعسكرية ضخمة.

بالنسبة لتلك الحروب التي خاضها أو عايشها تشرشل، ينبغي للمرء إضافة تلك التي شهدها باعتباره مؤرّخاً فقط. من أهمها حرب الخلافة الإسبانية، التي نفذها سلفه دوق مارلبورو الأول، والحرب الأهلية الأمريكية. فالسيرة التي كتبها لمارلبورو، وُصمت بكل سهولة، بأنها مجرد اعتذارات عن سلفه العظيم. ليست فقط تاريخاً للحروب، لكنها أيضاً بحث في فن الحكم. وهي بصفة خاصة دراسة عن مشكلة حرب الائتلافات و«تاريخ لكل الائتلافات» كما ذكر لقرائه «قصة الشكاوى المتبادلة بين الحلفاء».

شكلت الحرب الأهلية الأمريكية الموضوع المركزي في العمل الأخير الرئيسي لتشرشل، «تاريخ الشعوب الناطقة بالإنجليزية» (History of the English-speaking Peoples)، الذي تم كتابة معظمه قبل الحرب العالمية الثانية. وقد كرس وقتاً وجهداً في دراسته

أقل مما ما خصصه للنزاعات الأخرى التي درسها، لكننا نجد أن فهمه للحرب يتسم بالوعي والإدراك العميق. فعندما يسترجع، على سبيل المثال، نزعة التشكك والتوجس (المنتشرة بكثرة في الأوساط العسكرية الإنجليزية) حول القدرة العسكرية الأمريكية، كتب أن قناعته الراسخة هي عكس ذلك على الأقل من ناحية معرفته بالحرب الأهلية. في روايته عن الحرب العالمية الثانية، طوّر منظوره عن الحرب الأهلية الأمريكية، وعبر عن ذلك في خطاباته الموجهة إلى الأمريكيين. لقد ذكّر تشرشل الكونجرس في شهر مايو ١٩٤٣ بأنه :

- ما من أحد شكّك بعد غيتيسبرغ في الاتجاه الذي سيميل إليه الميزان المخيف للحرب، إلا أن إراقة الدماء بعد انتصار الاتحاد في غيتيسبرغ كانت أكثر من كل المعارك التي دارت قبلها.

في هذا الوضع، رأى تشرشل - وبصورة سليمة - حالة مشابهة لظروف الحلفاء في تلك السنة الفاصلة.

مجموع كل القوى والضغوط المؤثرة في فترة معينة

ماذا استفاد تشرشل من هذه الخبرة الواسعة والتأمل في الحرب؟ على نحو غريب، قد نجد المفتاح في مقال على شكل كتيّب تم نشره عن هوايته الرئيسة، الرسم، التي يقارنها صراحة بفن الحرب :

- إنه نفس النوع من المشكلة، مثل تكشّف جدال طويل ومستدام ومتشابك. وهو عرض تحكمه وحدة مفهوم واحدة، سواء تكوّن من بضعة أجزاء أو من عدد لا نهائي من الأجزاء.

وباعتباره رساماً هاوياً موهوباً، أسقط رؤاه الفنية على الحرب. فالاثنان يتشكلان من موضوعات أو ثيمات واسعة (وهي كلمة يستخدمها كثيراً في كلا المحتويين) تعززها تفاصيل لا متناهية تضع نفسها تحت تصرف ريشة الفنان صانع لوحة الحرب، أو لوحة الرسام. وكما لا يمكن ممارسة الرسم وفقاً لقواعد صلبة وسريعة أو جدول جامد، لا يمكن إدارة الحرب وفقاً لقواعد مسبقة. وإنما علينا استخدام ملكة الإبداع في كل لحظة تماماً كما يفعل الفنانون. وكثيراً ما كان يذكّر زملاؤه خلال الحرب العالمية الثانية بالحاجة إلى وضع عمليات خاصة في محتوى خطة أكبر للحرب. بالتأكيد، كان القسط الأكبر من عبقريته في الحرب يتمثل في قدرته على رؤية العلاقة بين عناصر النزاع الكبيرة والصغيرة، وما بينها من صلات وانقطاعات. لقد استبشر برحلته البحرية إلى الولايات المتحدة عقب هجوم اليابان على بيرل هاربر وذلك لان الابتعاد عن البساط من حين لآخر، جيد لرؤية الصورة الكاملة من بعيد.

فرضت ضرورات الحرب على القادة مجموعة من الاعتبارات والحسابات التي لا يفهمها حتى أكثر الحاذقين. كتب تشرشل في «أزمة العالم» :

- إنّ الحرب لا تعرف التقسيمات الجامدة بين الأعداء والحلفاء، وبين البر والبحر والجو، وبين تحقيق الانتصارات والتحالفات، وبين الإمدادات والمقاتلين، وبين الدعاية والآليات، إنما هي التي تشكل في الواقع وببساطة، مجموع القوى والضغوط المؤثّرة في فترة معينة.

يوحي إيمان تشرشل العميق بانعدام اليقينيات في زمن الحرب بأنه يعتبر فكرة أن المرء يمكن أن يضع مخططاً تفصيلياً للنصر في وقت سابق، لنقل مثلا عام ١٩٤٣ ، ما هي إلا مثال على السخف الناشئ عن عدم فهم الحرب.

- الحرب نضال مستمر ويجب إضرامها من يوم إلى يوم. ولا يمكن التدبير والتخطيط للمستقبل إلا بمواجهة بعض الصعوبات وضمن حدود معيّنة. ولقد أظهرت التجربة أن التوقعات تكون في العادة زائفة، والتحضيرات دائماً متأخرة. وبالرغم من ذلك، يجب أن يكون هنالك تصميم لدفع الحرب إلى نهاية ظافرة في فترة معقولة. وتزداد ضرورة ذلك في ظروفنا الحديثة حيث لا يمكن القيام بعملية واسعة النطاق من دون الإعداد الدقيق، من قبل جهاز فني شامل.

من هنا جاءت وجهة النظر التي حملها تشرشل طويلاً نتيجة للتجربة والدراسة :

- كل مجموعة من الافتراضات التي نجد ضرورة في افتراضها، تسحب أقنعة جديدة ذات كثافة متنوّعة أمام ستارة المستقبل المظلمة.

لا يقوم إدراك تشرشل لسخريات الساسة وحدود قدرات التنبؤ البشري على التجربة الطويلة في الشؤون العامة فحسب، ولكن على الدراسة الوثيقة للتاريخ. في تعليقه على نهاية سيرة دوق مالبورو الأول

حول العلاقات المتقلبة بين بريطانيا وفرنسا عبر القرون، لاحظ بوعي أن :

- النظرة الثاقبة وحدها يمكن أن تصل إلى استنتاجات. ومهما ظهر في لحظة معينة بأنها منطقية، فإن الزمن سوف يطمسها بلا رحمة.

هكذا، سفّه تشرشل المنطق الوسطي بين من يرفضون أي احتمال للاستراتيجية (في مقابل معارضة الانتهازية العسكرية التي اتهم بها) ومن يختصرونها إلى مخطط تفصيلي. جاءت القيادة العسكرية الأمريكية في الفئة الأخيرة التي قاومت بمرارة أي محاولة للانحراف عن الاستراتيجية الأساسية لغزو شمال غرب أوروبا في عام ١٩٤٣. وقد عارضها تشرشل بنجاح وأقنع الرئيس روزفلت أن يعتمد أولاً غزو شمال إفريقيا في ١٩٤٢ وبعد ذلك متابعة الحملات في صقلية وإيطاليا في ١٩٤٣.

بالنظر إلى عدم ثقته في كل التوقعات، بما في ذلك توقعاته الخاصة أيضاً، اعتقد تشرشل أن تكوين الاستراتيجية في الحرب لا يتأتى فقط من رسم وثائق الدولة لتظهر رؤية شاملة لكيفية كسب الحرب، لكن أيضاً من مجموعة من النشاطات التفصيلية التي متى ما تم توحيدها والسيطرة عليها بمفهوم مركزي، تشكل صورة شاملة لحقائق الحرب.

لقد برز هذا الاهتمام بالتفاصيل أيضاً لعدم إيمانه وعدم رغبته في الاعتماد الكامل على الخبرة العسكرية. وقد أثارت هذه الشكوك،

التي لم يُخفها تشرشل، امتعاض معاونيه. لقد علموا أنه بالرغم من احترامه لهم بمثابة أفراد، لمعارفهم وشجاعتهم وصفات القيادة الجيدة لديهم، فإنه ينظر إلى مرؤوسيه العسكريين بمقدار غير يسير من انعدم الثقة المهنية. ثم نشأ بعد ذلك، اشتباهه بوجود عمليات بيروقراطية.

- يمكنك أن تجمع أكثر البحارة شجاعة وأكثر الطيارين بسالة وأكثر الجنود جرأة حول طاولة مع بعضهم بعضاً، على ماذا ستحصل؟ ستحصل على المجموع الإجمالي لمخاوفهم.

وكذلك أيضا ملاحظاته اللاذعة بشأن ضباط الأركان واقتراحه في مرحلة ما أن :

- إن أحسن شيء يمكننا فعله هو تشكيل فيلق مقدّس من نحو ألف ضابط ركن، وجعلهم قدوة للقوات، بأن نرسلهم في قيادة هجوم انتحاري.

إن كل المقاتلين ذوي الرتب الرفيعة في الحرب العالمية الثانية، على الأقل في مراحلها المبكرة، كانوا واقعين تحت التأثير المباشر للمذكرات الشخصية لبعض قادة الحرب العالمية الأولى، وإن بدرجة لم يتم إدراكها اليوم بصورة كافية. ومن المدهش حقا أن نرى كيف أن التماهي مع تجارب الحرب العالمية الأولى يظهر في المذكرات الرسمية ومحاضر المناقشات. في حالة تشرشل هنالك ذكرى واحدة مهيمنة، بالطبع، وهي محاولة فرض استراتيجية للهجوم على تركيا عبر الدردنيل. تلك المحاولة انهارت نتيجة لما اعتُبر عدم الحماسة

العسكرية الكافية للمشروع. ومن المؤكد أن الحرب العالمية الأولى هيمنت على التفكير البريطاني حول المستويات المقبولة للإصابات في العمليات العسكرية الرئيسية في القارة. ومن هنا كانت رسالة لاينمان في عام ١٩٤٢ إلى الجنرال جورج مارشال George C. Marshall، رئيس هيئة أركان الجيش الأمريكي حيث إن الأخير ضغط للإنزال المبكر في القارة الأوروبية :

- لا جدوى من ذلك، أنت تناقش وكأننا أمام الخسائر في معركة السوم.

لكن من وجهة نظر تشرشل، كانت أهم سمة من سمات الحرب العالمية الأولى هي ذلك الضوء البارد والمتوهّج الذي سلطته على القيود المفروضة على كبار القادة العسكريين.

نقل نورمان بروك سكرتير حكومة تشرشل في خمسينيات القرن العشرين إلى هاستنجز إزماي السكرتير السابق لهيئة رؤساء الأركان، ملاحظة تشرشل الكاشفة :

- قال لي تشرشل في دردشة خاصة، إن ذلك نمط العلاقات السائدة الآن بين المدنيين والعسكريين صار أكثر تناسقاً مما كان عليه الحال في الفترة من ١٩١٤ إلى ١٩١٨ يرجع جزئياً إلى مدى الانتقاص من شأن الجنرالات بعد الحرب العالمية الأولى. أما في الحرب الثانية فلا يستطيع خلفاؤهم أن يتظاهروا بأنهم لا يخطئون مهنيا.

لم يكن تشرشل يعتقد بالرأي البسيط الشائع بعد الحرب العالمية

الأولى بأن كبار الضبّاط كانوا عديمي الكفاءة وغير مكترثين بالمعاناة الإنسانية. بل أنهم أصرّوا على نظرية للحرب لا يمكن تنفيذها إلا بتكلفة هائلة. كان الجنرالات البريطانيون والفرنسيون :

- مخلصين طوال الحرب لنظرياتهم المهنية، وعندما بدأت الحقائق تتناسب مع النظريات في حملة الحرب الخامسة لأول مرة، نالوا مكافآتهم العادلة.

وفي نقده اللاذع للجنرالات توقّع استنتاجات المؤرخين الذين سيكتبون بعد سبعين سنة. كان لديهم بالطبع أفضليات أكبر تتصل بالزمن والتوثيق، وقد عملت لصالحهم.

شبّه تشرشل في كتاباته القادة بالأباطرة المحاطين «بالوجوه الباسمة التي تبدي الاحترام». موظفون «غالباً ما يحثّون على استخدام العمليات السلسة» بدلاً من ذكر وبيان الوقائع القاسية. «فالعادة العقلية للعسكري تستند بأكملها إلى إخضاع الرأي». فإذا كان هنالك خطأ واحد في توجيه الحرب أثناء الحرب العالمية الأولى، من وجهة نظر تشرشل، فقد كان خطأ يعزى للقيادة السياسية في التعامل مع اللورد كتشنر الذي كان وزير دولة للشؤون الحربية، لكنه في الواقع، في سنوات الحرب الأولى، كان قائداً عاماً للجيش في كل شيء إلا الاسم :

- بدلاً من أن يقبض مجلس الحرب على ناصية كتشنر ويجعله يشرع في معالجة المشكلة، انتظر أعضاؤه ببلاهة، بنات أفكاره الغامضة.

يجب على السياسيين عدم تقديم الاعتذارات لقادتهم

العسكريين تحت الضغط القاسي للحرب لأنّ «الحرب أصلاً عمل ينطوي على الضغوط المروعة ». وقد عبّر تشرشل عن رأيه بصورة مباشرة أكثر، في تعليق يقلّل فيه من قيمة المقترح الأمريكي عام ١٩٤٣ في تعيين قائد أعلى واحد للحرب في شمال غرب أوروبا :

- يبدو كل ذلك بسيطاً عن بعد، ويتناسب مع المنطق الأمريكي. لكن، عملياً لا يمكن للحكومة أن تعطي توجيهات لجنرال واحد ليهزم العدو وتنتظر لترى ما يحدث. إن الأمر أعقد بكثير من ذلك. فقد يكون الجنرال أقل من مستوى مهمته وهذا ما حدث ويحدث غالباً.

من المؤكد أن تشرشل احترم الكثير من القادة العسكريين، بمن فيهم بعض من اختلف مع وجهات نظرهم بشدة. لكنه لم يكن مستعداً لأن يأخذ أحكامهم بثقة -خاصة في الأمور المتعلقة بالقضايا الاستراتيجية العليا والأمور الفنية البحتة. والأضواء المسلطة اليوم على أخطاء تشرشل، على الحكم العملياتي والاستراتيجي، تتجاهل، وفي بعض الأحيان بحماسة أكبر، الدور الذي لعبه مستشاروه المهنيون في الأخطاء المنسوبة له، مثل تهويل الاحتمالات في اليونان في ربيع ١٩٤١، أو التقليل الخطير من أهمية القدرات العسكرية والبحرية اليابانية في وقت لاحق من ذلك العام، أو في تقدير الاحتمالات الاستراتيجية المفتوحة في شرق المتوسط وإيطاليا في عام ١٩٤٤. كل تلك القراءة الانتقائية للمواقف لا تسلّط الضوء على أخطاء مستشاريه المهنيين عندما عارضوا خيارات تشرشل.

هنا نتذكر أن كبار قادته العسكريين لم يرغبوا في التعرّض لمخاطر من أجل إنقاذ المتوسط في عام ١٩٤١، بل توقعوا الانهيار الكامل لروسيا ذلك العام (كما توقّعوا الانهيار لألمانيا في سنة ١٩٤٤)، وقللوا من تقييم الإمكانات العسكرية للولايات المتحدة في سنة ١٩٤٢ وساورتهم أكبر التحفظات حول عملية نورماندي («قد تكون الكارثة الأكبر لكل الحرب» كما كتب بروك في ٥ يونيو ١٩٤٤). كما أنهم لم يعتقدوا بإمكانية استخدام القصف الاستراتيجي لأي شيء خلاف المدن، ورفضوا الاقتناع في سنة ١٩٤٤ بأن يوم السفن الحربية قد ولّى. لم تكن وجهات نظرهم تخضع لفحص قاس، كما فعل آخرون مع وجهات نظر تشرشل. ويحتار المرء في كيفية ارتفاع صيتهم بعد الحرب ! ماذا يفعل المؤرخون المعادون لتشرشل، على سبيل المثال، بالأحكام الخاطئة والفظيعة مثل تلك الخاصة بكبار المخططين في هيئة الأركان البريطانية الذين عبروا في سبتمبر ١٩٤١ عن الرأي : «بان دخول روسيا الحرب لم يحدث تغييراً أساسيا على استراتيجيتنا !»

عندما ننظر في النقد التاريخي لتشرشل، نجد أن المشكلة الجوهرية لا تكمن في التفاصيل، فكثير منها - في الواقع - صحيح. ولكنها تكمن في عجز النقاد عن تلمس كل جوانب العبقرية وحنكة الحرب التي تميّز بها هذا الرجل. بل إنهم نسوا أنّ غالبية الناس تخطئ في التنبؤ بالمستقبل. ويبدو أن كثيراً من المؤرخين يقيّمون رجل الدولة (وتشرشل على وجه التحديد) كما لو أنهم يفحصون حواشي بحث فصلي لطالب جامعة !

ربما يكون من الحكمة أن نتذكر كيف أن المحاكمات في الحرب

تكون أحياناً خاطئة، وأن تقييم رجل الدولة أو جودة العسكري من زاوية الأرقام وأهمية الحالات التي يصيب أو يخطئ فيها، ليست معياراً يعتدّ به، من جهة التقويم التاريخي. إن المجموع الكلي لعمل رجل الدولة في حالة الحرب في الغالب ذو أهمية أكبر من الخيارات المحددة التي قام بها. لنقل، وذلك صحيح، أن لجوء تشرشل في عام ١٩٤٠، للضغط الكبير على التكتيكات المضادة للغواصات، والتي من غير المرجح أن تنجح، يجب ألا يعمينا عن الدافع والترابط الذي أعطاه للحرب البريطانية على الغواصات الألمانية بإنشاء (لجنة معركة الأطلنطي) التي منحها اهتماماً متواصلاً في أثناء السنوات الصعبة التي عاشها شمال الأطلنطي حتى عام ١٩٤٣. إضافة إلى ذلك، بالنظر إلى وقائع القسوة الشخصية (لم يكن تشرشل أكثر قسوة من روزفلت مع مرؤوسيه، بمن فيهم هاري هوبكنز المريض).

يجب توفير هامش من مراعاة الضغوطات التي يرصدها العالم، أو حتى كاتب المذكرات، وهو مسترخ على كرسي المؤلف. كما يجب الإقرار باختلاف أمزجة الإنسان في الحرب والسلام، وأكثر الأنواع الأساسية للقيادة القاسية تكون في وقت الحرب. ولا ننسى الصعوبة التي يجدها الكتّاب في وضع أنفسهم في مكان القائد السياسي في زمن الحرب، والذي لا شك أنه يتحمل مسؤوليات مضاعفة ويخضع لضغوط لم يعهدوها هم أبداً. إنها معطيات موضوعية تعوق إصدار حكم تاريخي على حنكة القائد في زمن الحرب. وفي الواقع، حتى المرؤوسين المباشرين للقائد لا يفهمونه إلا قليلاً، ولا يتقاسمون الضغوط الحادّة التي يتعرّض لها رئيس الوزراء، أو الرئيس، أو وجهة نظره.

وعندما يتم فحص سجل تشرشل بمنظومة معايير أكثر واقعية، فسيتضح أنه رجل دولة ممتاز بصورة مذهلة، والدليل على ذلك أحكامه السياسية والاستراتيجية. لقد أصاب في عام ١٩٣٨ بمعارضته المبكرة لهتلر في وقت كانت فيه كل الظروف مواتية لمواجهة الدكتاتور الألماني. إن الذين قالوا بأنه بالغ في حجم التهديد الألماني الجوي وبخس تقدير الإجهاد الذي تعرّضت له الموارد المالية البريطانية، يغفلون عن النقطة المركزية، وهي أن المواجهة الحازمة مع هتلر بإقامة ائتلاف بقيادة بريطانيا، مع فرنسا وواحدة من القوى الأوروبية الشرقية على الأقل، كان منطقياً قبل أن يكمل هتلر إعادة تسليح جيشه ووضع يده على موارد أوروبا الشرقية لاحقاً.

وقد كان محقاً أيضاً في الوزن الذي وضعه لضرورة تمتين العلاقة مع أمريكا ومع روزفلت، لتكوين الحلف الأوثق في التاريخ. كما كان محقاً أيضاً في الاهتمام بنوايا السوفيات وأطماعهم في أوروبا ودعوته لضرورة العمل على معارضتها.

كان سجل تشرشل على المستوى العملياتي مختلطاً. فقد أصاب في تقديره لمتطلبات أنظمة الدفاع الجوي في سنة ١٩٤٠ ومرة أخرى في عام ١٩٤٤ لمواجهة الهجمات الألمانية الجوية على لندن وذلك لاستفادته من تجربته السابقة للحرب. ويستحق تشرشل الإشادة لفكرة الإنزال في أنزيو في سنة ١٩٤٤. (بالرغم من تنفيذها السيئ، إلا أنها كانت ضربة مهمة في الحملة الايطالية). وفي أكثر من مناسبة، أقدم على خيارات يائسة مثل زجه الموارد الشحيحة لسلاح الجو الملكي للقتال في فرنسا في يونيو ١٩٤٠ وتأييده لجوبتر (هجوم برمائي شمال النرويج)،

وإعجابه بالخطة المكلفة للإنزال البريطاني في جزر الهند الشرقية / الهولندية في سنة ١٩٤٤ أو ١٩٤٥.

ما يوازن هذه الأخطاء غير المشكوك فيها هي الحقيقة الهامة أنه بالرغم من امتلاكه السلطة العليا ليفعل ما يريد، فإنه سمح لآخرين بدفعه للنزول عند آرائهم. والأكثر أهمية هو أن الشخص يمكنه إيجاد أمثلة عديدة للحكم العملياتي الرائع مثل دفاعه عن منظومة الحلول التكنولوجية المعقدة لمشكلات الغزو عبر القناة، واعتقاده في النجاح النهائي للقصف الدقيق في وضح النهار من قبل سلاح الجو الأمريكي، ودعمه لضربة برمائية مبكرة في إيطاليا عام ١٩٤٤.علاوة على ذلك، رعى تشرشل وكالات حرب غريبة من محللي شفرة بلتشلي بارك إلى كوماندوز وشنديتز إلى مؤسسة البحث التقني الصغيرة المسؤولة عن تلك الابتكارات المذهلة مثل قاذفة القنابل الخفيفة المضادة للدبابات والألغام المضادّة السفن.

ما هو أكثر أهمية من كل ذلك، هو سؤاله اليومي وحثه الدائم للجنرالات لبذل نشاط أكبر من جانبهم، الأمر الذي أدى إلى أدائهم الجيد لمهامهم. لقد استقرت قيادة تشرشل للحرب كلياً على رؤيته الاستراتيجية الواسعة، وجزئياً على أسئلته وجهوده لملاحقة كل كبائر وصغائر الأمور المرتبطة بالمجهود الحربي.

يتمثل أحد أكبر مساهمات تشرشل في الحرب في مقدرته على التعامل مع المسائل غير الواضحة والمعممة التي تمثل مكامن لنضال طويل ومظلم. كان هو من صاغ مصطلحات مثل «معركة بريطانيا»

Battle of Britain و«معركة الأطلنطي» Battle of the Atlantic التي ظلت مستخدمة من قبل المؤرخين أكثر من نصف قرن بعد الحدث. وقد شكلت تلك المصطلحات الإطار المرجعي لمختلف النشاطات العسكرية المترابطة وظيفياً، والتي لا تقع في منطقة او مسرح عمليات أو أي جهة عسكرية مفردة. وكان تشرشل يعقد لجنة خاصة لكل حالة ويقوم بترأسها بنفسه حتى يضع كل جهاز في الحكومة أمام المسؤولية التي تحددها اللجنة على ضوء الأولويات والمهمات وتحديد المشكلات الهامة. ولقد سرّعت اللجان الخاصة بساعة الصفر من خلال تطوير وإنتاج المُعدّات المتخصصة (من الموانئ المتحركة إلى الدبابات البرمائية). تلك التي يحتاج إليها للهجوم على قلعة أوروبا، تماماً مثلما قامت لجنة كروس بو، بمراقبة تطوير أسلحة الألمان الانتقامية – القنبلة الطائرة V-1 والقذيفة V-2 -ودعم مختلف التدابير المضادة لها (الدفاع الجوي، وقصف مواقع الإطلاق، وخطط الخداع) التي ابتُكرت لاحتواء التهديد. وربما كان أكثر إسهامات تشرشل نجاحاً (لجنة معركة الأطلنطي) التي أوجدت انسجاماً منقطع النظير للجانب البريطاني في الحملة الجوية والبحرية لتأمين الخطوط البحرية في الأطلنطي.

من أعظم مهمات تشرشل في الحرب العالمية الثانية، وهي مهمة ساعدته فيها خبرته السابقة، إدارة ائتلاف الحلفاء الكبير ضد هتلر. كان يمكن لهذا الحلف الكبير المكون من عناصر يائسة والى حد ما متعادية ومتعارضة، إن يتصدع بسهولة. وقد واجهت تشرشل مشكلة ثلاثية الأبعاد. في أعقاب سنة ١٩٤٠ لم يعد هنالك شيء أهم من الروابط بين بريطانيا وشريكيها المحتملين، والحقيقيين بعدئذ،

الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة. وقد أخبر البرلمان، بعد سقوط سنغافورة في أيام فبراير ١٩٤٢ المظلمة، أن مشاركة هاتين القوتين «الحقيقتين الكبيرتين الأساسيتين واللتين تهيمنان في النهاية على الوضع العالمي وتجعلان النصر ممكناً، أمرٌ هام بشكل لم يكن ممكناً من قبل».

فاستعداده لدعم الاتحاد السوفياتي، بالرغم من معارضته الطويلة للشيوعية، وسعيه الحثيث للحلف الأمريكي، وضع الأساس للنصر النهائي. كانت لتشرشل يد ضعيفة في تلك العلاقات، وعلى وجه الخصوص في مواجهة الأمريكيين. ففي سنة ١٩٤٠ و١٩٤١ كادت بريطانيا أن تفلس، كما كاد يتم طرد قواتها من القارة في هزيمة تلو الأخرى. وبسبب هزائم بريطانيا في فرنسا واليونان وشمال إفريقيا، انتابت الأمريكيين أعظم الشكوك بشأن الإمكانيات العسكرية البريطانية. ونظر كثير من الأمريكيين، بمن فيهم الرئيس، إلى السياسة الإمبريالية البريطانية بمزيج من الشك والكراهية والارتياب. لذا كان من الملفت أن تشرشل ومستشاريه تمكّنوا من اتخاذ كل قرار استراتيجي على هواهم حتى نهاية يونيو ١٩٤٤ عندما أجبر تشرشل على الخضوع أمام الإصرار الأمريكي على تنفيذ الغزو المخطط له طويلاً لجنوب فرنسا (دراجون) وأيضاً الهجوم على نورماندي.

إن غزو شمال إفريقيا في سنة ١٩٤٢ والهجوم الذي تبعه على إيطاليا في سنة ١٩٤٣ والعمليات المتواصلة هناك حتى شتاء ١٩٤٤ مثلت تحققاً لتصميم تشرشل الاستراتيجي على نحو لا يختلف كثيراً عما دوّنه في مذكراته التي أعدّها لمؤتمر واشنطن الأول في سنة ١٩٤٢.

وقد احتفظ تشرشل بحرية الفعل حتى أواخر ١٩٤٤ وحض أمريكا على مضض منها، لدعم التدخل البريطاني في الحرب الأهلية اليونانية.

استخدم براعته الشخصية لكسب الأمريكيين عبر العلاقات الشخصية بما في ذلك صداقته مع هاري هوبكنز Harry Hopkins، المستشار المقرّب لروزفلت، ومع الرئيس نفسه، وقد تبادل معه سلسلة غير عادية من الرسائل في سنوات الحرب. لم تكن مثل تلك العلاقات ممكنة مع السوفيات. وبالرغم من ذلك استطاع تشرشل أن يدعم الاتحاد السوفيتي في الحرب دون الخضوع لحماسة بعض أعضاء مجلسه لفتح جبهة ثانية لمساعدة روسيا ولا لتشاؤم مستشاريه العسكريين الذين شككوا في قدرة روسيا العسكرية على الصمود. لم تكن العلاقات مع الحلفاء الكبار بعيدة عن تفكيره حيث إنه في أبريل ١٩٤٣ استشاط غضباً من الأنباء التي تفيد بأنّ الجنرال أيزنهاور كان يفكر في إلغاء عملية هسكي (غزو صقلية) بسبب فرقتين ألمانيتين، تبين أنهما موجودتان في المنطقة المستهدفة بالهجوم.

- إذا اعتُقد إن وجود فرقتين ألمانيتين سيكون حاسماً ضد أي عملية ذات طبيعة هجومية أو برمائية مفتوحة الآن لمليون رجل في شمال إفريقيا، فمن الصعب تصور كيفية خوض الحرب. جرت شهور من الإعداد وحشد القوى البحرية والجوية، ومع ذلك تكفي فرقتان ألمانيتان للتخلّي عن كل ذلك! أنا أثق في أن قادة الأركان لن يقبلوا بتلك النظريات الجبانة والانهزامية. لقد أخبرنا الروس بأنه لا يمكنهم تلقي إمداداتهم بواسطة القافلة الشمالية من اجل «هسكي» والآن يجب تأجيل «هسكي»

لأن هناك فرقتين ألمانيتين (قوتهما غير محددة) في الجوار! ماذا سيكون موقف ستالين وهو الذي يواجه ١٨٥ فرقة ألمانية في جبهته من قرار كهذا؟! لا أستطيع استيعاب أمر كهذا.

في الوقت نفسه تجنّب تشرشل الطلبات الغاضبة للحكومة السوفياتية وفَهِم، قبل أيٍّ من حلفائه، الخطر الذي تمثله روسيا الشيوعية على دول أوروبا الشرقية المحرّرة من الرعب النازي بواسطة الجيش الأحمر، لتقع فريسة له بعد ذلك.

كان المستوى الثاني من العلاقات التي نالت اهتمام تشرشل مع دول الإمبراطورية والكومنولث التي تطلبت أيضاً معالجة بارعة. فلقد وفرت الهند والمناطق ذاتية الحكم (كندا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب إفريقيا) الموارد والعمق الاستراتيجي واليد العاملة، والكثير من المقاتلين في خط القتال الأول للقوات الإمبراطورية. وتطلبت الإمبراطورية إدارة رشيدة أيضاً. لقد اضطربت الهند بسبب الصراعات الداخلية ضد الحكم البريطاني، ولدولة (جنوب إفريقيا) ميول انعزالية ولم تكد تلتحق بالحرب في ١٩٣٩، ولم تستطع كندا فرض التجنيد على سكانها الناطقين باللغة الفرنسية (وبالتالي على الناطقين بالإنجليزية أيضاً)، وطالبت أستراليا ونيوزيلندا بأن تكون قواتهما تحت قيادة موحّدة، وقد تم سحبها فوراً إلى المحيط الهادئ عند نشوب الحرب مع اليابان.

لكي يشق تشرشل طريقه عبر هذه العلاقات المعقدة، كان عليه أن يناضل مع قادة الشرق الأقصى الذين، عارضوا، على سبيل

المثال، توحيد القوات الاسترالية تحت قائد واحد، أو مع رؤساء وزراء المستعمرات الواجب استشارتهم وتملقهم دون منحهم صلاحية اتخاذ قرار، كما لو كانوا أعضاء في الحكومة البريطانية.

كان المستوى الثالث من العلاقات الائتلافية لتشرشل، هي علاقاته مع الحلفاء قليلي الشأن والقوى المحايدة، وعلى رأسهم الفرنسيين الأحرار بقيادة ديجول. فخلافاً للرئيس روزفلت الذي كره ديجول، أدرك تشرشل أن الجنرال الذي لا يمكن السيطرة عليه، خلافاً للقادة الفرنسيين الآخرين، له أتباع وسط الشعب الفرنسي.

في مسعى مماثل، بذل تشرشل ما في وسعه ليقف إلى جانب الحكومات المنفية لليونان وبولندا في وجه الضغوط الكاسحة للحركات الشيوعية المصرّة على تجريدهم من السلطة عقب التحرّر من الحكم النازي. وفيما يتعلق بقوات المحايدين، باستثناء سويسرا بصورة ملحوظة، كان قاسياً لحد بعيد. وقد فضل في سعيه لتوسعة الحرب ضد هتلر في ١٩٣٩ الإخلال بحياد النرويج وذلك بتلغيم مياهها الإقليمية متحججاً بأن:

- الأمم الصغيرة يجب ألا تغل يدنا عندما نقاتل من أجل حقوقها وحريتها.

وربما كان المثال الأكثر شراسة لحزمه، طلبه الهجوم على الأسطول الفرنسي في وهران بالجزائر بعد أسابيع قليلة فقط من استسلام الفرنسيين لألمانيا في ١٩٤٠.

تكشف مواقف تشرشل بشأن دبلوماسية الحرب مزيجاً فريداً

من التقنيات والأساليب. وعند مقارنتها بالأغراض المتعارضة التي عمل من أجلها الحلفاء في الحرب العالمية الأولى على سبيل المثال، فإن ترابط الحلف الكبير يبرز باعتباره مأثرة فذّة. وكان للتحكم الشخصي لتشرشل في تلك العلاقات من خلال المراسلات والرحلات المكثفة إلى الخارج والاجتماعات الخاصة والمؤتمرات الكبيرة التي هيمنت على استراتيجية الحرب، دور كبير في نجاحها.

فن الاستجواب عند تشرشل

أدّى تشرشل وظيفة واحدة رئيسية باعتباره قائد حرب، وذلك بالتأثير في بعض أكبر قرارات الحرب -على سبيل المثال- عند انطلاق غزو فرنسا، ما هو الوزن الذي يجب منحه للقصف الاستراتيجي كوسيلة لهزيمة ألمانيا، وما مقدار التشديد على مساعدة الاتحاد السوفيتي. لكن في أساس تلك القرارات الاستراتيجية عالية المستوى التي منحها المؤرخون التقليديون كثيراً من الاهتمام، كان هنالك نشاطات أقل وضوحاً ولكنها ليست أقل أهمية. وهي تشمل اتخاذ قرارات في أمور تفصيلية - تفاصيل مهمة، ولكنها تفاصيل على أي حال.

وربما كان أكثر تلك الأنشطة أهمية المراجعة المستمرة للقرارات العسكرية. ذكر اللورد إزماي، سكرتير هيئة رؤساء الأركان والشخص الذي لا يستغنى عنه في ماكينة الحرب، في مذكراته :

- لم يبطل تشرشل أي قرار لمستشاريه العسكريين طوال الحرب، إذا كانت المسألة ذات طابع عسكري صرف.

لكنه مارس سيطرته على الأحداث وذلك بالسؤال المتواصل عن كل صغيرة وكبيرة. وكما اشتكى الجنرالات كثيراً، كان تشرشل يراقب عن قرب أموراً كثيرة ذات تفاصيل عسكرية، ولا يستفسر فقط عن الإجراءات، ولكن عن مدى أهميتها أيضاً. والمثال الجيد لهذا هو قيام تشرشل بتفحّص تمرين يسمى (فيكتور). حدث ما بين ٢٢ و٢٥ يناير ١٩٤١ تحت رعاية من يسمى حينها : قائد القوات الداخلية الجنرال آلان بروك.

أرسل تشرشل في ٣٠ مارس ملاحظة إلى إزماي بشأن (فيكتور). كانت تلك واحدة من سلسلة تمارين كبيرة الحجم تم تصميمها لتسليط الضوء على المشكلات المترتبة على غزو ألماني عبر القناة. فقد ظل ذلك تحدياً عسكرياً بارزاً يواجه البريطانيين بالرغم من نجاحهم في المعارك الجوية في خريف ١٩٤٠ مما أدى إلى تأجيل الغزو إلى الأبد كما تبيّن. مع أن أحداً لم يكن يعرف هذا في ذلك الوقت. وقد سار استفسار تشرشل كما يلي:

١-افتُرض في تمرين الغزو (فيكتور) أن فرقتين مدرعتين وفرقة آلية وفرقتي مشاة سيتم إنزالهما بواسطة العدو في ساحل نورفوك وسط مقاومة شديدة. لقد سلك العدو طريقه إلى البر ومن المفترض أنه لا زال يقاتل بعد مرور ٤٨ ساعة.

٢-افتُرض أن تفاصيل هذا العمل الفذ صيغت بواسطة الأركان المختصين. « دعني أقابلهم. على سبيل المثال، كم من البوارج والناقلات التي حملت تلك الفرق الخمس؟ كم عدد المركبات المدرعة؟ ما هو عدد

الشاحنات، وكم عدد المدافع، وما مقدار الذخيرة، وعدد الرجال، وكم طناً من المستودعات، وما مدى التقدم الذي أحرزوه خلال الـ ٤٨ ساعة الأولى، وكم عدد الرجال والمركبات التي من المفترض أن تكون قد نزلت على البر خلال الـ ١٢ ساعة الأولى، وما هي النسبة المئوية للخسائر في صفوفهم؟ ماذا حدث للناقلات وبوارج التخزين بينما كان القتال مستمراً خلال الـ ٤٨ ساعة الأولى؟ هل أكملوا تفريغ عتادهم أم أنهم ما زالوا بعيدين عن الشواطئ؟ ما نوع المرافقة البحرية لديهم؟ هل تم الهبوط في هذه النقطة بحماية تشكيلات مقاتلات العدو في وضح النهار؟ كم عدد الطائرات المقاتلة التي يتوجب على العدو استخدامها لتوفير الغطاء لهذه العملية؟»

سيتضح سبب استجواب تشرشل في الفقرة الثالثة:

٣-ستكون كل هذه البيانات ذات قيمة بالغة لعملياتنا الهجومية في المستقبل. سأكون مسروراً جداً إذا قام نفس الضباط بعمل مخطط لإنزال لقوة مماثلة تماماً على الساحل الفرنسي وبنفس الحماية المشددة من مقاتلاتنا وافتراض أن الألمان يتمتّعون بتفوّق بحري في القناة.

من الواضح أن تشرشل خشي أن تؤدّي افتراضات ذلك التمرين إلى تقييم مفرط لقدرات العدو. ولو أخذت على محمل الجدّ، يمكن أن تشلّ القيادة البريطانية العليا وتدفعها لتفضيل التكتيكات الدفاعية فقط. استجاب بروك في ٧ أبريل لهذا الاستجواب مقدماً الأرقام التي طلبها تشرشل، واشتملت تقديرات نسب خسارة العدو (١٠ في المائة

عند العبور، و٥ الى ١٠ في المائة عند النزول)، بالإضافة إلى الافتراض الغريب بأن الألمان سيزودون أنفسهم بالوقود والطعام المستولى عليه من الأرض البريطانية.

أجاب تشرشل بعد أسابيع قليلة ملاحظاً كيف أن الإنزال البريطاني في اليونان كان الأصعب واستمر في طرح استفساراته. لقد نزلت القوات البريطانية على الشاطئ في اليونان في مارس ١٩٤١ – وكانت تحت مراقبة الملحق العسكري الألماني الذي ما زالت بلاده في سلام مع اليونان. تطلّب الامر شهراً كاملاً لنقل ٣١،٠٠٠ عسكري بريطاني خفيف التجهيز، وهي قوة ربما تكون نصف حجم الغزاة الألمان في (فيكتور). وعندما نزل البريطانيون دون مقاومة وجدوا صعوبة لوجستية في إنشاء قاعدة لهم في بلد أجنبي. بتلك التجربة الحديثة في ذهنه (في أرض أكثر وعورة بكثير، وبلد غير متطوّر) وجد تشرشل أن افتراض قيام الألمان بإنزال قوّة أكبر بكثير على الشاطئ في يومين، في وجه مقاومة تقليدية وغير نظامية متواصلة، أمر مشكوك فيه على أقل تقدير. كما لاحظ، على سبيل المثال، أنه في اليومين الماضيين من التمرين أجرى البريطانيون ٤٣٢ طلعة جوية قتالية والألمان ١٥٠٠ طلعة جوية، على الرغم من أن على سلاح الجو الألماني كان يحلق مسافات أطول، مقارنة بسلاح الجو الملكي. واستفسر عن مدة الإنذار المفترضة لهذا الغزو وسأل (دون أن يلقى إجابة) لماذا تم الافتراض أن الألمان سيستولون على كميات ضخمة من البنزين عند نزولهم في بريطانيا؟! استمر بروك يجيب على هذه التساؤلات بشجاعة إلى ان انتهت المراسلات في منتصف مايو.

ما أهمية هذه الواقعة؟ إنها تكشف عن أسلوب تشرشل في التعامل مع مرؤوسيه. فهو يسألهم على الدوام عن افتراضاتهم وحججهم، لا مرة واحدة فقط، وإنما بصورة مستمرة. والجدير بالملاحظة أن بروك القائد المسؤول عن التمرين، دافع عن نفسه أمام تشرشل، وترقى لمنصب رئيس هيئة الأركان الإمبراطورية ورئيسا للجنة رؤساء الأركان. من الواضح جلياً أن تشرشل يمكنه تحمّل الأشخاص الذين لا يتفقون معه، ما دام أنهم ليسوا بأغبياء، وقادرون على الإفصاح عن آرائهم.

كان تشرشل يُجري استجوابه مدركاً تمام الإدراك العواقب الأوسع لأي مسألة تقنية. في الواقع، إن جانباً كبيراً من عبقريته الحربية يكمن في قدرته على ربط الأمور التي تبدو تافهة أو روتينية بمشكلات السياسة والاستراتيجية الواسعة. وهكذا أيضاً في تمرين (فيكتور).

- من المعقول جداً اتخاذ مثل تلك الافتراضات أساساً لتمرين عسكري. ولكنها ستكون استشارة مظلمة في الواقع عند جعلها أساساً للفكر العسكري الجاد.

وفي ذلك الوقت على وجه التحديد، كان رؤساء الأركان يناقشون مسألة إرسال المركبات المدرّعة إلى الشرق الأوسط. رأى تشرشل خلافاً لموقف عدد من مستشاريه العسكريين المعارضين (بمن فيهم جون ديل) أن مخاطر الغزو متدنية بما يكفي لجعل قافلة تايغر (TIGER) جديرة بالمحاولة. مضت تايغر في سبيلها، وفقدت سفينة واحدة بسبب

لغم، وأوصلت ٢٥٠ دبابة للقوات البريطانية التي كانت تتعرّض للضغط في الشرق الأوسط.

لم يكن كل ما يفعله تشرشل صحيحاً. ففي وقت مبكّر من الحرب، على سبيل المثال، كان يصرّ على تضخيم الضرر الذي ألحقته البحرية الملكية بالغوّاصات الألمانية، رغم أنه فعل ذلك - جزئياً - للمحافظة على ارتفاع المعنويات البريطانية. الأخطر من ذلك أنه أيّد في البداية، العمليات الهجومية على الغواصات الألمانية بدلاً من مرافقة القوافل والتصدي للغواصات الألمانية عندما تهاجم. ولم تثمر محاولاته المثابرة لاجتذاب تركيا إلى الحرب، وهي سياسة استنفدت كثيراً من الجهود الدبلوماسية، بالإضافة إلى مبالغ كبيرة من النقود، ومقادير من العتاد العسكري.

معظم مشاريعه، وعلى وجه الخصوص، دعواته المتواصلة للعمليات ضد شمال النرويج، لم تستوفِ معايير الخيارات العسكرية العملية. وإذا كان من الواجب تخطئته، فسيكون ذلك لضغطه على العسكريين، إلى ما وراء النقطة التي أصبح فيه عدم الجدوى واضحاً.

لكن لا يقل عن ذلك صحة، أن تشرشل كثيراً ما كان يمسك بأركانه العسكريين عندما يرتكبون خطأ. كان منهم السير ألان كنينغهام Alan Cunningham، الـذي خلف سير دودلي باوند Dudely Pound في منصب قائد البحرية، وأصبحت له سمعة عريضة باعتباره ناقداً لتشرشل وأحد ضحاياه، لكن بدون أحقاد بروك.

نقل كبير مؤرّخي البحرية الملكية س. دبليو روسكيل S. W. Roskill رأي كنينغهام وأقرّه بأن

- تشرشل كان استراتيجياً سيئاً، ولكنه لا يدرك ذلك عن نفسه، ولا يملك أحدٌ الشجاعة للوقوف في وجهه.

الجزء الثاني من هذا التعليق خاطئ، ففي مراحل مختلفة أظهر بروك وبورتال وكنينغهام نفسه مثل تلك الشجاعة. وفيما يتعلق بأحكام تشرشل الفنية التي استنكرها كنينغهام، يظهر السجل أن أحكامه الخاصة ورصيد خدمته البحرية ليست أقل عيباً من تلك العيوب التي ألصقها برئيسه السياسي. في ربيع ١٩٤٤، على سبيل المثال، في مايو ١٩٤٤، ردّ تشرشل خطة البحرية الملكية التي تستند إلى دراسة قائد البحرية بعنوان «أسطول الإمبراطورية بعد الحرب» تهدف لإنشاء قوة بعد الحرب بناء على مقدمة منطقية غريبة، تقول بأن :

- أساس قوة الأسطول هي البوارج الحربية. لقد أثبتت هذه الحرب ضرورة السفن الحربية وما من تطوّر علمي منظور يمكن أن يبطلها. ولا تزال المدافع الجانبية للسفن - وهي أثقل من مدافع العدوّ - سلاحاً مؤثّراً في البحرية.

اعترض تشرشل، الذي كان رائداً لتطوير الطيران البحري، وقد تابع عن قرب المعارك الجوية البحرية الدراماتيكية في حرب المحيط الهادئ، مشكّكاً بقوة في فوائد وجهة النظر تلك لعدة سنوات. بدت أدلة سنوات من الحرب البحرية حاسمة، وأشار تشرشل أيضا إلى مذكرة البروفسور لاينمان التي تقلّل من مقدرة السفن الحربية

على البقاء (ومن ضمن أشياء أخرى، توقّع كما لو كان يعلم الغيب، تطور الراديو والتلفزيون والقنابل الموجهة بالأشعة تحت الحمراء). وجّه تشرشل حكمه إلى البحرية ومفاده :

- أن قوانين الطبيعة تجعل السفينة الحربية في وضع غير مؤاتٍ مقارنة بالطائرة، ولذلك أخشى ألا تبقى في سياق التطور.

وطوال فترة الحرب استنكر اهتمام البحرية بأسطول الفنية الحربية، وثابر على ذلك حتى بعد دخول الولايات المتحدة في الحرب وتدمير معظم الوحدات الثقيلة للبحرية الألمانية. وكان ذلك ناتجاً - كما قال- عن : «هاجس معركة جوتلاند التي لا يمكن تكرارها».

جاءت بعض أكثر اللحظات غير المريحة لمعاونيه العسكريين عندما تساءل عن موارد الحرب التي لديهم أو التي يدّعون وجودها. ومن الأمثلة الرائعة على ذلك ردة فعله على تقييم البحرية الملكية لاحتياجاتها من القوة البشرية لسنة ١٩٤٤.

تطلب البحرية الآن ٢٨٨،٠٠٠ رجل إضافي للأسطول في سنة ١٩٤٤ و٧١،٠٠٠ لأحواض بناء السفن مما يجعل العدد الإجمالي ٣٦٠،٠٠٠. يأتي ذلك في وقت فرض فيه نقص العمالة تخفيضات كبيرة في أنشطة الحرب الوطنية. وينشأ السؤال: لماذا تطلب البحرية رجالا في ١٩٤٤ أكثر مما في ١٩٤٣ مع ملاحظة أن الوقائع الجديدة هي :

(أ)-الهزيمة الحاسمة للغواصات كانت إلى حدّ كبير من خلال المساندة الجوية.

(ب)-استسلام الأسطول الإيطالي.

(ج)-انضمام وحدات ريشيليو وكثير من الوحدات الفرنسية إلى الخدمة الفاعلة.

(د)-تأسيس الولايات المتحدة لقوة متفوقة على اليابانيين في المحيط الهادئ.

(هـ)-إيقاف عمل تيربيتز لمدة أشهر قادمة، وهي القطعة البحرية الرئيسية المعادية في العالم الغربي (ما لم تكن حاملة الطائرات الألمانية الجديدة جاهزة).

- لماذا عليك أن تطلب المزيد عندما تكون القوة المناوئة لك أقل بكثير، وحلفاؤك أقوياء جداً؟

لم تحبط أسئلة تشرشل، بطبيعة الحال، البحرية تماماً، فقد تمكّنت من تدبير أمورها بأقل من نصف الزيادة التي طلبتها.

وبصورة مماثلة، نظر تشرشل إلى نشاط نظام الاستخبارات البريطاني الرائع بقدر من الاهتمام والريبة التي يندر وجودها لدى القادة السياسيين. وعندما رأت لجنة الاستخبارات المشتركة في سبتمبر ١٩٤٤ أن ألمانيا ستنهار بحلول ديسمبر، اعترض تشرشل بشدة وكان ما قدّره هو الصواب. وكان مهنيو الاستخبارات في لجنة الاستخبارات المشتركة في هذه المرحلة من الحرب قد وصلوا إلى معلومات مهمّة واكتسبوا خبرة خمس سنوات من الحرب مكنتهم من التدقيق في حكمهم.

بعد ملاحظة أن الألمان قد عانوا من نحو مليون إصابة في النصف الأول من عام ١٩٤٤ وحده، وبالرجوع إلى الاحتياطيات حول محيط ألمانيا في وسط أوروبا، قدّرت المخابرات أن ألمانيا قد لا تستطيع الصمود في الحرب إلى نهاية السنة. وكان ردّ تشرشل المرير على لجنة الاستخبارات المشتركة في ٨ سبتمبر تحفة فنية Masterpiece A في التحليل النقدي للتقدير الاستخباراتي بواسطة صانع سياسة بدءاً من السطر الافتتاحي:

«قمت الآن بقراءة التقرير ولم ألاحظ أي واقعة لست على دراية بها». توقّع تشرشل ضعف إمدادات الحلفاء وتحسّن الروح القتالية للألمان في بلدهم، والعواقب المعاكسة لسوء الأحوال الجوية وخلص إلى التوقّع الصحيح: «من المحتمل أن يستمر هتلر في القتال في الأول من يناير، بقدر ما يُحتمل أن ينهار قبل ذلك».

لا يعني ذلك أن أحكام تشرشل العسكرية كانت دائماً أصح من مرؤوسيه. عوضاً عن ذلك، مارس تشرشل أحد أهم وظائفه كقائد حرب من خلال إبقاء حساباتهم وتأكيداتهم ضمن معايير الحس السليم الواسعة المكتسبة من خلال القراءة والخبرة في الحرب. في كثير من المناسبات أنتجت أسئلته لأركان التخطيط المشتركة إجابات لم يوافق عليها، وكان يناقشها بحدة. على سبيل المثل، طلب عند اقتراب غزو أوروبا تقييماً للعواقب العسكرية الناتجة عن استخدام الأسلحة الكيميائية في دعم عمليات الإنزال الجوي:

- أود أن تتم دراسة الأمر بدم بارد، وبواسطة أناس عقلاء، وليس بواسطة تلك المجموعة من الجهلة الانهزاميين.

انبثق عن قلم تشرشل (أو بدقة أكثر من فمه حيث إنه كان يقوم بإملاء كل رسائله) وطوال فترة الحرب سيل غير منقطع من الاستفسارات والاختبارات والأسئلة لمختلف أجهزة الحكومة. وقد ذكر نورمان بروك عضو الأمانة العامة للحكومة من سنة ١٩٤١ إلى ١٩٦٢ وأمين عام الحكومة من سنة ١٩٤٧ إلى ١٩٦٢ آثار استفسارات تشرشل.

سرعان ما انتشرت معرفة تلك الرسائل التي كانت قطعيّة في لهجتها، لكنها دائماً مناسبة وفي الوقت الملائم، عبر الكادر الإداري في وايتهول. لقد بذلوا الكثير لتأكيد الشعور أن هنالك مراقبة شخصية قوية في المركز تشمل نطاقاً واسعاً من المواضيع كما لو أن شعاع الكشاف يتأرجح دون توقف وينفذ إلى التقييمات القديمة للإدارة، بحيث أن كل شخص مهما كانت رتبته أو وظيفته، عظيمة أو حقيرة، يشعر بأنه في يوم ما، قد يكون في مركز تسليط الشعاع بحيث ينكشف ما يفعله. لقد كان أثر ذلك في وايتهول مباشراً ودراماتيكيا. نما شعور جديد بأن يداً ثابتة مسترشدة بإرادة قوية تدير عجلة القيادة.

لم تقتصر استقصاءات تشرشل على العمليات أو التكنولوجيا العسكرية ولكنها امتدت إلى شؤون الإدارة الروتينية التي تحمل من وجهة نظر تشرشل أهمية كبيرة. من الأمثلة الرائعة على ذلك، موضوع شارات الأفواج. ففي ٢١ نوفمبر كتب تشرشل الذي عاد حديثاً

من زيارته للفرقة ٥٣ مذكرة لوزير الدولة للشؤون الحربية تفيد بأنه «صُدم» عندما علم بصدور أمر عن مجلس الجيش (القيادة العليا للجيش) يحظر شارات الأفواج على الكتف.

- عبّر لي كل من القائد العام للفرقة وقائد القوات الداخلية عن دهشتهما وأسفهما. ما من شك لن يكون ذلك محبباً وسيكون له دور في تدمير روح الفوج التي أنشئت على أساسها كل الجيوش الجديرة بهذا الاسم. وعلمت أيضاً أن أمر مجلس الجيش كان مصحوباً بإشعار بأنه لا يسمح بمناقشته. من هو المسئول عن كل هذا؟ أخشى أن يكون المعاون العام. وإذا كان الأمر كذلك، فمن شأنه أن يؤكد ما سمعته كثيراً عن نظرته للجيش. آمل أن تعطى التوجيهات لإلغاء هذا الأمر قبل التسبّب في ضرر بالغ.

وبعد عشرة أيام من عدم تلقي رد، قام موظفو تشرشل بتذكير وزير الدولة للشؤون الحربية بالحاجة إلى الرد على تلك المذكرة. وفي رده في اليوم التالي، أبلغ وزير الدولة للشؤون الحربية بي. جيه. غريغ P. J. Grigg رئيس الوزراء إن الأمر الذي يحظر شارات الأفواج لكل الوحدات باستثناء الحرس والفرسان قد أرسل قبل سنة، ولم يتم إنفاذه تماماً. إضافة إلى ذلك قال غريغ إن مجلس التجارة قد أعلن أن توفير تلك الشارات «يعني خفضاً كبيراً في عمل مرافق الخياطة للمدنيين التي هي غير كافية في الأصل».

عندئذ، وعلى نحو مميز، طلب رئيس الوزراء من رئيس مجلس التجارة تفاصيل عن «الأحجام الفعلية للطلب على حرفة الخياطة»

لتوفير قماش شارات الأفواج للجيش. وفي رده على ذلك، ذكر رئيس مجلس التجارة ان أحد موظفيه عندما سأله اركان الجيش (في ٣٠ نوفمبر – بعد تسعة أيام من الاستفسار الأصلي لتشرشل) عما إذا كان تصنيع وخياطة شارات الفوج يشكّل هدراً للعمالة، رد بالإيجاب وإن كان هذا «بمعنى عام»، لكن ليس لمجلس التجارة آراء جازمة بشأن ما قد يكون استنزافاً صغيراً لموارد حرفة الخياطة : في الاجمال ٨٥،٠٠٠ ياردة من القماش من الاستهلاك القومي البالغ ثمانية ملايين ياردة في الأسبوع.

باختصار، اكتشف تشرشل أن مجلس الجيش قد حاول أن يختبئ وراء نقص مزعوم في القماش، ليتخذ قراراً غير محبب للجيش، وأيضاً غير محبب لرئيس الوزراء ووزير الدفاع.

احتج وزير الدولة للشؤون الحربية بعد ذلك بأنه من المسيء للانضباط الجيد، عكس قرارٍ ما، على أساس تدخل من رئيس الوزراء. لم يكن تشرشل راضياً: فقد علم أن حظر الشارات اتُخذ قبل سنة وتم إنفاذه في الأشهر القليلة الماضية فقط. واصل رد تشرشل: «ما تفسير الجنرال باغيت (قائد القوات الداخلية) لعدم إنفاذ هذا الأمر الى أن تم إرساله بواسطته في يوليو ١٩٤٢؟» لماذا فضلت بعض الوحدات أن يؤذن لها بارتداء الشارات في حين أن الوحدات الأخرى لم تفعل ذلك؟ وخلص إلى «يمكنني أن أرى الورطة التي أدخلت فيها نفسك بجعل هذا المبدأ الخاطئ مسألة هيبة». وأعلن بانه يرغب في السماح بمرور بعض الوقت قبل أن تستأنف وحدات الخطوط ارتداء الشارات.

قام وزير الدولة غريغ بمحاولة أخيرة يائسة لإقناع تشرشل أن يضع جانباً اهتمامه بتعزيز روح الأفواج عبر ارتداء الشارات (٢٣ ديسمبر ١٩٤٢) ليتلقى رداً ساحقاً من رئيس الوزراء بعد خمسة أيام. لاحظ تشرشل أن السماح للوحدات بارتداء الشارات لم يعرقل الانضباط وأن القانون الذي ينزعها :

- ما كان يجب أن يتخذه الأعضاء العسكريين في مجلس الجيش وحدهم. تلك بالضبط واحدة من الحالات التي تؤثّر على المعنويات والمشاعر الوطنية والإقليمية التي كان يجب أن يستشار فيها الوزراء البرلمانيون. علاوة على ذلك، سيكون للوائح الجديدة التي تسمح لبعض الوحدات (الحرس والفرسان) بارتداء الشارات في حين تحظر ذلك على الباقين، أثر سيئ على معنويات الجيش.

عرض تشرشل إحالة الأمر برمته إلى حكومة الحرب لكنه ختم بقوله :

- لكنني أثق في أنكم لن تجدوا أنه من الضروري أن تعيدوا لنا هذا الأمر، فيما نحن مشغولون للغاية.

وفي وقت مبكر من السنة الجديدة، قدم وزير الدولة للشؤون الحربية مشروعاً جديداً لإعادة إصدار شارات الأفواج للقوات.

إن شارات الأفواج قضية كاشفة. قد تبدو للوهلة الأولى مجرد تدخّل من رومانسي عسكري يحط من تسلسل القيادة العسكرية، ويهتم بالتفاصيل ويفضّل أن تترك للعسكريين. غير أن تدخّل تشرشل

(بصفته وزيراً للدفاع بقدر ما هو رئيس الوزراء) أظهر في الواقع فهماً وإدراكاً عميق الحكمة، لقيادة الحرب.

أولاً : يجب وضع هذا التدخل في سياق اهتمامه بالمحافظة على الروح القتالية في الجيش الذي عرف الهزيمة كثيراً حتى تلك اللحظة، وجلّ الجيش لم يكن فاعلاً في الجزر البريطانية منذ عدة سنوات - وسيبقى كذلك ثمانية عشر شهراً أخرى. ولرفع الروح المعنوية لهذا الجيش - الذي تم بناؤه، اكثر من أي قوة أوروبية أخرى، على تقاليد الأفواج القوية والهويات - فإن الموضوع المتعلق بالشارات والشعارات المميزة، ليس موضوعاً تافهاً.

ثانياً : أدرك تشرشل أن محاولة حماية أبسط الحقوق لبعض الوحدات على حساب الوحدات الأخرى تضرّ بالمعنويات. وبصرف النظر عن الخلفية الأرستقراطية لتشرشل، فقد كان يدرك أن بريطانيا ستصبح بلد المساواة بعد الحرب أكثر مما كانت قبلها، ولم يكن يجد ذلك الاحتمال مقلقاً. وبالحديث عن منتجات المدرسة الثانوية (بالمصطلحات الأمريكية - خريجي المدارس العامة) فقد قال لسكرتيره الخاص في سنة ١٩٤١ :

- لقد أنقذوا هذه البلاد، ولهم الحق في أن يحكموها.

كان يدرك جيداً أن أبسط الاختلافات في الامتياز يمكن أن تتسبب في عدم الرضا في مجتمع غيّرته الحرب.

ثالثاً : كشف تشرشل عن واحدة على الأقل من الحيل البيروقراطية - محاولة مجلس الجيش نقل مسؤولية قرار غير محبب

الى مجلس التجارة - وبذلك قدم دون شك، درساً غير مريح للضباط العسكريين المتورّطين. الجدير بالملاحظة أن تشرشل لم يأمر برد الاعتبار للشارات فقط، لكنه تابع تبادل الرسائل التي فنّد فيها الحجة تلو الحجة تحت الاستجواب الحادّ، حيث لم يخضع غريغ للسلطة العليا فقط، بل استسلم أمام كل الاستفسارات التي ما كان هو ولا مرؤوسيه العسكريين قادرين على تقديم إجابة جيدة عنها.

يجب ألا نعتقد بأن أسئلة تشرشل تتكون فقط من استجواب تهويلي. ذلك أن رغبة تشرشل في أن يرى ويختبر ويمتحن بنفسه، أدت إلى مغامرات قد تبدو حمقاء (مثل عبوره الراين مع مونتغمري)، ولكن معظمها كانت مغامرات ذات جدوى. على سبيل المثال، بعد زيارته بليتشلي بارك، مقر جهاز فك الشفرة البريطاني لرؤية محلّلي الشفرة، تلقى نداء مباشراً للمساعدة من عدد من الشخصيات البارزة العاملين هناك، منهم عالم الرياضيات المشهور ألان تورنغ Alan Turing. أخبروا رئيس الوزراء أن عملهم في فك الشفرات الألمانية قد توقف بسبب قلة الموظفين وقصور الإمدادات الأساسية. في اليوم التالي، ٢٢ أكتوبر ١٩٤١، أمر تشرشل إيزماي بإعداد مذكرة:

- احرص على حصولهم على كل ما يريدون بأولوية قصوى وقدم لي تقريراً بأن ذلك قد تم.

وخلال عدة أسابيع حُلت المشكلات البيروقراطية التي لا يمكن حلها.

نشأت علاقة تشرشل غير السهلة بجنرالاته، في الجزء الأكبر

منها بسبب استعداده لاختيار قادة لا يتفقون معه، وقد فعل ذلك بصورة عنيفة. يشهد على ذلك أهم قادة الأركان بروك وكنينغهام. وإذا كان قد استغنى عن ديل، فإنه فعل ذلك بالموافقة الصامتة للضباط الرئيسيين الذين يشاطرونه رأيه بأن القائد العام لأركان الإمبراطورية لم يكن يملك روح القتال في الحرب حتى الانتصار.

وكما أقر إزماي وآخرون بصورة خاصة، كان ديل رجلاً مستنفَداً بحلول ١٩٤١ وكان من الصعب عليه تلبية متطلبات التعامل مع تشرشل.

- الشيء الوحيد الذي كان ضرورياً وواقعياً ويفضله ونستون تشرشل هو شخص يقف معه، وبدلاً من ذلك كان جاك ديل يكتفي بالتفرّج فقط، وقد أوذي أذى مريرا.

إذا كان على تشرشل أن يقدّم ملاحظة فظة حول شجاعة الجيش البريطاني، كما ذكر إيزماي لاحقاً، كان من الحكمة التعامل معها بالضحك أو إحالة تشرشل الى كتاباته الخاصة.

- من ناحية أخرى، كان ديل يشعر بالإساءة عندما يُهين أحدٌ ما جيشه الحبيب، لذا أقسم على عدم العمل معه مرة أخرى، وذلك بالطبع أمر سخيف.

في المقابل، يمكن للمرء أن يقارن رواية السير تشارلز بورتال، رئيس هيئة أركان سلاح الجو الملكي:

- كان علي أن أختلف معه بقوّة، بشأن اقتراح قدّمه وأن أستخدم لغة يمكن أن تكون أكثر تهذيباً، لو أتيح لي مزيداً من الوقت

لاختيار كلماتي. وخلال انتقادي العنيف حدّق بي دون تعبير، وفي النهاية عندما قلت إنني آسف إن بدوت فظاً، ظهرت ابتسامة عريضة على وجهه وقال: كما تعلم لا يجب أن تكون في الحرب لطيفاً. عليك فقط ان تكون مصيباً .

كانت علاقة تشرشل ببروك الأكثر حدّة في كل تعاملاته مع مرؤوسيه العسكريين، إلا أنه هو وكنينغهام، قائد البحرية الذي حل محل دودلي باوند المريض في سنة ١٩٤٢، طوّرا علاقة متوتّرة بالقدر نفسه. وعانى من ذلك بعض قادة تشرشل الميدانيين خاصة آرشيبالد ويفل Archibald Wavell وكلود أوشنِلك Claud Auchenlek، القائدين النكدين في الشرق الاوسط في السنوات ١٩٣٩-٤١ و١٩٤١-٤٢ على التوالي. وبالرغم من أن ويفل قاد حملة ناجحة ضد الايطاليين في سنة ١٩٤١، فإن صمته في وجه سيل مذكرات تشرشل التي تحثّ على العمل، إلى جانب فشله في اليونان وفي ليبيا، قضيا عليه. ومثل سابقه وجد أوشنِلك نفسه مستبعداً بواسطة تشرشل لنفس السبب إلى حدّ كبير: التردّد البادي في الاشتباك مع العدو.

يرجع التوتّر بين تشرشل وقادة الشرق الأوسط في جزء منه إلى اختلاف وجهات النظر. كان رئيس الوزراء مشغولاً بالتضحيات المقدّمة لدعم القوات المسلحة في الشرق الأوسط، بما في ذلك إرسال القوافل بمخاطر عظيمة عبر البحر المتوسط. لكن القادة المحليون رأوا بصورة رئيسية مصاعب استيعاب المُعدّات الجديدة في قواتهم. لقد أدرك تشرشل ضرورات حرب الائتلاف – إبقاء كل من الروس والامريكيين مقتنعين بأن بريطانيا قادرة وستتحمل نصيبها في هزيمة

المحور - لذا فإنه بحاجة إلى النجاح في الصحراء. لم يكن القادة المحليون يرون إلا المهمة العملياتية المطلوبة منهم. عرف تشرشل، وهو مستهلك نهم للاستخبارات، لا سيما فك شفرة اتصالات رومل، عن الحالة السيّئة لفيلق إفريقيا مما جعل انزعاجه من فشل قادته في سحق الألمان أكثر حدّة وقابلية للفهم عند استرجاع الأحداث. وكانوا من جانبهم، عاجزين تماماً أمام عدو متوّج بنجاحاته المتكرّرة.

لم يكن كافياً، بالطبع، أن يختار القادة العسكريين الجيدين: وجد تشرشل نفسه باعتباره قائداً مدنياً للحرب، مجبراً على حثهم أيضاً، وقد أحدث ذلك قليلاً من الامتعاض من جانبهم. حذر ديل من ذلك، في خطاب خاص بعثه إلى أوشنلِك قبل أن يتولّى القيادة في الشرق الأوسط في يونيو ١٩٤١، قائلاً:

- سيكون القائد دائماً عرضة إلى ضغط عظيم ومفرط في الغالب، من قبل حكومته.

من الواضح أن تشرشل رأى أن إحدى أهم مسؤولياته حثّ قادته على العمل، وإذا استنكر بروك هذا الضغط، فإن استجابته له كانت أفضل من استجابة ديل على الاقل.

تغلغل القلق السياسي في كل الحروب، بما في ذلك الحرب الشاملة، يجب أن ألا يحدث مفاجأة لدارس التاريخ العسكري المعاصر، الذي استوعب في العادة نظريات كلاوزفيتز وتلامذته. ولكن في بعض الأحيان يتم نسيان كيف أن الاعتبارات السياسية في الحرب عميقة

وطاغية. لنأخذ، على سبيل المثال، مسألة استخدام القوة الجوية مسبقاً في غزو نورماندي.

في أواخر سنة ١٩٤٣ وبداية ١٩٤٤ أعدت جيوش الحلفاء الإنجليزية /الأمريكية لعمليتها العظمى في الحرب : عبور القناة الإنجليزية وغزو أوروبا. في هذا الجهد المجازف، الذي لم يكن نجاحه مؤكداً حتى تاريخ انطلاقه، قليل من الإعدادات عملت حساباً لأكثر من نشر القوة الجوية الكبيرة للحلف لتمهيد الطريق للقوات المهاجمة على الشواطئ. لم يكن الحلفاء يرغبون في مفاجأة المدافعين الألمان على مقربة من رأس الجسر على الشاطئ فحسب، بل اعتقدوا أن من الضروري تأخير التعزيزات الألمانية المتدفّقة على رأس الجسر وقطعها وتدميرها إذا أمكن. الوصول الى الشاطئ قد يكون مكلفاً وصعباً، ولكن المخططين المتحالفين لم يكن انشغالهم أقل، بل أكثر من بعض النواحي، في احتمال تدفّق التعزيزات الألمانية لإغلاق أراضي الإنزال في نورماندي، وشنّ هجوم مضاد بقوات كبيرة على جيوش الحلفاء العاجزة عن التقدّم على الساحل.

انقسم رأي الخبراء، كما يحدث كثيراً، حول الاستخدام الأصح لكل من القوات الجوية التكتيكية (الطائرات المقاتلة ذات المدى الأقصر والقاذفات الخفيفة والمتوسطة للقوة الجوية للحملة الحليفة البريطانية الأمريكية) وقوات القصف الثقيل لسلاح الجو الثامن الأمريكي وقيادة القاذفات في سلاح الجو الملكي. أيّدت فئة استخدام القوات الجوية التكتيكية فقط ضد الأهداف في منطقة نورماندي، بينما تستمر القوات القاذفة في هجومها الاستراتيجي على الأهداف

الحيوية في قلب ألمانيا، والتي تشمل منشآت صناعة الوقود التركيبي والصناعة العسكرية. وأفضل أهداف الأولى هي جسور الطرق وخطوط السكة الحديد في غرب وشمال فرنسا وذلك لعزل ميدان القتال. واقترح آخرون الهجوم المنهجي على شبكة السكة الحديدية الفرنسية التي تبيّن أنها حيوية للقوات الألمانية. وحثّت الفئة الثانية على استخدام القاذفات الثقيلة للهجوم على ساحات تجميع قطارات الشحن الخاصة بنظام السكة الحديدية الفرنسية وذلك على أساس أنها ستنهار تحت الضربات المتكررة بمرور الزمن.

غير أن لهذا الموضوع الفني العسكري في الظاهر تشعبات سياسية لأن أي هجوم (لا سيما على ساحات تجميع قطارات الشحن الفرنسية) سيؤدي الى قتل المدنيين الفرنسيين. لذلك تدخل تشرشل في مداولات القصف لتأمين وعد بأن تكون إصابات المدنيين الفرنسيين بالحد الأدنى. وكتب تشرشل الى مُشير سلاح الجو آرثر تِدَر : Arthur Tedder

- إنكم تراكمون حملاً هائلاً من الكراهية.

وأصرّ على ألا تزيد الإصابات وسط المدنيين الفرنسيين على ١٠،٠٠٠ قتيل على الأكثر (مقابل التوقعات الأولية البالغة ١٦٠،٠٠٠). قدّمت التقارير طوال مايو وكانت تحتوي على أعداد المدنيين الفرنسيين الذين قتلوا و«الرصيد المتبقي» (بما يحمل من قسوة كبيرة). وأشارت تقارير الألمان في نهاية مايو إلى أن ٦٠٠٠ فرنسي قد لقوا حتفهم في القصف – أقل بكثير مما خشي تشرشل.

في كتاب «أزمة العالم»، كتب تشرشل :

- في القمة تكون الاستراتيجية الحقيقية والسياسة شيء واحد.

ومن دراسة وثيقة لمسيرته، وعلى وجه الخصوص فترة ولايته رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع في الحرب العالمية الثانية، يدرك المرء تماماً كيف أن العلاقة بين المدنيين والعسكريين متشابكة. كما تكشفت أيضاً قوة الاستجواب الصلب الذكي القائم على الخبرة المهنية بدلاً من المطالعة الواسعة والحس السليم الشامل – ميزة وصفها كارل فون كلاوزفيتز بأنها حجر الأساس للعبقرية العسكرية.

لقد تم تسخير تحقيقات تشرشل المتواصلة لفهمه للحرب ككل. ربما لم يتضح ذلك في أي مكان أكثر من بذل الجهود في أثناء الحرب لصياغة السلام الذي يعقب الصراع. وعلى ضوء ذلك يمكن للمرء أن يفهم على أحسن وجه مناقشاته اليائسة والفاشلة مع القيادة العليا الأمريكية في سنة ١٩٤٥. وعندما اقترب النصر، كتب لاحقاً :

- بالنسبة لي تمثل ذروة النجاح هذه، أكثر الأوقات تعاسة. لقد تحركتُ وسط الجماهير المنتشية وجلستُ إلى طاولة تزف لي التهاني والتبريكات في كل جزء من التحالف الكبير بقلب متألّم وعقل مقهور بنذر الشؤم.

لقد رأى تشرشل التهديد الذي تمثله الشيوعية السوفياتية في أوروبا الشرقية مبكراً. (وقد سبق في صيف ١٩٤٣ أن أخبر الرئيس روزفلت بأن السوفيات هم المرتكبون المشكوك فيهم، لمجازر غابة كاتين

التي راح ضحيّتها آلاف من الضباط والمثقفين البولنديين). لذلك كان يضغط لتنسيق العمليات العسكرية مع العمل السياسي.

لقد استندت التماساته للحلف لتحرير براغ واندفاع الجيوش الإنجليزية /الأمريكية إلى فينّا وبرلين إلى حكم صحيح للقيمة السياسية الناتجة عن الوصول أولاً إلى قلب الرايخ الثالث. لم يدرك ذلك أحد، حتى الجنرال السياسي الفطن أيزنهاور، وفي نهاية مارس ١٩٤٥ استبعد برلين لأنها «لم تعد هدفاً مهماً جداً».

لقد حقق تشرشل نجاحات جزئية فقط، على سبيل المثال، من خلال التدخّل في الحرب الأهلية اليونانية المختمرة في (١٩٤٤ - ١٩٤٥) وفي جهوده للقيام بالعمليات النهائية للحرب، تلك التي تصب في مصلحة السلام. وبحلول شتاء وربيع ١٩٤٥ كانت يده ضعيفة، فربع القوات تقريباً في أوروبا الغربية كانت بريطانية أو تحت إمرة بريطانيا، كما استُنزفت موارد الإمبراطورية المالية والبشرية والمادية إلى أقصى حد، بعد خمس سنوات ونصف من الكفاح. ومع ذلك ناضل لجعل العمليات الأخيرة للحرب تتوافق مع منظومة من الحسابات السياسية أوسع من تلك التي بدأت الصراع.

هاتان الموهبتان – القدرة على السبر والقدرة على تشكيل رؤية أكبر والنضال من أجلها في ظروف معاكسة – تضاف إلى هبة ثالثة لا يمكن الاستغناء عنها وأقرّ له بها حتى أشد منتقديه. وهي بطبيعة الحال البراعة في الخطابة السياسية، القدرة على، كما عبّر عن ذلك

جون ف. كنيدي John F. Kennedy لاحقاً : « تعبئة اللغة الإنجليزية وإرسالها إلى المعركة».

كما أنه من المؤكد أن لديه مواهب سياسية أخرى. فلم يلحظ بالقدر الكافي، على سبيل المثال، كيف أنه استطاع بمهارة، المحافظة على ائتلاف كل الأحزاب معاً خلال الحرب، على الرغم من بعض الصراعات بين الشخصيات وفي مواجهة أكثر من تحدٍّ لسلطته. بل إن خطبه قد حوت أكثر بكثير من النهايات الرنّانة التي تصاحبها في العادة. وكثيراً ما يُنسى وصفه مسار الحرب بتفصيل مدهش، وما ستؤول إليه الأمور من دون كشف خطط المستقبل. لم يكن يخفي الهزائم ولا يقلّل من النكسات، وأدرك أهمية إطلاع أكبر قدر ممكن من الناس وإبقائهم «في الصورة»، كما تؤكّد عبارة زمن الحرب.

مع ذلك فإن الفضيلة السياسية الجوهرية لتشرشل هي قدرته على ملامسة قلوب الرجال والنساء بكلمات تعكس روحه الخاصة المميزة التي لا تقهر. كتب في سنة ١٩٤٠ تقريباً «أن الشعب البريطاني يمتلك قلب أسد، وأن الدور الذي حظي بامتيازه هو الزئير».

وكان، على نحو غير معهود ربما : متواضعاً أكثر مما ينبغي. فلديه قوى كثيرة كقائد حرب يجلس في غرفة الحكومة أو حول الطاولة مع المستشارين. كان لديه عدد قليل من الرجال الذين لديهم الموهبة في صياغة أوراق الدولة الصارمة والمذكرات الثاقبة. ولقد شمل فن القيادة عنده، كما لاحظنا، المهارة في الاستفسار وتحدي المرؤوسين المهنيين التي أتقنها قلة فقط من أمثاله. لكن كل تلك المهارات ما كانت

لتجدي نفعاً لو لم تكن تستند إلى شجاعة لا توصف بأقل من أنها رائعة حتى بعد مرور خمسين سنة. تلك الروح التي لا تُقهر عندما تقترن بمهاراته في قيادة الحرب العليا، جعلته أعظم رجل دولة محارب في القرن العشرين.

الفصل الخامس

بن غوريون يعقد ندوة

الصور في الكوخ

تقاعد ديفيد بن غوريون مرتين من الحياة العامة، مرة في عام ١٩٥٣ ومرة ثانية وأخيرة في عام ١٩٦٣. وفي كلتا الحالتين لم يذهب إلى شقة تل أبيب التي كان يدير منها الأعمال باعتباره زعيم الجالية اليهودية في فلسطين، ولاحقاً أول وأهم رئيس وزراء لإسرائيل. بدلاً من ذلك تقاعد إلى كيبوتس (مستوطنة جماعية) جديد ومكافح، سدي بوكير، في صحراء النقب. هناك عاش فيما أصبح يعرف باسم «تصريفه» أو كوخه - بيت متواضع من طابق واحد يعجّ بالكتب، حيث رعته زوجته، باولا. هناك أربع صور في التصِريف. واحدة على مكتبه، وهي صورة بيرل كاتزنلسون Berl Katznelson، أحد الشخصيات البارزة في السياسة الفلسطينية/اليهودية في ثلاثينيات القرن العشرين، وأحد أقرب رفاق بن غوريون. وقد كان رجلاً هادئاً ومحبوباً ودليلاً على أن الأضداد تتجاذب أحياناً في الحياة السياسية كما في الحياة الحميمية. ووفي مقابل مكتبه على الجدار المبطّن بالكتب، توجد

نسخة طبق الأصل من لوحة مايكل أنجلو «موسى» الذي يقارن به بعضهم الأب الروحي لدولة إسرائيل ليس فقط لإنجازاته، ولكن لقتاله المتواصل مع شعب متمرّد ومعارضين عنيدين في حزبه «حزب العمال».

عندما سئل أحد المقربين لبن غوريون في أواخر عام ١٩٥٣ لماذا استقال الرجل العجوز، رد قائلاً: «وصل المسيح، وجمع المنفيين الإسرائيليين، وانتصر على جميع الشعوب المحيطة، وفتح أرض إسرائيل. ومن ثم كان عليه أن يجد مقعده في ائتلاف».

في غرفة المعيشة الصغيرة، حيث حضر ضيوف مميزون لزيارة بن غوريون، كان الجدار مزيناً بصورة ثالثة: صورة أبراهام لنكولن، وقد أقحم في صورة كبيرة لإعلان تحرير العبيد. الأكثر إثارة للدهشة من كل شيء، هو الصورة الرابعة في غرفة نومه للمهاتما غاندي، داعية السلام الذي أجبر الإمبراطورية البريطانية على الرحيل من الهند.

هذه الصور الأربع تعكس الكثير من التعقيدات في شخصية بن غوريون. كاتزنلسون وانغماسه في نضالات حركة العمل في فلسطين، والصراعات الأكثر شراسة مع خصومه السياسيين خارجها ؛ موسى وجذوره في التاريخ اليهودي والهوية وطموحاته؛ لنكولن وإعجابه بالعالم الناطق باللغة الإنجليزية وأعظم قادته في تضحياتهم من أجل الحرية والحكم الديمقراطي؛ غاندي وتقديره للقوة الروحية حتى عندما يتخذ التعبير عنها شكلاً مختلفاً تماماً عن نفسه. لقد كانت عظمته تكمن، إلى حدّ كبير، في قدرته على التوفيق بين هذه الجوانب المتباينة، وفي بعض النواحي المتضاربة، في شخصيته.

توجد حول هذه الصور كميات كبيرة من الكتب، تحتل جدران الكوخ، كما هو الحال بالنسبة لجدران شقته في تل أبيب. يبلغ مجموعها ١٢،٠٠٠ مجلداً في كلا الموقعين، وهي تعكس اهتمامات رجل يُحسن ما لا يقل عن ثماني لغات أجنبية وتشمل العديد من المجلدات في التاريخ العسكري، فضلاً عن الفلسفة والعلوم والأدب والتراث اليهودي.

كان ناشطاً سياسياً صلباً منذ السنوات الأولى (اضطر إلى الفرار من روسيا ولاحقاً من فلسطين نفسها في أوائل القرن)، فضلاً على أنه قارئ نهم ذو فضول فكري لا يشبع. درس في شيخوخته الفلسفة الشرقية بنفس الحماسة التي درس بها التاريخ الأوروبي والعلم العسكري. لم يشهد العالم أبداً بين رجالاته العظماء رجلاً عصاميا أكثر إدهاشاً منه. وقد تجلّت مزايا صفاته الفكرية الواسعة والاستفادة العميقة من هذه المكتبة الاستثنائية بوضوح في إعداده للحرب.

في ديسمبر ١٩٤٦ أصبح ديفيد بن غوريون، وهو في الستين من عمره وزيراً للدفاع في حكومة ظل، للدولة اليهودية الوليدة. ومع استقلال إسرائيل بعد عام ونصف العام، أصبح بن غوريون الوزير الحقيقي، وكذلك رئيساً للوزراء. خلال ذلك الوقت قام بتحويل المؤسسة العسكرية السرية المثيرة للإعجاب بالفعل (الهاغانا) واستوعب منظمات منشقّة وإرهابية أصغر حجماً ولكن أفضل تنظيماً؛ وأنشأ واحداً من أقوى الجيوش في العالم بالنسبة إلى حجمه. كما تولى قيادة حرب أدت إلى إنشاء دولة - دولة شغلت، طوعاً أو كرهاً - مركز الأحداث في السياسة الدولية منذ ذلك الحين. فعل كل هذا، على الرغم من الموارد المادية المحدودة وعدد السكان الصغير، في مواجهة

المعارضة المنظمة من جميع الدول المجاورة والقوة المهيمنة لبريطانيا العظمى، مع القليل من المساندة الفاترة - في بعض الأحيان يكون القليل أفضل من اللامبالاة - من القوتين العظميين الناشئتين. إنها قصة لافتة في فن الحكم، ومماثلة لقصة واشنطن ولنكولن، في ظل ظروف غير مواتية.

التمهيد للاستقلال

بعد الحرب العالمية الأولى، تنامى الطموح إلى إنشاء وطن قومي مستقل أو حتى دولة، لدى الجالية اليهودية الوليدة في فلسطين. في أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر، كان عدد السكان اليهود في فلسطين لا يكاد يبلغ ٢٥،٠٠٠ نسمة، وبحلول بداية الحرب العالمية الأولى ارتفع هذا العدد إلى ٨٥،٠٠٠ نسمة. بعد تراجع العدد نتيجة الهجرة خلال الحرب، استوعبت فلسطين ١٠٠،٠٠٠ نسمة أخرى بحلول ١٩٢٥، ليصبح المجموع ١٦٠,٠٠٠ نسمة تقريباً. لكن تغيّرت البيئة في أواخر العشرينيات من القرن العشرين(. وكشفت أعمال الشغب العربية في الخليل في عام ١٩٢٩ شدة المعارضة المحلية للهجرة اليهودية إلى فلسطين، وأكّد قيام الثورة العربية عام ١٩٣٦ للبريطانيين مخاطر السماح بهجرة اليهود إلى البلاد).

بحلول ذلك الوقت، كان نحو ٤٠٠،٠٠٠ يهودي (العديد منهم من اللاجئين مؤخراً من ألمانيا وبولندا) يسمّون فلسطين: وطنهم. وفي مايو ١٩٣٩، بعد سلسلة من بعثات التحقيق والمؤتمرات، أصدرت بريطانيا العظمى كتاباً أبيض ينصص في نهاية المطاف على إنشاء

دولة فلسطينية بعد عشر سنوات يهيمن عليها العرب. وكان القسم الأكثر إثارة للخوف في هذا الكتاب الأبيض - لا للتطلّعات الصهيونية نحو التغلّب على الوضع غير المناسب مقابل العرب فحسب - وإنما أيضاً لبقاء أعداد كبيرة من اليهود العالقين في أوروبا الخاضعة لسيطرة هتلر، وتحديد الهجرة اليهودية بـ ٧٥،٠٠٠ مهاجر على مدى خمس سنوات، على ألا تتم هجرات أخرى إلا بموافقة عربية.

كل هذا كان باعثاً لليأس، ليس فقط نحو إنقاذ المشروع الصهيوني، ولكن نحو إيجاد ملاذ للسكان اليهود من أوروبا الشرقية المعرّضين للخطر. كافحت قيادة الجالية اليهودية ضد القيود المفروضة من قبل بريطانيا العظمى. في خضم الحرب العالمية، صاغ بن غوريون شعار «سنقاتل في الحرب كما لو أنه ليس هناك كتاب أبيض، وسنقاتل الكتاب الأبيض كما لو أنه ليس هناك حرب ». لكن على الرغم من هذا الكلام، كانت الجالية اليهودية في فلسطين، في الواقع، عاجزة من أن تفعل الكثير لإنقاذ يهود أوروبا أو لإقناع بريطانيا العظمى بتوفير ملاذ لهم في فلسطين. على العموم، بلغ عدد أفراد الجالية اليهودية /الفلسطينية، في نهاية الحرب حوالي ٥٠٠،٠٠٠ نسمة، لم تستطع أن تبذل إلا جهوداً ضعيفة وفاشلة لإنقاذ إخوانهم في أوروبا. خدم عشرات الآلاف من يهود فلسطين في الجيش البريطاني، وتغلغلت حفنة من العملاء اليهود في أوروبا المحتلة بشكل جريء، ولكن غير مؤثّر. و لم يستطع المجتمع اليهودي في فلسطين على العموم، أن يفعل شيئاً سوى أن يشاهد مرتعباً الكارثة التي اكتسحت يهود أوروبا.

خلال العام ١٩٤٥ أولى بن غوريون، بطبيعة الحال، الاهتمام للمسائل الأمنية، لكنه لم يجعلها همه وشاغله الرئيسي. فقد وجّه كل طاقاته إلى إنشاء المؤسسات الصهيونية، وصنع إجماعا لدعم فكرة الدولة اليهودية، وزيادة الهجرة القانونية وغير القانونية إلى فلسطين. وبقدر ما كانت الحرب كارثية إلا أنها جدّدت الآمال اليهودية في الحصول على دولة مستقلة. وكانت جموع اللاجئين اليهود على استعداد للقدوم إلى فلسطين، وقد مهّد الطريق لهم التعاطف الأمريكي (وبدرجة أقل، البريطاني والأوروبي) مع محنتهم، والرعب من حملة الإبادة النازية. ثم أخذ الصراع بين بريطانيا واليهود بخصوص فلسطين يتشكل بصورة أخرى من خلال الضغط الأمريكي للسماح فوراً بتوجّه ١٠٠،٠٠٠ لاجئ يهودي إلى فلسطين حسب طلب لجنة التحقيق الأنجلو /أمريكية في ربيع عام ١٩٤٦، وبعد ذلك لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين في عام ١٩٤٧. أدت هذه المعارك على الجبهات الدبلوماسية والسياسية إلى انهيار القيود المنصوص عليها في الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩، وإلى صدور القرار البريطاني في نهاية المطاف في سبتمبر عام ١٩٤٧ بإنهاء الانتداب، وتحويل مشكلة فلسطين إلى الأمم المتحدة.

إذا كان الصراع السياسي الصهيوني ضد الانتداب البريطاني قد شكّل جبهة واحدة، امتدت إلى الصفحات الأولى من صحيفة «نيويورك تايمز» وأروقة البرلمان، فإن الكفاح المسلح العلني في فلسطين نفسها قد شكل جبهة ثانية. ففي أوائل الأربعينيات شرعت اثنتان من العصابات اليهودية الإرهابية – «إرجون زفاي ليئومي» (إتسل)، ولوحامي حيروت يسرائيل (ليحي) – في شن حملة عنيفة ضدّ السلطات

البريطانية. وكان استخدامهما للاغتيال والتخريب قد أخذ منعطفاً دراميًا وكارثياً مع اغتيال اللورد موين Moyne في القاهرة عام ١٩٤٤. في البداية أصيبت الجالية اليهودية بالذهول من هذه الأفعال مما جعلها يائسة ومتردّدة بين إدانتها وبين التعاون المبدئي معها. وفي مرحلة معينة، شارك التيار السائد في المجتمع اليهودي في هذا الشكل من العمليات والنضال أيضاً.

في أكتوبر ١٩٤٥ أغرى بن غوريون الهاغانا لبدء سلسلة من الهجمات على المنشآت البريطانية (متجنباً، حيث أمكن، التسبب في سقوط ضحايا بريطانيين) لإجبار بريطانيا على الإذعان لمطلب زيادة الهجرة إلى فلسطين. أدت التدابير البريطانية المضادة - بما في ذلك «السبت الأسود»، أي الاعتقال الجماعي للقادة اليهود في يونيو ١٩٤٦، والغارات على مستودعات أسلحة الهاغانا ـ وتجاوزات المتطرّفين (بما في ذلك، على وجه الخصوص، التفجير المذهل لفندق الملك داود في القدس في أغسطس ١٩٤٦) إلى إنهاء المقاومة المسلّحة ضد الحكم البريطاني. كان بن غوريون، باعتباره الزعيم الرئيسي لليهود في فلسطين، قد فرض مسار المعارضة المعتدلة للحكم البريطاني، بما في ذلك الاستخدام المحدود للقوة. وقد أغضبته أفعال إتسل وليحي، فتعاون مرتين مع البريطانيين (من أواخر عام ١٩٤٤ حتى مارس عام ١٩٤٥، ومرة أخرى في إبريل ١٩٤٧) على قمع تلك المنظمات.

طوال هذه الفترة العاصفة، فضّل بن غوريون وقادة الجالية اليهودية الآخرون مزيجاً من المواجهة والتفاوض مع بريطانيا العظمى، فلم يرضخوا لمن يعتقدون أن كل صراع مباشر مع سلطات الانتداب

لن يكون مجدياً، ولا لمن يعتقدون أن بريطانيا لا يمكن إخراجها من فلسطين إلا بالقوّة. وبدأت تظهر في وقت لاحق بعض سماته القيادية المتمثلة في القسوة والمرونة، وقد أبرزها خلال هذه السبع سنوات الشرسة. اعتمد بن غوريون مزيجاً من العنف والتسوية، والمواجهة والتوفيق، مما جعله لا شعبيا ولا موثوقاً فيه بالكامل من قبل رفاقه في السلاح، لكن ذلك ساعده في تعامله مع الحكومة البريطانية التي فقدت كل رغبة في تعزيز الاستيطان اليهودي في فلسطين.

كانت نهاية الحرب العالمية الثانية بمثابة البداية لمستويات أعلى من العنف في فلسطين. بدأت إتسل وليحي المعاديتان لبريطانيا عمليات نشطة ضد البريطانيين. بينما نما العداء العربي لليهود في فلسطين والخوف العربي من الدولة اليهودية بشكل كبير. العرب الفلسطينيون، وعددهم بين ثلاثة أرباع المليون والمليون نسمة، ينتمون لفئات سكانية مختلفة. وعلى الرغم من انقسامهم على العشائر والولاءات المحلية، فقد كان لديهم عدد من القيادات الشعبية، وعلى وجه الخصوص مفتي القدس، الحاج أمين الحسيني، الذي رأى في قيام دولة يهودية تطوراً لا يحتمله عرب فلسطين. الحسيني، وهو داهية يجيد التعبئة، قد تم تعيينه وكذلك نفيه من قبل البريطانيين، وتحالف مع الألمان خلال الحرب العالمية الثانية، وعاد إلى الشرق الأوسط عازماً على قيادة عرب فلسطين في صراع حتى الموت مع اليهود.

في نهاية عام ١٩٤٦ دخلت فلسطين في أزمة. وتزامنت الجهود العسكرية البريطانية لقمع حملة حرب العصابات اليهودية في فلسطين التي تزداد ضراوة، والعنف الطائفي بين العرب واليهود، مع الضغوط

الغربية لفعل شيء حيال فلسطين. وأصيب الرأي العام في الولايات المتحدة، وإلى حدّ ما في بريطانيا نفسها، بالأسى بسبب ما وصفه ونستون تشرشل بأنه (حرب قذرة ضد اليهود). مَنظر اللاجئين اليهود من أوروبا والناجين من مجازر هتلر، وهم يعاملون بخشونة، محتجزين خلف الأسلاك الشائكة، أو حتى إعادة شحنهم إلى مواقع الإبادة السابقة لعائلاتهم، كان شيئاً بغيضاً.

وكانت الظروف المالية اليائسة للإمبراطورية البريطانية لا تسمح بنشر ما يقرب من مائة ألف جندي في السنة للحفاظ على أمن فلسطين. ولم ينقذ الإمبراطورية البريطانية من الإفلاس إلا قرض أمريكي ضخم في عام ١٩٤٦. فاقم الخراب الاقتصادي أزمات الإمبراطورية في جميع أنحاء العالم (بما في ذلك وعلى الأخص في الهند، حيث لم يعد نائب الملك يعتقد أن الجيش الهندي أداة موثوق بها لحفظ النظام). كل ذلك أقنع القادة البريطانيين الآن، فأصبحوا على استعداد لترك فلسطين وشأنها.

عندما التقى ممثلون لحركة الصهيونية العالمية في المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين في بازل في خريف عام ١٩٤٦ وجدوا أنفسهم يكافحون في وضع جديد بشكل جذري. كانت أهوال المحرقة قد أضحت معروفة تماماً. في أوروبا، كان هناك تجمع لمئات الآلاف من اللاجئين اليائسين يتوقون للذهاب إلى فلسطين؛ وفي المجتمع اليهودي هناك (أصبح عدده يفوق ٦٠٠،٠٠٠ نسمة الآن) يوجد تصميم على فتح أبواب الهجرة. في المجتمع اليهودي المزدهر في الولايات المتحدة، يوجد توق (كان غائباً في كثير من الأوساط قبل الحرب) لدعم المسعى

الصهيوني. وفي العديد من البلدان (وأبرزها الولايات المتحدة) كان هناك تعاطف من جانب القادة والشعوب غير اليهودية مع اليهود وحلمهم في إقامة دولتهم على أرض فلسطين.

مع ذلك كان الوضع بالنسبة للقيادة الصهيونية غير موات على الإطلاق. فقد أظهرت الحكومة البريطانية - أصبحت الآن في أيدي قادة حزب العمل الذين يتعرّضون لضغوط شديدة - عداء تجاه القضية الصهيونية. وتجاوز الأمر ذلك، في بعض الحالات، مجرد السياسة إلى عداوة شخصية وأكثر قتامة. فوزير الخارجية على وجه الخصوص، إرنست بيفن Ernest Bevin بدا كما لو أنه أصبح عدوانياً إلى حدّ معاداة السامية (كما بدا ذلك لقادة الجالية اليهودية في فلسطين، اليشوف). وظهرت الحكومة البريطانية لقادة الحركة الصهيونية معادية بشراسة لتطلعاتهم. وخرجت الدول العربية من الحرب العالمية الثانية في موجة من الاستقلال المتزايد، سواء كان رسمياً (كما في حالة الأردن وسوريا) أو اسمياً. ومع نموّ التوتر بين الشرق والغرب، كذلك نما النفوذ العربي في كل من بريطانيا والولايات المتحدة، لأن القوى العظمى تحتاج إلى القواعد والنفط والهدوء لمواقعها الاستعمارية المتبقية. وكان الدعم الأمريكي للصهاينة مسألة تعاطف شخصي إلى حدّ مخيف، بدلاً من الاهتمام الجماعي: البرود الذي نظرت فيه كل من وزارتي الخارجية والحرب (الدفاع في وقت لاحق) ليهود فلسطين لا يعكس الكثير من الكراهية، بقدر ما يعكس غياب أي تعاطف على الإطلاق.

عزّز وجود الشيوعيين والمتعاطفين معهم في المعسكر اليهودي

تفضيل القوى العظمى الغربية للبلدان العربية التي يبلغ عددها أكثر من ثلاثين مليوناً على أمة يبلغ عدد أفرادها ٦٠٠،٠٠٠ نسمة. وفي تناقض ظاهري في الوقت نفسه، لم يكسب اليهود صداقة الاتحاد السوفياتي لسيطرة الاشتراكيين الديمقراطيين بين اليهود الفلسطينيين، بقيادة رجل تحرّر في وقت مبكر من وهْم الشيوعية، ولا يسع حركته إلا أن ترفض المزاعم الأممية الشيوعية. في هذه الظروف البائسة، قام ديفيد بن غوريون، الزعيم المعترف به عند المجتمع اليهودي في فلسطين، بالمطالبة بتفعيل حقيبة الدفاع، وأصبح وزير دفاع شبه الدولة، فضلاً عن رئيس وزرائها.

الرجل العجوز

أي نوع من القادة هذا الذي أخذ الآن على عاتقه مسؤولية الأمن المادي للمجتمع اليهودي في فلسطين؟ هاجر ديفيد بن غوريون من بولندا إلى فلسطين في عام ١٩٠٦، حين كان في العشرين من عمره. وبحلول أوائل الثلاثينيات من خلال مزيج من العمل الشاق والتفاني في العمل السياسي، أصبح ديفيد بن غوريون أول أمين عام للهستدروت، وهي (منظمة العمل اليهودية) التي سرعان ما دمجت النشاط النقابي بالأنشطة الاقتصادية والاجتماعية الرئيسية في المجتمع اليهودي. وفي عام ١٩٣٥ أصبح رئيس الوكالة اليهودية، المنظمة شبه الرسمية ليهود فلسطين. وعلى الرغم من أنه كان قد شارك في بعض جهود الجالية اليهودية للدفاع عن النفس مبكراً قبل الحرب العالمية الأولى، وأنه خدم في الجيش البريطاني في وقت سابق، فإن تجربته العسكرية الفاعلة

كانت محدودة. إلا أنه أعتبر خدمته خلال الحرب العالمية الأولى في المقام الأول فرصة للعمل السياسي، وقد خصص له وجوده بأكمله. لقد كان هدفه في جميع الأحوال واضحاً وبسيطاً: إنشاء دولة يهودية على الرغم من كل العقبات.

على مستوى العادات الشخصية، كان بن غوريون مقتصداً إلا في مسألة شراء الكتب - وهي عادة اجتمعت مع النزاهة الشديدة في المسائل المالية، مما أجبر زوجته على تقليل وجبات الطعام كي لا يتجاوز إنفاقه حدود دخله. كان مجادلاً شرساً وعنيداً في عداواته، لكنه يملك إحساساً قوياً بالواقعية السياسية، ويعرف متى وكيف يراجع قسوة مشاعره الشخصية في المعارك مع خصومه السياسيين، سواء كانوا من اليهود أو البريطانيين أو العرب. كانت وجهات نظره الاجتماعية السياسية وكذلك الاقتصادية، هي نفسها نظرة الاشتراكيين الروس الذين عاشوا في مطلع القرن، ولكن مع بعض التحريف. لقد رأى نفسه، كما فعل الكثير من أوائل الصهاينة، واحداً من نوع جديد من اليهود: المزارعين والعمال والجنود الفخورين بإنجازات شعوبهم التاريخية المجيدة من ناحية، ولكنه كان من الرافضين لذل وخنوع الغيتو.

وطنية بن غوريون اليهودية وإنسانيته الفظّة، إلى جانب حقده على المؤسسات السياسية البريطانية والأمريكية وإعجابه الصادق بهما في ذات الوقت، طغت على اشتراكيته. في أواخر العشرينيات شك في أن تُقدم الدولة الاشتراكية الوحيدة في العالم (الاتحاد السوفياتي) نموذجاً للدولة التي يُراد صنعها. ومع مرور الأعوام، صار ينظر إلى الاتحاد السوفياتي باحترام يشوبه الحذر، مستفيدا من الدعم حين

يُعرض، ولكنه لم يدعم أبداً مزاعم السوفييت الكونية ونظام حكمهم الذي لا يتوافق مع الميول القومية اليهودية والحريات المدنية، تلك التي أعجب بها في العالم الأنجلو/سكسوني.

جلب بن غوريون لمهمة القيادة العليا خبرة عسكرية ضئيلة، وربما استعداداً ضئيلاً للمنصب كما يمكن أن يعتقد المرء. غير أنه كان يتحلّى بالمثابرة والمكر اللذين تطوّرا خلال عقود من العمل السياسي، وموهبة الخطيب الذي يدفعه الإيمان والسيطرة الكاملة على اللغة التي يستخدمها، والانضباط الفكري الصارم، وعُمق العالِم. وقد احتفظ طوال حياته بكرّاس يوميات ضخم، بوصفه أداة عمل لاستيعاب وهضم كميات هائلة من المعلومات. واعتاد كتابة الوقائع شبه الحرفية عن المقابلات والأحاديث، ونسخ الإحصاءات وتدوين الملاحظات للرجوع إليها في وقت لاحق واستعراضها، وكان بن غوريون يحتفظ بسجل فريد لكل ما مر عبر مكتبه ودار في عقله، في هذا الكرّاس وغيره.

على الرغم من مركزية دور بن غوريون في قيادة الجالية اليهودية، فإنه لم يكن من دون معارضين. فقد كان له معارضوه داخل الحركة العمالية اليهودية، بما في ذلك اليساريون الموالون للاتحاد السوفياتي في المستوطنات الجماعية (الكيبوتسيم) التي سيطر عليها، وهو ما سيصبح حزب العمال المتحدين أو «المابام». وواجه معارضة مريرة من «الانفصاليين» (بورشيم)، وعلى وجه الخصوص المنظمة العسكرية القومية (إتسل) للحركة التنقيحية، وكان لديه علاقات غير مؤكدة مع المجتمعات البرجوازية والدينية، ومع المجتمعات الشرقية من «اليشوف». وقد تنافس بنجاح على الزعامة مع قادة الحركة الصهيونية

المقيمين خارج فلسطين، وأبرزهم حاييم وايزمان، العالم اللامع الذي أدار العلاقات مع بريطانيا العظمى لسنوات، والذي أصبح فيما بعد أول رئيس لدولة إسرائيل.

وأخيرا، على الرغم من أن بن غوريون سيطر على حزبه، الماباي، فإنه عمل ضمن التقاليد الاشتراكية في صنع القرار الجماعي والقيادة التي جعلت منه شيئا أقل بكثير من ديكتاتور أسطوري. وقد أدّت أساليبه المتعالية إلى استياء زملائه منه في أكثر من مناسبة، مما أدخل الحكومة الإسرائيلية الوليدة في حالة من الأزمات الداخلية.

مقابل هذه المجموعة من المنافسين وفي ظل مثل هذه المجموعة من القيود، لم يكن لبن غوريون سوى قوة الإقناع، وعدم قابلية الاستغناء عنه، والتي لا تقل في الأهمية عنه. يمكن أن يصفه ألد أعدائه بالديكتاتور والمتلاعب، لكنهم لا يمكنهم أن يطعنوا في ذكائه، أو طاقته، أو إخلاصه لقضية الدولة اليهودية في فلسطين. «الرجل العجوز»، وصفٌ أطلقه الناس على الرجل الضئيل الذي يبرز من رأسه الكبير الأصلع جناحان جامحان من الشعر الأبيض. لم تحبّه إلا قلّة قليلة، حتى بين أقرب زملائه، لكن احترمه حتى أعدائه. ومع استعداد بن غوريون للاستقالة بسبب المسائل المبدئية (ليس أقلها ما يتعلق بسلطته العليا)، فإنه مارس لعبة سياسية داخلية معقدة تقوم على المناشدات والتهديدات والمساومات. وكانت تستنزف منه كل طاقاته تقريباً، بقدر ما تستنزفه الصراعات الأشدّ فتكاً مع الأعداء الخارجيين.

بحلول نهاية عام ١٩٤٦ اتضح لبن غوريون أن تلك النضالات

ستتوسع على الأرجح إلى أبعد من المواجهة مع الإمبراطورية البريطانية، والتي أصبح واضحاً أن أيامها صارت معدودة وعزيمتها تنحسر يومياً. وبقدر ما كان النضال شديداً وقاسياً، فإنه حدث ضد قوة متحضرّة ومنضبطة على العموم، ولطالما أعجب بها بن غوريون من نواح كثيرة. لقد رأى لندن في أثناء الغارات الجوية الألمانية، وكان له أصدقاء بريطانيون (بما في ذلك عشيقة)، واحترم كل ما قدمته حضارة الإمبراطورية العظيمة في الجوانب الثقافية والسياسية والعسكرية. كان النضال الذي يلوح في الأفق ضد العالم العربي الذي لا يعرف عنه الكثير، على الرغم من أنه قد زاره أكثر من مرة، والتقى ببعض قادته. وهو عالم ليس لديه الرغبة في استنساخ مؤسساته أو أي جانب من جوانب ثقافته. إنه عالم يخشى أنه ربما يمارس القليل جداً من ضبط النفس والندم، مع أن إظهار الندم سهل حتى على ساكني مقر الحاكم العام في القدس، الأكثر ذكاء.

خلافاً للعديد من زملائه، إن لم يكن معظمهم، كان بن غوريون يعتقد دائماً أن البرنامج الصهيوني من شأنه ألا يؤدي فقط إلى الهجرة اليهودية غير المحدودة إلى فلسطين، وإنشاء محمية بريطانية تتمتع بحكم شبه ذاتي هناك، وإنما إلى إنشاء دولة يهودية كاملة. لقد كان دوره فعالاً في إقرار ما يسمى ببرنامج «بلتمور» في مايو ١٩٤٢، الذي أعلن في بعض أحلك أيام الحرب العالمية الثانية أن الهدف الصهيوني إقامة الدولة. جاءت رغبته في السيطرة المباشرة على مسائل الدفاع من اعتقاده بأن الوقت قد حان لإجبار البريطانيين على ترك فلسطين، وإعداد جيش سري لأداء المهام الجديدة.

الندوة: علينا أن نبدأ كل شيء من جديد

من نهاية مارس إلى نهاية شهر مايو عام ١٩٤٧، عقد بن غوريون ما أصبح يعرف في تاريخ الهاغانا «بالندوة». علّق واجباته العادية لمدة شهرين، وبدلاً من ذلك شرع منهجياً في القيام بمقابلة القيادة العليا للهاغانا بأكملها (بما في ذلك العديد من الضباط الصغار أيضاً)، وذلك لاستعراض حالة جاهزيتها. في مذكراته، كتب عن تفحّص نوعية القادة، وطبيعة تدريبهم، وحالة معداتهم، ووضع الموازنة، وهيكل القيادة العليا، ونوعية المعلومات الاستخبارية المجموعة - وجميع جوانب أنشطة الهاغانا. كانت الفرضية الكامنة وراء الندوة واحدة وبسيطة، وواسعة النطاق، وكما اتضح فيما بعد، فرضية سياسية صحيحة تماماً: المواجهة المقبلة بين اليهود والعرب لن تكون مثل اضطرابات عام ١٩٢١و ١٩٢٩و و١٩٣٦و١٩٣٩؛ لن تكون قتالاً بين منظمة الدفاع الطوعي شبه القانونية على الجانب اليهودي ومليشيات القرويين العرب الفلسطينيين أو رجال القبائل في الجهة الأخرى. بدلاً من ذلك، ستكون قتالاً مع الدول العربية وجيوشها، وستجري في سياق إنشاء دولة يهودية، الأمر الذي يتطلب جيشاً قائماً بنفسه. جاء حُكم بن غوريون في نهاية الندوة، في كلمة ألقاها أمام اللجنة المركزية للماباي، وكان قاسياً ومباشراً. في نهاية الندوة خلص إلى أن الهاغانا غير صالحة للتحدّي الذي يلوح في الأفق، والأسوأ من ذلك أن قيادتها مترددة في قبول ذلك.

- أنا أعلم أنني أقول أموراً قاسية جداً، وفي داخلي وجهات نظر أكثر قسوة، لذا سأتكلم بالحد الأدنى. علينا أن نبدأ كل شيء

تقريباً من جديد، لأن الجبهة العربية أصبحت خطيرة، ولم تعد جبهة من قطاع الطرق.

هنا تكمن المشكلة المركزية التي استمرّ بن غوريون في العودة إليها طوال العامين التاليين، وحتى بعد ذلك، باعتبارها درساً عميقاً في فن العمل العسكري. كانت الهاغانا تكيّفاً ناجحاً تجاه تهديد واحد هو التهديد الذي يشكله العرب الفلسطينيون على أمن المستوطنات اليهودية، سواء في وحدات منظمة أو العصابات. غير أن هذا النجاح جعل الهاغانا في نواح كثيرة غير صالحة لمواجهة تحديات المستقبل، لأسباب ليس أقلها رفض قيادتها الإقرار بالتغيّرات الجوهرية في طبيعة التهديد المستقبلي.

- هناك عالم عربي منظم، ودول، وجيوش. إن كانت عديمة القيمة عندما تقارن بالجيوش الأوروبية، فإنها ذات قيمة مقارنة بعدم وجود جيش، وما لدينا ليس بجيش. علينا القيام بعمل صعب، أن نقتلع من قلوب الرجال القريبين من القضية الاعتقاد بأن لديهم شيئاً. إنهم لا يملكون شيئاً في الواقع. لديهم حسن النيّة، ولديهم قدرات مخفية، لكن عليهم أن يعرفوا: لكي يصنع المرء حذاء، عليه أن يتعلّم السكافة.

عشية الندوة كانت الهاغانا (أو «المنظمة»، كما أسماها بن غوريون ومعاونوه) منظمة معقدة. كانت تعمل تحت الإشراف العام للقيادة القومية (مفكاداه آرتزيت)، التي يرأسها قائد مدني (روش مفكاداه آرتزيت) أو (راما) الذي يُعنى أولاً بمسائل الموازنة والسياسة

العامة. وكان لها أركان عامة، ولكن من دون عناصر الأركان التقليدية التي يتوقع المرء وجودها في الجيش النظامي. وكانت ست قيادات إقليمية (القدس، وتل أبيب، وحيفا، بالإضافة إلى الجليل الجنوبي والجليل العلوي والجليل السفلي للمدن الأصغر) تتعايش مع ثلاث كتائب من البالماخ، أو وحدات الكوماندوز، التي لديها أركانها الخاصة وتسلسل قيادي منفصل.

كان للأركان العامة للهاغانا وحدات للتخطيط والتدريب، وغيرها من المهام، لكن لم يكن جهاز المخابرات خاضعاً لهم، وإنما يأتمر بأوامر الوكالة اليهودية وقائد القيادة الوطنية (راما)، الذي يعمل بمثابة شبه وزير دفاع ولكن من دون صلاحيات مماثلة. وكانت المنظمات المسؤولة عن الهجرة غير القانونية وشبكات التجنيد أيضاً خارج التسلسل القيادي المباشر للهاغانا، وتأتمر بأوامر قائد القيادة القومية. كان هيكلاً مربكاً وشاذاً.

وبحلول نهاية عام ١٩٤٧، كانت الهاغانا تضمّ نحو أربعمائة موظف بدوام كامل، و٢٠٠٠ شرطي يهودي شبه رسمي، وكتائب بالماخ احتياطية (٣٠٠٠ بالإجمال)، وما يقرب من ١٠،٠٠٠ من المشاة، بالإضافة إلى مختلف وحدات الحرس الوطني والشباب.

كان الجيش السري يتمتع بشرعية ضبابية ولا يتعرّض للقمع البريطاني إلا إذا تعدى مباشرة على سلطات حكومة الانتداب. وبالنظر إلى أن التجنيد طوعي، والتمويل قليل، وأنه يستمدّ عناصره على العموم من مواهب داخلية ذات تدريب عسكري رسمي ضئيل أو منعدم، فإنه

كان منظمة شديدة التعقيد بالنسبة لجيش سري. وكان يجري تدريباً منتظماً وأصبح له صناعة وليدة للأسلحة، وجهاز مخابرات ممتاز ومتطور (يزوّد القيادة بما يعترضه من المحادثات العربية الرفيعة المستوى، بالإضافة إلى تقارير العملاء)، وقوة كوماندوز جريئة. في وقت لاحق في عام ١٩٤٧ وفّرت لجنة أمنية منبثقة عن الجمعية الوطنية الوليدة، الإشراف والرقابة المدنية. وطوال تاريخها كانت الهاغانا، تخضع في الواقع، لإشراف حكومة الظل لليشوف أو (اليهود في فلسطين). غير أن عمق وشدة هذه الرقابة، كان مسألة شخصية بقدر ما هو ترتيب مؤسسي. كانت الهاغانا هيئة غير حزبية اسمياً، لكنها خضعت في الواقع لسيطرة فصيل الاشتراكية المعتدلة بقيادة ديفيد بن غوريون.

وكان موقع بن غوريون نفسه في هذا التسلسل الهرمي المترهل غير واضح من بعض النواحي. باعتباره رئيساً للوكالة اليهودية والشخصية السياسية الرائدة في فلسطين، كان يمارس سلطة كبيرة، لكنه كذلك تحت رحمة مجتمع يهودي مكوّن من عدد من التجمّعات السياسية المختلفة. كان حزبه، الماباي (حزب العمال الإسرائيلي) هو الحزب الأكبر، ولكن كان عليه أن يتعامل مع الصهاينة اليمينيين، وكذلك مع الجماعات اليسارية الأخرى، ناهيك عن الجماعات غير الصهيونية والعديد من الأحزاب الدينية. وعلاوة على ذلك، ونتيجة للتقاليد الاشتراكية لحزب الماباي والعديد من المستوطنين اليهود الذين هاجروا في وقت مبكر إلى فلسطين، وقدّموا نخبه القيادية الهامة، كان عليه أن يتمسك بتقاليد القيادة الجماعية.

عقدت الندوة في «البيت الأحمر» وهو مقر الهاغانا في تل أبيب، وناقشت جميع قضايا الدفاع عن المجتمع اليهودي، بما في ذلك «الهيكل والتنظيم، والتمارين، والتعليم، والتخطيط، والتدريب، والتخزين، والتصنيع، والاقتناء، والموازنة، والمخابرات، والشباب، والعلاقات الخارجية». وقد تركّزت اهتمامات بن غوريون الأولى حول شخصيات وصفات كبار قادة الهاغانا. ويبدو أنه بلور، في هذه المرحلة، تقييماً لمختلف الشخصيات الرائدة، قائلاً على سبيل المثال، عن يتسحاق ساديه، أحد رواد الهاغانا في العمليات الهجومية، إنه غير ملائم ليعمل رئيساً للأركان لأنه «فنان».

كان بن غوريون يقوم فعلا باختيار بعض القادة الميدانيين لحرب استقلال إسرائيل، ومن بين من أشاد بهم (موشيه كارمل، على سبيل المثال، ليعمل في وقت لاحق قائداً للجبهة الشمالية) مَن شَغل القيادة العليا في المراحل الأخيرة لتلك الحرب.

ثمة شاغلان كبيران للقيادة أزعجا بن غوريون إلى حد كبير، أولهما عدم وجود الاستعداد الشامل للقيادة على المستوى الأعلى. على سبيل المثال، أشار في وقت مبكر إلى عدم وجود الكثير من المدارس العليا للقادة اليهود في فلسطين واستنكر نقص الكفاءة في قيادة الهاغانا. ومع الاحترام المبالغ فيه للمتعلمين رسميا، فقد كان يشك في قدرة القيادة المحلية على تنفيذ المهام المهنية الحقيقية المطلوبة.

وتركز شاغله الثاني على الهيكل الإداري الذي ظهر له أنه شاذ وغير واضح. على وجه الخصوص، ظهر أن دور قائد القيادة الوطنية

قد أوجد تراتباً غير مرحب به، في الصلاحيات بينه شخصياً كوزير للدفاع في حكومة الظل، وبين رئيس هيئة الأركان. فقام باستبدال قائد القيادة الوطنية (راما) الحالي، زئيف فاينشتاين، بإسرائيل جليلي، المنظم المقتدر والبارز في الأوساط السياسية اليسارية. ولكن في غضون أسابيع أصبح غاضباً من الميول التي يعتقد أنه اكتشفها لأن يكون راما بمثابة طبقة عازلة بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية، بدلاً من أن يكون جسراً بينهما.

كانت المشكلة الأساسية التنظيمية التي رآها بن غوريون في الهاغانا فيما يتعلّق بالحجم. قدّم له موشيه سنيه، الراما السابق، تقريراً طويلاً عن النزاع في دوائر الهاغانا حول ما إذا كانت الوحدة الأساسية للمنظمة هي الفصيل أم السريّة. لقد كانت دورة لقادة الفصائل المستوى الأعلى، من التعليم العسكري الفعّال الذي تقدّمه الهاغانا. لذا كان القادة العسكريون للدولة الوليدة، يفكّرون في شكل من الوحدات يتكوّن من خمسة وثلاثين أو ١٥٠ رجلاً على الأكثر. اعتقد بن غوريون أنه ينبغي أن يكون التفكير على أساس ألوية تتكون من عدة آلاف من الجنود، مع وضع خطط للحصول على الدبابات والطائرات والمدفعية - باختصار - على جميع معدات القوات المسلّحة النظامية. وقد وضع هذا المعيار صراحة: عندما أشاد موشيه كارمل، الذي أصبح فيما بعد واحداً من الجنرالات الأوائل في قوات الدفاع الإسرائيلية، بالصفات القتالية للجندي اليهودي إزاء خصمه العربي. سأل بن غوريون عما إذا كان يمكن للهاغانا الصمود أمام كتيبة بريطانية واحدة في الميدان. فأقرّ كارمل بأنه لا يعرف. لم يكن لبن غوريون أي

نية لبدء الحرب مع البريطانيين، بطبيعة الحال، لكنه أعرب عن رغبته في إنشاء قوات لا تقل كفاءة عن القوات البريطانية.

لم يستعرض بن غوريون التنظيم القتالي للهاغانا فحسب، بل استعرض وظائفها المساندة أيضاً، مشيراً على سبيل المثال إلى نظام الاتصالات الأساسي الثابت للمستوطنات اليهودية في فلسطين، الذي سيحتاج إلى تحسين كبير إذا كان على الهاغانا التحوّل إلى العمليات المتنقلة. ولم تتوافق العمليات السرية مع معايير بن غوريون إلا في مجال الاستخبارات. تحتوي مذكراته على مناقشات طويلة لبرنامج الحصول على الأسلحة من الخارج.

كانت صناعة الأسلحة السرية في فلسطين مثيرة للإعجاب، تنتج أسلحة صغيرة غير متقنة (خصوصاً رُشيش ستِن محلي الصنع)، ومدافع الهاون، وبعض المواد شديدة الانفجار، والذخائر، والمركبات والحافلات المدرعة غير المتقنة. وكان يرى أن التصنيع الحربي المستقبلي يجب أن يشمل الدبابات والطائرات، والأسلحة الثقيلة مثل الرشاشات وقطع المدفعية التي يحتاج إليها الجيش النظامي.

أدرك بن غوريون خلال الندوة أن الهاغانا بعيدة جداً عن أن تكون قوة سرية معبّأة بالكامل. كان اليشوف (يهود فلسطين) يُشيعون، متعمّدين أو بمحض المصادفة، أن لديهم قوة أكبر مما يملكونه في الواقع : أشارت تقديرات بريطانية غير سرية في يناير ١٩٤٨ إلى أن قوة الهاغانا تتكوّن من ٧٠،٠٠٠ والبالماخ من ١٥،٠٠٠ وهما عددان مضاعفان بمقدار خمس أضعاف وضعفين على التوالي.

ومن المثير للاهتمام أن مصادر الاستخبارات الأمريكية والفرنسية ذهبت إلى أبعد من ذلك. كانت الأعداد التي توردها التقارير المعلنة للرجال والنساء المنخرطين في العمل العسكري، وهمية. بل إن العدد الداخلي (٣٠،٠٠٠-٣٥.٠٠٠)، كان «مبالغاً فيه» كما علم بن غوريون فيما بعد. فالهاغانا، بطبيعة الحال، منظمة تطوّعية، وقد تنافست مع إتسل وليحي، لاجتذاب القوة البشرية. لكن النقص النسبي في القوة البشرية، من وجهة نظر بن غوريون، ينبع من الفشل في الاستفادة من ٢٥،٠٠٠ من الرجال اليهود الذين انضموا إلى الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية، وخدموا في مهام متنوعة، سواء في القتال أو المساندة وخدمات الدعم. وكان لدى فرع العاملين في الهاغانا نسخ من شهادات تسريح العديد من هؤلاء الجنود، ولكن بن غوريون أشار في مذكراته، أن خمسي العناوين لم تكن صحيحة.

اعتقد بن غوريون، أن جذر المشكلة يكمن في النزعة الإقليمية الضيقة لقيادة الهاغانا الذين فضلوا البقاء في فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية، وسخروا من الدروس التي كان يجب تعلمها من جيش نظامي. يبدو أن للأمر علاقة بعامل سيكولوجي معقد : الشك في أن نظام حياة الجيش البريطاني الصارم يمكن أن يمتزج مع نزعة المساواة الفوضوية لدى اليهود/الفلسطينيين، والرفض الأكثر تبريراً لقابلية تطبيق الممارسات العسكرية لجيش كبير جيّد التجهيز، ومنظم تنظيماً تقليدياً، على مشاكل ميليشيا فقيرة وشبه قانونية، وربما أيضا الشعور بالاستياء والحسد ممن شاركوا في أعظم كفاح في ذلك الزمن. وعلاوة على ذلك، كما لاحظ أحد قادة الهاغانا بشكل صحيح، فإن

معظم قدامى المحاربين البريطانيين لم يخدموا في مجال الأسلحة القتالية، وكان رأي قيادة الهاغانا أن الحاجة الأعظم والأكثر إلحاحاً هي لمشاة أكثر عدداً وأفضل تدريباً.

ومما زاد من الصعوبة نخبوية الذراع الضارب الذي تفتخر به الهاغانا، البالماخ (سرايا العاصفة بالعبرية). أنشئت البالماخ في عام ١٩٤٢، وهي المكافئ لدى اليهود الفلسطينيين لميليشيا «مينيت مِن» (minute men) في الثورة الأميركية بالقرن الثامن عشر. كانوا يعيلون أنفسهم بالعمل بعض الوقت في الكيبوتسات، وكانوا القوة الدائمة الوحيدة - شبه الدائمة في الواقع - لليهود الفلسطينيين. كان يقودهم في الغالب ممثّلون للجناح اليساري لحركة الكيبوتس، لذا اتسموا بميل قوي للمساواة الاشتراكية. ولأنهم قوة مشاة خفيفة أو كوماندو، فقد كانون يتمتّعون بتدريب متفوّق ومعنويات عالية، وعهدت إليهم القيادة العليا للهاغانا بمختلف العمليات ضدّ كل من البريطانيين والسكان العرب المحليين. ولكن على الرغم من أن بن غوريون كان يقدّر الفعالية المتفوقة للبالماخ، فإنه شعر بالقلق من نخبويتها واستقلاليتها. فقد كان لها هيئة أركان منفصلة وموازنة تستعصي تفاصيلها الغامضة على التدقيق الخارجي. لم يكن في وسعه التعامل مع ذلك على الفور، لكن سيأتي وقتها.

لا يملكون خبرة عسكرية حقيقية ولا يريدونها

بعد وقت قصير من تنظيم الندوة، طرح بن غوريون على زملاءه تقييمه في يونيو١٩٤٧:

- الأخطاء التي وجدتها: نقص المُعدّات، لعدد من السنوات لا توجد أي أفكار وافية عن احتياجات الأمن والخطر العربي. وأن الهاغانا ترى نفسها غاية وليست وسيلة (لم تكن المهمة التي أنشئت من أجلها في مقدّمة تفكيرها)؛ وتعمل الهاغانا بروح الشركات؛ وليس لديها خبرة عسكرية حقيقية، ولا تريد اكتسابها.

في هذه الأثناء استمرّت الأحداث في التقدّم. وفي شتاء ١٩٤٦-١٩٤٧ أعدّت السلطات البريطانية اقتراحاً لتقسيم فلسطين إلى مناطق يهودية وعربية، تحت إشراف الوجود البريطاني القائم. وتم عرض الاقتراح رسمياً في فبراير ١٩٤٧، وواجه معارضة صريحة من قبل جميع الأطراف المعنية، فانهار. وفي أبريل عام ١٩٤٧، في أثناء الندوة، أحالت الحكومة البريطانية مشكلة فلسطين إلى الأمم المتحدة. وبحلول صيف ١٩٤٧ اتضح لبن غوريون بأن تصويت الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين من شأنه أن يطلق العنان للحرب. وفي نوفمبر من ذلك العام، صوّت مجلس الأمن بالفعل لصالح تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين: واحدة عربية، وأخرى يهودية. استباقاً لهذه الأحداث، وبعد الندوة مباشرة، شرع بن غوريون في ثلاث سياسات واسعة.

أولاً : بدأ في إصلاح القيادة العليا للهاغانا. بالإضافة إلى استبدال الرئيس غير الفعال للقيادة الوطنية، زئيف فاينشتاين، ووضع إسرائيل جليلي مكانه، وأجرى تغييرات في القيادة العسكرية أيضاً. لم يستبدل يعقوب دوري، الذي عمل منذ عام ١٩٣٩ رئيساً

لأركان الهاغانا، لكنه ثبّت الشاب يغئال يادين رئيساً لفرع العمليات. كان هذا، حتى الآن، تغييراً مؤقتاً وسوف يأتي الكثير في وقت لاحق، ولكن في تلك اللحظة كان يريد على رأس الهاغانا رجالاً لا يتحدون سلطته، بل يشاطرونه نظرته الشخصية في أن المنظمة كانت قاصرة وغير مرضية. ولاحظ في أكتوبر ١٩٤٧ أن أخطر مشكلة واجهها هي «انعدام السيطرة المدنية على منظمة الهاغانا».

السيطرة المدنية على المؤسسة كانت كما أعلن «وهمية من دون أدنى شك». كان اختيار قادة جدد للهاغانا يعكس بالفعل عزمه على تأكيد السيطرة المدنية : لم يكن لدوري ولا يادين أتباع مستقلون في الهاغانا. فالأول قد خدم في الهاغانا سنوات عديدة، وكان مهندساً من حيث التعليم والنظرة، ولم يكن يسيطر على العسكريين لمرضه. أما يادين، الأصغر سنا، فلم يكن عضوا في أي من البالماخ أو منظمة الهاغانا القديمة، وقد أخذ إجازة من المنظمة لمدة سنة ونصف حتى ربيع عام ١٩٤٧.

كان يادين، نجل عالم آثار تدرب ذاتياً، وهو ممن يفخر بأنه عسكري محترف على الرغم من انه لم يخدم أبداً في الجيش البريطاني. وقد تعمّق في النظرية العسكرية، وأدى دوراً هاماً في وضع برنامج تدريب ضباط الهاغانا، وأدار الكلية بالفعل. وهناك دخل في صراعات مع العناصر غير المنضبطة في البالماخ. كانت الخلافات المباشرة صغيرة بشكل لا يصدق : هل ينبغي أن يتم التدريب على أساس الفصائل أم في تشكيلات السرايا؟ هل ينبغي للوحدات اكتساب الخبرة بالرشاشات المتوسطة؟ لكن القضايا الأكبر كانت مرتبطة

بالسمات الشخصية للقائد، وفي أسلوب عمل القيادة. أجرى بن غوريون مقابلة شخصية مع يادين في الندوة، واستجوبه بعناية شديدة بشأن ترك الهاغانا. وبحلول خريف عام ١٩٤٧، عاد يادين مرة أخرى إلى مركز المنظمة، وأنشأ فرع العمليات وتطوير الأركان حيث إن رئيس الأركان السابق، يتسحاق ساديه، أهمل ذلك كثيراً.

هكذا سلك بن غوريون طريق إدخال نوع جديد من الجنود السريين الأكثر احترافاً في الجيش، وانتقل أيضا لتوضيح التسلسل القيادي. بوصف أكثر دقة، انتقل بسرعة إلى الإصرار على ألا يتصرف جليلي، قائد القيادة الوطنية (راما)، باعتباره وسيطاً بينه وبين هيئة الأركان العامة، ولكن باعتباره ضابطاً تنفيذياً. أرجأ الصدام المكشوف، ولكن خطوطه العريضة أصبحت واضحة. وكان بن غوريون قد بدأ بالفعل في وصف القيادة الوطنية باعتبارها شذوذ تنظيمي، ليتم التخلص منها (نتيجة لذلك) عندما يسمح ضغط الأحداث.

ثانياً : تواصل بن غوريون مع قدامى المحاربين من البريطانيين، وعلى وجه الخصوص مع الرائد الشاب، حاييم لاسكوف، الذي تجنّد في الجيش البريطاني في عام ١٩٤٠ والتحق بكل دورة تدريبية متاحة له في أثناء الحرب العالمية الثانية. كان لاسكوف، الذي أصبح في عام ١٩٥٨ رئيساً لأركان جيش الدفاع الإسرائيلي بعد الحرب، يعمل مرغماً بمثابة ضابط أمن في شركة للكهرباء، عندما اختاره بن غوريون ليصبح كبير مدرّبي الهاغانا في أغسطس ١٩٤٧. وكان بن غوريون قد قابله في الندوة.

الرجل العجوز، الذي حلّف كل مَن تحدثوا معه على السرية، استمع للاسكوف وهو يعطيه بالضبط، عدد البنادق المطلوبة لكل كتيبة، كما قدّمه ضابط سابق في الجيش البريطاني. بعد نقاش حاد اتهم فيه بن غوريون لاسكوف بأنه عرف أكثر مما ينبغي من زملائه الضباط. بينما أوضح لاسكوف بصبر وأناة جدول التنظيم والمُعدّات، وهو شيء يحفظه كل ضابط بريطاني عن ظهر قلب. كان ذلك بداية لعلاقة طويلة ومثمرة إذ بدأ بن غوريون يستشير لاسكوف في كل مسائل التنظيم والتدريب التي يريد فرضها على الهاغانا، مما جعل الحرس القديم ينظرون إلى لاسكوف وغيره من الضباط البريطانيين التدريب، بريبة كبيرة.

ثالثاً : قام بن غوريون بتسريع برامج التعبئة والتموين التي تقوم عليها البنية العسكرية للدولة اليهودية المحتملة. في الواقع، تمثلت إنجازات بن غوريون في هذا المجال في اختياره للقادة وإصراره على التخطيط بعيد الأمد وسعيه الحثيث والمتواصل لمتابعة كل شيء يتوافق تماماً مع دوره المفهوم جيداً كصانع للقرار في حرب الاستقلال. إن بقاء إسرائيل في مواجهة جيوش الدول العربية، بل انتصاراتها، لا تعكس فقط عزيمة شعب في موقف حرج، وإنما هي تصحيح للميزان الكمي في الحرب. فالدول العربية لم تقم بجهد وطني شامل للتعبئة ضد اليهود : ليس لديها الخبرة ولا المؤسسات التي من شأنها أن تسمح لها بذلك. وجيوشها لا تنمو في الحجم ولا تتحسن كفاءتها، لا في السراء ولا في الضراء. بالمقابل، الدولة اليهودية، على نحو فرنسا الثورية في تسعينيات القرن الثامن عشر أو الاتحاد في الحرب الأهلية الأمريكية،

تستطيع تعبئة الموارد البشرية والمادية لحرب شاملة بطرق لا يمكن لخصومها ببساطة أن يضاهوها. ومشكلة التعبئة أن لها وجهان: القوة البشرية والتجهيزات.

رأى بن غوريون، وأيّدته التساؤلات الدقيقة خلال الندوة، بأن الهاغانا قصّرت في تحديد القوى البشرية القابلة للتجنيد العسكري وتسجيلها، وكان مصيباً. عند إجراء محاولة جادة لتسجيل وتجنيد الرجال في سن الخدمة العسكرية في فلسطين، وبشكل متزايد، في مخيمات اللاجئين في أوروبا حيث يأتي منها المهاجرون الجدد، فإن الزيادة الكمية في القوى البشرية ستكون مذهلة. في فبراير عام ١٩٤٨، عشية استقلال إسرائيل، بلغ عدد الهاغانا ١٦،٠٠٠ رجل وامرأة، وفي مايو تضاعف العدد تقريباً، وبلغ حوالي ٣٥،٣٠٠. وفي ديسمبر ١٩٤٨، في ذروة التعبئة، كان جيش الدفاع الإسرائيلي يضمّ أكثر من ٩٢،٠٠٠ جندي.

من المؤكد أن بعض هذه الزيادة ربما جاء من استيعاب المجموعات العسكرية المنشقة والبالماخ. ومن ثم كان، إعادة تنظيم وتوحيد أكثر مما هو نموّ. لكن، مع أخذ ذلك في الحسبان، فإن بن غوريون ومساعديه مهدوا الطريق لتعبئة القوة البشرية التي زادت بسهولة القوة العسكرية المتاحة للدولة اليهودية أربعة أضعاف بين تاريخ الندوة ونهاية حرب الاستقلال بعد عامين.

كان الجيش السري قد طوّر قوة تصنيع سرية مثيرة للإعجاب،

إلا أن اقتناء الأسلحة من الخارج سيكون حاسماً لبقاء إسرائيل، كما يشير الجدول.

معدات القوات البرية لجيش الدفاع الإسرائيلي : ١٩٤٧-١٩٤٨

	أبريل ١٩٤٧	نوفمبر ١٩٤٧	مايو ١٩٤٨	أكتوبر ١٩٤٨	مارس ١٩٤٩
بنادق	١٠٠٧٣	١٠٦٧٨	٢١٨٨٦	٥٩٣٨٩	٦٢٢٠٠
رُشيشات	١٩٠٠	٣٦٦٢	١٠٢٦٤	٢١٣٤٣	٣١٠٤٩
مدافع رشاشة	٤٤٤	٧٧٥	١٢٦٩	٦٤٣٦	٦٤٩٤
مدافع هاون عيار ٢ إنش	٦٧٢	٦٧٠	٦٨٢	٦١٨	١٧٠٦
مدافع هاون عيار ٣ إنشات	٩٦	٨٤	١٠٥	٣٨٩	٦٧٨
قطع مدفعية×		٢٥	٢٥	٢٥٣	٤٩٢

* جميع الأنواع، بما في ذلك ١٥٠ قطعة ميدان و٨٩ من المدافع المضادة للدبابات.

كانت التطورات المهمة قيام الدولة الوليدة بإبرام صفقات أسلحة مع تشيكوسلوفاكيا في النصف الأول من عام ١٩٤٨، حيث توفرت للدولة اليهودية ثمار صناعة الأسلحة التشيكية، بصيغتها المعدلة من قبل الألمان لاستعمالهم الخاص خلال الحرب العالمية الثانية. من المفارقات، أن كثيراً من الناجين من معسكرات الإبادة التي أقامها هتلر، شاركوا في المعركة ضد العرب وهم يحملون بنادق ماوزر والمدافع الرشاشة الخفيفة الألمانية التصميم، تحت غطاء جوي من الطائرات المقاتلة BF-109 المطورة، وجميعها من ثمار صفقات السلاح. تلك الاتفاقيات، التي جمعت التمويل (قبل كل شيء، في الولايات المتحدة) والدبلوماسية (حيث أقام الاتحاد السوفياتي الحكم الشيوعي في براغ)، والتنظيم (لجلب الأسلحة على الرغم من شبه الحصار البريطاني وفي خضم الهدنات برعاية الأمم المتحدة)، استنزفت الكثير من طاقة بن غوريون.

تحرّك بن غوريون بسرعة ليس فقط لإعادة تنظيم القيادة العليا للهاغانا، ولكن لتوفير التوجيه الاستراتيجي لها. هذه الرؤية، أعرب عنها في سلسلة من الخطب لكبار القادة السياسيين والعسكريين. فهو مثل تشرشل، يؤمن بأهمية إجراء مسح منهجي للوضع باعتباره وسيلة لإعداد الزملاء والمرؤوسين للمهام المقبلة. ولا تهدف خُطب بن غوريون، إلى حث الآخرين على بذل جهود جدية فقط، ولكنها تشرح لهم في بعض الأحيان المشاكل التي لا يزال يتعين مواجهتها. لعل أهم

هذه الخطابات «الهاغانا في الأيام المقبلة» الذي ألقاه في ١٨ يونيو عام ١٩٤٧، لأنه حمل البصمة الحقيقية لكيفية عمل عقل بن غوريون.

بدأ بن غوريون، كما يفعل عادة بمسح تاريخي لنضال المجتمع اليهودي في فلسطين، واصفاً الصراع باعتباره واحداً من المراحل المتغيرة في المواجهة بين الصهيونية وأعدائها على جبهات مختلفة. في مطلع هذا القرن، أصبحت المشكلة حماية ممتلكاتهم وحياتهم من النهب وقطّاع الطريق. وبعد الحرب العالمية الأولى أصبح التهديد من قبل مجموعات منظمة من العرب المحليين الذين كان دافعهم، على الأقل في جزء منه، سياسياً. ثم ظهرت في أعقاب «الكتاب الأبيض»، جبهة بريطانية أيضاً، حيث حارب اليشوف ضد الجهود البريطانية لتقييد الهجرة إلى فلسطين. لكن الآن سيأتي الاختبار النهائي والأكثر أهمية:

- الموقف العدواني لحكام الدول العربية، ويجب علينا الاستعداد لهذه الجبهة بكل جدية.

بعد استعراض الروابط بين الجبهات البريطانية والعربية، قال بن غوريون إن الصراع الوشيك سيضع يهود فلسطين ضد قوات من المتوقّع أن تكون متفوقة عددياً مما يحتم على اليشوف (يهود فلسطين) السعي للتفوق النوعي من خلال الاستفادة من الخبرة العسكرية لقدامى المحاربين في الحرب العالمية الثانية، والاستفادة من التفوق التكنولوجي للسكان اليهود في فلسطين. كان المطلوب تعبئة ثلاثة أنواع من القوات اليهودية : ميليشيا ثابتة للدفاع عن أراضيها (حيل ميشمار

أو حيم): وقوة متحركة منظمة وفقاً للمبادئ النظامية، وقوة النخبة للعمليات الخاصة. ولا يقل أهمية عن التقسيم الثلاثي للهاغانا (المهام الوظيفية المتوارثة التي استمرت عبر تاريخ قوات الدفاع الإسرائيلية بعد الاستقلال) كان إصراره على تمهيد الطريق لوحدات أكبر، وبناء الجيش النظامي. وخلص بإصدار أمر لقادة الهاغانا لإعداد المدارس لتدريب قادة على مستوى كتيبة فما فوق، وكذلك هيئة الأركان التي من شأنها السيطرة على وحدات كبيرة في العمليات الميدانية.

أمضى بن غوريون، مثل تشرشل، الكثير من وقته يحث ويدفع وينشط المرؤوسين الذين امتثلوا لرغباته، حتى لو لم يتمكّنوا أبدا من إنجاز كل ما يريد. أما منتقدوه فيصرون على أن نجاحه في توفير واقتناء الأسلحة، على سبيل المثال، أو تنظيم وحدات كبيرة، كان مجرد تسريع لخيارات وخطوات كانت موجودة من قبل. وتحتج القيادة القديمة للهاغانا بأن الضباط المدربين من قبل الجيش البريطاني الذين فضّلهم بن غوريون، غالباً ما كانوا يفتقرون إلى مرونة نظرائهم المدربين في فلسطين. وأنهم تميزوا بالأسلوب البريطاني في الانضباط الرسمي والتكتيكات الجامدة، وغير المناسبة نفسياً ليهود اليشوف شديدي الاستقلالية، ولا لمتطلبات حرب المشاة الخفيفة في تلال يهودا. لا تخلو تلك الانتقادات من الصحة، ولكنها ليست دقيقة تماماً، كما أنها لا تمس جوهر المسألة. ومثل لنكولن وكليمنصيو، وونستون تشرشل، قاد بن غوريون وألهم مرؤوسيه للقيام بتلك الأشياء التي لو تُركت إلى أجهزتهم الخاصة لما نُفذت أبداً، حتى وإن اتضح مدى أهميتها.

وكان يحصل على النتائج، لأنه دأب مثل تشرشل على متابعة تفاصيل الامتثال لتعليماته. وأولى بن غوريون اهتماماً وثيقاً، على سبيل المثال، لإقامة دورات لوحدات الإشارة الصغيرة للهاغانا، التي على الرغم من مناسبتها تماماً للحفاظ على الروابط بين المستوطنات المدنية البعيدة عن بعضها بعضاً، فإنها كانت تفتقر إلى المُعدّات والأفراد لتشغيل العمل في المنظمات العسكرية المتنقلة. وكانت مذكراته الضخمة وسيلة لتتبع التغيرات التي أمر بها، وكذلك التحولات الجارية. إن مشهد الوقوف أمام رجل عجوز غضوب، كما كان يُعرف بالفعل، برأسه الأصلع متوج بجناحي الشعر الأبيض الجامحين، وأسئلته القصيرة الحادة والقطعية، وقلمه الجاهز للكتابة دائماً، ربما يجعل حتى الأقل ورعاً من بين الذين يقفون أمامه يتذكّر سطراً من نص يهودي قديم: «اعرفوا من هو فوقكم : عين ترى .. وأذن تسمع .. وكتاب يسجل فيه كل ما تقومون به من الأفعال».

حرب القادة

جاء اختبار أعمال بن غوريون بسرعة مخيفة، لأن حرب استقلال إسرائيل بدأت قبل وقت طويل من الإعلان الرسمي للدولة في مايو١٩٤٨. ففي ٢٩ نوفمبر١٩٤٧ عمّت يهود فلسطين موجة من الاحتفال عندما قررت الأمم المتحدة، بأغلبية ٣٣ مقابل ١٣ وامتناع عشرة عن التصويت، على تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية من أصل ثلاث مناطق متجاورة بالكاد غرب الأردن. وامتلأت شوارع تل أبيب بالحشود الراقصة، لكن بن غوريون، توقع حرباً مريرة قادمة،

وبقي في غرفته. لم يستطع الانضمام إلى الاحتفالات في الشوارع، لأنه كان يعلم، كما ذكر لابنته متجهّماً :

- أن بعض من يرقصون الآن سيسقطون قريباً في المعركة.

أثبتت كلماته صحتها. فقرار للأمم المتحدة افتتح المرحلة الأولى من الحرب التي ستستمر نحو ثلاثة عشر شهراً، من خلال ثلاث مراحل صعبة. في المرحلة الأولى، عانى اليشوف من الهجمات المستمرة من الجماعات العربية الفلسطينية المحلية، في حين بدأت الدول العربية الاحتشاد ضدها. في حرب الكمائن والغارات، لعبت سلطة الانتداب البريطاني دوراً غامضاً. ففي بعض الأحيان كانت تتدخل لوقف القتال وتميل في بعض الأحيان إلى هذا الجانب أو ذاك، ولو أنها كانت أكثر انحيازاً للعرب عموما، خاصة بعد الهجمات الدموية التي شنّتها ليحي وإتسل عليها لإجبارها على سحب قواتها من فلسطين. تزامن ذلك مع مهاجمة القرويين والجنود غير النظاميين العرب بشكل خاص، للطرق التي تربط المراكز السكانية اليهودية. والأهم من ذلك كله، مهاجمة الطريق إلى القدس عبر السهل الساحلي. استغرقت الحركة الصهيونية أربعة أشهر لتعبئة مواردها، وظلت خلالها في موقف دفاعي. غير أنها أطلقت في أبريل ١٩٤٨ هجمات مضادة ففتحت الطريق إلى القدس مؤقّتاً، وهُزمت القوات العربية في المدن الرئيسية، بما في ذلك طبريا وحيفا ويافا.

جلب إعلان استقلال إسرائيل في ١٤ مايو ١٩٤٨ المرحلة الثانية من الحرب وأزمتها الأشد : غزو الجيوش العربية. وفي أقل من

شهر من القتال المرير قطعت الطريق إلى القدس (حيث استسلمت الحامية الهزيلة أمام جنود - الفيلق العربي - الأكثر احترافاً في المدينة القديمة)، في حين استولى الجيش السوري على جيوب صغيرة من الأراضي المخصصة للدولة اليهودية الجديدة. واحتلت القوات المصرية بئر السبع وتقدمت إلى الداخل على بعد ثلاثين ميلاً من تل أبيب. على الرغم من أن الإسرائيليين قبل أوائل يونيو قد أحرزوا بعض الانتصارات وأحبطوا الهجوم الفوري، فان الهدنة الأولى في ١١ يونيو جنّبتهم كارثة محققة.

خلال توقّف القتال لمدة شهر، نظم جيش الدفاع الإسرائيلي - كما أصبح يُطلق عليه الآن – نفسه، لمواصلة القتال في المرحلة الثالثة للحرب. وفي ٨ يوليو نشب صراع لمدة عشرة أيام بين الإسرائيليين وأعدائهم العرب وحُرّر معظم الجزء الأوسط من البلاد من القوات العربية واستعيدت المبادرة في الجنوب ضد مصر. بدأت هدنة ثانية سرعان ما انهارت في ١٨ يوليو بسبب سلسلة من الحملات، بما في ذلك القتال الرئيسي في منتصف أكتوبر عام ١٩٤٨، حين أخرج الإسرائيليون المصريين من النقب، والقوات غير النظامية العربية من الجليل، وبدوا مستعدين لشن معركة من أجل القدس بأكملها. ووقع القتال الحاد الأخير في الأسبوع الأخير من عام ١٩٤٨. وخلال الأسبوع الأول من ١٩٤٩ توغلت القوات الإسرائيلية في شبه جزيرة سيناء، مما كاد أن يتسبّب في مواجهة مسلحة كبيرة مع القوات البريطانية هناك.

إن الحجم الصرف للأعمال العسكرية، كأعداد الجنود المستوعبين، أو رصد الخسائر أو الأرض المحتلة، ليست معياراً للتعقيد

الاستراتيجي والعملياتي، ومن ثم لا تهم دارسي الحرب. تقدّم حرب الاستقلال الإسرائيلية إثباتاً أساسياً لذلك، مع أنها خيضت في منطقة لا يزيد حجمها عن ولاية نيوجيرسي. فالصراع استراتيجياً، بدأ على أنه حرب من أجل البقاء، على الأقل من وجهة النظر الإسرائيلية: اعتقد قادة وشعب إسرائيل أن انتصارهم لا يعني فقط وجود دولة يهودية مستقلة، وإنما البقاء الطبيعي على قيد الحياة لمواطني تلك الدولة. وبالتالي، كانت بالنسبة لهم حرباً شاملة، امتدّت جهودها إلى كل شيء (بغض النظر عن صغر أبعادها) مثل الصراع الذي اجتاح العالم في السنوات العشر السابقة. عبّأ الإسرائيليون، أو حاولوا على الأقل تعبئة، كل رجل وامرأة من القادرين على حمل السلاح، وبذلوا كل جهد ممكن، لإنتاج الأسلحة للحرب وتهريب المُعدّات من الخارج. ومع أن معارك رفع الحصار عن القدس، أو الاحتفاظ بالمستوطنات المعزولة مثل ياد مردخاي، ونقبا، ومشمار هعيمق، لا تعدو أن تكون مناوشات، مقارنة بمعارك الحرب العالمية الثانية، فإنها خيضت بإحساس لا يقل عن تلك، من حيث هول المخاطر.

وللحرب جانب استراتيجي آخر، باعتبارها صراعاً لغايات محدودة بين قوى كان يدور في خلدها تسوية سلمية من نوع معتدل. منذ البداية، رفض قادة الحكومة المؤقتة الإسرائيلية ترسيم حدود الدولة اليهودية، ظانّين أنهم من خلال قوة السلاح يستطيعون اكتساب المزيد من الأراضي من خلال التسويات المواتية أو خطة التقسيم لعام ١٩٤٧كما فعلوا في الواقع. ولكن حتى في هذه المرحلة، عندما كان بقاؤهم على المحك، كان على بن غوريون الاختيار من بين خيارات

محيّرة. لم يكن عليه، مجرد ضمان أمن السكان اليهود الأساسيين في القطاع الساحلي من تل أبيب إلى حيفا، وإنما الحفاظ على خطوط اتصال مفتوحة مع المستوطنات الرئيسية في الشمال وفي الجنوب، وقبل كل شيء مع القدس. وسعى كذلك لجلب الأجهزة والمُعدّات اللازمة للجيش الإسرائيلي المتمدّد، وفي الوقت نفسه، كان عليه إنشاء مؤسسات الدولة التي يمكنها الاستفادة من ذلك.

في أعقاب الهدنة الأولى، لم يعد قادة إسرائيل قلقين بشأن احتمالات بقائهم. فمن البداية فشل خصومهم في بناء جبهة قوية وعنيدة. كان الالتزام اللبناني والمصري في الحرب فاتراً على الأكثر، وكان الإسرائيليون يرون في الملك عبد الله في شرق الأردن خصماً تعاون معهم في الماضي - وربما تسلّم أموالاً من الوكالة اليهودية. وقد استمرّت القيادة الإسرائيلية في التفاوض مع عبد الله حتى وقت اندلاع الحرب، ويبدو أنها لم تفقد الأمل في إمكانية التصالح مع أمير شرق الأردن، الذي كان يملك قيادة القوات الأكثر شراسة من جميع القوات المقاتلة العربية، الفيلق العربي. سرعان ما اتضح أن عبد الله، الذي لديه القليل من الرغبة في قهر الدولة اليهودية، ولكن مع كل رغبته في الإبقاء على البلدة القديمة من القدس، ودرء منافسيه العرب، إلا أنه لم يكن خصماً متعصّباً على الإطلاق. وكان إلى حدّ ما، تحت رحمة ضباطه الأصغر سناً، مثل عبد الله التل، قائد أحد أفواج الفيلق العربي الأربعة.

وأعاقت الخصومات المماثلة والخلاف الداخلي، العلاقات بين مصر والعراق - المتنافسين على الزعامة في العالم العربي - بل

حتى العلاقات بين الجماعات الفلسطينية نفسها. وانفجرت الفئوية اليهودية أيضاً في أعمال عنف في بعض الأحيان في أثناء الحرب، ولكن على العموم انتجت أزمة ١٩٤٨-١٩٤٩ الوحدة في صفوف اليشوف (يهود فلسطين).

في الجانب العربي كان الوضع معاكساً، حيث أدت مساعي الوحدة الأولية لزيادة الشقاق في التحالف الهش المناهض لليهود. كما أن الجانب العربي، بجيوشه النظامية الصغيرة، واجه مشكلة بُعد خطوط الإمداد والاتصال، مقارنة بالدولة اليهودية الأكثر صغراً. ولم تكن لدى العرب القدرة على التعبئة للحرب مثل الإسرائيليين. فهم لم يجربوا ضغوط الضرورة التي واجهها اليشوف، ولا نزعة القوى الأوروبية في حشد قوات كبيرة للحرب العالمية الثانية، كما أن أجهزتهم البيروقراطية غير فعالة وبطيئة، وجيوشهم لم تُختبر في الحرب على العموم.

الطبيعة المتناقضة لهذه الحرب، باعتبارها صراعاً غير مشروط من أجل البقاء، ومع ذلك حرباً محدودة على الحدود والمزايا الصغيرة، تصبح أكثر تعقيداً إذا نظرنا إلى دور القوى الخارجية. فبريطانيا العظمى فضلت الانحياز إلى العرب، ثم بعد فترة مارست حظر الأسلحة عليهم. والولايات المتحدة، مثل العديد من الدول الأوروبية الرئيسية، تتعاطف مع إسرائيل، وحتى الآن لديها مصالحها في العالم العربي، كما كان الاتحاد السوفياتي وعملاؤه على استعداد لإحباط خطط الإمبريالية البريطانية وتسريع انهيار الأنظمة العربية الموالية للغرب، ومع ذلك كانوا لا يثقون بالحركة اليهودية، ولا في الاشتراكية

الديمقراطية للدولة الإسرائيلية. علاوة على ذلك، كان لكل من القوى العظمى معجبون وأتباع في المعسكر الصهيوني. كان البالماخ، إلى درجة كبيرة، مؤيّداً للاتحاد السوفيتي، وهناك بعض المعجبين بإنجلترا من الطبقة المتوسطة في إسرائيل لا يزالون يتطلعون إلى بريطانيا، في حين رأى آخرون في الولايات المتحدة البعيدة، بقوتها الاقتصادية الكبيرة وحجم اليهود المقيمين فيها، الحليف الأكثر أهمية لإسرائيل.

كان حل التناقضات المصاحبة لاستراتيجية الحرب هو التحدي الرئيس الذي تصدى له بن غوريون، الي جانب المهام العملياتية. فقد تطلب الصراع غارات جوية (قصف أكثر من عاصمة عربية) وأنشطة العصابات (مع التركيز على الكمائن على الطرق)، والعمليات التقليدية من خلال تشكيلات قد تصل إلى لواء وفرقة في بعض الأحيان. وشكّلت كل من الجبهات الثلاث، الشمالية والوسطى والجنوبية، تحديات جغرافية وديموغرافية واضحة. على الرغم من أنها تقع على بعد نحو ثلاثين أو أربعين ميلاً بحرياً فقط. كما أن المستوطنات اليهودية الجبلية الشمالية المعزولة كانت مرتبطة بواسطة طرق غير مستقرة تعاني من الجنود غير النظاميين من جيش التحرير العربي بقيادة فوزي القاوقجي، ومهددة من قبل الهجمات العسكرية من سوريا، وإلى حد أقل من قبل الجيش اللبناني. وفي المنطقة الوسطى، قدم السهل الساحلي «الحاجز الدفاعي الصهيوني»، كما سماه أحد المراقبين الأمريكيين، وهو مركز ثقل السكان اليهود، والاحتياطي الحربي المحتمل. غير أن القدس في قلب كتلة جبال يهودا التي تمتدّ من الشمال إلى الجنوب، القلب السياسي للدولة اليهودية، تحيط بها قرى عربية،

ويمكن وصول الفيلق العربي إليها بسهولة معززاً من قبل الجيش العراقي. في الجنوب، تعمل القوات المصرية في منطقة صحراوية، حيث لم يكن لدى إسرائيل سوى عدد قليل من المستوطنات المحصنة المتناثرة لتكون بمثابة نقاط تنظيمية لعمليات واسعة النطاق. ولا توجد عقبات طبيعية تمنع تقدم القوات المصرية عبر سيناء إلى قلب البلاد، وبالفعل، قبل انحسار المدّ، كان المصريون على مقربة من تل أبيب والقدس.

مما لا شك فيه أن القتال العنيف (والروح المعنوية وتعبئة الموارد وراءها) تحدد نتائج أي حرب. لكن الأخوين كمحي، قاتل أحدهما في الحرب في حين غطى الأخ الآخر الحرب كصحفي، أثارا نقطة أساسية عندما كتبا أن :

- ما يهم حقاً هو صراع الإرادات وصراع القيادات. خوض الحرب (بالتأكيد حتى أكتوبر ١٩٤٨) لعب دوراً أصغر في الجانب الأوسع للصراع مما يخلص إليه المرء من الروايات النمطية - إلى حدّ ما - للجانب العسكري من الحرب التي أصبحت مألوفة بتكرارها، كل حسب احتياجاته : الإسرائيليون والعرب والبريطانيون . لو كان هناك حرب بين القادة، فإنها هذه الحرب: القيادات العليا والقادة الميدانيون والقادة المحليون. لقد كانوا حاسمين.

على الجانب الإسرائيلي، كانت «حرب القادة» هي الأكثر صعوبة لأنها حرب قامت بها القيادة العليا في كثير من الأحيان في ظل خلافات

فيما بينها، ليس فقط حول الشخصيات، والسياسة، والأهداف، بل حول الهيكل أيضاً.

وهكذا، وعلى الرغم من أن حرب الاستقلال الإسرائيلية كانت أقل هولاً مقارنة بفظائع النضال الملحمي الذي انتهى لتوّه في أوروبا، وقبل أقل من خمس سنوات في آسيا، فإنها كانت في الواقع، صراعاً استراتيجياً غير عادي. لا يمكن لحكومة ما أن تخوض الحرب وفق قواعد مسبقة بحكم التجربة، وهذا الوضع ليس استثناء. وهكذا، على سبيل المثال، في بداية الحرب اتخذ بن غوريون قراراً استراتيجياً انتهك على ما يبدو مبدأ أساسيا للحرب: أمر هيئة الأركان العامة بالدفاع عن كل مستوطنة يهودية في جميع أنحاء فلسطين، بدلاً من التخلي عن بعضها من أجل تركيز قواتها على الهجوم المضاد. في الوقت نفسه جعل للقادة المحليين الاضطلاع بالهجمات المضادّة. هذا يمثل حالة مثيرة للاهتمام في التقاطع بين صنع القرار العملياتي والاستراتيجي.

كان لقرار بن غوريون مبرّران.

السبب الأول: بالدفاع عن كل موقع فإن اليهود داخل فلسطين من شأنهم أن يؤخروا ويمتصوا الهجمات من قبل كل من العرب المحليين والجيوش العربية، ويكسبوا الوقت لتعبئة الجنود والعتاد داخل فلسطين وخارجها. هذه القدرة للدولة اليهودية على جمع الموارد كانت مركزية لمفهوم للحرب. وتم تنظيم المستوطنات الزراعية ليهود فلسطين دفاعاً عن النفس، وعلى الرغم من سقوط عدد منها في جميع أنحاء البلاد

أمام الهجمات السورية أو المصرية أو الأردنية، فإنها جعلت العدو يدفع ثمناً في الزمان والمكان.

السبب الثاني : وراء الرفض التام لاستسلام شبر واحد من الأرض دون قتال، كان نفسياً. أنه يحرم العدو من رؤية اليهود فارين، ويمنع ازدرائهم كشعب خنوع وعِرق غير محارب، مما جعل العديد من العرب غير مستعدين لخوض معركة شرسة. على الجانب اليهودي كانت الإفادة هامة وجدية : تلك القصة القديمة لم تعد ممكنة، والآن، خلافا لما كان خلال القرون الماضية البشعة، على اليهود الصمود والقتال.

وجاء قرار بن غوريون محفوفاً بتكلفة باهظة. جرى محو كتلة (عصيون) الاستيطانية جنوب القدس من قبل الفيلق العربي، وسقطت زيماخ ومشمار هياردن في يد السوريين، وسقطت ياد مردخاي في يد المصريين. وبحلول نهاية الهدنة الأولى تمركزت قوات الدفاع الإسرائيلية حديثة الولادة برعونة حيثما كانت، وانتشرت إلى مناطق خارج حدود قدرتها العسكرية. ولكن الإسرائيليين أحبطوا الهجمات الأولية، وأمنوا جيوباً هامة داخل حدودها (خصوصاً في المدن) وأصبحوا أفضل استعداداً من خصومهم للاستفادة من الهدنة لتهريب الأسلحة والمتطوعين، وإعادة التنظيم، وأخذ زمام المبادرة، وهو ما فعلوه بمجرد انتهاء الهدنة.

إن تركيبة القدرات الخاصة لبن غوريون على أن يكون طموحاً، والصرامة التي لا تلين، والقرار الذي لا يرحم، والمرونة، تظهر في

قراراته الاستراتيجية المتعلّقة بمدينة القدس. فوفقاً لأحكام قرار الأمم المتحدة رقم (١٨١) الذي أذن بإنشاء الدولة اليهودية، كانت القدس تعتبر كيانا مستقلا تحت نظام دولي خاص، تدار من قبل الأمم المتحدة. ومع سكانها اليهود البالغين نحو ١٠٠،٠٠٠ تقريباً والمقدسات (وأهمها حائط المبكى) فإن للقدس أهمية هائلة عند اليشوف باعتبارها رمزاً ومركزاً سكانياً رئيسياً. على الرغم من أنها لا تبعد إلا ثلاثين ميلاً من السهل الساحلي، فإن المدينة تقع تحت رحمة خط إمداد وحيد، وهو طريق جبلي متعرج تهيمن عليه القرى العربية. قبل استقلال إسرائيل، جاءت القوافل تحمل إمدادات إلى القدس فتعرّضت لإطلاق نار من العرب الفلسطينيين المحليين، الذين قادهم باقتدار الحاج عبد القادر الحسيني. وبمجرد انسحاب القوات البريطانية، أصبحت لا تتوفر أي حماية للقوافل اليهودية.

في بداية الحرب، ركّز بن غوريون اهتمامه على القدس. وفي يناير ١٩٤٨ فكّر في خطة متعدّدة المراحل للمدينة لتنفّذ في وقت يتزامن مع رحيل البريطانيين. وعلى رأسها، عملية لتأمين الطريق من القدس إلى الساحل، وفي ٣١ مارس جاءت هيئة الأركان العامة إلى منزله لمناقشة العديد من الأمور:

- قلت لهم إن هناك سؤالاً ملحاً واحداً في هذه اللحظة. القتال من أجل الطريق إلى القدس، والقوة البشرية التي أعدّها يادين ٤٠٠-٥٠٠ رجل، غير كافية. الآن هذه هي المعركة الحاسمة. إن سقوط القدس اليهودية سيكون ضربة الموت لليشوف، والعرب يعرفون ذلك، وقد ركزوا العديد من القوات لقطع طرق

مواصلاتنا. علينا أن نأخذ جميع القوة البشرية المتاحة لهذا الغرض . ثم ذهبنا على الفور إلى المكتب لتنظيم هذه العملية.

نتيجة لأوامر بن غوريون تم تنظيم أكبر عملية يقوم بها الإسرائيليون حتى وقت متأخر من الحرب وأطلقوا عليها اسم «نخشون»، اسم أول إسرائيلي يغطس في البحر الأحمر في أثناء الخروج من مصر. وهي عملية بحجم لواء، استخدم اليهود في المرة الأولى، ١٥٠٠ جندي من ٣ إلى ٦١ أبري. وشمل قتالها المجازف معركة من أجل قمة التل المعروف باسم القسطل، حيث سقط أفضل قائد للمقاتلين الفلسطينيين، عبد القادر الحسيني. تقدمت ثلاث قوافل كبيرة نحو المدينة، وتم توفير المال الكافي لتمكينها من الاستمرار خلال أول شهر مرير من اندلاع الحرب. والأهم أن الثقة ارتفعت لدى السكان اليهود في القدس في أثناء الحصار العربي اليائس. بالمقابل، لم يستعد القرويون العرب ما يكفي من الروح القتالية للقيام بمحاولة أخرى.

بمجرد أن بدأت الحرب، أصر بن غوريون على أن الدفاع عن القدس يجب أن يأخذ الأسبقية الأولى، حتى بالنسبة للاحتياجات الماسة للمستوطنات الإسرائيلية في الشمال والجنوب، خصوصاً تلك التي كانت تتعرض للهجوم من الجيوش العربية النظامية. وكما يحدث في كثير من الأحيان في الحرب، يكون على ما يبدو للخيارات الطفيفة تداعيات كبيرة. في إحدى المراحل، تباحث بن غوريون مع رئيس قسم عمليات قوات الدفاع الإسرائيلية، يغئال يادين، حول ما إذا كان يجب توجيه المدافع الأربعة القديمة عيار ٦٥ ملم شمالاً إلى الجليل أو إلى

القدس (كما فضّل بن غوريون). يادين، الذي يبدو أنه قد بالغ لاحقاً في تصوّر إرادته ليتحدى الرجل العجوز، وأفاد بأنه أهوى بقبضته على طاولة بن غوريون حتى إن الزجاج تكسر. ويبدو بعد كل ذلك أنهما اصطلحا.

اندلاع الحرب بين الجيوش الدولية، رمى القدس مرة أخرى في أتون التنافس. بمجرد أن بدأت الحرب بين الدول، أحكم حصن شرطة الفيلق العربي في اللطرون قطع الطريق أكثر بكثير مما حصل على يد القرويين. أمر بن غوريون بتكرار الهجمات المكلفة على اللطرون، وهناك كانت بعض أعنف المعارك في الحرب، ولا تزال مثيرة للجدل إلى وقتنا الحاضر. في بعض هذه الهجمات، جاءت إفادة أن موجات من المهاجرين الجدد غير المدربين (لم يكن ذلك دقيقاً كما تبين لاحقاً) تحملوا عبء الهجمات وتكبّدوا خسائر كبيرة دون تحقيق مكاسب تذكر.

في كل الأحوال صدَّ الفيلق العربي المدرب جيداً، بقيادة بريطانية، الهجمات الإسرائيلية على اللطرون في حين حاصرت القوات الأردنية في القدس الحي اليهودي في البلدة القديمة المسوّرة. لجأ بن غوريون إلى الضابط الأمريكي، ميكي ماركوس Miky Marcus، للتعامل مع مشكلة القدس. وكان ماركوس، وهو خريج وست بوينت، قد خدم بامتياز في الحرب العالمية الثانية كمحام للجيش الأمريكي. ورغم أنه كان محامياً فقد كانت له ميول لإيجاد طَريقه إلى خط الجبهة. وتمشياً مع مبدأ التفكير الطموح، جعل منه بن غوريون الضابط العام القائد للجبهة. لم يتمكّن ماركوس من استعادة اللطرون، لكنه، في اليوم السابق لبداية

الهدنة مباشرة، نجح في شق طريق فرعية سمحت للقوافل بنقل الإمدادات إلى القدس وتخفيف الظروف التي تشبه المجاعة هناك.

كانت خطة بن غوريون للسيطرة على القدس إلى حد كبير ناجحة، وإن لم تكن ناجحة بالكامل. فقد صمدت المدينة واستولت القوات اليهودية داخل المدينة على أحياء عربية مهمة. غير أن البلدة القديمة، بما في ذلك جبل المكبّر، قد سقطت في يد الفيلق العربي. ولكن عندما انتهت الهدنة واستؤنفت العمليات الهجومية اليهودية، لم يعد بن غوريون يكرس الجزء الأكبر من جهود قوات الدفاع الإسرائيلية للقدس، بل أصبحت جبهة هادئة نسبياً. فالتفت، بدلاً من ذلك، إلى الاستيلاء على الجليل وتطهير النقب من القوات المصرية.

بدا بن غوريون غير مرن في التفاوض والعمل، لكنه كان في الواقع يعرف متى يكتفي بنصف الرغيف، كما حدث في قبول قرار الأمم المتحدة للتقسيم، ذلك القرار الذي ترك الدولة اليهودية المقترحة تبدو وكأنها ثلاث بقع من الأرض لا يمكن الدفاع عنها ولا تتلامس إلا عند نقطتين فقط. وإذا كان لا بد للدولة اليهودية من أن تكون قادرة على البقاء فإنها بحاجة إلى المساحات الفارغة من صحراء النقب، وشيء من العمق في الشمال كذلك. وعلاوة على ذلك، عرف بن غوريون جيداً أن القدس ستكون مسألة اهتمام دولي. وكان قد بدأ بالفعل يشعر بالضغوط في هذا الشأن من جانب المجتمع الدولي. مثله مثل القادة اليهود الآخرين، ظل يحدوه الأمل بالتوصّل إلى اتفاق براغماتي مع الملك عبد الله الذي كان يكبح مرؤوسيه ذوي الميول الوطنية المتقدة،

كما أنه كان مقتنعاً بالسيطرة على الأماكن الإسلامية المقدّسة في القدس، المتطابقة بالفعل مع الأماكن اليهودية المقدّسة.

لمدة نصف عام، من أغسطس ١٩٤٨ حتى يناير ١٩٤٩، أدار ديفيد بن غوريون حرباً تتميز بنوبات قصيرة من القتال المكثف، ثم تليها هدنة غالباً ما تُنتهك في نصوصها أو في روحها من كلا الجانبين. طوال هذا الشوط الثاني من الحرب المفتوحة بين إسرائيل وجيرانها العرب، نمت قوات الدفاع الإسرائيلية في الحجم والخبرة، والثقة بالنفس. وسمحت هجمات الجيش الإسرائيلي القصيرة والحادة باسترداد جميع الأراضي المخصصة لدولة إسرائيل تقريباً بموجب خطة الأمم المتحدة الأصلية للتقسيم، وكسبت المزيد على حساب جيرانها. وبحلول محادثات الهدنة النهائية في رودس بشهر يناير توغلت القوات الإسرائيلية في شبه جزيرة سيناء، وعزلت القوات المصرية الكبيرة، وكان التفوق واضحا على القوات الأردنية والسورية والعراقية في وسط البلاد وشمالها. قاد بن غوريون المجهود الحربي الإسرائيلي بعناية، مستغلاً انتهاكات العرب للهدنة، ولكنه كان يعرف متى يتوقف عن التمدد بعيداً جداً.

وهكذا، في سبتمبر ١٩٤٨ كان يفكر في أن الهجوم العسكري على الجليل إذا نجح، يمكن أن تكسب إسرائيل جميع أراضي الضفة الغربية جنوب القدس، وربما إعادتها مرة أخرى إلى المدينة القديمة نفسها. هذه الخطوة عارضتها الحكومة، لذلك وضع بن غوريون الاقتراح جانباً على مضض، ورأى أن عدم سيطرة الدولة الناشئة حديثاً على جميع تلال يهوذا حتى نهر الأردن سيكون «مسألة تثير

بكاء الأجيال». ولكن في ضوء عداء بريطانيا العظمى، والدعم الفاتر من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وقلقه الخاص بشأن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، رأى أن من الحصافة عدم الاقدام على ذلك. وفي ٢٧ سبتمبر قال لحكومته :

- نحن لسنا أحراراً في استخدام قوتنا العسكرية. حتى الدول الأقوى من بلادنا ليست حرة تماماً في هذا المضمار. في هذا العالم كل شيء يعتمد على شيء آخر.

ثم تقبّل تماماً الحدود التي فرضتها السياسة الدولية قائلاً :

- نحن قادرون على الفوز في الحرب وضرب أعدائنا وسحق جيوش عبد الله وسوريا والعراق ومصر، وطردهم من الأراضي، لكننا سنخسر المعركة الدبلوماسية إذا وضعنا مصالح اسرائيل فوق رغبة بقية العالم.

في زيارته للجبهة الجنوبية في عام ١٩٤٩، سأل يغئال آلون وإسحق رابين عن كيفية إخضاع منطقة جنوب الخليل. بدأ ألون يشرح بشيء من التفصيل كيف ستجري العملية. فجأة توقف وسأل في عجب: «اسمع يا بن غوريون، هل تريد حقاً أن تحتل هذه المنطقة؟ «كانت هناك ومضة برق في عيون بن غوريون. فأجاب: «ليس من الممكن الآن، ولكن ربما، في يوم من الأيام.»

كان بإمكان بن غوريون أن يأخذ بكل سرور الضفة الغربية من نهر الأردن بأكملها للدولة اليهودية الجديدة، ويحزن لفقدان النصف الشرقي من القدس، لكن الحكمة انتصرت على الطموح.

عداوة الحكومة البريطانية التي عارضت التقسيم ودعمت خصوم إسرائيل العسكريين الأساسيين (مصر والأردن والعراق)، إلى جانب سيل اللاجئين الفلسطينيين الفارّين من القتال إلى البلدان المجاورة، جعل وضع إسرائيل الدولي محفوفاً بالمخاطر. فهو لا يريد ولا يمكن أن يتوقّع دعم الاتحاد السوفياتي باعتباره راعياً لدولته. وليس لدى الولايات المتحدة - على الرغم من أنها من المتعاطفين - الرغبة في مزيد من تنفير العالم العربي، من خلال دعم توسع الدولة اليهودية.

عدم الانضباط هو أكبر عيوب جيشنا

وجد بن غوريون نفسه، مثله مثل العديد من ساسة الحرب، غير منغمس فحسب في مشكلة الاستراتيجية كما تُفهم عادة -التحدي المتمثل في استخدام القوة لتحقيق أهداف سياسية - وإنما هو مضطراً أيضاً لبناء المؤسسات في نفس الوقت. كان باني دولة يتصف بالوعي، وصف فلسفته السياسية بأنها تُعلي مركزية الدولة. كان يدرك تماماً التنوع غير العادي ليهود فلسطين ويهود الشتات الذين أعرب عن أمله في أن يتدفقوا إلى الداخل بعد الاستقلال. لقد كان مصمماً على إنشاء دولة ذات مؤسسات قوية. وبدأ ببساطة بالدعوة لإلزامية استخدام اللغة العبرية، وهي لغة قديمة تطوّرت حديثاً فقط من لغة للصلاة والتعليم الديني إلى لغة للاستخدام اليومي. وكانت إحدى أوامره الأولى باعتباره وزيراً للدفاع، على سبيل المثال، إلزام الضباط باتخاذ أسماء عبرية. كان يفهم جيداً أهمية الرموز في تشكيل دولة جديدة.

الشيء الأكثر إلحاحاً وأهمية بالنسبة لبن غوريون هو إنشاء

منظمة عسكرية من شأنها أن تكون بمثابة أداة محايدة للدولة الإسرائيلية الجديدة. تستجيب فقط لسلطة سياسية وتشكل على أسس عسكرية بحتة، وتمتلك احتكاراً لا جدال فيه، لاستخدام القوة. بعد أسبوع من بداية الهدنة الأولى (بدأت ١١ يونيو واستمرت حتى ٨ أغسطس) كتب بن غوريون في مذكراته :

- من بين جميع أوجه القصور في جيشنا، فان عدم الانضباط هو الأكثر بروزاً، وفوق كل شيء وفي أعلى المستويات.

كتب ذلك بعد اجتماع استمر عشر ساعات مع جميع قادة الألوية في الجيش الإسرائيلي، وفيه سألهم عن كثب عن سير العمليات. وانتقد بن غوريون عدم رغبة القيادة العليا في تكريس جهد غير متحفظ للاستيلاء على اللطرون، وذلك لأهمية توفير خط مواصلات آمن إلى القدس. ولكن مخاوفه لم تشمل إنشاء هيئة أركان عامة متجاوبة فقط ولكن إدماج كل مقاتلي ما قبل الاستقلال والحركات الإرهابية واستيعاب البالماخ اليسارية المستقلة، في قوات الدفاع الإسرائيلية الجديدة.

هذه المعارك السياسية الداخلية، التي دارت في بعض الأحيان في قاعات المؤتمرات وتسرّبت الي خارجها، كانت مريرة مثل أي قرار حول مكان وكيفية نشر القوات العسكرية الإسرائيلية الجديدة القليلة. لا شك أن أسلوب ومزاج بن غوريون الاستبدادي ساهم كثيراً في حدّة بعض قراراته، وأنه ليس من السهل دائماً أن نميز بين مخاوفه كباني دولة ومجرد، إصراره الشخصي على إدارة الأمور حسب رؤيته. مع

ذلك، كانت النتيجة قيام جيش الدفاع الإسرائيلي، كقوة عسكرية تابعة تماماً للدولة الفتية وخاضعة للسلطة السياسية.

ظهر جيش الدفاع الإسرائيلي إلى حيز الوجود يوم ٢٦ مايو عام ١٩٤٨، واستُمدّت قيادته المركزية من الهاغانا والبالماخ. تعهد قادة الوحدتين المتنافستين السريتين ليحي وإتسل بالاندماج في الجيش الإسرائيلي، وتلك مشكلة تافهة نسبياً لليحي التي تضمّ بضع مئات من الناشطين على الأكثر. أما إتسل، التي ربما كانت تضمّ ٣٠٠٠ مسلح، فقد أصبحت وفقاً لاتفاقية مارس ١٩٤٨ جزءاً من جيش الدفاع الإسرائيلي في معظم أنحاء البلاد عند اعلان الاستقلال. وقد خاضت المعارك تحت قيادة الهاغانا في فترة ما قبل الاستقلال مباشرة، باستثناء معركة القدس، حيث كانت قاعدة إسنادها قوية بشكل خاص، وحيث شكّل رجالها جزءاً كبيراً من المدافعين عن المدينة في كتيبة ربما يبلغ تعدادها ٧٠٠ عنصر.

بقيت هناك حساسية شديدة بين إتسل والهاغانا / البالماخ، عندما كانت الهاغانا تساعد في ملاحقة نشطاء إتسل. اتهمت الهاغانا إتسل بمذبحة أبريل ١٩٤٨ للقرويين العرب في دير ياسين خارج القدس، عندما تحوّل هجوم سيئ التخطيط وغير متقن على قرية هامشية في النضال من أجل تأمين الطرق حول المدينة، إلى سفك للدماء. شعرت إتسل بالظلم عندما وُجّه اللوم إليها، بالنظر إلى أن قائد الهاغانا في المدينة قد وافق على الهجوم. علاوة على ذلك، فإن معظم أعضاء إتسل نظروا بعين الشك إلى أيديولوجية البالماخ اليسارية، التي رأت بدورها

أن إتسل مصدر محتمل للتلوث الأيديولوجي في الدولة الجديدة. ووصل الصدام إلى ذروته في حادثة سفينة ألتالينا (ALTALENA).

قامت إتسل، مثل الهاغانا، بعمليات كبيرة لجلب الأسلحة وتشجيع الهجرة غير الشرعية على نطاق واسع في أوروبا مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية. وفي أوائل شهر يونيو ١٩٤٨، كانت سفينة ألتالينا المتجهة إلى إسرائيل من جنوب فرنسا مليئة بالأسلحة (حوالي ٥٠٠٠ بندقية، و٢٥٠ مدفعاً رشاشاً ومدافع هاون، وكميات كبيرة من القذائف والقنابل اليدوية والمتفجّرات شديدة الانفجار) ونحو ٩٠٠ متطوّع من الخارج. اقتربت السفينة من الشاطئ في ١٩ يونيو، بعد ثمانية أيام من بدء الهدنة الأولى. وكانت تحمل كميات كبيرة من الإمدادات والقوة البشرية، ومن الواضح أن القيادة العليا لإتسل كانت تريد تخصيص الكثير، إن لم يكن كل محتويات السفينة لصالح وحدات إتسل، وخاصة في القدس.

أصرّ بن غوريون بدوره على أن توضع السفينة وجميع ما فيها تحت تصرف جيش الدفاع الإسرائيلي. وبعد سلسلة من الاتصالات الفاشلة بين السفينة والشاطئ، وسوء الفهم بين الجانبين حول من سيشرف على تفريغ السفينة، رست السفينة ألتالينا على الشاطئ، أولاً في كفر فيتكين ثم قبالة شاطئ تل أبيب. غادر رجال إتسل وحداتهم للمساعدة في التفريغ، فأمر بن غوريون وحدات البالماخ بقيادة إسحق رابين البالغ من العمر ستة وعشرين سنة بفتح النار على ألتالينا، وكانت النتيجة مقتل ثمانية عشر رجلاً من إتسل، وإصابة عشرة. كان مشهداً مروّعاً يدمي القلب. غير أن زعيم إتسل مناحيم بيغن احتوى

غصبه، وأمر رجاله بعدم الانتقام، واكتمل استيعاب إتسل في الجيش الإسرائيلي بعد ذلك بوقت قصير. وبعبارة مشاكسة أثارت غضب وحنق العديد من الجناح اليميني الإسرائيلي في السنوات التي تلت ألتالينا، أصر بن غوريون أنه عندما يبنى اليهود أخيراً الهيكل الثالث (دمّر الأول في عام ٥٨٦ قبل الميلاد، والثاني في عام ٧٠ م)، فإن: «المدفع المقدس الذي أغرق ألتالينا سيجد مكانه إلى جانب المذبح».

وبالإضافة إلى نهاية موضوع ألتالينا الحزينة، لم تمنع التحديات التي واجهت ديفيد بن غوريون من صناعته لجيش دفاعي موحد ومستجيب سياسياً. فقد شكّلت استمرارية البالماخ شبه المستقلة - في رأيه - تهديداً لصلابة المؤسسات العسكرية للدولة اليهودية. جاءت البالماخ إلى حيز الوجود في عام ١٩٤١ بمثابة وحدات صغيرة دائمة متاحة، لا سيما لعمليات حرب العصابات، وفي الدفاع عن الجالية اليهودية الفلسطينية المهددة بزحف جيش رومل على مصر. وبمرور الوقت أصبحت البالماخ، المستندة إلى حد كبير إلى الكيبوتسات (القوة شبه الوحيدة للحركة الصهيونية). وعندما اندلعت الحرب مع الدول العربية كانت البالماخ تتألف من ثلاثة ألوية (من بين ما مجموعه عشرة ألوية في جيش الدفاع الإسرائيلي)، مع هيكل قيادة منفصل، على الرغم من أن بن غوريون كان ينوي توزيع كتائبها على الألوية النظامية للجيش.

كانت البالماخ بالتأكيد منظمة نمت في الوطن: اشتراكية وغير رسمية، وفخورة بأسلوبها العسكري المستقل، ومتعالية على أسلوب الجيوش النظامية. وكان قادتها من أفضل ضباط جيش الدفاع

الإسرائيلي، وأبرزهم يغئال ألون، القائد العام، وإسحق رابين، قائد لواء هرئيل على جبهة القدس. لقد استخدم بن غوريون البالماخ لقمع إتسل، وها هو الآن يشرع، بطريقة مدروسة إلى حدّ بعيد، في تفكيك البالماخ نفسها !

وكان احتمال نشوب نزاع مع القيادة العليا للبالماخ، وإلى حدّ ما مع الهاغانا بشكل عام، قد ظهر قبل ذلك بكثير. بدءاً من إعفاء بن غوريون لجليلي من منصبه كرئيس للقيادة الوطنية في ٣ مايو عام ١٩٤٨، قبل أقل من أسبوعين من الاستقلال واندلاع الحرب الشاملة. وقد أذعن للاحتجاجات العسكرية، إذ يفضل العسكريون كثيراً العمل مع جليلي، ولكن على الرغم من أن بن غوريون أعاد جليلي بعد ذلك، فإنه وطّد سيطرته من خلال الإصرار على أنه يجب أن يمارس سلطة كاملة كوزير للدفاع، له الحق في إصدار الأوامر مباشرة لهيئة الأركان العامة. وفي ١٢ مايو رضخت حكومة الظل لمطالبه.

غير أن سلطة بن غوريون تعرّضت لهجوم عنيف من خصومه السياسيين وبعض الجهات في الجيش نفسه. فقد أراد بن غوريون خلال الهدنة الأولى، تعيين الضباط ذوي التدريب البريطاني، بما في ذلك مردخاي ماكليف، لتولي الجبهة المركزية الهامة. وقد كان يتطلع أيضاً إلى ضباط من ذوي الخبرة مثل بن دنكلمان (يهودي كندي كان قد خدم بامتياز في الجيش الكندي في أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية) لتولي قيادة اللواء السابع ذي الروح المعنوية الضعيفة، والذي شُكل حديثاً. وأصبح في نهاية المطاف أول تشكيل مدرّع في قوات الدفاع الإسرائيلية. ومثل العديد من الضباط المدرّبين الأجانب، واجه دنكلمان

ارتياباً وحتى استعلاء من الجنود الذين نشئوا في الوطن. وعندما علق دنكلمان على تراخي الأركان في لواء البالماخ الذي التحق به أولاً، تلقى توبيخا حاداً من ضابط الخطط :

- في البالماخ، علينا أن نرى الأرض، نحن لا نخطّط بناء على الخرائط.

وصلت الأمور إلى ذروتها في ٢٤ يونيو عندما رفض بن غوريون خطة يادين لإعادة هيكلة القيادة العليا التي من شأنها أن تضمن سيطرة كبار ضباط البالماخ واليساريين في حزب المابام. في ١ يوليو قدّم يادين وأعضاء هيئة الأركان العامة من المابام استقالاتهم. على الرغم من أن مدى جدية هذه البادرة لا يزال موضع خلاف. في واحدة من الأحداث المدهشة حقاً في الحرب، فإن الحكومة الإسرائيلية الجديدة، في بلد على شفا تجدّد القتال على الجبهة الجنوبية، كوّنت لجنة من خمسة أعضاء هم : وزراء الشؤون الخارجية والعدل والصحة والهجرة والزراعة، وبرئاسة وزير الداخلية إسحق جرينباوم، المسؤول الصهيوني منذ وقت طويل، للتحقيق في مستوى إدارة بن غوريون للحرب. اجتمعت اللجنة في الفترة من ٣ إلى ٦ يوليو لسماع شهادة الجنرالات، بما في ذلك يادين، الذي، على الرغم من أنه أكثر اعتدالا بعض الشيء من غيره، فإنه انتقد تدخّل بن غوريون في تفاصيل الحرب. قال يادين :

- مسائل الحرب تنقسم إلى قسمين، قسم القرارات الاستراتيجية السياسة العليا للحرب، ولكن الجيش لديه قسم

ثانٍ هو العمليات الفعلية.

لا يمكن للمرء أن يطلب تعريفاً أكثر كمالاً من هذا، للنظرية «السائدة» للعلاقات بين المدنيين والعسكريين. وتابع يادين مردّداً مشاعر الجنود على مر العصور:

- قل لي ماذا تريد مني أن أفعل، ولا تقل لي كيف أفعله.

قدم بن غوريون رداً حماسياً. وأشار إلى تسييس الجيش وانتقد الهاغانا والبالماخ بشدّة لتحيزهم ضد الضباط ذوي التدريب البريطاني، ولعدم الانضباط العام. وأعلن أن تدخّله في المسائل التفصيلية نتج عن فشل الجيش في تنفيذ أوامره. وأكد على حقه في الإشراف على جميع جوانب الحرب المترابطة. وعندما أوصت لجنة وزير الداخلية جرينباوم بتقليص صلاحيات بن غوريون عن طريق إدخال مستوى متوسط بين وزير الدفاع ورئيس هيئة الأركان (بعبارة أخرى، استعادة قائد القيادة الوطنية)، واقترحت أن تمر جميع المنازعات بين الطرفين على حكومة الحرب، عرض بن غوريون استقالته. وقبل يوم واحد فقط من نهاية الهدنة الأولى، رضخت الحكومة واحتفظ بن غوريون بسلطته الساحقة.

وقّت بن غوريون حركته ضد البالماخ بعناية. عشية استئناف الأعمال العدائية ضد المصريين في أواخر أكتوبر ١٩٤٨، وحلّ جيش الدفاع الإسرائيلي القيادة العليا للبالماخ مع الحفاظ على وحداتها في تشكيلات بحجم ثلاثة ألوية. كان توقيتاً مختاراً بدهاء: كان يغئال ألون مشغولاً كقائد للجبهة الجنوبية لإسرائيل، حيث نجح في الاستيلاء على

كل صحراء النقب، وأرسل وحدة خاصة للاستيلاء على إيلات، ميناء إسرائيل المستقبلي المطل على البحر الأحمر، والتغلغل في سيناء حتى العريش.

ومع ذلك، احتج أعضاء البالماخ على القرار، ورأوا أن هذا من شأنه أن يؤدي في نهاية المطاف إلى حل البالماخ نفسها. نفى بن غوريون ذلك، إلا أنه قدّم حجة تؤيد هذه التهمة. كتب إلى جرحى البالماخ، متبرئا (بمكر، بطبيعة الحال) من أي نية لتفكيك البالماخ نفسها.

مرة أخرى اختار بن غوريون التوقيت بعناية. في مايو ١٩٤٩ أمر بالاستيعاب النهائي للبالماخ في جيش الدفاع الإسرائيلي بحل كتائب البالماخ الثلاثة. حدثت احتجاجات عالية بكثير من المرارة، وأزاح بن غوريون جانباً ألون الكاريزمي، الذي كان المرشح الطبيعي ليصبح أول رئيس لأركان الجيش الإسرائيلي في زمن السلم، وبدلاً من ذلك لجأ إلى يغئال يادين، عالم الآثار الشاب الزاهد الذي لم يخدم في البالماخ أبداً، كبديل للمريض يعقوب دوري. كان يادين قد اشتكى من بن غوريون بمرارة، لكنه لم ينقلب ضده كما فعل غيره من القادة، وكان محايداً في النزاعات بين مختلف المدارس الفكرية في جيش الدفاع الإسرائيلي الجديد. احتفظ بن غوريون بالقادة الشباب الواعدين، بما في ذلك موشي دايان وإسحق رابين، الذين أصبحا فيما بعد رؤساء أركان. لكنه أوضح نيته تماماً في خلق ثقافة موحّدة لجيش الدفاع الإسرائيلي. كان اختيار يادين موفقاً، فهو منظم ودقيق ويشبه الضباط ذوي التدريب البريطاني الذين يفضّلهم بن غوريون، دون أن يكون واحداً منهم.

يادين يمتلك موهبة كبيرة كمنظم، إن لم يكن قائداً في المعارك. تحليله العسكري الحاد أعجب المراقبين الأجانب، بما في ذلك الصحفي والمؤرخ العسكري البريطاني باسيل ليدل هارت Basil Liddell Hart. ويرجع إلى يادين الفضل في الأساس في تنظيم جيش الدفاع الإسرائيلي كمؤسسة عسكرية بعد النضال من أجل الاستقلال. وكان يقدّر، مع بن غوريون، قواعد الانضباط الرسمي والبنية التحتية للجيش النظامي، ويرى أن ما يفتقر إليه هو شعلة القيادة القتالية المتحمسة التي امتلكها الآخرون وقدموها.

عاملاً من خلال يادين، استعرض بن غوريون الاستراتيجية الإسرائيلية في إطار مجموعة معقدة من المخاطر. منها -اقتراب تدخل الأمم المتحدة لتدويل الجزء الجديد من القدس، الذي يتمسك به الإسرائيليين بشدة؛ والعداء البريطاني الذي بلغ ذروته في الاشتباك الجوي بين الإسرائيليين والقوات الجوية الملكية في سماء سيناء في نهاية الحرب؛ والتعاطف الدولي مع مئات الآلاف من الفلسطينيين الذين نزحوا بسبب القتال. في نهاية الحرب، بعد أن عبّأت إسرائيل قوة عسكرية كبيرة بنجاح، سيطرت على المزيد من الأراضي المخصصة للفلسطينيين أصلا تحت قرار التقسيم، بسبب هروب أعداد كبيرة من السكان العرب الفلسطينيين من أراضيهم. وانبثقت إلى الوجود دولة يهودية معترف بها من قبل القوى الكبرى في العالم، وإذا كانت حدودها طويلة ومكشوفة فإن الأساس الذي تحتاج إليه لتنمو وتزدهر قوي وراسخ.

التحذير النهائي

إسرائيل، على غرار العديد من الدول الديمقراطية، تريد العسكري الذي يرى نفسه، إلى حدّ كبير، خادماً محايداً للدولة الحديثة. لم يكن العسكر دائماً أو كلياً كذلك. ولولا جهود بن غوريون الواعية، لشك المرء إذا كانت ستصبح هكذا في أي وقت. كان يمكن أن تصبح البالماخ بسهولة، أو تحاول أن تصبح، الحرس الإمبراطوري لأيديولوجية الدولة الاشتراكية.

في الواقع، لم تكن الرتب الكبيرة في الجيش الإسرائيلي أبداً في مأمن تماماً عن السياسة، ولا يمكن إلا أن تكون حزبية، حيث الجنرالات الذين تقاعدوا والشباب، ينتقلون مباشرة إلى السياسة في كثير من الأحيان. ومع ذلك، فإن بصمة بن غوريون على الجيش الإسرائيلي جعلت منه قوة مهنية بلا حدود وقوة لا سياسية أكثر مما في أي دولة عربية عدا الأردن، مع الفوائد المقابلة لذلك من حيث الفعالية العسكرية.

كان بن غوريون أبو الجيش الإسرائيلي بطرق أخرى. ولا يزال حتى يومنا هذا، الشخصية المؤسسة المبجلة في الجيش، وأكثر من ذلك في المجتمع ككل. إذ من المعروف أن أعضاء القيادة العليا لجيش الدفاع الإسرائيلي يقضون يوماً دراسياً يجمعون كتاباته، ويتأملون في إرثه ومعناه، يفعلون هذا بشكل دوري. طوال فترة تقاعده، كان الجنرالات يأتون إلى الرجل العجوز للتشاور، وأحياناً بنتائج مخيفة. في مايو ١٩٦٧ عندما عيّن رابين رئيساً للأركان جاء للتحدث معه في «سدي بوكير»

عن احتمال وشيك للحرب، لوَّح بن غوريون بخطورة إقدام إسرائيل على صراع دون حليف دولي واحد على الأقل. اهتزت أعصاب رابين المرهقة أصلاً من القلق وفترات النوم القصيرة، وتناول جرعة زائدة من السجائر وبدأ ينفخ دون توقف، منهاراً تقريباً. ولكن رجل الدولة العجوز يعرف أفضل من غيره معظم الأخطار المتأصلة في الحرب.

من ناحية العمليات، تبيّن أن الصراع كان أفضل مما كان يمكن أن يتوقّعه أحد، ولكن نذر الشؤم بشأن عواقب حرب تحقّق فيها نصر مناسب -على وجه الخصوص، مشكلة ما يجب القيام به مع العدد الكبير من السكان الفلسطينيين المعادين – كانت عواقب صحيحة أكثر مما يمكن أن يتوقّعه أحد. بن غوريون، مثل غيره من ساسة الحرب الكبار، جمع بين عاطفة الجنود الدافئة وعدم الثقة في البيروقراطية العسكرية:

- إن جوهر وجود الجيش ليس ديمقراطياً، وليس إنسانياً، وليس صهيونياً، وليس اشتراكياً، لأن الجيش موجود للقتل والدمار. ولكن ليس هناك مفر من كون أعداءنا يرغبون في إبادتنا، وفقط من خلال القوة العسكرية يمكننا أن ندمر إرادة العدو وقدرته على إلحاق الأذى بنا.

هذه الكلمات تأتي في واحدة من خطبه الأكثر إثارة للاهتمام. ألقيت في ١٩ يونيو ١٩٤٨، بعنوان (من الهاغانا تحت الأرض إلى جيش نظامي) لترسم بعض الملامح الرئيسية للفكر العسكري. كما أنها شملت، أيضا، المشورة العسكرية:

- في المسائل العسكرية، كما هو الحال في جميع المسائل الأخرى الجوهرية، الخبراء العارفون في التقنية لا يتخذون القرار، مع أن نصحهم وإرشادهم حيوي. بدلاً من ذلك ثمة حاجة ضرورية إلى عقل منفتح وحس سليم. وهذه الصفات يمتلكها، إلى حدّ ما، أي رجل عادي.

ومن مقولات بن غوريون :

- لا توجد قضايا عامة في الحرب، وإنما تفاصيل فقط.

وإذا كانت له عيوب فهي أنه فشل في إنشاء المؤسسات التي يمكن أن تحافظ على نوع من الرقابة المدنية، تلك التي مارسها شخصياً باعتباره رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع. تلك الأدوار التي جمع بينها طوال حياته السياسية. كان لديه تلامذة لامعون مثل شمعون بيريز، الذي وضعه في وزارة الدفاع، لكن سرعان ما مارس الجنرالات المتقاعدون، لا السياسيون الحقيقيون، السيطرة الحقيقية على إدارة الشؤون العسكرية في إسرائيل.

إن سرية بن غوريون الفطرية، وهي ناتجة عن سنوات من العمل شبه السري السياسي والثقافة السياسية الاشتراكية في أوروبا الشرقية، وضرورة توفر الأمن لدولة صغيرة ومهددة، أعاقت تدقيق المدنيين من بعده، في المؤسسات العسكرية الإسرائيلية، مثل لجنتي الدفاع والشؤون الخارجية في الكنيست. وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، محتجاً بأن بن غوريون كان مسؤولا عن نوع من العبادة الوثنية للجيش الإسرائيلي، حالت دون اكتشاف نقاط الضعف الحقيقية فيه

حتى عام ١٩٧٣ و١٩٨٢، وولّدت نوعاً من العسكرة للسياسة الخارجية الإسرائيلية.

ربما تكون هذه الانتقادات مستحقة، لكنها تذهب بعيداً جداً. فقد كانت له مأثرة إقامة دولة مستقلة بشكل لا يصدق تحت الظروف السياسية والعسكرية في سنتي ١٩٤٨-١٩٤٩ إنجازاً مدهشاً. قام بذلك بينما كان يغرس أسس الحياد السياسي والاحتراف في الجيش من الفصائل المتباينة التي تتألف من المجندين من كل ركن من أركان الأرض.

عقد بن غوريون ندوة أخرى. ففي عام ١٩٥٣ ابتعد مرة أخرى عن المسؤوليات العامة وبدأ التدقيق بعناية في السياسة الدفاعية الإسرائيلية. من نهاية أغسطس وحتى منتصف أكتوبر سبعة أسابيع، قرّر أن يبدأ من جديد: «كما لو لم أنني لا أعرف شيئاً، تماما كما فعلت في عام ١٩٤٦». مرة أخرى أجرى مقابلات مع القادة، وقرأ على نطاق واسع، وتمعن في تقديرات الاستخبارات.

هذه المرة كانت استنتاجاته مختلفة جداً. رأى أن ثمة فرصة سانحة لإسرائيل من غير المرجّح أن تُستأنف فيها الحرب على نطاق واسع. وأشار أيضا إلى أن الأنظمة العربية التقليدية، التي يعتقد يهود فلسطين أنهم فهموها، وكانت لديهم معها اتصالات منذ فترة طويلة، تمت إزاحتها من قبل أنظمة أكثر قومية وراديكالية متطرّفة جداً وغير قابلة للتفاوض أو عقد صفقات ضمنية. ولأنه توقّع فترة طويلة من

العداء للدولة اليهودية، بدأ في بناء استراتيجية جديدة، تستند إلى ثلاث ركائز: ١- التحالف الأجنبي (مع فرنسا).

٢- اقتناء الأسلحة النووية.

٣- التأجيل المؤقت للإنفاق العسكري على نطاق واسع لصالح استيعاب مئات الآلاف من المهاجرين اليهود القادمين من الأراضي العربية.

كان ذلك عملاً استراتيجياً آخر ينمّ عن بعد البصيرة، وهو ما لم تقبل به المؤسسة العسكرية الإسرائيلية مرة أخرى. علاوة على ذلك، كان لبن غوريون العديد من الصفات الرائعة كرجل دولة عسكري، ليس أقلها إدراكه متى يتوقف. ومثل هذه الصفات في رجل عنيد، ومتصلب، وغضوب، لا بد أن تكون مدعاة للإعجاب. في زمنه كان من الممكن أن يستولى الجيش الإسرائيلي على الكثير من الضفة الغربية لنهر الأردن، إن لم يكن كلها، أو أجزاء من سيناء، لكن بن غوريون كان من صنف الرجال الذين قال عنهم كلاوزفيتز:

- عندما تبلغ نقطة الانتصار ذروتها، فإن التقدم نقطة تالية قد يؤدي إلى الفشل.

ولكن الأكثر أهمية من كل ذلك، كان توفر الاستعداد والقدرة على التفكير في كل شيء من جديد. كان ذلك في الواقع أهم رسالة خطها لجيش الدفاع الإسرائيلي. في صيف عام ١٩٥٠، بعد مرور أقل من عامين على الحرب، كتب مقدمة لمجموعة من الخطب التي نشرتها دار نشر الجيش الإسرائيلي. واختتمها بهذه الكلمات :

- العدو الأكثر خطراً على أمن إسرائيل هو الجمود الفكري عند أولئك المسؤولين عن الأمن. هذه الفكرة البسيطة والأساسية قادتني من اليوم الذي قبلت فيه في المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين تحمل المسؤولية عن أمن يهود فلسطين. هذه الفكرة البسيطة والأساسية حاولت أن أغرسها في كل من الرفاق الذين عملوا معي في المسائل الأمنية قبل الحرب وفي أثناء الحرب، وبعدها.

هذه «الحقيقة البسيطة والأساسية»، كما أسماها، لا تزال قائمة بمثابة إنذار لجيش الدفاع الإسرائيلي. في الحقيقة، هي إنذار لجميع المنظمات العسكرية القائمة اليوم.

الفصل السادس

قيادة بلا عبقرية

التطلعات العريضة

كان لكل من لنكولن وكليمنصو وتشرشل وبن غوريون، رصيداً من الأخطاء. ذلك أن كلاً منهم كان يصدر عنه، من وقت لآخر ما يشير إلى أنه قد أساء الحكم على خصومه، أو تسامح مع عناصر تفتقر للأهلية، أو عاقب غير المحظوظ، أو تجاهل الوقائع السيئة وخاف شيئاً، يُعَدّ من الأوهام. وقد ساند كل منهم رؤى واستراتيجيات معيبة أو أصدر أحكاماً بالغة القسوة. ولو أن جنرالاتهم كانوا مجرّد دمى يحرّكونها ويستسلمون بخنوع لآرائهم، فإن كوارث محققة كانت ستحل بهم وبأوطانهم. وتكمن عبقرية كل واحد منهم، وبشكل أساسي، في قدرته على تقبل الرأي الآخر، بل وأكثر من ذلك في قدرته على التراجع عن قراراته غير الصائبة، أو العمل ببساطة على تغييرها.

مع ذلك، ومع أنهم في هذه الجوانب أشبه بالسياسيين العاديين من حيث النوع لا الدرجة، إلا أنهم يبرزون كرجال دولة فاعلين - يستفسرون، ويحثّون، ويقدّمون الاقتراحات، ويفصلون في النزاعات،

وفي حالات نادرة يصدرون أوامر لمرؤوسيهم المهنيين. وليس من بينهم من اعتمد حصرياً على النظرية «السائدة» للعلاقات بين المدنيين والعسكريين، فقد أتاحوا للقادة العسكريين هامشاً كبيراً من الاستقلالية المهنية لا يتدخلون فيه، وجميعهم أربكوا جنرالاتهم كثيراً، مثيرين بذلك مزيجاً غريباً من الحنق أو الحماسة. وبالرغم من رفضهم لفكرة التوزيع الواضح الدقيق للمسؤولية بين السياسيين والجنرالات، فإننا بوجه عام نرى أنهم حققوا نجاحات باهرة.

مما لا ريب فيه، أن الطريقة التي نحكم بها على كفاءة رجل الدولة (والجنرال أيضاً) تستفز مشكلة تحليلية مثيرة للاهتمام. ذلك أنه في تسيير الأمور يجب أن يتم البحث عن معيار يختلف عن معيار اليقين الحسابي أو الدقّة العلمية. فجميع رجال الدولة المذكورين أخفقوا في بعض الجوانب، وكذلك فعل مرؤوسوهم، وحلفاؤهم وخصومهم. فما هي المعايير التي يجب أن يتم اللجوء إليها للحكم على جودة رجل الدولة في زمن الحرب؟

بالرغم من أن النجاح النهائي، هو أحد أهم الاختبارات، إلا أنه ليس الوحيد. كما أنه ليس من المسلمات بالنسبة للأمراء ورجال الدولة والقادة أنهم يدركون خفايا المستقبل، فحتى أكثر وجهات النظر الثاقبة، لا يمكنها أن تتوصل إلى ما يُجاوز الاستنتاجات - وإن كانت مبررة في لحظة معينة - إلا أنها حتماً ستكون قابلة للدحض بمرور الوقت. ومع ذلك، في كل من الحالات المذكورة، ليس هناك شك في أن نتائج هذه الصراعات – المحافظة على الاتحاد الأمريكي والقضاء على عبودية الأفارقة الأمريكيين، وهزيمة المحاولتين الأولى والثانية

لإقامة الإمبراطورية الألمانية الأوروبية، وإعادة ميلاد دولة يهودية بعد ما يقارب ألفي عام من حالة اللا دولة - هي إنجازات الرموز الأربعة الذين تم تناولهم هنا. الفروق في هذه الحالات جرت موازنتها بدقة، ذلك أن القيادة كانت قادرة وقد عملت بالفعل على إحداث هذا الفرق. وباستبعاد أي قائد من هؤلاء من سجل التاريخ، يمكن أن يتصور المرء بسهولة نتيجة مختلفة جداً لصراع كل واحد منهم.

ولكن ما هي الدروس التي يمكن استخلاصها من إنجازات رجال يمثلون بكل المعايير قيادات استثنائية؟ هل يمكن لرجال دولة من مستوى أقل أن يتطلعوا للقيام بمثل ما قام به هؤلاء الرجال؟ هل يمكن لأي أحد ألا يقول إن هؤلاء الرجال أفذاذ، وأن أساليب قيادتهم : أعلى من قدرات السياسي العادي في نزاع عادي أو استثنائي؟ حتى إذا سلمنا بأنهم نجحوا في مهامهم من خلال متابعة أدق التفاصيل، فهل لنا أن نقول إنهم نجحوا على الرغم من هذا السلوك، لأن العبقرية لا تعترف بالقواعد؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، علينا أن نرى ما يحدث عندما يكون أسلوب قيادة الحرب قريباً من النظرية السائدة للعلاقات بين المدنيين والعسكريين. تلك النظرية التي يعمل السياسيون من خلالها على الاحتفاظ بعلاقة أكثر بعداً عن جنرالاتهم ويمتنعون عن الدخول في نوع من الاستجواب الفاعل والمزعج لقادتهم العسكريين بشأن المسائل العسكرية، وهو الأسلوب الذي ميّز هؤلاء الأربعة. لدينا أكثر مما يكفي من الحالات المعاصرة يمكن أن يتم من خلالها اختبار هذه النظرية. لندرس الآن الحالة الأكثر أهمية، تحديداً : حالة الولايات المتحدة

الأمريكية، التي ظلت منذ سنة ١٩٦٥ حتى نهاية القرن تشن حروباً على أساس النظرية السائدة في العلاقات بين المدنيين والعسكريين.

فرضيات فضفاضة وأسئلة محبوسة وتحليلات سطحية

كلفت الحرب الفيتنامية أرواح ما يقارب ٦٠،٠٠٠ شاب أمريكي، وتركت أعداداً كبيرة أخرى من ذوي العاهات المستديمة، ومزقت النسيج الاجتماعي الأمريكي على مدى جيل كامل. وما زال إرث المرارة والارتياب الناجم عن هذه الحرب قائماً في أمريكا إلى اليوم، حتى بعد ما بلغ جيل الشبان الصغار، الذين تأثرت حياتهم أكثر من غيرهم بهذه الحرب، مرحلة النضج وما بعدها.

ربما يتعجب الناس من القول بأن الولايات المتحدة حاربت في فيتنام مستخدمة النظرية السائدة للعلاقات بين المدنيين والعسكريين. ولعل من موروثات الحرب، الاعتقاد السائد على نطاق واسع بأن الولايات المتحدة أخفقت في تحقيق الانتصار لأن القادة المدنيين «جعلوا الجيش يقاتل بيد مغلولة». وأن مفتاح النجاح في المستقبل هو أن يتم إطلاق يد القوات المسلحة لأداء مهامها على أكمل وجه. هذا التشخيص الذي يبدو في أحسن أحواله، مفتقراً إلى عناصر أساسية وفي أسوأ الأحوال خاطئاً، ظل يؤثر على العلاقات الأمريكية بين المدنيين والعسكريين إلى يومنا هذا.

الرواية المعيارية حول الصراع في فيتنام تعاملت مع الوضع

كنموذج أساسي لتدخّل وتحكم المدنيين في إدارة العمليات العسكرية، مما ترتب عليه نتائج كارثية. ولكن هل كان الأمر كذلك في الواقع؟ وهل استطاع رئيس مناور ومتأمّر، ليندون بينز جونسون Lyndon Baines Johnson، ووزير دفاع متغطرس وضيق الصدر، روبرت سترينج ماكنمارا Robert Strange McNamara، أن يتعاملا مع القادة العسكريين كما كان يفعل تشرشل أو لنكولن؟ أم أن افتقارهما إلى عبقرية الاثنين أسهم في إفراز كارثة فيتنام؟

إن الادعاء بأن جونسون وماكنمارا مارسا سيطرة لصيقة على بعض عناصر الحرب، صحيح دون شك. وفيما أصبح يعرف لدى جيل من القادة المدنيين والعسكريين كأنموذج للمغالاة الصريحة في استخدام الصلاحيات من قبل قائد عام مدني. قام جونسون بالطبع بمراجعة قوائم الأهداف التي يتعيّن ضربها من قبل الطائرات الأمريكية في هانوي وهايفونغ، بما يفرض قيوداً على عدد الطلعات، ويحدّد في بعض الحالات، قواعد الاشتباك. تلك الوقائع تركت بصماتها على العلاقات الأمريكية بين المدنيين والعسكريين، وتستحق بذلك فحصاً دقيقاً. هل نحن أمام نموذج من الحوار غير المتكافئ بين سياسي مرتاب، يفتقر إلى حكمة رجل الدولة الحقيقي، رجل عاجز عن التوظيف السليم للوسائل التي كان يمكن استخدامها بقدر أكبر من النجاح؟

لننظر في المثال الأول للسيطرة المدنية المفرطة، وهو تدخّل جونسون في اختيار أهداف القصف الجوي! إن بعض الدراسات الأكثر دقة للحرب في فيتنام أوضحت أن جونسون وافق على معظم الأهداف

المقدمة من قبل رئيس هيئة الأركان المشتركة. مما لا شك فيه أن عملية الموافقة كانت تعني حملة جوية منظمة أكثر من كونها صدمة مفاجئة، كما أنها أساسية بالنسبة للقوة الجوية الموجهة ضد اقتصاد وطني وكيان سياسي. ولا شك أيضاً في أن استبعاد مناطق معينة من القصف أدى الى انخفاض حادّ لفعالية الحرب الجوية الأمريكية كوسيلة لإحداث ضغط على حكومة شمال فيتنام وقطع الإمدادات القادمة منها لهانوي والمناطق الجنوبية.

إلا أن هناك اثنين من المعطيات المبرّرة لهذا السلوك. أولاً : والأكثر أهمية أن جونسون ومستشاريه، كانت لديهم مخاوف ويسعون إلى تجنب إطالة أمد الحرب بعد أن يتدخل الصينيون فيها. وحسبما نعلم الآن، إن هذا الخوف كان له أساس، ذلك أن الصين في الواقع كما أعْلِن لاحقاً أرسلت ما يزيد على ٣٠٠،٠٠٠ من المقاتلين إلى فيتنام، وفقدت ما يزيد على ألف قتيل في الحرب. في ذات الوقت أيضاً، يجب أن نتذكر أن الحرب الكورية وقعت قبل أقل من خمس عشر سنة، وأن أزمة الصواريخ الكوبية حدثت قبل أقل من خمس سنوات. وقد تعلم صانعو القرار الأمريكيين من كلا الحدَثين أن التهديد بالتصعيد من قبل القوى الشيوعية الكبرى، تهديد حقيقي. وعلى ما يبدو فإن كوريا قدّمت درساً بأن التوغّل في الضغط - كما فعل الأمريكيون عندما تقدموا نحو نهر يالو - سيؤدي بالتأكيد إلى توسيع نطاق الحرب، في حين أن فرض قيود على استخدام القوة العسكرية (مثل الامتناع عن استهداف المنشآت الصينية والسوفياتية المساندة للوحدات الشيوعية في كوريا) يمكن أن يؤدي إلى حصر نطاق الحرب.

أما أزمة الصواريخ الكوبية فقد برزت فيها مهارة الحدّ من استخدام القوة، بينما أكدت على أن الإلحاح على استخدام العنف الواسع في بعض الدوائر العسكرية، يتطلب كبحاً من قبل المدنيين. قد يقيّد المؤرخون الآن تلك التفسيرات لما جرى ما بين (١٩٥٠ - ١٩٥٣) وفي عام ١٩٦٢ أو قد يعترضون عليها، إلا أن الدروس في ذلك الوقت كانت تبدو في مجملها واضحة.

في الأعوام (١٩٦٤-١٩٦٧) كانت للقادة الأمريكيين من مدنيين وعسكريين رؤية مشتركة بأن منطقة الهند /الصينية ليست المكان المناسب لإقحام القوات الأمريكية مرة أخرى في حرب آسيوية طويلة الأمد ضد كتلة صينية/سوفياتية ، صلبة. ذلك أن السياسيين ببساطة يشاطرون مستشاريهم العسكريين في الاعتقاد بفرضية أن الشيوعية تمثل جبهة متحدة ضد الغرب، وقد أثّر ذلك في فهمهم لنوع القوة التي يمكنهم استخدامها. خوفاً من أن تؤدي بعض القنابل الخاطئة إلى أزمة عالمية، وأملاً في احتواء حرب تحسم نتيجتها في فيتنام الجنوبية، فقد كانت لجونسون أسبابه في تقييد القصف الأمريكي. بعد الحرب، كتب أحد الجنرالات في سلاح الجو الأمريكي، وقد كان قائداً للقوة الجوية السابعة في فيتنام، أنه استاء كثيراً من حظر الهجمات على المطارات الفيتنامية الشمالية، ومواقع الصواريخ : أرض جو (سام) والمدفعية المضادّة للطائرات، وأهداف أخرى. عناصر القوات الجوية كانوا مضطرين لإعلان الاستياء من هذه القيود. إلا أن القيود الذاتية ظلت حقيقة في كافة النزاعات الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية،

وواضح أننا نأمل في عصر الأسلحة النووية والنووية الحرارية، أن تمارس كافة القوى الكبرى بعض القيود في كافة النزاعات المستقبلية.

عندما أخطأت قنبلة هدفها وأصابت السفارة الصينية في بلغراد، بعد ربع قرن من الزمن، تحت ظل ظروف عالمية أكثر اعتدالاً - في إطار حرب بعيدة جداً عن بيجنغ وهامشية من حيث مصالحها -اضطربت علاقات الصين بالولايات المتحدة لفترة تزيد على عام وساءت لفترة أطول. ومع إدراك هذه الحقيقة، فإن المرء يميل إلى منح جونسون مزيداً من مبدأ الاستفادة من الشكّ (the benefit of the doubt).

مما لا شك فيه أن الجانب الثاني من القصف المدار مركزياً على فيتنام - تطبيق العنف المنظّم - نتج عن نظرية الإشارة الاستراتيجية والتصعيد المتدرّج التي ثبت خطأها الفادح. إلا أن القيادة الشيوعية في هانوي كانت على درجة كبيرة من العزيمة، وحازمة جداً، ومستعدّة جداً لتقبّل التضحيات فلم تخضع للضغط المتدرّج - أو الإشارات (الدبلوماسية) التي نقلتها القنابل المنهمرة على محطات الطاقة أو المنشآت الرادارية. انطلق جونسون وماكنمارا من مفهوم استراتيجي خاطئ «نظرية الانتصار» التي تعتمد على فهم مغلوط للخصم، ومن ثم لمجتمعهم. وبالتالي فإن الخلاف لم يعد يتعلق بطريقة ممارستهما للسيطرة المدنية، بقدر ما يتعلّق بالخلاف حول تفكيرهما الاستراتيجي.

ان النقد الموجّه ضد أسلوبهما في القيادة المدنية سيكون أقوى بكثير، إذا أثبتنا أن مستشاري جونسون العسكريين كانت لديهم فكرة

أفضل حول كيفية إدارة الحرب. الذي نعرفه أنهم أيّدوا الحرب. ونعرف أيضاً أنهم فضلوا شنّها بمزيد من العنف. إلا أننا نبحث بلا جدوى عن دليل ينفي النفي ويدل على وجود أي تصور استراتيجي سوى مزيد من القصف المكثّف أو إرسال المزيد من المقاتلين إلى جبهة القتال. انظر على سبيل المثال في المداولات التالية بين الرئيس ورئيس هيئة أركان العمليات البحرية الأدميرال ماكدونالد D. L. McDonald في أثناء أحد الاجتماعات الهامة بالبيت الأبيض في ٢٢ يوليو ١٩٦٥ :

الأدميرال ماكدونالد :

- إرسال المارينز أدى إلى تحسين الوضع. إنني اتفق مع ماكنمارا بأننا لا يمكن أن ننسحب. إذا واصلنا المسير في الطريق الذي ننتهجه الآن سيكون النصر حليف العدو. أما إرسال المزيد من المقاتلين، فإنه سيقلب الموجة ويتيح لنا تحقيق ما نصبو اليه. وددت لو أننا قمنا بهذا منذ وقت طويل.

الرئيس :

- لكنك لا تدري إذا كان ١٠٠،٠٠٠ مقاتل سيكفون. ما الذي يجعلك تستنتج أن هذا هو المطلوب؟

الأدميرال ماكدونالد :

- عاجلاً أو آجلاً سنضطرهم للجلوس إلى مائدة التفاوض.

الرئيس :

- ولكن إذا أضفنا ١٠٠،٠٠٠ مقاتل ألا يمكن أن يضيفوا عدداً مماثلاً، وحينها كيف سيكون وضعنا؟

الأدميرال ماكدونالد :

- إذا كثفنا من القصف سوف ...

الرئيس :

- أهذه مغامرة نريد أن نخوضها؟

الأدميرال ماكدونالد :

- نعم سيدي. أمامنا خياران: الانسحاب الآن أو إضافة مزيد من المقاتلين.

الرئيس :

- هل هذا كل ما لديك؟

الأدميرال ماكدونالد :

- حسناً، أعتقد أن حلفاءنا سيفقدون الثقة بنا.

الرئيس :

- في الواقع ليس لدينا الكثير من الحلفاء الذين يعملون على مساعدتنا الآن.

الأدميرال ماكدونالد :

- هناك تايلند على سبيل المثال. إذا انسحبنا من فيتنام، كل العالم سيشكك في مصداقيتنا. لا يوجد خيارات.

إن قراراً على درجة كبيرة من الأهمية - حول إمكانية الدخول في حرب واسعة في فيتنام - تم اتخاذه من قبل العسكريين بموجب أحكام استراتيجية تفتقر إلى الدقة. وكما أشار ماكماستر H. R. McMaster :

- إن عدم تمكن رؤساء هيئة الأركان من صياغة مقترح محدد بعد تقييم الوضع، ترك مبادرة التخطيط لأنصار الضغط التدريجي.

لنأخذ مثالاً آخر، حسب رواية أحد المساعدين المشاركين في الاجتماع المنعقد في نوفمبر ١٩٦٥ بين الرئيس جونسون ورؤساء هيئة الأركان المشتركة، وهو اجتماع اتسم بانفجار عنيف في المزاج الرئاسي. ذلك أن رؤساء هيئة الأركان توصلوا إلى استنتاج سياسي مخالف لرؤى رؤسائهم من المدنيين، على الرغم من عدم وجود دليل يدعمه :

- قرروا بالإجماع بأن مخاطر ردود الفعل العنيفة من الجانب الصيني أو السوفياتي على التدابير الأمريكية الواسعة المتخذة في فيتنام الشمالية ستكون منخفضة على نحو مقبول، شريطة أن نتصرف الآن. إلا أن آراءهم وتقديراتهم لم يؤخذ بها في البنتاجون بحكم العادة، على الأقل من قبل من يعملون بالفعل على توجيه الاستراتيجية العسكرية وتحديداً ماكنمارا وزمرته من «المدنيين المبدعين».

إن هذا الحكم يعكس الجوانب الغريزية في رؤساء هيئة الأركان، ولا يعكس مهاراتهم المكتسبة في مجال السياسة الدولية. وليس هناك

ما يشير إلى أن فهمهم لعقلية الصديق أو العدو أفضل من فهم القيادة المدنية، أو أن لديهم أي فكرة عن إنهاء الحرب طبقاً لشروط مناسبة للدبلوماسية الأمريكية ومقبولة لدى الجمهور الأمريكي. كما أن بعض مفاهيم الحرب الجوية المبكّرة (على سبيل المثال، برنامج القصف المكثّف لأهداف صناعية في فيتنام الشمالية) تعكس التطبيق غير المتبصر لتكتيكات الحرب العالمية الثانية على عدو مختلف جذرياً. والمفهوم الأساسي للحرب البرية - استنزاف يستهدف تدمير قدرة العدو- كما يبدو كان مستحيل التطبيق. أخيراً ترك ماكنمارا منصبه كوزير دفاع منهك ومثير للجدل في ١٩٦٨. وخلفه كلارك كليفورد Clark Clifford الذي لخّص حواراته مع رؤساء هيئة الأركان المشتركة في مارس من نفس العام على النحو التالي :

- كم الوقت المطلوب لتحقيق النجاح في فيتنام؟ ليس لديهم علم ! ما هو عديد القوات الإضافية اللازمة لذلك؟ لا يستطيعون تحديدها ! هل الإجابة مائتي ألف؟ ليسوا متأكدين ! هل سيحتاجون إلى عدد أكبر؟ نعم، ربما يحتاجون إلى المزيد ! هل يمكن للعدو أن ينمو بالمقابل؟ ربما ! وعليه، إذاً فما خطتكم لكسب الحرب؟ الخطة الوحيدة هي الاستنزاف الذي سيؤدي إلى تمزيق الشيوعيين الذين يفترض أن يكونوا قد واجهوا ما يكفي من التدمير ! هل هناك أي مؤشر بأننا وصلنا إلى تلك النقطة؟ لا !

وهكذا فإن انتقاد الجيش الأمريكي بناء على «عدم قدرته على الصمود أمام القيادة المدنية» وهو موضوع يتكرّر ذكره في الكتابة العسكرية الأمريكية عن الحرب، يخطئ هدفه بدرجة كبيرة. ذلك أنه ليست لديهم حجة يستخدمونها، وليس لديهم بديل يقدمونه، ولا يوجد قرار عملي يتم تطبيقه في أثناء الحرب. وبطبيعة الحال، بعد عقود من هزيمة فيتنام ما زال العسكريون يتجادلون حول إذا ما كان في وسع الولايات المتحدة أن تربح تلك الحرب، وما هي الاستراتيجية التي كانت مناسبة حينذاك؟ هل هي حاجز أو خط تقليدي مزود بالرجال والدعم، يمتد من البحر إلى الحدود التايلندية لمنع التسلل من الشمال للجنوب؟ أم حملة شعواء مضادة للتمرّد؟ أم قصف جوي كثيف منذ البداية؟ وكما هو الحال دائماً، اختلف المهنيون وما زالوا مختلفين حول المسائل الأساسية.

الواقع أن تصرف جونسون وماكنمارا في الحرب الفيتنامية كان مختلفاً عن الطرق المتبعة من قبل لنكولن أو كليمنصو أو تشرشل أو بن غوريون لإدارة الحروب. فبعد القرارات الأولى لدخول الحرب، أحجمت القيادة المدنية الأمريكية عن الإفصاح عن طبيعة المناقشات المضنية التي دارت مع مستشاريها العسكريين. ذلك أنه حتى أكتوبر ١٩٦٧ لم يتمكن رئيس هيئة الأركان المشتركة من حضور غداء الثلاثاء الذي يجتمع فيه الرئيس مع كل من وزير الخارجية ووزير الدفاع ومستشار الأمن القومي وسكرتير الرئيس للإعلام بغرض التداول حول فيتنام.

وطوال فترة تصعيد التدخل في فيتنام لم يكن هناك تقييم سياسي عسكري شامل للاستراتيجية الأمريكية. وبدت توصيات هيئة

الأركان باستخدام جميع الوسائل والموارد غير ملائمة البتة لطبيعة العدوّ والظروف السياسية الدولية بحيث قرّر القادة المدنيون خوض الحرب على طريقتهم من دون التشاور مع مستشاريهم العسكريين! وفي مستوى معين يمكن القول إن هيئة الأركان المشتركة اعتبرت القيود السياسية التي يمارسها القادة المدنيون الأمريكيون غير مناسبة ولا يمكن قبولها ولا العمل في إطارها!

ومما لا شك فيه أن اللوم فيما يتعلق بعدم فعالية هيئة الأركان المشتركة يقع بقدر كبير على عاتق الإدارة التي تختار كبار قادتها العسكريين على أساس الخبرة والحنكة والمرونة السياسية. والواقع يقول إن التراتب العسكري جلب إلى قمة الهرم جنرالات مثل ماكسويل تايلور Maxwell Taylor وإيرل ويلر Earle Wheeler، اللذين كانا قريبين جداً من القيادة المدنية ولم يقدّما لها بدائل حقيقية، ولم يكونا راغبَين جداً في الإجماع، ولم يعرضا خيارات صعبة للاختيار منها. وعن ذلك كتب أحد دارسي الحرب أن تايلور كرئيس لهيئة الأركان المشتركة كان يزكي لهذه المناصب كبار الضباط ممن هم «أقل نزعة من سلفهم في تحدي التوجيهات الصادرة من القيادات المدنية».

إلا أن القيادة المدنية، على أي حال - خلافاً للقادة الأربعة الذين دار النقاش حولهم هنا - لم تحاول فرض نقاش المشكلة الاستراتيجية لحرب فيتنام. ولذلك، في مؤتمر غوام المنعقد في يومي ٢٠ و٢١ مارس ١٩٦٧ عندما التقت القيادات الأمريكية الأساسية بما في ذلك الرئيس مع نظرائهم الفيتناميين والجنرال ويليام وستمورلند William Westmoreland، القائد الأمريكي في فيتنام الجنوبية، لم

يكن هناك سوى قدر محدود من النقاش التفصيلي لإعادة تقييم الوضع العسكري. فليس غريباً إذاً، أن تأتي رؤية الجنرال ويستمورلاند على أن الحرب تسير على الوجه المطلوب. رؤية ناتجة عن العديد من المؤشرات الكمية تبين مؤخراً أنها في مجملها، ليست سوى توقعات.

شملت لائحة الاتهام الأساسية للقيادة المدنية في أثناء الحرب الفيتنامية : تفضيلها للاستخدام المتزايد للقوة، بدلاً من التطبيق المفاجئ والواسع للقوّة، وهو ما يفضّله العسكريون. ربما ينطبق ذلك على الحرب الجوية في الشمال، ولكن يصعب قول ذلك عن العمليات العسكرية في الجنوب. والواقع أن التعزيزات الأمريكية في فيتنام الجنوبية تتابعت بسرعة كبيرة، ولكنها عانت كثيراً من القيود اللوجستية بالإضافة إلى عوائق متعمّدة. فقد أدى وجود ميناء رئيسي واحد (داناغ) إلى قيود على حجم المعدّات الأمريكية التي يمكن استيعابها في فيتنام الجنوبية. وهكذا سرعان ما تكاثرت القواعد الواسعة المليئة بكميات ضخمة غير صالحة من الإمدادات للقوات الأمريكية في الميدان. حقيقة، أن أكثر ما يثير الاندهاش هو رغبة كل من ماكنمارا وجونسون في تحرير عدد كبير من الشيكات للقوات العسكرية الأمريكية حتى عام ١٩٦٨ بما يشمل ولكن لا يغطي تعبئة كافة قوات الاحتياطي.

تطوّر القتال سريعاً، وذلك إلى حدّ بعيد، ردّاً على تزايد جهود الفيتناميين الشماليين ضد جمهورية فيتنام، ونتيجة للأسلوب العسكري العدواني للأمريكيين. وشمل هذا الأسلوب - الذي لم تكبحه القيادة المدنية - الحجم الضخم للقوة النارية، وتسميم مناطق

واسعة من الغطاء النباتي، والجهد المتواصل للعثور على مخابئ العدو واستدراجه للقتال مع القوات الأمريكية.

هناك من يقول إن الاستراتيجية الأمريكية كان يمكن تحقيقها بصورة أفضل من خلال العمل على حماية السكان وتطوير جيش جمهورية فيتنام. وقد كتب أحد كبار ضباط الاستخبارات الأمريكية في فيتنام بأن أحد الأسرار الكبرى لتورّط الجيش الأمريكي في حروب الهند /الصينية، هو عدم تمكن الجيش الفيتنامي وجيش جمهورية كوريا من التطوّر ليصبحا قوتين من الدرجة الأولى.

إلا أنه ليس سراً بأن تطوير الجيش الفيتنامي الجنوبي لم يكن أولوية عليا، ذلك أن الجيش الأمريكي ركّز بشكل أساسي على الإطباق وحده على العدو. وعندما درّب الأمريكيون الجيش الفيتنامي الجنوبي كان ذلك لغرض خوض حرب تقليدية. وبهذا الخصوص، اتبع الجيش طريقته، لا سيما في تطوير مفهوم «البحث والتدمير».

ظلت القوات الأمريكية تعاني من كافة أنواع القيود في أثناء الحرب الفيتنامية. ذلك أنها حتى عام ١٩٧٠ بصفة خاصة لم تكن تستطيع عبور الحدود الدولية بأعداد كبيرة إلى لاوس أو كمبوديا. وكان على الأمريكيين أن يحترموا القيادات السياسية والعسكرية المحلية وألا يستخدموا القوة النارية بشكل عشوائي في المناطق الكثيفة العمران. وكانت بعض هذه القيود مفروضة لدوافع إنسانية وأخرى بسبب طبيعة النزاع في حرب العصابات المسلحة. كما أن هناك موانع أخرى تعود إلى الأوضاع القائمة في كافة الحروب وخاصة ضمن معطيات التحالفات،

وبنفس الطريقة التي وجد فيها القائد الأعلى للحلفاء، الجنرال دوايت أيزنهاور، أنه غير قادر على التحكم في سلوك القوات الفرنسية الحرة التي تخضع اسمياً لقيادته، فإن القيادة المساعدة العسكرية لفيتنام كانت غاضبة من سلوك بعض جنرالات فيتنام الجنوبية. إلا أن الأكثر إثارة للاهتمام هو أن القائد العسكري، الجنرال ويليام وستمورلند، هو الذي قرر عدم السعي لإيجاد قيادة مشتركة يمكن أن تمنح الأمريكيين المزيد من السيطرة على اختيار وترقية الضباط في جيش جمهورية فيتنام. وحسبما يرى روبرت كومر Robert Comer :

- في الواقع أن التدخل على نطاق واسع من قبلنا سيؤدي تدريجياً إلى الحدّ من نفوذنا. وكلما اتجهنا لاستخدام موارد وقوة بشرية أمريكية كبديل للفيتناميين، أدى ذلك إلى إحداث نوع من الضعف في بواعثهم للقيام بما هو أكثر.

وستمورلند نفسه عمل في ظل إشراف مدني محدود بشكل ملحوظ. ففي أثناء فترة عمله في فيتنام الذي استمر أربع سنوات ونصف السنة، تلقّى زيارات قليلة من ماكنمارا وجونسون، وكان يسافر إلى واشنطن، إلا أن ذِكراه الرئيسية حول زيارته في نوفمبر ١٩٦٧ للرئيس جونسون لم تتعلق بتحليل الخيارات الاستراتيجية، وإنما بانطباعه الشخصي عن ليندون جونسون :

- لم أعرف رجلاً أكثر تروياً ومراعاة لحقوق ومشاعر الآخرين، من ليندون جونسون.

من المؤكد أن ماكنمارا أدرك أن الحرب لا تسير على الوجه

المطلوب منذ البداية، قبل ١٩٦٦ ، ومن المحتمل أن يكون جونسون مثله. إلا أن فحصهما للعمليات في فيتنام ركز بشكل أساسي على مستوى الجهد المبذول لا اتجاهه الأساسي. ويبحث المرء في «أوراق البنتاغون» (نشرت في عام ١٩٧١ ، وتم تجميعها في وقت سابق في الحرب بموجب توجيه من الوزير ماكنمارا نفسه) من دون جدوى عن أي فحص لفرضيات «البحث والتدمير». ويسترجع ماكنمارا في مذكّراته :

- بالرجوع إلى الوراء، يتضح أنني ارتكبت خطأ واضحاً بعدم الضغط حينها يوليو ١٩٦٥ أو لاحقاً على أي من سايجون أو واشنطن، من أجل نقاش عاجل ومطول حول الفرضيات الفضفاضة والأسئلة غير المطروحة والتحليلات الضعيفة التي قامت عليها استراتيجيتنا العسكرية في فيتنام. لقد أمضيت عشرين سنة كمدير عام في مجال تحديد المشكلات وإجبار المؤسسات – ضد رغبتها أحياناً – على التفكير بعمق وواقعية حول الإجراءات البديلة والنتائج المترتبة عليها. إنني أشك في أن أتمكن أبداً من الوصول لفهم كامل لماذا لم أطبق نفس الطريقة هنا.

وستمورلند، قائد قيادة المساعدة العسكرية في فيتنام، رجل متزمت وبوجه عام ضيّق الخيال، وما كان ليبقى لمدة أربع سنوات ونصف السنة تحت قيادة لنكولن. ومن المؤكد أن كليمنصو كان سيقوم بزيارته أكثر من مرة أو مرتين لمسرح عملياته الحربية (ولأيام محدودة فقط). وبالنسبة لقائد مثل تشرشل فإن من الصعب تخيّل أن يتركه يتصرف دون تساؤل متكرر بل وقاسٍ عن مفهومه الاستراتيجي. أما بن

غوريون فلا يُتصور أن يقبل بعد دراسة متأنية التنظيم الاتفاقي الذي شطر به وستمورلند سلاح الجو إلى ثلاث قيادات منفصلة وخالية من أي تنسيق فيما بينها.

وباسترجاع أحداث الماضي، ندهش من المدى الذي يمكن للعسكريين والمدنيين تجنّب قضايا أساسية كالحاجة لقيادة موحّدة في جنوب شرق آسيا، أو الحاجة إلى السيطرة على جيش فيتنام الجنوبية والعمل على إصلاحه، وهو الموضوع الذي رفضه وستمورلند لأنه سيعتبر نوعاً جديداً من الاستعمار. والغريب أنه لم يستوعب هذا الأمر، حتى بعد حين:

- نحن في فيتنام لمساعدة الفيتناميين، وليس للقيام بمهامهم بدلاً عنهم. إذا فعلنا ذلك، فكيف لهم أن يتعلموا؟ صغار وكبار القادة معاً يتعلمون تحمل المسؤولية من الخبرة فقط.

لم يغب عن المراقبين أن الولايات المتحدة كانت تقوم بالعمل نيابة عن الفيتناميين الجنوبيين، اما نظرة وستمورلند التي تبدو بصفة خاصة مثقلة بالتفاصيل الثانوية للأحاسيس الداخلية، فقد أدت للنظر إلى جيش جمهورية فيتنام كبؤرة مثقلة بالفساد وعدم الكفاءة (مع بعض الاستثناءات الملحوظة) طوال الجزء الأكبر من تجربته غير السعيدة.

القيادة المدنية قد لا تتفق مع ما خلص إليه وستمورلند، إلا أنها لم يحدث أن طلبته لمهمة تتعلق بها. كما أن المدنيين لم يفرضوا، كما يقال أحياناً، مفهوماً عملياتياً للحرب على أساس العدد بدلاً من

نظرة عسكرية أكثر تعقيداً أو تقليدية. وقد تم استحداث حساب ضحايا الحرب من قبل القادة المدنيين والعسكريين معاً، إلا أن القادة العسكريين كثيراً ما يظهرون اهتماماً خاصاً بها. كما أنه لا يوجد أي تعقيد مزعج في بعض أساليب العمليات المفضلة من قبل القادة العسكريين. وعن ذلك كتب الفريق جوليان إيول Julian j. Ewell، واللواء إيرا هنت Era A. Hunt من خلال دراسة تروج لاستخدام حساب عدد الضحايا واستراتيجية مكافحة التمرد :

- عندما يقرّر المرء تطبيق القوة القصوى، تصبح المشكلة تقنية وذات علاقة بأداء ذلك بكفاءة، وبالموارد المتاحة.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن يطلق لقب «جزار الدلتا» على الجنرال إيول، قائد الفرقة التاسعة في دلتا نهر ميكونغ، لشدّة اهتمامه بحساب ضحايا الحرب.

المشكلة لا تكمن إذن في ذكاء أو قوة إرادة جونسون وماكنمارا. كما أنها لا تتعلق برغبتهما في تنفيذ تفاصيل الحرب من مركز قيادة بواشنطن. إنما تكمن في المقام الأول في قرارهم الإشكالي حول طبيعة ما يمكن أن تحققه القوة في الهند/الصينية وكذلك في عدم تمكنهما من الاختيار الصحيح للجنرالات لإجراء حوار استراتيجي وعملياتي وتكتيكي معهم، لوضع الأولويات والمحافظة على التناسب في نزاع ثانوي. ويمكن القول باختصار إنها تكمن في افتقارهما لأي حس صحيح بما يتعين عليهما عمله لإدارة الحرب.

ما الذي تستطيع القيادة العسكرية أن تفعله أو لا تستطيع فعله، دفاعاً عن الديمقراطية؟

لقد أدت تجربة فيتنام الي ظهور جيلين من الضباط الأمريكيين الحانقين، ليس فقط لأن بلدهم خسرت الحرب وإنما أيضاً بسبب آثارها المدمرة على القوة العسكرية الأمريكية على مدى سنوات بعد ذلك. من تلك الآثار : تحريف ميثاق شرف الضباط من خلال لعبة أعداد الضحايا، وخفض نوعية الضباط وضباط الصف، وإفراغ الاحتياطيات التقليدية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. هذه كلها مشاكل عانت منها أمريكا حتى فترة الثمانينيات وربما إلى ما بعد ذلك. وقد نتجت جزئياً عن عدم قدرة القيادة الأمريكية العليا على موازنة متطلبات إشعال الحرب مع متطلبات المحافظة على مؤسسة عسكرية لحرب باردة لا تزال قائمة. في حين لوحظ في كوريا أن هيئة الأركان المشتركة أوصت بوضع سقف للالتزامات من أجل بناء قوات في أوروبا – حيث يمكن للحرب أن تدور حسب اعتقادهم– فإنها لم تحاول الاحتفاظ بقوة متوازنة في فيتنام. لهذا الغرض أوصت بزيادة وليس بخفض القوى العسكرية.

إلا أن هذا لا يكفي بأي حال من الأحوال لتبرئة ساحة القيادة المدنية لوزارة الدفاع أو الرئيس جونسون من الأخطاء في طريقة معالجتهما للحرب. الواقع عكس ذلك تماماً، اذ أنهما في نهاية الأمر مسؤولان كل المسئولية عن أداء القوات المسلحة. صفوة القول إن أخطاء فيتنام تتمثل في مزيج متكامل من استراتيجية رديئة وسيطرة مدنية بالغة الضعف. إنها إخفاق في فهم المهام والمبالغة في الاهتمام

بالتفاصيل الإدارية الدقيقة، وهذا يمثل خللاً فادحاً في القيادة المدنية في أثناء الحرب. ويكمن جزء من الخطأ في عدم رغبة القيادة في تقبل الفكرة : أن هذه بالطبع حرب حقيقية وليست جزءاً من دبلوماسية العنف. ربما كان السبب هو غطرستهم والتعالي الملازم للتكنوقراطية، مقارنة بالرؤية السياسية أو حتى الفنية للعالم، رؤية تحل فيها مؤشرات بسيطة للنجاح مكان القرار السياسي العسكري الأكثر تناغماً مع التقاليد. ربما الأكثر أهمية، أن الحرب لا تُكسب ببساطة. ومع كل هذا، فإنه من الصعب جداً تصور قيادتها على نحو أسوأ مما حدث في فيتنام.

استمدت القيادة العليا للقوات المسلحة دروسها من نتائج الحرب الفيتنامية. دعم الجيش الأمريكي، بقيادة الجنرال كريتون أبرامز Creighton Abrams، بطل إغاثة باستونغ في عام ١٩٤٤، والقائد المحنّك للقوات الأمريكية في فيتنام في مراحل اليأس الأخيرة للحرب، تكوين قوة كاملة : من خلال دمج وحدات الاحتياطي والوحدات العاملة. أي جيش موسّع من ست عشرة فرقة تعتمد على الحرس الوطني ووحدات الاحتياطي الأخرى للانتشار في منطقة النزاع. وأشار أبرامز إلى :

- أنهم لن يأخذونا مرة أخرى إلى الحرب دون أن يتم استدعاء وحدات الاحتياطي.

«إنهم»، يقصد السياسيين. ولن يقتصر الهدف فقط على الكفاءة، وإنما العمل أيضاً على إيجاد رابط مع الشعب الأمريكي،

ومن ثم المحافظة عليه. لا مزيد من الحروب بدم بارد. ولا مزيد من الحروب بلا دعم شعبي، كما كان من الضروري وضع حد لمشاعر السخرية والاحتقار تجاه الجنود الأمريكيين العائدين من أداء واجبهم في جنوب شرق آسيا.

كانت هذه خطوة جريئة. ذلك أن الجيش النظامي لديه دائماً نظرة دونية للحرس الوطني، الذي يوفّر جلّ الوحدات المقاتلة في قوات الاحتياطي. نشأ الحرس الوطني وتكوّن من مليشيات الولايات القديمة وهو يحتفظ ببعض التقاليد الأقل جاذبية، والمتمثلة بصفة خاصة في نظام الترقيات التي تلعب فيها العلاقات السياسية دوراً أساسياً. واستُخدم الحرس أيضاً كملاذ للشباب الذين كانوا يسعون للتهرب من أداء الواجب في فيتنام، ولا يرغبون في إظهار أنفسهم كرافضين للحرب. وفوق ذلك، هناك قلة من الجنود النظاميين يعتقدون أن الذين يعملون بدوام جزئي لا يكتسبون أبداً كفاءة نظامية وفنية، للعمل بفعالية إلى جانب الجنود النظاميين في زمن الحرب.

كريتون أبرامز جندي شجاع وكفؤ ووطني، يؤمن بالدستور وحقوق القيادة المدنية. مع ذلك فإن ما قاله يمثّل جهداً غير عادي من قبل القيادة العسكرية للحدّ من الخيارات المتاحة لرؤسائهم المدنيين أو لتقييد أيدي صانعي القرار من خلال التحكم في الهياكل التنظيمية. كما أن القادة المدنيين ليسوا بضعفاء ولا يفتقرون للكفاءة : فوزير الدفاع في ذلك الوقت، وهو جيمس شليسنغر James Schlesinger، محلل سابق بمؤسسة راند، وكان يتسم بالواقعية في تفكيره، وكانت له قبضة حازمة على القضايا الفنية التي تواجه وزارة الدفاع.

لكن يبدو أنه لم يخطر ببال العسكريين أو رجال الدولة بأن إخلالاً بالأنظمة يقع، عند السماح للإدارات المسلحة بتحديد الطرق التي يمكن استخدام الحرس الوطني، في المعركة. ولعل الأكثر وضوحاً أن القيادة العسكرية وهي تعتزم ذلك اختارت أن تعتمد على قوات لا تثق بها. وعندما جاء الاختبار في عام ١٩٩٠ في حرب الخليج فإن الجيش الأمريكي تجنب تعبئة وحدات الحرس الوطني التي كانت قد أصرت على إرسالها إلى المعركة. ذلك أن فرقة المشاة الميكانيكية الرابعة والعشرين غادرت إلى الخليج العربي من دون لوائها الثالث - اللواء ٤٨ للحرس الوطني في جورجيا - بالرغم من الوعود التي ظل قادتها يقطعونها دائماً بأنها ستذهب إلى الحرب في صحبة الجنود المدنيين.

وقد وافقت القيادة المدنية على القوة الكاملة، مع كافة القيود التي تعتزم فرضها على السياسيين، لأنها قبلت بالكثير من القراءة الخاطئة المقدمة من قبل القيادة العسكرية، لما حدث في فيتنام :

١- القوات العسكرية قاتلت وأيديها مغلولة إلى ظهرها.

٢- المدنيون تدخلوا وبالغوا في الاهتمام بالتفاصيل الإدارية الدقيقة.

٣- الأهداف السياسية تُركت ضبابية وغير واضحة.

وهذه على وجه الدقة هي النظرية «السائدة» للعلاقات بين المدنيين والعسكريين (ومعها الاستراتيجية) مع قدر عالٍ من التعسف. وكما يحدث كثيراً، فإن التعبير الأكثر وضوحاً عن وجهات النظر

العسكرية انبثق من أفواه المدنيين. ففي نوفمبر ١٩٨٤، أعلن وزير الدفاع، كاسبر واينبرجر Caspar Weinberger، الذي كان قد خدم تحت قيادة الجنرال دوغلاس ماك آرثر في المحيط الهادئ - وأظهر إعجاباً كبيراً به - عن ستة مبادئ لاستخدام القوة من قبل الولايات المتحدة أصبحت مطابقة للأعراف المتبعة بالمؤسسة الدفاعية على مدى جيل كامل:

١- يجب ألا تستخدم الولايات المتحدة قواتها خارج الحدود، ما لم يعتبر الاستخدام أو المناسبة المعنية ذات طبيعة حيوية لمصلحتنا الوطنية.

٢- إذا قررنا أن من الضروري أن نزج بقواتنا في معركة، فيجب أن نقوم بذلك دون تردّد وبتصميم واضح على الانتصار. وإذا لم نكن راغبين في تكليف قوات أو توظيف موارد ضرورية لتحقيق أهدافنا، فيجب ألا نقدم على استخدامها أبداً.

٣- إذا قررنا استخدام قواتنا في معركة خارجية، فيجب أن نحدّد الأهداف السياسية والعسكرية بوضوح. وعلينا أن نعرف بشكل دقيق الطريقة التي تستخدمها قواتنا لتحقيق الأهداف. ويجب أن نعمل على إرسال القوات الكافية للقيام بذلك.

وكما كتب كلاوزفيتز، «يجب ألا يقدم أحد على البدء في حرب - أو بالأحرى ألا يفعل ذلك وهو بكامل قواه العقلية - ما لم يكن واضحاً في ذهنه أولاً، ما يعتزم تحقيقه في الحرب المذكورة والطريقة التي يعتزم اعتمادها».

٤- يجب أن يتم بشكل مستمر إعادة تقييم العلاقة بين أهدافنا والقوات التي نستخدمها، وحجمها وتكوينها وميولها والعمل عند الضرورة على تعديلها. إن الشروط والأهداف تتغير بشكل دائم تقريباً في أثناء فترة النزاع، وعندما تتغير يجب أن تتغيّر متطلبات معركتنا أيضاً. يجب أن نردد بشكل مستمر هذه الأسئلة كضوء إرشادي : هل هذه المعركة جزء من مصالحنا الوطنية؟ هل اهتماماتنا الوطنية تتطلب منا أن نقاتل، ونستخدم قوة السلاح؟ إذا كانت الإجابة : (نعم) يتعين علينا إذن أن ننتصر. وإذا كانت الإجابة : (لا) يجب ألا ندخل في المعركة.

٥- قبل أن تستخدم الولايات المتحدة قواتها خارج البلاد، يجب أن يكون هناك ضمان معقول في أن نحصل على دعم من الشعب الأمريكي ومن ممثليه المنتخبين بالكونجرس.

٦- يجب أن يكون استخدام القوات الأمريكية في المعركة هو : الملاذ الأخير.

لم يستمر العمل بقواعد واينبرجر طويلاً. ولكنها تمثل نموذجاً تعهد القادة السياسيون والعسكريون المتعاقبون بالولاء له، وكثيراً ما تم ذلك بقدر بالغ من الاستقامة. وفي فترة التسعينيات من القرن الماضي استرجع أحد كبار القادة المتقاعدين ذكرياته قائلاً :

- عندما كنت ضابطاً شاباً، كنت أحمل نسخة من هذه المبادئ لمدة عشرة أيام معي بمحفظتي لأني أرى أنها بالغة الأهمية،

ولأنها حقاً بسّطت كثيراً ما يمكن وما لا يمكن للقوات المسلحة تحقيقه لوطننا وديمقراطيتنا.

خطاب واينبرجر أثار معارضة قوية من قدامى المقاتلين في الحرب العالمية الثانية، كجورج شولتز George Schultz، والذي باعتباره وزيراً للخارجية استاء من رؤية الأيدي الأمريكية مغلولة، باختزال الاستراتيجية إلى قواعد عامة. إلا أنه في إطار القوات المسلحة تم الاحتفاء بمبادئ واينبرجر كاستراتيجية من نوع متميّز. وظهر الخطاب الذي تمت إعادة طباعته على نطاق واسع في ملخصات هيئة الأركان، وأصبح في الواقع مبدأ له أنصار. وقد تعزز بما أصبح يعرف بمبدأ «باول» على اسم الجنرال كولن باول Colin Powell الذي كان آنذاك رئيساً لهيئة الأركان المشتركة واتسم بالقوة والجاذبية الشخصية، وأصبح في وقت طباعة هذا الخطاب، وزيراً للخارجية.

أعلن باول تأييده لمبدأ «القوة الساحقة»، لا القوة المناسبة أو القوة الكافية لتلبية الأهداف، بل «القوة الساحقة». وعندما قوّى الكونغرس (المؤيّد بالكلام للقراءة التقليدية لحرب فيتنام) في سنة ١٩٨٦ هيئة الأركان المشتركة ورئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة، فإنه بذلك عزّز هذه المبادئ. ومنذ ذلك الحين أصبح للقادة المدنيين مستشار عسكري أساسي واحد - أي رئيس هيئة الأركان المشتركة - وصار رأيه مرجحاً على جميع الآخرين، ومن ورائه هيئة أركان قوية تخضع لإشرافه. وقرر الكونجرس أيضاً أن يكون للرئيس ووزير الدفاع مصدر مرجعي واحد للمشورة العسكرية المهنية، وإذا لم يكن رئيس هيئة رؤساء الأركان يشغل منصباً رسمياً ضمن سلسلة القيادة (التي

تتفاوت، نظرياً، من وزير الدفاع إلى القيادات العامة لمسارح العمليات) فإنه يقوم عملياً بدور قناة للاستشارات العسكرية التي تُقدم للرئيس ونقل الأوامر منه ومن وزير الدفاع إلى القيادة العسكرية. وبذلك تكون النظرية «السائدة» قد انتصرت.

الحرية المتاحة بعد صدور القرار السياسي

إذا كانت فيتنام في الميثولوجيا العسكرية الأمريكية قصة مظلمة ونذير شر، فإن حرب الخليج ١٩٩١ أصبحت على العكس: قصة حرب تم تنفيذها على الوجه المطلوب، ونموذجاً لحرب قام السياسيون من خلالها بوضع الأهداف وأفسحوا المجال للجانب العسكري ليقوم بعمله. ويمكن القول باختصار، أن حرب الخليج تبرّر وتمنح المشروعية للنظرية السائدة للعلاقات بين المدنيين والعسكريين. وقد عبّر عن هذه الرؤية الرئيس جورج هـ. دبليو بوش (George H. W. Bush) الذي قاد الحرب، عن هذا الرأي:

- كولن باول الذي يعمل دائماً بمهنية وحكمة، يؤكد أنه إذا كان علينا أن نخوض الحرب، فيجب أن نؤديها على الوجه الصحيح، وأن نتجنّب أنصاف الحلول. وقد سعى لتوفير العدد الكافي من القوات لأي خيار أرغب فيه، وأن تترك للقيادة العسكرية حرية التحرك للقيام بالمهمة فوراً بعد اتخاذ القرار السياسي. وقد قرّرت أن تتولى قيادتنا العسكرية المهمتين معاً. ذلك أنني لا أريد أن أكرر مشاكل حرب فيتنام (أو العديد من الحروب عبر التاريخ)، حيث كانت القيادة السياسية تتدخّل في العمليات

العسكرية. لذلك رأيت أن أتجنّب الدخول في إدارة التفاصيل العسكرية الدقيقة.

لا شك أن إدارة الرئيس بوش الأول قادت حرب الخليج بطريقة أكثر تجنّباً للتدخل عما كانت عليه إدارة جونسون في حرب فيتنام. ويعكس ذلك إلى حد كبير استيعاب القيادة المدنية للدروس المستقاة من حرب فيتنام، كما يعكس المكانة غير العادية لرئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة، الجنرال كولن باول، الذي جمع سلطة هائلة هي مزيج من الكاريزما والمهارة البيروقراطية والسلطات المعززة لهيئة رؤساء الأركان المشتركة بموجب قانون غولدوتر - نيكولز لإعادة تنظيم وزارة الدفاع في عام ١٩٨٦.

استحوذ باول بنجاح على قدر كبير من السيطرة المدنية في حرب الخليج بفضل ما يتمتع به من مهارات سياسية عالية. فقد كان ضابطاً تعلم الكثير من خلال عمله تحت إدارة نيكسون بالبيت الأبيض ومما تعلّمه :

- إنك لا تدري ما الذي يمكن أن تفلت من عواقب فعله، قبل أن تقوم به.

فالجنرال الذي يتمتع بشعبية واسعة - والذي أعلن نفسه جمهورياً بعد فترة قصيرة من تقاعده من القوات المسلحة، وأصبح قريباً من الدخول في معركة انتخابات الرئاسة نفسها، شارك رؤساءه في القيادة المدنية، في العديد من وجهات النظر السياسية. وقد تمكن من خلال عمله كمستشار للأمن القومي في إدارة ريغان، من فهم

طريقة عمل الحكومة أكثر من أي عسكري آخر، وبما لا يقل عن أي من القيادات المدنية. وبالتالي فهو ليس بحاجة إلى توجيه في تلك القضايا.

مما لا ريب فيه، أنه لم يكن هناك حاجة لسيطرة مدنية لصيقة بالقدر الذي مارسه لنكولن أو تشرشل. ذلك أن العدو المتمثل في العراق كان معزولاً تماماً، نصيره، الاتحاد السوفياتي كان في حالة انهيار. كما أن جيرانه من العرب كانوا في حالة عداء معه، والحلفاء المحتملين كالصين لم يتحمسوا لقلب التوازن ضد الولايات المتحدة. أضف إلى كل ذلك أن الجيش العراقي كان منهكاً بسبب الحرب.

وقد قادت الولايات المتحدة تحالفاً للدول الأغنى والأكثر قوة في العالم، وهي نفسها وفّرت قوات مسلحة مدربة ومجهزة بصورة فائقة نتيجة لتعزيز سياسات الدفاع في فترة ريغان. التفوّق التكنولوجي والتكتيكي وحتى العددي لقوات التحالف كان كاسحاً. وبالرجوع إلى الوراء، فقد أصبح واضحاً أن النجاح الباهر في يناير وفبراير ١٩٩١ فيه شيء من المبالغة، بالرغم من أنه ليس بالضرورة أن يكون كذلك في حينها.

مع ذلك توحي رواية القيادة العليا في حرب الخليج بشيء مختلف عن تبرير النظرية «السائدة» للعلاقات بين المدنيين والعسكريين. بداية، يبدو أن كولن باول كان يعارض الحرب على العراق، فالتقرير المثير من قبل الصحفي وودورد Woodward – الذي يبدو أن باول هو مصدره – يوضح ذلك بصورة جلية. وكما أشار باول نفسه في مذكراته، فإن

وزير الدفاع ديك تشيني Dick Cheney وبّخه توبيخاً حاداً بتذكيره بأن من المفترض أن تقتصر مسؤوليته على تنفيذ السياسات وليس وضعها.

لقد جعل قانون غولدوتر - نيكولز رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة المستشار العسكري الأول للرئيس، وأصبحت رئاسة الهيئة بين يدي كولن باول في موقف كان يتمتع فيه بنفوذ استثنائي. أغلق الباب أمام العديد من الاستشارات العسكرية الأخرى للسلطة المدنية. وبرزت غَيرة باول على وضعه كمستشار أساسي عندما علم بأن ديك تشيني جعل مساعده العسكري، الأدميرال ويليام أوينز William Owens، يتدارس مع البنتاغون حول خيارات أخرى غير التي قدمها باول. وهي خطوة اعتبرها رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة تصرّفاً انفرادياً لا يستند إلى أساس، حتى ولو كان بتوجيهات الوزير. مع ذلك تمكنت القيادات المدنية من الحصول على استشارة عسكرية غير تقليدية، خاصة عندما اتضح أن التخطيط العسكري الرئيس، يحصر نفسه في هدف أساسي مباشر هو: تحرير الكويت.

أما خطة العمليات الجوية في الخليج العربي، فقد أوكلت لخلية تخطيط صغيرة في هيئة أركان القوات الجوية - وهي وحدة عسكرية لا تخضع بشكل مباشر للقائد الميداني الجنرال نورمان شوارزكوف - وإنما لرئيس هيئة أركان القوات الجوية ووزير سلاح الجو. في ظل قيادة العقيد جون واردن John Warden، وهو من أقوى مناصري القوات الجوية كذراع حاسم في الحرب، ومؤلف كتاب عن تخطيط الحملة الجوية، تم إعداد خطة تعرف باسم «الرعد الفوري» (اختاره واردن وفريقه مدركين أن هذا الاسم رفض صريح للتراكمية

في حملة «الرعد المتدحرج» على فيتنام). ترأس واردن خلية تخطيط الحرب طويلة المدى في القوات الجوية ولكن لم يكن له مكان في تسلسل القيادة. ومع ذلك أطلع كولن باول على خطته، ثم بعد أسبوعين من بداية الأزمة، جاء الفريق تشارلز هورنر Charles Horner، قائد سلاح الجو، إلى مسرح العمليات. إلا أن هورنر، الذي لا يُحب واردن، لم يوافق على خطته في البداية وأعاده إلى واشنطن ولكنه احتفظ بالعديد من العاملين معه. في غضون ذلك عمل كل من رئيس أركان سلاح الجو الجنرال مايكل دوغان Michael Dugan ووزير سلاح الجوّ دونالد رايس Donald Rice على حماية واردن، الذي استمر في دعم جهود وخطة الرياض من مكتبه في الدور تحت الأرضي في البنتاغون.

كولن باول الذي يُسيطر عليه إحساس عميق بعدم الثقة تجاه القوات الجوية ومطالبها، بذل كل ما يمكن، لاحتواء جهود هيئة أركان سلاح الجو. وربما أدّى دوراً في طرد دوغان لاحقاً، بعد أن أدلى جنرال سلاح الجو - من دون أن يدري -بتصريحات للصحفيين المرافقين له في رحلته إلى الخليج العربي بأن الحملة الجوية ستسعى لاستهداف الدائرة المحيطة بشكل مباشر بالدكتاتور العراقي صدام حسين، وليست محصورة الأهداف العسكرية التقليدية فقط. إلا أن رعاية السلطة المدنية لخطة الحملة الجوية، بالإضافة إلى نقل بعض العاملين مع واردن إلى عملية التخطيط بالمملكة العربية السعودية، والمخاوف الكبيرة من احتمال سقوط أعداد كبيرة من الضحايا في الحرب البرية، أدت إلى قبول الخطة فأصبحت حقيقة، ذات أهمية مركزية في الحرب.

تقدّم وضع خطة الحملة البرية ببطء كبير. هنا أيضاً كان التفاعل بين المدنيين والعسكريين حرجاً. ففي أكتوبر أرسل شوارزكوف رئيس هيئة أركانه، للقيام باستطلاع حول الخيار الذي تم إعداده لإخراج جيش العراق من الكويت باستخدام الفيلق الوحيد الذي كان حينها منتشراً بالمملكة العربية السعودية. معظم عناصر السلطة المدنية صدموا من اقتراح الهجوم المباشر على الكويت، حيث إن قدرة القوات المتاحة لم تكن تسمح بذلك. وقد كان هناك استياء بالغ، أظهره اثنان من القيادات المدنية الأساسية، هما مستشار الأمن القومي : برنت سكوكروفت Brent Scowcroft ووزير الدفاع ديك تشيني.

أما الرئيس بوش فوافق سريعاً على طلب القيادة العسكرية جمع عدد إضافي وحتى أكبر من القوات الثقيلة من أوروبا، وخاصة الفيلق السابع بقيادة الفريق فريدريك فرانكس Frederick Franks. إن حجم القوة والتقيّد النهائي بالخطة التي تتضمن الانتشار حول الخطوط الأمامية للجبهة العراقية، بالإضافة إلى الاندفاع نحو مدينة الكويت، تعكس تدقيق السلطة المدنية، وهي أكبر من مجرد توتر بين المدنيين والعسكريين في أثناء الشهور السابقة للحرب.

تمكن ديك تشيني من فهم الخطة النهائية بقدر كبير من التفاصيل. وهو وزير الدفاع، وسياسي محنك من ولاية ويومينغ، وقد كان في أثناء حرب فيتنام، كما هو حال العديد من السياسيين من أبناء جيله، في سن التجنيد إلا أنه لم يؤد الخدمة. هذه حقيقة تركت أثراً سلبياً على موقف بعض كبار الضباط الذين تعامل معهم. أصبح وزيراً للدفاع في ظروف صعبة، في أعقاب فشل تعيين السيناتور جون تاور

John Tower لهذا المنصب. ولكنه قفز نحو الأضواء وأظهر نفوذه سريعاً بانتقاده علناً رئيس هيئة رؤساء أركان القوات المسلحة، الجنرال لاري ولش Larry Welch بسبب مناقشات أجراها دون تفويض من الكونجرس، ثم فصل القائد العام للقيادة الجنوبية، الجنرال فرد ورنر Fred Woerner ولاحقاً دوغان، وهكذا استمرت موجة الازدراء المتصاعد لديك تشيني في أوساط العسكريين. وذكر ولش :

- سبق أن أطلقتْ عليّ النار من قبل محترفين وما زلت حياً. ولذلك فإن إطلاق النار علي من قبل هاوٍ مثل تشيني لا يصيبني بأي ألم.

بعد الانتهاء من إطلاع تشيني على خطة حرب الخليج، أقامت هيئة الأركان المشتركة احتفالاً منحت فيه شهادة كتب فيها «أن ريتشارد بروس تشيني هو الآن خريج فخري في جميع الكليات الحربية».

وهو نوع من الإحساس بالتعالي، يصعب تصور أن يحدث من قبل شخص مثل كليمنصو على سبيل المثال. لم يُجر تشيني أي تعديل على الخطط، كما لا يبدو أنه قد قام هو شخصياً، أو أي من القادة المدنيين، بإجراء اتصال مع شوارزكوف، باستثناء ما تم عبر باول في أثناء الحرب. وباستثناء زيارات تشيني الميدانية، لا يوجد دليل على أنه تحدث أبداً مع القائد الميداني بشكل منتظم في أثناء الحرب.

يبدو أن هناك موضوعين تطلّبا تدخلات سياسية في أثناء الحرب نفسها. وفي الحالتين تم إجراؤها استباقياً من قبل كولن باول. الحالة الأولى كانت تتعلق بقصف بغداد. ففي ساعة مبكرة من صباح يوم

١٣ فبراير ١٩٩١ (بتوقيت الرياض) قامت طائرات أمريكية بالهجوم على أحد مراكز القيادة والتحكم العراقية، غير المعروفة للمخططين بالتحالف، ويؤوي عائلات الصفوة العراقية. وقد نتج عن ذلك عدة مئات من الضحايا، طبقاً للعراقيين الذين تحركوا بسرعة لعرض دخان الحطام على شاشة سي إن إن. وكانت النتيجة أنه قد تم إيقاف الهجمات على بغداد عدة أيام، ومن ثم فرض حدّ أقصى من القيود على الهجمات بعد ذلك. وبعد ذلك كان قصف أي هدف يتم اعتماده من القائد العام بالميدان بصفة شخصية. وذكر مخططو سلاح الجو أن التوجيه في هذا الشأن جاء بشكل مباشر من باول. لم يزعج تعليق القصف على بغداد باول أو حتى قائد سلاح الجو في المملكة العربية السعودية. ذلك أنه لم تكن لدى أي منهما توقّعات كبيرة من الهجمات على الأهداف الاستراتيجية المذكورة، وكانا يفضلان الهجوم على القوات البرية والبنية التحتية الداعمة لها.

الحالة الثانية للاتصال تبدو أكثر جدية. ففي الليلة الثانية من الحرب أطلق العراق ثمانية صواريخ أرض - أرض، على إسرائيل. كانت الرؤوس الحربية غير متقنة والصواريخ غير دقيقة، إلا أن احتمال الضرر كان عنيفاً على التحالف - أو على الأقل هذا ما كانت تراه قيادة الحكومة الأمريكية. كانت خطة سلاح الجو الأولية تدعو إلى تنفيذ هجمات على مواقع الإطلاق العراقية فيما يُعرف بصواريخ سكود (وهي في الواقع تعديلات عراقية على صواريخ سكود السوفياتية). تم هذا عند بداية الحملة، إلا أن المخططين أدركوا بعد فوات الأوان أن العراقيين حولوا الصواريخ إلى منصات إطلاق متنقلة. وبناء عليه،

بدأت قوات التحالف بحثاً جوياً مكثفاً عن الصواريخ العراقية، وهي مهمة غير مجدية استُخدِم فيها جزء كبير من الطائرات الأكثر فعالية في الحملة الجوية الواسعة.

جاء الدافع للحملة الجوية النشطة ضد الصواريخ العراقية من واشنطن، وتم رفضه ميدانياً. ذلك أن صواريخ سكود مشهورة بأنها غير دقيقة، وبالتالي لا تستحق تلك الملاحقة. أحد الجنرالات استهجن صراحة ملاحقة الصواريخ المتنقلة لأنها عسكرياً ليست ذات أهمية — ملاحظة ثبطت همة الأطقم الجوية وساعدت في إقناع الإسرائيليين بأن مخاوفهم تجاوزت حدود مخاوف الأمريكيين. عندما أطلع وزير الدفاع على الطلعات الجوية المحدودة التي تطلقها القيادة المركزية ضد منصات إطلاق الصواريخ، انفجر تشيني صائحاً :

- لعنة الله عليهم، أريد نوعاً من التغطية الكاملة هناك. وإذا كان علي أن أتحدث إلى شوارزكوف، فسأفعل ذلك.

لكن مرة أخرى استطاع باول بما يتمتع به من مهارة سياسية شخصية أن يتدخّل قبل أن يتمكن القادة المدنيين من نقل عدم رضاهم مباشرة للقائد الميداني. المثير للاهتمام هنا هو فرضية أنه سيكون من غير المفهوم أو حتى غير السوي أن يتواصل وزير الدفاع بشكل مباشر مع القائد الميداني، وإنما يجب أن يتم ذلك عبر وسيط عسكري لا ينتمي فنياً لتسلسل القيادة.

بالرجوع إلى الوراء، نلاحظ ان جميع الخلافات الثلاثة بين المدنيين العسكريين، فيما يخص :

١- الذهاب إلى الحرب أصلا.

٢- نوع الخطة التي يتعين اتخاذها.

٣- مدى الجهد الذي يجب أن يبذل في ملاحقة صواريخ سكود.

كل هذا تم حله من قبل ما أقدم عليه كولن باول استباقياً، بإضافة مخاوف سياسية من التوجيهات التي يُراد توجيهها إلى شوارزكوف، بينما كان هو يتصل به يومياً عن طريق الهاتف. لكن ثمة شيء حاسم موجود ويغطي كل ذلك : قوة عسكرية هائلة، بحيث لم يبق للقادة والسياسيين كذلك خيارات صعبة يتخذونها. العمليات الكبيرة والفاشلة فيما يتعلق بمطاردة صواريخ سكود لا تعني أن مئات (أو حتى عشرات) من الجنود الأمريكيين سيصيرون ضحايا للهجمات ضد المواقع العراقية التي يتم قصفها.

القرار ببدء الحرب بالرغم من التحفظات العسكرية لم يمهد الطريق للاتهامات المضادة في فترة ما بعد الحرب فيما يتعلق بتكلفة هذه الحملة الضخمة التي تم إرسالها على بعد نصف الكرة الأرضية. ان عدم تمكن السلطة العسكرية من إعداد خطة للحرب البرية ذات مغزى للقادة المدنيين، لم تُحدث أزمة في قمة القيادة، بل أدت فقط إلى ضخّ المزيد من الرجال والآليات في مسرح مكتظ أصلاً بالقوات وآليات الحرب.

إلا أن حالة الغموض فيما يتعلق بالسيطرة المدنية، أصبحت جلية في نهاية الحرب. بعد ستة أسابيع من الضربات الجوية وأقل من أربعة أيام من الحرب البرية، أصبح الجيش العراقي في الكويت بين مدمَّر أو

فار - وقد طرح الآن السؤال حول متى وكيف يتم إنهاء الحرب - الأمر الذي لا يبدو أنه يخضع للنقاش على مستوى عال، بالرغم من بروز عمل الأركان على طول هذه الخطوط. القرارات الحاسمة التي يجب أن يتم اتخاذها تتمثل في : متى يجب أن تتوقف هذه الحرب؟ وكيف سيتم التعامل مع مفاوضات الهدنة؟ في كلتا الحالتين، عملت السلطة العسكرية على اتخاذ القرارات الحاسمة - وفي كلتا الحالتين - اتضح بالعودة إلى الوراء، أنهم اتخذوا قرارات خاطئة.

كان الدافع إلى إنهاء الحرب البرية نقاش حدث في المكتب البيضاوي ٢٧ فبراير ١٩٩١ومن خلال قرار وصفه مستشار الأمن القومي برنت سكوكروفت بأنه :

- واثق جداً لدرجة تزعج الآخرين.

تم إعلان بدء وقف إطلاق النار عند منتصف الليل، بحيث استغرقت الحرب البرية تحديداً مائة ساعة. وقد قدم الجنرال باول توصية يقول فيها إن شروط الرئيس للانتصار قد تمت تلبيتها. وكان بوش قد أوضح الأهداف المذكورة في الثامن من شهر أغسطس، قبل وقت طويل من اتخاذ القرار باستخدام القوة ضد العراق :

- هناك أربع مبادئ بسيطة تقود سياستنا. أولاً، الانسحاب الفوري وغير المشروط والكامل لكافة القوات العراقية من الكويت. ثانياً، يجب أن تعود الحكومة الشرعية الكويتية لتحل مكان النظام الصوري التابع. ثالثاً، إن إدارتي، كما هو حال كل رئيس من روزفلت إلى ريغان، ملتزمة بأمن واستقرار الخليج.

رابعاً : أنني مصمّم على حماية أرواح الرعايا الأمريكيين بالخارج.

وفقاً للمصادر المختلفة، فإن القيادة السياسية عملت بتوصية باول. وذكر باول أن شوارزكوف الذي كان قد تحدث معه قبل وقت قليل قد وافق عليها. لكن بعد وقت قصير من انتهاء الحرب كان للجنرال شوارزكوف رواية مختلفة للأحداث، حيث ذكر لمذيع التلفزيون البريطاني، ديفيد فروست David Frost بأنه كان قد أوصى بأن تستمر العمليات لاستكمال إبادة القوات العراقية.

أياً كان مدى صحة هذا الأمر، فإن تعليق العمليات الهجومية كان خطأً على مستويين :

أولاً : سرعان ما اتضح أن القوات الأمريكية لم تعمل في الواقع على إغلاق المخارج من مسرح العمليات في الكويت. ثانياً : أن الجزء الأكثر أهمية من قوة العدو – الفرق المدرّعة للحرس الجمهوري – تمكّنت من الهروب سالمة، وهي بالتالي ستستطيع المحافظة على إبقاء نظام صدام حسين في السلطة بعد الحرب.

يعكس منطق باول الدافع لإنهاء الحرب في هذا المنعطف، حكمين سياسيين. فهو يخشى أن يؤدي ضرب القوات العراقية على طول طريق مدينة الكويت (المعروف باسم طريق الموت) إلى الإضرار بالموقف الأمريكي أمام الرأي العام العالمي، ويرى أن الهدف الرئيسي يتمثل في إخراج العراقيين من الكويت، وهذا قد تم تحقيقه. ينطلق كلا الدافعين، بالطبع، من رؤى سياسية وليست عسكرية، وكلاهما بالرجوع

إلى الوراء، يبدوان موضع شك. ما يعرف بطريق الموت لا تنتشر فيه الجثث ولكن حطام المركبات التي فرّ معظم من يستقلونها عندما بدأت الطائرات الأمريكية في قصف أرتال القوات العراقية المتقهقرة. ولم تظهر صورة لذلك بعد على التلفزيون، وليس هناك ما يشير إلى أن أي رد فعل عام «غير مقبول» في الخارج يوشك أن يحدث. في جميع الأحوال، تعريف «غير المقبول» في هذه الظروف متروك للقيادة السياسية. وفيما يتعلق بتحقيق أهداف الرئيس، فقد تم تفسيرها على نطاق ضيّق بأنها تعني إخراج القوات العراقية من الكويت وتحييدها كتهديد لقوات التحالف. وهنا وقع خطأ أكثر خطورة.

أوضح النص الرسمي لأهداف بوش أن إعادة الوضع في الكويت إلى ما كان عليه، لم يكن سبباً كافياً لإنهاء الحرب. ويشير النص المذكور إلى أن الهدف الموسّع لتأمين استقرار الخليج العربي لا يقل وزناً عن خروج القوات العراقية من الكويت. إلا أن الحزم في نَص أهداف بوش – التي نال إعجاباً كبيراً في ذلك الوقت وفيما بعد – كان مخادعاً. الهدف الأول فقط الذي ينص على خروج القوات العراقية من الكويت يبدو خاليا من الغموض. أما الهدف الثاني وهو عودة الحكومة الشرعية بالكويت فقد كام واضح المعالم تقريباً، على ألا يتم الإصرار بشدة على التفسيرات الديمقراطية لكلمة «شرعي». الهدف الثالث نص مبهم ولا يُشير إلا إلى حرص الولايات المتحدة على استقرار إمدادات النفط العالمية. الهدف المتمثل في حماية أرواح المواطنين الأمريكيين انتهى، عندما أعاد صدام حسين رهائن غربيين قبل الحرب، مما يعني أن حياة المواطنين الأمريكيين المعرّضة للخطر

تتمثل فقط في القوات التي تم إرسالها إلى الحرب في الخليج.

بالعودة إلى الوراء، برز هدفان ضمنيان وغير معلنين :

١- تدمير برنامج أسلحة الدمار الشامل.

٢- تغيير النظام العراقي.

الهجوم على برنامج العراق للأسلحة النووية والبيولوجية بدأ في أثناء الحرب واستمر إلى ما بعدها من خلال عمليات تفتيش وعقوبات الأمم المتحدة. وحيث إن جهود جمع المعلومات الاستخباراتية الأمريكية التي تم توجيهها ضد البرنامج المذكور، أفضت إلى جمع ومعالجة معلومات حوله، فقد أصبح يخيّم على أذهان القادة السياسيين أكثر من أي وقت مضى. وفيما يتعلّق باستتباب الأمن والاستقرار، فمن الواضح أن ذلك يتضمن إزاحة صدام حسين من السلطة.

وبالرغم من أن القادة الأمريكيين تجنّبوا الإفصاح عن هذا الهدف - خوفاً مما سيترتب على استهداف أحد القادة السياسيين بالقتل أو الإزاحة، مع عدم التأكد من قدرتهم على تحقيق ذلك - إلا أنهم بالرغم من ذلك كانوا يعتقدون بأن الحرب الكارثية ستحدّد مصير نظام صدام.

إن شن الحرب يقود رجال الدولة إلى تغيير أهدافهم وأغراضهم - أو يجبرهم على ذلك في الواقع - وبالتالي يحبط من تطلعات الذين يأملون في اخضاع الأهداف الاستراتيجية لقوائم الفحص. نهاية الحرب تأتي في أعقابها بأهداف جديدة مثل وجود حجم كبير من

القوات الأمريكية بشكل دائم في الخليج العربي كضامن للنظام في المنطقة، كما تطلبت لاحقاً التحليق الجوي في مناطق واسعة من العراق. وقادت إلى مزيد من الأهداف المستقبلية، مثل استغلال الاضطرابات في الخليج للعمل على حل النزاع العربي/الإسرائيلي. ومن جهة أخرى، فإن إنهاء حرب الخليج قبل أوانها ترتبت عليه، نتائج ظلّت باقية بعد عقد من حينها، بعد تنصل نظام صدام حسين من قرارات الأمم المتحدة الثقيلة، للتفتيش عن الأسلحة والعقوبات.

تضاعفت مشاكل الإنهاء المبكر للحرب بالطريقة التي عمل بها القائد الأمريكي الميداني، على إجراء مفاوضات الهدنة في صفوان. بعد مكالمات مع باول (الذي ينقل توجيهات البيت الأبيض)، عمل شوارزكوف، بموجب تعليمات من باول، على إعداد الشروط العسكرية المقترحة والتي يتعين على القوات العراقية المنهزمة التقيّد بها. عشية المفاوضات، قال شوارزكوف ساخراً :

- من المثير للاهتمام أن نعرف ما الذي سيتم أولاً: التفويض بإجراء المحادثات، أم المحادثات نفسها.

قبل بدء المفاوضات مباشرة، عادت الشروط العامة، وتضمنت تغييراً واحداً، هو أن وزارة الخارجية استبدلت كلمة «تفاوض» بكلمة «مناقشة». بمعنى أن شوارزكوف لا يخضع لأي توجيهات، خلافاً للشروط الفنية التي قام هو نفسه بصياغتها (ومنها أن يقوم العراقيين بتحديد حقول الألغام ومواقع تخزين الأسلحة البيولوجية).

بناء عليه، فقد دخل الجنرال شوارزكوف مفاوضات الهدنة دون

تعليمات من قيادته المدنية. وبعد أن تُرك إليه الأمر ليتصرّف بما يراه مناسباً، توصل إلى تسوية جيدة نسبياً مع المفاوض العراقي، وهو برتبة فريق وصغير السنّ نسبياً. حاول شوارزكوف تخفيف انزعاج الطرف المهزوم، بإخضاع نفسه للتفتيش على الأسلحة، من قبل الشرطة العسكرية الأمريكية. الأكثر أهمية أن شوارزكوف، انطلاقاً من تفسيره الضيق لأهداف الحرب، سمح للعراقيين باستخدام المروحيات، وتبين فيما بعد أنها كانت فعالة في قمع الانتفاضات الشيعية ضد نظام صدام. ثم أنهت المذابح التي نتجت عنها – تلك التي جرت على مرأى من الجنود الأمريكيين الحانقين - اسطورة عدم المساس بحكم الدكتاتور العراقي.

عكس تساهل شوارزكوف تجاه الحكومة العراقية قناعة عميقة لدى القيادات العسكرية الأمريكية – خاصة في الجيش، وشاركهم في ذلك العديد من المدنيين – بأنه بعد الانتصار في الحرب، فإن الشيء الذي يتعيّن عمله هو إعلان النصر والعودة إلى الولايات المتحدة، وتنظيم استعراضات انتصار من نوع لم يشاهد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. ما حدث، هو أن شوارزكوف وباول ناقشا إجراء مفاوضات الهدنة على سطح مؤخرة السفينة الحربية يو إس إس ميسوري USS Missouri، الموقع الذي تم فيه استسلام اليابانيين عام ١٩٤٥. هذه الرغبة (التي أحبطها، حسبما يرى شوارزكوف، طول المدة اللازمة لجلب السفينة الحربية للمسرح) تعكس النقص المريع فيما يتعلق بأي تصوّر سابق لما يجب أن يحدث، بالإضافة إلى فهم خاطئ لكمال النجاح العسكري.

أدى إلحاح القيادة العسكرية على تعريف الحرب بمفردات تقليدية صرفة، إلى اعتراضها بمزيد من التصميم على أي احتلال مطوّل للجنوب العراقي أو أي دعم لحركة المقاومة ضد صدام في الشمال (بإشراف الأكراد) أو في الجنوب (حيث الشيعة) أو أي تحرّك مباشر إلى بغداد. ومن المفارقة أن الجيش الأمريكي اتبع نصيحة عضو مجلس الشيوخ عن ولاية فيرمونت، السيناتور جورج إيكين George D. Aiken في سنة ١٩٦٦، والذي كان الحل الذي يراه للنزاع في فيتنام حينها : «أن يتم إعلان النصر والعودة إلى البلاد».

تعكس ميول العسكريين بطرق عديدة ميول إدارة بوش نفسها، وخشيتها من الوقوع في وحل السياسة العراقية، وهو خوف تبين لاحقاً أنه ليس سوى : خوف مفرط من الشارع العربي. فلا يوجد في الواقع أي دليل يدعم القول بأن مزيداً من الإجراءات الحاسمة عند نهاية الحرب – كتدمير قوات الحرس الجمهوري بدلاً من طردها، أو مساعدة الأكراد أو المقاتلين الشيعة، أو الإصرار ببساطة على أن السلام لا يتحقق في العراق إلا بإزاحة صدام حسين عن السلطة – قد يواجه معارضة «غير مقبولة» من العالم العربي.

بدت القيادة المدنية إلى حدّ ما غير مكترثة، بالنتائج النهائية بعيدة المدى للحرب، أو متابعة هذه النتائج، حتى إذا كان الانتصار الباهر يتطلب ذلك. فقد خلصت خطأً إلى قبول تعريف السلطة العسكرية للانتصار بأنه ناتج عن ميدان المعركة الذي يتم فيه تعريف العلاقة مع الأهداف السياسية في أضيق الحدود الممكنة. في هذه الحالة فإن الهدف السياسي المشار إليه هو استعادة الحكومة الكويتية

السابقة، ولكن في واقع الأمر - سرعان ما أصبح واضحاً ان ذلك يستتبع أهدافا أكبر وأكثر غموضاً وأكثر أهمية. فلم تبدأ المحاولة لإزالة أسلحة الدمار الشامل العراقية بشكل فعلي إلا بعد انتهاء الحرب، وكما كشفت عشر سنوات من المقاومة العراقية الذكية والحاسمة، فان أي قرار بميدان المعركة لا يحقق نصراً نهائياً في غياب استراتيجية لتحقيقه. توقفت عمليات تفتيش الأمم المتحدة خلال عقد من الزمن، كما ان القصف المتكرّر على العراق لم يحقق نتيجة تُذكر، بينما أدت العقوبات والمقاطعة إلى اكتساب الشعب العراقي، إن لم يكن صدام نفسه، تعاطف الكثيرين في كل أنحاء العالم. هناك حاجة الآن لقوة أمريكية جوهرية لحماية النظام بالخليج العربي والعراق تحديداً، واختُزل الائتلاف المنتصر في حرب الخليج، في الولايات المتحدة وبريطانيا وقلّة من الحلفاء العرب المحليين الذي تساورهم المخاوف، ولا يمكن الاعتماد عليهم بشكل كامل.

قصة حرب الخليج والنتائج المترتبة عليها لا تعني اغتصاب السيطرة الاستراتيجية من قبل القيادة العسكرية، ولكنها تعني إلى حدّ بعيد التنازل عن الصلاحيات من قبل القيادة المدنية. ذلك لأنهم كمرؤوسيهم العسكريين يعتقدون بأن المبالغة في الاهتمام بالتفاصيل الإدارية الصغيرة من قبل السلطة المدنية هي السبب في كارثة في فيتنام. لقد اصطدموا بالقوة المفرطة والشعبية الواسعة والشخصية واسعة الأفق لرئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة كولن باول، وبالثقة في الكفاءة الفنية للقوات التي تعمل تحت قيادته. كما أنهم كانوا يخشون من النتائج المترتبة على تورّط طويل المدى في منطقة يرون

أنها غريبة ثقافياً وذات أهمية ثانوية، خصوصاً إن الحرب الباردة قد انتهت.

لقد استسلموا أخيراً للأغراء الإنساني، بأن ينعموا بالشهرة والبريق الذي يعود به الكثير من المحاربين الناجحين من الحرب. إلا أن الحرب، كالسياسة نفسها، ليست لها نهاية واضحة. ربما يكون أكبر خطأ يمكن لاختصاصي الاستراتيجية أن يقع فيه هو الفكرة الخيالية عن «الانتصار» في مقابل النجاحات التدرجية والجزئية، تلك التي تعمل حينها فقط على إفساح المجال لمصاعب جديدة. ربما لا عجب إذاً في أن الرئيس جورج بوش الأب - وهو نفسه بطل حرب وحائز على أوسمة - قاد الولايات المتحدة إلى نجاحات باهرة في ميدان المعركة، مع عدد محدود من الضحايا وبدون تكاليف مالية تقريباً، ووصلت تقديرات شعبيته إلى أعلى مستويات لم تشهدها الاستطلاعات من قبل، ومع هذا فقد وجد نفسه فجأة وقد أزيح عن الرئاسة خلال أقل من سنتين من تاريخه جراء هزيمة نكراء من قبل حاكم ولاية جنوبية صغيرة وفقيرة هو: بيل كلنتون الذي تملص من التجنيد في أثناء حرب فيتنام!

أقسم أننا قد تجاوزنا فيتنام إلى الأبد

العديد من الجنود والمدنيين يعتقدون بأن حرب الخليج قد قضت على أشباح وشياطين حرب الهند/الصينية. طوال فترة حرب الخليج، كان بوش يفكر في حرب فيتنام. إعلانه الحماسي عن نهاية الحرب كشف إلى أي مدى كانت فيتنام قابعة في ذهنه. مفكرته بتاريخ

٢٦ فبراير ١٩٩١، قبل يومين من نهاية الحرب، تتضمن هذه العبارة :

- مدهشٌ كم الزمن الذي انقضى قبل أن تنتهي أعراض فيتنام ! فيتنام ستكون قريباً وراء ظهورنا.

وقد أعرب عن أسفه من أن الحرب لم تختتم بالاستسلام :

- على متن السفينة الحربية ميسوري. هذا ما ينقص لكي تكون النهاية مماثلة لما حدث في الحرب العالمية الثانية، وتمييز الكويت عن كوريا وفيتنام.

الإصرار على انتهاء متلازمة فيتنام (الذي يبدو أن بوش قصد به الفوضى والنهايات غير المرْضية والفِرق الداخلية والسلطة العسكرية المكبلة) يكشف بالطبع حجم الألم المتبقي في داخله من جراء تلك التجربة. ومع ذلك، فهذه النهاية غير المرْضية لحرب الخليج – حيث تركت صدام حسين في السلطة، وحيث لا يزال يشكل تهديداً، متحررا بشكل متزايد من العقوبات الخارجية المفروضة عليه بعد عقد من تاريخه - توضح أن الرئيس قد أخفق أيضاً في تحقيق هدفه المباشر.

إن حرب الخليج لم تؤدِّ في الواقع إلى إنهاء «متلازمة فيتنام» بل عزّزتها في الواقع. دروس حرب الخليج التي تعلمتها المؤسسة العسكرية الأمريكية، ترقى إلى تعزيز قوي لاعتقادات عميقة تعود إلى فيتنام وتصل إلى تعزيز هائل، إلى حدّ التشويه، للنظرية «السائدة» للعلاقات بين المدنيين والعسكريين. في العقد التالي اجتمعت الدروس المزدوجة لفيتنام والخليج لإيجاد نسخة من النظرية «السائدة» للعلاقات بين

المدنيين والعسكريين، أدت في النهاية إلى إضعاف مبدأ السيطرة المدنية على العسكر في الولايات المتحدة، وعمّقت انعدام الثقة بين الضباط الكبار والسياسيين، وسيّست الضبّاط أيضاً.

أن دروس حرب فيتنام والخليج لم تختف بالتقادم والتقاعد التدريجي لجيل حرب فيتنام من ضباط القوات المسلحة. وقد تم إجراء دراسات مسح مكثفة من قبل علماء الاجتماع من معهد تراينجل للدراسات الأمنية في ١٩٩٩، وتوجيه أسئلة للضباط عن مدى أفضلية بقاء العسكر على الحياد أو السماح لهم بالسيطرة على بعض عناصر استخدام القوة. كشفت النتائج أن الضباط يعتقدون أنه كان وما زال من واجبهم أن «يصروا» على اعتماد إجراءات معينة (بدلاً عن تقديم النصح أو المناصرة)، بما يشمل وضع قواعد الاشتباك (٥٠ بالمائة)، وإعداد «استراتيجية الخروج» (٥٢ بالمائة)، و« تحديد أنواع الوحدات العسكرية (جوية مقابل بحرية، ثقيلة مقابل خفيفة) التي سيتم استخدامها لإنجاز كافة المهام» (٦٣ بالمائة).

ماذا تعني كلمة «يصروا» في هذا السياق، حقيقة. هل تعني استخدام السلاح النووي مثلاً؟! وهناك أيضاً شيء مهم أحدث تغييراً في العلاقات الأمريكية بين المدنيين والعسكريين. ذلك أن الضباط تعززت ثقتهم الذاتية بنفوذهم المتزايد على مدى عقدين وبنسخة مقبولة للعلاقات بين المدنيين والعسكريين تعكسها القصص المعنوية لحربي فيتنام والخليج، فوصلوا إلى قناعة راسخة بأن المدنيين لا شأن لهم بالتدقيق في عملهم.

أوضحت بيانات المسح الذي قام به معهد ترايانجل للدراسات الأمنية أن العسكريين الأمريكيين في مرحلة ما بعد حرب الخليج لديهم رؤية عمن يجب أن يتحكم في استخدام القوة، مختلفة جداً عن الحوار غير المتكافئ الذي تم تناوله هنا. كما أن هذه الرؤى ليست مقترحات نظرية صرفة محجوبة عن التأثير في الواقع العملي. عندما تقوم مصادر هيئة رؤساء الأركان المشتركة، على سبيل المثال، بتسريب آراء معارضة لحرب كوسوفو في سنة ١٩٩٩ للصحافة، في اعتراض معلن: «لا ظن بأن هناك من يعتقد بوجود حجّة مقنعة تدعم القول بأن كل ذلك من أجل مصلحتنا الوطنية» فإنهم يظهرون وكأن العسكريين هم من يحدّدون تلك المصلحة الوطنية. صحيح، أنه بنهاية القرن العشرين أصبح من المألوف أن يسرّب ضباط القوات المسلحة للصحافة معارضتهم لسياسة الحكومة التي تتضمن استخدام القوة. وهذا مختلف جداً عن الصمت الغاضب الممتثل للأوامر، الذي تقبّل به رئيسا أركان الجيش والبحرية في ذلك الزمن، قرار الرئيس روزفلت بغزو شمال إفريقيا في سنة ١٩٤٢، خلافاً لنصيحتهما الصريحة والحازمة.

في حرب الخليج، وفي مجموعة الحروب الصغيرة التي تلت، لم تعد «المشورة» العسكرية «مشورة» البتة. وإنما أصبحت شيئاً مختلفاً : لقد أصبحت إعداد خيارات، وأحياناً تقديم خيار واحد، للقيادة المدنية. وصار صانعو القرار من القيادة المدنية الأمريكية يترددون قبل أن يطلبوا المزيد من مرؤوسيهم العسكريين. بعد استنكار إدارة الرئيس كلنتون لسلبية إدارة بوش الأول في يوغسلافيا، وخاصة في

البوسنة، أصيبت بالشلل في سنة ١٩٩٢ أمام التقديرات العسكرية التي تشير إلى الحاجة إلى ٤٠٠،٠٠٠ جندي أو أكثر للتدخّل هناك. وعندما استُخدمت القوات الأمريكية، فقد تم ذلك دون تعاون وتواصل مع الجهد السياسي الأوسع – فما بالك بالخضوع له!

والحقيقة أن ريتشارد هولبروك Richard Holbrooke، المفاوض الأمريكي الرئيسي في البلقان في سنة ١٩٩٥، تحدّث بأن نظيره العسكري، الأدميرال ليتون سميث Leighton Smith، اعتبر نفسه قوة مستقلة «أبلغني أنه المسؤول الوحيد» عن سلامة ورفاهية قواته، وأنه يتخذ قراره بموجب التفويض الممنوح له من قبل مجلس حلف الناتو وبناء على تقديره الخاص.

واقعاً، لقد قال هذا الرجل بأنه لا يعمل حتى لصالح الولايات المتحدة، وذلك باعتباره قائداً في حلف الناتو يتلقى الأوامر من بروكسل. وتعكس معارضة سميث المتعنتة للرجل المكلّف بتنفيذ السياسة الأمريكية، نفس الفرضيات التي أدت إلى سوء العلاقة بين فوش وكليمنصو. إنها تذكرنا بأن العمليات المشتركة التي تقوم بها الائتلافات – برغم كونها أساسية اليوم في حفظ السلام والحد من التدخلات - تنتج مصاعبها الخاصة في مجال العلاقات بين المدنيين والعسكريين.

التدخل في الصومال في سنة ١٩٩٣ كان حالة مماثلة أخرى. فمشاركة القوات الأمريكية تحت رعاية الأمم المتحدة سمحت باتباع سياسات متوازية ومتنازعة بلغت ذروتها بالمحاولة الكارثية لاختطاف

أحد أمراء الحرب الصوماليين كان تعاونه أساسياً لأي ترتيبات للاستقرار في مقديشو. هنا يقع اللوم أيضاً على إهمال السلطة المدنية وليس التعنّت العسكري، فقد انقاد الرئيس ووزير الدفاع للمفوّض السامي للأمم المتحدة - وهو أمريكي الجنسية - ولم يعتبرا القوات الأمريكية العاملة في مقديشو قوات تخوض حرباً خفيفة، إلا أنها حرب يجب أن يبذل فيها نوع من الجهد من قبل السلطة المحلية لإحداث التناغم بين الغايات والوسائل. وبعيداً عن الإساءة إلى العسكر والعسكرية بالإفراط في الاهتمام بالتفاصيل الإدارية الدقيقة، فإن إدارة كلنتون أساءت إليهم بعدم التعامل بجدية مع الحرب وعدم التدقيق في الوسائل والطرق والتقنيات. فشلت القيادة السياسية (إذا أخذنا الحالة الصومالية فحسب) في طرح السؤال : لماذا تعمل القوات الأمريكية في الصومال تحت قيادات متعدّدة مختلفة، ضعيفة التواصل فيما بينها، بل كان التواصل معدوماً في بعض الأحيان؟

في السنوات التي تلت حرب الخليج بصفة خاصة، أصبح من المتوقع أن يتحمل مسؤولية الإخفاق العسكري القادة المدنيون وليس مرؤوسيهم من العسكريين. فقد استقال وزير الدفاع ليز أسبين Les Aspin بعد مقتل ثمانية عشر من نخبة المشاة في كمين وسط مدينة مقديشو في سنة ١٩٩٣ مع أن المستشارين العسكريين لم يحثّوه على اتباع مسارٍ مختلفٍ عن ذلك الي اتخذته القوات الأمريكية هناك. وأنه في الواقع كان يفضّل انسحاب النظام الوحيد الذي يمكن أن ينقذ قوة النخبة، طائرة AC-130 المسلّحة. في مسعى مماثل، وإن يكن أقل تطرّفاً، تحمّل وزير الدفاع وليام بيري William Perry المسؤولية

عند مواجهته لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ عن أي إخفاق ارتبط بالهجوم على أبراج الخبر بالظهران، المملكة العربية السعودية، والذي أدى إلى مقتل تسعة عشر من العاملين في سنة ١٩٩٦، بينما كان القائد الميداني يجلس صامتاً إلى جانبه. قد يعاني الضباط من الرتب الصغيرة من أخطاء الإهمال (فقد تم رفض ترقية عميد بالقوات الجوية في أعقاب هجوم الخبر، رغم أنه ما كان ليمنع وقوع الحدث أو المجالدة ضده، بفاعلية أكبر مما فعل)، إلا أن كبار القادة لم يتعرضوا لأي عقوبة. أما بالنسبة للقادة المدنيين فإن تحميل القيادات العسكرية المسؤولية عن أدائهم في العمليات يزيد من تفاقم الإخفاقات التي يحتمل حدوثها.

تزامن التراجع في نوعية العلاقات الأمريكية بين المدنيين والعسكريين مع بروز التفوّق العسكري الأمريكي فيما يتعلق بالجوانب التقنية والتنظيمية والكمية. تفوقٌ نجم عن الازدهار الاقتصادي غير العادي للولايات المتحدة، إضافة إلى نوعية قواتها المسلحة. إلا أنه حتى في حالة النجاحات مثل عملية «القوة الحليفة» في سنة ١٩٩٩، وحرب الناتو مع صربيا بقيادة أمريكي، هو الجنرال ويسلي كلارك Wesley Clark، فإن إخفاق رجال الدولة والقادة في الاتفاق فيما بينهم أدى إلى نتائج ضارة. ذلك أن كلارك، كجنرال لامع وطموح وسياسي محنّك، عمل على دعم السياسة الأمريكية طبقاً للتفاصيل المحدّدة من قبل وزير الدفاع.

سأله أحد زملائه:

- إلى أين سيصير أصدقاؤك المدنيون إذا ساءت الأمور؟ هل سينصرفون كما فعل المدنيون بعد كارثة فيتنام إلى تأليف كتبهم وتولي مناصب رفيعة، كما فعل ماك بوندي وبوب ماكنمارا؟

في المجال العسكري، من يتسم بالرشاقة اللفظية المفرطة واللباقة، ومن يستطيع حضور اجتماعات مختلفة، ويرضي الأطراف المتعارضة، لا يُنظر إليه بإعجاب، وإنما بنوع من عدم الثقة.

دفع كلارك ثمناً غالياً لمعارضة رفاقه العسكريين ممن ليس لديهم رغبة أو حماسة لحرب كوسوفو، أو للرئيس الذي قادهم إليها. لم يتحدث الرئيس ولا وزير الدفاع إلى القائد الميداني، الذي وجد نفسه في مواجهة مع رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة العدواني والجنرالات غير المتعاونين في الوطن:

- ليس لدي فكرة، ولم تكن لدي أبداً طوال الأزمة، عن الطريقة التي عمل بها القائد العام أو وزير الدفاع لاتخاذ قراراتهم.

المدنيون من جانبهم تفحصوا القوائم المستهدفة إلا أنهم بوجه عام اعتمدوا طلبات قائدهم الميداني، الذي واجه قدراً كبيراً من عدم الرغبة، من طرف الحلفاء بالناتو. فالرئيس كلنتون سعى لتجنب وقوع الضحايا، وأعلن سابقاً أن الولايات المتحدة لن تُدخل قوات برية إلى كوسوفو، وهذا موقف مجازف سيكون من شأنه إطالة الحملة الجوية. ويمكّن الصرب في أثناء ذلك من إبادة الألبان في كوسوفو في الوقت وبالطريقة التي تناسبهم. يبدو أن هذا القرار سبق أي مفاوضات استراتيجية مع القادة العسكريين ولم يَلِه. وهو مطلب لم يُفكر فيه

جيداً، يهدف «لحماية القوة». إنها المهمة الأولى للجنود الأمريكيين قبل أي هدف آخر يمكن أن يتعرّضوا للأذى في سبيله. إلا أنه يعكس عدم الرغبة في الوصول إلى اتفاق بشأن ما يعنيه استخدام القوة. بدلاً من التبديد الطائش للقوة، فإنه يعني الآن المحافظة عليها، على نحو أقل طيشاً.

انتهت حرب كوسوفو بدون ضحايا حرب من الأمريكيين، وبطرد القوات الصربية من كوسوفو. بعد هذا النجاح فإن كلارك - الذي لم يكن لديه أصدقاء في أوساط القيادة العسكرية العليا وكان قد نفّر منه وزير الدفاع وليام كوهين William Cohen وهو قائد مدني استوعب وجهات نظر هيئة رؤساء الأركان المشتركة – قد وجد نفسه وقد أحيل على المعاش المبكر. وحل مكانه الجنرال جوزيف رالستون Joseph Ralston، نائب رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة، وهو من كان يعبّر عن كافة التحفظات العسكرية التقليدية حول قتال الصرب، وتم ترفيعه ليصبح القائد الأعلى للحلفاء في أوروبا.

الأساليب الروتينية

العلاقات بين المدنيين والعسكريين الآن في حالة تناغم وانسياب، وأصبح كبار القادة العسكريين يختلطون برؤسائهم من المدنيين بسهولة أكبر بكثير مما كان عليه الحال في عهد لنكولن أو حتى تشرشل. بل ويشاركون في نفس اجتماعات اللجان حول العلاقات الخارجية والتفاوض بنفس القدر من السهولة حول الموضوعات السياسية، وليست العسكرية فقط. وهم أعضاء نشطون في اجتماعات

المكاتب البيروقراطية ويتواصلون بسهولة في الاجتماعات المشتركة بين الوكالات. وقد قاد هذا التناغم السطحي بعض الباحثين إلى التحدّث عن نظرية التوافق باعتبارها نموذجاً أكثر جاذبية للعلاقات بين المدنيين والعسكريين. غير أن هذا كله ليس سوى: سراب.

راكم العسكريون الأمريكيون في أثناء الحرب الباردة مقداراً كبيراً من السلطة والنفوذ، وقسّموا العالم إلى مسارح عمليات، وهذه تفرعت إلى قيادات يفوق عدد العاملين بها من يعملون في المكتب المباشر للرئيس. ولخوض الحرب الباردة عمدت الحكومة إلى تطوير مهارات كبار ضباطها في مجال السياسة، بدءاً من مرحلة تدريبهم بالأكاديميات العسكرية، والعمل كمتدربين بالكونغرس، وهي تدرّس السياسة تحت مسمى (الاستراتيجية) في كلياتها الحربية.

في نفس الوقت، وبصفة خاصة بعد فيتنام، زاد استهجان العسكر جهود القادة المدنيين للتدخل في تفاصيل الشؤون العسكرية. أما بشأن تفسير إخفاقاتهم أو نجاحاتهم الجزئية منذ الحرب العالمية الثانية، فإن الضباط الأكثر عمقاً أعلنوا أنه لتحقيق الانتصارات يجب أن تتوفر الإرادة السياسية. هذا يعني إرادة الإدارة والكونغرس والشعب الأمريكي مجتمعين، بحيث يتعين أن يتوحّد الجميع على الرغبة في التحرك. في حالة قبول هذا الشرط الأساسي المسبق، فإن الوحدة التي أفلتت من الولايات المتحدة في أي حرب كبيرة باستثناء الحربين العالميتين، تعني أن المدنيين سيخيّبون أمل العسكريين دائماً، وسيكون للعسكريين عذر دائم.

هذه الرؤى العسكرية المتشددة حول استخدام القوة، تتماشى إلى حد بعيد مع خطوط قواعد واينبرجر ومذهب باول. ولعل الأكثر إثارة للإزعاج في نهاية القرن، تلك المؤشرات بأن العسكريين الأمريكيين يرغبون بشكل متزايد في اتخاذ مواقف سياسية، للمحافظة على مصالحهم الخاصة. هذا التوجه السياسي حدث بقدر كبير على قمة الهرم وأسفله، معاً. ذلك أن بيل كلنتون، بعد نجاحه في إقناع مجموعة من كبار الضباط المتقاعدين حديثاً لمساندة ترشيحه في ١٩٩٢، وجد لاحقاً أن هناك من تفوّق عليه، وهو نجل الرجل الذي سبق أن هزمه. فقد جمع جورج بوش الابن قائمة أطول وأكثر نفوذاً، على رأسها ثلاثة من الذين تقاعدوا خلال أسابيع أو أيام فقط من الخدمة العسكرية: القائدان العامان للبحرية وقوات المارينز وقائد القوات الأمريكية في الخليج العربي. إنه استخدام لكبار الضباط كمساندين في الحملات السياسية بناء على رغبتهم في الانتماء لأحد الحزبين، بعيداً عن معايير السلوك المعدة من أشخاص مثل جورج مارشال George Marshall، رئيس هيئة أركان الجيش في أثناء الحرب العالمية الثانية. اختار مارشال عدم التصويت لتجنب تفضيل أي من الحزبين. وفي سنة ١٩٤٣ قدم محاضرة لأحد مرؤوسيه:

- نحن مكرسون بشكل كامل، نحن أعضاء كهنوت حقيقي، هدفه الوحيد حماية الجمهورية.

ومن ثم شدد على أن الثقة العامة في حياد العسكريين «ثقة مقدسة» يجب ألا تغيب عن البال في «كل يوم وكل ساعة».

ثمة تناقض ظاهري هنا. النظرية «السائدة» التي دعت إلى إبعاد المدنيين عن التدخّل في التفاصيل العسكرية، تساهلت في نهاية المطاف مع رغبة العسكريين في إقحام أنفسهم في السياسة! مع ذلك فإن هذه الرغبة تستتبع رأي النظرية «السائدة» غير الواقعي في استخدام القوة باعتباره منفصلاً عن السياسة في كل شيء، إلا في المعنى الواسع للكلمة.

وبالنظر إلى أن عالم ما بعد الحرب الباردة، هو العالم الذي أصبح فيه التفاعل بين القوة والسياسة أشدّ تعقيداً، فليس من المفاجئ أن يشارك العسكريين في السياسة، وإن لم يكن لأفضل الدوافع. وتعزّز الميل للقيام بذلك بتزايد الفجوة بين القيم العسكرية التقليدية للتراتبية والنظام والولاء والتضحية بالذات، وعالم مدني يبدو أنه متزايد المساواة (في عادات العمل على الأقل)، ومائع وفرداني واستحواذي. انتشار تكامل الجنسين في الجيش الحديث، وأضعاف الحواجز أمام مشاركة المثليين في القوات المسلّحة، عزز الإحساس بالحصار في أوساط الضباط ذوي العقليات التقليدية، مع أن ذلك طمس الحواجز بين مؤسسة المجموعات ذات المصالح، بالنسبة للآخرين.

قبل نهاية القرن العشرين مباشرة، عملت لجنة الشؤون الخارجية بمجلس الشيوخ على مراجعة حرب ١٩٩٩ التي خاضتها الولايات المتحدة وحلفاؤها ضد صربيا. وفي ذلك قال السيناتور غوردون سميث Gordon Smith، النائب عن أوريجون، الذي ترأس الجلسة:

- انزعجت للغاية، لأن الاعتبارات السياسية أثّرت على الاستراتيجية العسكرية لحلف الناتو. الأمور وصلت إلى الحدّ الذي صار فيه السياسيون شكّاكين. وكانوا أحياناً يستخدمون الفيتو ضد أهداف تم اختيارها من قبل السلطة العسكرية. لدي اعتقاد راسخ بحاجتنا إلى سيطرة السلطة المدنية على السلطة العسكرية في أي مجتمع ديمقراطي، ولكني أعتقد أيضاً بأنه يمكننا أن ننتمي لهذا المبدأ الأساسي : إيجاد تحديد واضح للأهداف السياسية ومن ثم نتيح للقادة العسكريين في إطار هذه الأهداف، أن يعملوا على رسم استراتيجية تحقّق هذه الأهداف.

إن النظرية «السائدة» للعلاقات بين المدنيين والعسكريين ما زالت قائمة وقوية.

رجل الدولة العظيم حالة نادرة، والسياسي المعتدل الذي تجسد في تشرشل أو لنكولن قد يكون مصيره الإخفاق. إلا أن هذا هو الحال أيضاً في رجل دولة متواضع يلجأ إلى قواعد مبهمة مثل «الانقياد للمهنيين» ويتجه، ربما بأقصر الطرق إلى دمار أكيد. والمثير للاهتمام حقاً أن كولن باول نفسه صاغ هذا الدرس من الحياة :

- لا تتهيّب أن تتحدى حلفاءك، حتى في فناء دارهم الخلفي. ومن المهم ألا تتجاهل التفاصيل بأي حال، حتى للدرجة التي تكون فيها مزعجاً.

باستثناء ما يتعلق بأوضاع مفضلة بشكل متميز (كما هو الحال على سبيل المثال في سنة ١٩٩٩، عندما ذهبت الولايات المتحدة وحلفاؤها

إلى الحرب في صربيا - دولة يقدر إجمالي ناتجها القومي بنحو واحد من خمسة عشر من حجم موازنة الدفاع الأمريكية لوحدها) فإن حصيلة المدنيين الذين يتلقون نصائح عسكرية دون سؤال، قد لا يكون جيداً.

الاعتقاد الذي يحمل على الأمل في خطوط التقسيم الواضحة بين السلطة المدنية والعسكرية، والقضايا السياسية والعسكرية، هي ما أطلق عليه كارل فون كلاوزفيتز مصطلح «نظرية الحرب»: مجموعة من المعتقدات والمبادئ التي يمكن أن تستفيد من القوة، بقدر أكبر من التحكم. كما لاحظ أيضاً، أنه في غياب تحليل ذكي لسلوك الحرب، فإن الأساليب الروتينية تميل إلى تولي الأمر حتى في أعلى المستويات. النظرية «السائدة» للعلاقات بين المدنيين والعسكريين هي في الواقع، جهد لجعل القيادة العليا مسألة روتينية. الحوار غير المتكافئ، الذي سنتجه إليه لاحقاً، هو روح تقنية رجل الدولة في حرب ناجحة. لقد تناولناها في فصول سابقة، وهي المعادل الموضوعي للأساليب الروتينية في لغة كلاوزفيتز.

الفصل السابع

حوار غير متكافئ

عيّنة متوسطة من البشر

لقد شهدنا أربعة من عظماء رؤساء الدول وأربع مشاكل متباينة جداً . لنكولن يبحث عن جنرال يشاطره نفس المفهوم عن الحرب، وكليمنصو وهو يحاول موازنة الدوافع المتناقضة لقادته العسكريين، وتشرشل وهو يبحث بلا هوادة عن خيارات أكثر، وأخيراً، بن غوريون وهو يصر على أن يفهم الأساسيات في قلب التعقيد. لقد تعاملوا مع مشاكلهم بطرق مختلفة. استخدم لنكولن دهاءه متظاهراً بالبساطة الريفية؛ في حين أن كليمنصو، النمر، أظهر التحدي والتصميم، أما تشرشل فقد أذهل وأزعج العالم بعبقريته وذكائه، وبن غوريون درّس وأخاف الآخرين بنفس القدر. ما الأمر المشترك فيما بينهم؟

من المثير للاهتمام أن أحداً منهم لم يفرض أسلوبه على مرؤوسيه. ربما أقنعوهم عن طريق الاستدراج أو الملاطفة أو بالتخويف أو الاستجواب أو التحقيق، لكن من النادر أن تراهم يصدرون الأوامر أو يتصرّفون كما يتصرف القائد العسكري. وكل واحد منهم، تسامَح

بل ورقىّ الرجال الذين اختلف معهم. لم يكن جرانت وفوش وبروك ويادين أشخاصاً ضعفاء، فهم لم يترددوا في مجادلة رجال الدولة الذين يكنّون لهم الكثير من الإعجاب. ما حدث من نقاش بين رئيس دولة أو رئيس وزراء وجنراله كان حواراً متكافئاً بمعنى أن كلا الجانبين عبّر عن آرائه بصراحة، بل في بعض الأحيان بطريقة هجومية، وليس مرة واحدة وإنما مراراً وتكراراً. وغير متكافئ بمعنى أن سلطة القائد المدني النهائية كانت صريحة وغير متنازع عليها، وكانت في جميع الحالات أقوى في نهاية الحرب مما كانت عليه في بدايتها.

وقد لزم من ذلك الأخذ والرد، دفع ثمن حقيقي. بصورة عامة، وقع دفع الثمن على حساب الجنرالات، الذين وجدوا أنفسهم محطمين بسبب الشدّ الناتج عن إدارة الحرب. بينما تتم إدارتهم وتوجيههم بواسطة قائد مدني يعامل الاستشارة العسكرية، على أنها مجرد رأي، وليس طريقة أو أسلوب عمل تجب المصادقة عليه.

لقد عانت بعض الشخصيات الأقل وزناً في هذه الحروب من عبء هذه المعاملة التي اعتبروها طوال ما تبقى من حياتهم غير منصفة، بل وفي بعض الأحيان كانت ظالمة بدرجة قاسية. وقد كان العسكر البريطانيون مثل المُشير سير جون ديل والمُشير أرشيبولد وافيل، مثالَين بارزَين للرجال الأذكياء العارفين والقادرين الذين لم يستطيعوا أن يتوافقوا مع رئيس وزراء يكنّ احتراماً كبيراً لنوع آخر من الرجال الذين لهم ذكاء واضح وأقل تحفظاً، رجال لهم حظ كبير في أن يقودوا جيشاً كان نصيبه دائماً النصر وليس الهزيمة أو الفشل. قد يذرف القليل من دارسي (الحرب الأهلية) دموعاً على ذلك الشخص

مفرط الأنانية ومستدر العطف على نفسه، جورج مكليلان. لكن من الصعب أن تتفادى التعاطف تجاه جورج ميد الشخص الكفؤ، وخشن الطبع، وسريع الغضب وآخر قائد لجيش بوتوماك، وهو من منح المضيف المتفوق عليه في المناورة، نصره الوحيد الواضح حتى نهاية الحرب، أي معركة جيتسبرج. فبعد أن كسب الصراع الملحمي الذي استمر لمدة ثلاثة أيام وخلف وراءه ٥٠،٠٠٠ قتيل أو جريح - بعد أسبوع واحد من تسلمه القيادة - علم بأن الرئيس يائس منه لأنه فشل في أن يبيد جيش لي. وقد بدا ذلك وكأنه تعويض أو مكافأة هزيلة عندما يتكوّن التاريخ السابق لجيش بوتوماك من هزائم وتعادلٌ واحد غير حاسم، في معركة أنتيتام الدموية. وفي ثورة غضب شديد قدم ميد استقالته ورفضها لنكولن. وعندما أثبت ميد أنه غير مستعد لأن يغامر أكثر بخسائر هائلة في خريف عام ١٨٦٣ اكتشف أنه خسر السباق على يد جندي سكير جاء من الغرب لم يكن له ميزة واحدة سوى : الإصرار الصريح. في نهاية الحرب تلقى ميد، شكراً قليلاً (وثقة أقل) من الرئيس، بل ولم يكن حاضراً في لحظة الاستسلام النهائي لقوات لي في قاعة محكمة أبوماتوكس.

حتى القادة المفضلين، أولئك الذين حققوا انتصارات وخدموا بإخلاص، لم يكونوا يتلقون دائماً معاملة طيبة في مقابل ذلك. وقد سخر كليمنصو من فوش في مذكراته، معلناً أن الجنرال :

- كان من نوعية متوسطة من البشر. وأن نقطة ضعفه الرئيسية أنه كان يتخيل نفسه أنه أعظم مما كان.

إيغال ألون، القائد المندفع في البالماخ والجنرال والقائد البارز في حرب استقلال إسرائيل، أنهيت حياته العسكرية ولم يمضِ عليها إلا وقت قصير بحيث صار من الممكن أن يبدي رأيه أو يقدم الاستشارة من مقاعد المتفرجين. يمكن أن يلعب دوراً هاماً في سياسة إسرائيل، لكن بعد بلوغه سن الحادية والثلاثين لم يعد يمارس أي قيادة عسكرية برغم تفوقه فيها بوضوح. وبالنسبة له، كما بالنسبة لأي عسكري طموح ووطني يتمتع بالقدرة على قيادة تنظيمات هائلة في الحرب، كان ذلك يمثل ضربة قاسية غير عادية.

لقد وجد بروك نفسه منسياً تماماً بسبب تعبيره الصريح عن أفكاره ورأيه في تشرشل. ويتذكر جون كولفيل، سكرتير تشرشل خلال الحرب:

- أن بروك الشخص الوحيد الذي رأيته يدير ظهره عمداً لتشرشل.

حتى جرانت، الذي كان يعمل تحت أوسع توجيه من رئيس يكن له الاحترام، كان تحت مراقبة شديدة من قبل زمرته العسكرية ، وكان معرضاً لإنذارات تهديدية من الاستراتيجي الهاوي في البيت الأبيض، ويحاصره أمر صارم بألا يتخطى أوامره حتى في أتفه الأمور. برقية وزير الدفاع إدوين ستانتون التي أرسلها إليه في مارس من عام ١٨٦٥ ، تمت صياغتها بيد لنكولن نفسه، وكان التاريخ والتحية والتوقيع بخط يد ستانتون على الوجه التالي :

- لقد وجهني الرئيس بأن أقول لك بأنه يريد منك ألا تعقد

أي مؤتمر أو اجتماع مع الجنرال لي، إلا أن يكون ذلك بغرض استسلام جيش لي، أو بغرض بعض الأمور الثانوية، ذات الطابع العسكري البحت. وهو قد وجهني بأن أقول لك بأنه ليس من حقك أن تقرر أو تناقش أو تجتمع بخصوص أي مسألة سياسية. مثل هذه المواضيع هي من اختصاص الرئيس وحده، ولن يتخلى عنها من أجل عقد مؤتمرات أو لقاءات عسكرية. في الوقت الراهن، عليك أن تضغط بشدة من أجل الغايات العسكرية.

الجميع يعرف من هو السيد. كل واحدٍ من رجال الدولة هؤلاء كان قادراً على أن يعطي مدحاً سخياً، إلا أنه ليس هناك واحد منهم مستعد، في النهاية، لأن يرخي قبضته عن مرؤوسيه المرهقين.

في حالات الطوارئ القصوى قد يصبح الجميع مخطئاً

ما هي إذن، في التحليل النهائي، المميزات أو الخصائص القيادية التي يمارسها رجال الدولة الموصوفون هنا. وبأي مقياس يمكن للآخرين أن يقلدوهم أو يقتدوا بهم؟ فهؤلاء الرجال ليسوا خبراء عسكريين أو فنيين؛ وقد رأينا أنهم في كثير من الأحيان يخطئون في حكمهم على الأمور الفنية، بغض النظر عن مدى المعرفة التي يتمتعون بها في هذا المجال. ربما تكمن واحدة من قدراتهم في الإدراك بأن الخبراء يمكن أن يخطئوا بنفس القدر، وهي معرفة تعتبر في النهاية، شكلاً مظلماً من أشكال الحكمة. ذكر ذلك المراقب والناقد اللاذع للرجال والسياسة، هنري آدمز Henry Adams حيث قال: «إنه وجَد، في جميع الأحداث الطارئة العظيمة أن كل واحد تقريباً كان مخطئاً».

هذا صحيح إلى حدّ ما، لكن بعض فن القيادة قد يكمن في حَدس القائد، عندما يكون هناك آخرون أكثر خطأ من شخصه.

بالتأكيد، إن رجال الدولة الذين تم استعراضهم هنا أظهروا مقداراً مما نسميه عادة الحدس السليم، بمقدار يفوق كثيراً الحدّ المألوف في الشؤون الإنسانية. و«الحدس» و«العبقرية» هما كلمتان لا تصفان إلا سطح فن السياسة. كتب إزايا بيرلين Isaiah Berlin مقالين رائعين حول مضمون الحنكة السياسية :

- ما يجعل رجال الدولة الناجحين ناجحين، مثلهم مثل سائقي السيارات، هو أنهم لا يفكرون بصفة العموم. بمعنى، أنهم لا يناقشون أنفسهم بصفة أساسية : كيف يختلف وضع معيّن عن الأوضاع الأخرى في المسار الطويل لتاريخ الإنسانية.

إن موهبة القادة السياسيين العظماء :

- تستلزم، فوق كل شيء، قدرة على التكامل وجمع خليط هائل دائم التغيير، متعدد الألوان، متلاشٍ، دائم التشابك، مأخوذ من بيانات هائلة وعالية السرعة وكثيرة الاختلاط مع بعضها البعض، بحيث لا يتمكن الإنسان من فهمها وتصنيفها مثل العديد من الفراشات المختلفة.

ويقول إزايا إن الموهبة هي مثل تلك التي لدى بعض كتاب الأدب العظماء، وبالفعل هناك الكثير مِن طبْع الفنان لدى العديد من هؤلاء السياسيين :

- إن ما يجعل الرجال أغبياء أو حكماء، متفهمين أو عُمياً، مقارنة بالعارفين أو المتعلمين أو المطلعين كثيراً، هو إدراك هذه النكهات الفريدة لكل حالة أو وضع، كما هو في اختلافاتها المحددة.

طبقاً لما يقول بيرلين، فإن :

- إدراك الخاصية الفريدة لكل وضع سياسي معين هو جزء واحد فقط، من فن السياسة.

ويُعتقد أن من المهم بالقدر نفسه، القدرة على تحليل وفهم كيف تتفاعل مجموعة من القوى والظروف مع بعضها البعض. إن الاستعارة أو المجاز القديم الذي يشبّه رجل السياسة بقبطان السفينة هو أمر عادل، لكنه ينطبق بطريقة أفضل عندما نتصوره كبرج قيادة لسفينة شديدة التعقيد تبحر عبر بحار متلاطمة بمجموعة كبيرة من الأشرعة والحبال والصواري التي تعمل مع وضد بعضها البعض، وضد الأنواء، بأسلوب معقد للغاية، بحيث لا يمكن اختزاله إلى مجرد أحكام أو قواعد في السلوك. فلا عجب إذن إذا ذكر كليمنصو لتشرشل في واحدة من أزمات عام ١٩١٨:

- ليس لدي نظام سياسي، لقد تخليت عن جميع المبادئ السياسية. أنا رجل أتعامل مع الأحداث كما تحدث، بناءً على تجربتي.

وقد يجد كاتب السير الذاتية كثيراً من المبادئ في كلام كليمنصو، أكثر مما اعترف به كليمنصو نفسه. إنها عاطفة عبّر عنها

العديد من القادة السياسيين. وفي مسار أكثر تطرفاً، كتب لنكولن ذات يوم :

- أنا أدعي بأني لم أسيطر على الأحداث، لكن اعترف بصراحة أن الأحداث هي التي تحكمت بي.

مرة أخرى لم تكن هذه ملاحظة صريحة بالكامل (هناك قليل من المباشر عن لنكولن) لكنها في المقابل لم تكن خاطئة.

بعيداً عن التفاصيل، يكمن التحدي بالنسبة لأي قائد أعلى، لا في مستوى الإرشاد أو التجريد، وإنما في تكامل التفاصيل مع الأفكار الرئيسية. وفي فهم الغابة بفحص أيكات معينة، بل وحتى الأشجار المنفردة بعناية كبيرة. في المقابل، فإن فشل السياسيين الأمريكيين كقادة حرب في فيتنام، ليس لأنهم أغرقوا أنفسهم في تفاصيل كثيرة جداً، بل لأنهم نظروا في التفاصيل الخاطئة، وبالتالي توصلوا إلى نتائج خاطئة. إنهم لم يقوموا باختبار استراتيجيتهم - نظرية النصر كما يسميها البعض - على ضوء من الحقائق الميدانية. لم يسألوا عما إذا كانت التنظيمات العاملة تتمتع بالهيكلة الصحيحة والمهام الصحيحة. وفوق ذلك كله : هل كان لديها القادة المناسبون؟ لم يتفحصوا بدقة، أو يختبروا أو يسائلوا مرؤوسيهم، ولم يجبروهم على الدخول في مناقشات مع مختصين أو محترفين آخرين لديهم وجهة نظر مختلفة.

أعلن لنكولن في رسالته السنوية إلى الكونجرس في أول سبتمبر ١٨٦٢:

- إن قناعات الماضي الهادئ لم تعد كافية للحاضر العاصف،

وبما أن حالتنا تعتبر جديدة، فيجب علينا أن نفكر بطريقة جديدة وأن نتصرف بطريقة جديدة.

إن جزءاً من فن الإدراك بالنسبة لرجل السياسة يتمثل في رؤيته لما هو جديد ومختلف بالفعل، داخل كتلة مضللة من التفاصيل. هذا الإحساس تجاه الجديد - تجاه ذلك الشيء الذي لا يعكس التجربة أو المفاهيم الماضية للفكر العسكري التقليدي - يعمل على مستويات متعددة تبدأ بالتقنية. وقد فحص لنكولن شخصياً الأسلحة النارية وحثّ قائد وحدة العتاد في الجيش الأمريكي ثقيل الظل، بأن يشتري البنادق المتكرّرة الطلقات التي تعبأ من مؤخرة البندقية، مما صُنع حديثاً.

وأولى كلمينصو اهتماماً كبيراً للتوسّع في إنتاج الدبابات، فأصبحت الدبابات الفرنسية في عام ١٩١٨ أفضل الدبابات على مستوى العالم. وكان تشرشل شديد الإعجاب دائماً بجميع جوانب التكنولوجيا العسكرية، وكان لبن غوريون، ضمن إنجازات أخرى تضاف إلى حسناته، الفضل في خلق صناعة أسلحة وليدة وجدت حتى قبل قيام الدولة وتطوير كل شيء من الأسلحة الصغيرة إلى قطع المدفعية الخفيفة.

بعد كل الذي قيل، هؤلاء رجال غير عاديين يحبون الاستطلاع، وبالرغم من أنهم لم يبالغوا في تقييم التكنولوجيا، فإنهم كانوا يقيّمونها تقييماً عالياً.

على العموم، هناك إحساس عميق بكل ما هو جديد يمكن

استكشافه في تقدير هؤلاء الرجال لوجود ظروف استراتيجية أو مشاكل تشغيلية غريبة. فإصرار لنكولن على توجيه جيش بوتوماك ضد جيش لي، بدلاً من توجيهه ضد عاصمة العدو، هو أكبر دليل على ذلك. حيث فهم في وقت مبكر أكثر من معظم جنرالاته أن الحرب ستكون نزاعاً ثورياً يتطلب تحطيم عزيمة الجنوب على المقاومة، وليس مجرد هزيمة قواته في معركة.

ورأى كلمينصو الحاجة إلى خلق قيادة متحدة موحدة في الغرب، بالرغم من الشكوك التي حامت حول قائده الميداني الأعلى. وتمتع تشرشل بعبقرية خاصة في تحديد نوع الحملات الواجب إعدادها. وأدرك بن غوريون، بوضوح تام، أكثر من كل المحيطين به، أن منظمة الدفاع عن يهود فلسطين قد لا تستطيع أن تواكب مجموعة التحديات الاستراتيجية التي لم تتوقعها مسبقاً. ففي جميع الحالات لم يكن إدراكهم وحده كافياً : بل إن هؤلاء الساسة مارسوا قيادتهم عن طريق كثرة الشرح وحثّ الآخرين على قبول رؤاهم.

- الحرب هي خيار يُنتزع من بين الصعوبات.

هكذا أعلن الجنرال جيمس وولف James Wolfe الذي احتل كيبك. من المهام الحربية لرجل الدولة، أن يختار من بين هذه الصعوبات، بناء على أوسع وجهة نظر ممكنة، وقد يكون الخيار له هو وحده.

- في أي مجال لاتخاذ قرار ما، قد لا تكون هناك مقارنة بين المواقع رقم واحد ورقم اثنين وثلاثة أو أربعة.

لا بد أن تكون وجهة نظر القائد العسكري محايدة، ومقيّدة من عدة جهات ليس أقلها الحس بالمسؤولية تجاه توجيه العمليات الفعلية. ولرجل السياسة أن يجد وجهة النظر الصحيحة التي يستطيع منها أن يحكم على عمل عسكري. في العادة، ولكن ليس دائماً، يستلزم ذلك اتخاذ قرار لتحديد الزمن الذي يتوجب فيه أن تطغى الاعتبارات السياسية على الاعتبارات العسكرية الشرعية، وحتى المُلحّة منها. هذا التوازن ينطبق في حالات الحروب العظمى والصراعات الأقل أهمية على حدّ سواء. من استعداد لنكولن لأن يختار للمناصب العالية، أشخاصاً - غير محترفين شبه أكفاء أو حتى غير أكفاء لكنهم ملتزمون سياسياً إلى حدّ كبير، إلى الضغط غير المباشر الواقع على الطيارين الأمريكيين من قبل الرئيس السابق جورج بوش ووزير دفاعه تشيني، لكي يُهدروا طلعات هجومية بحثاً عن صواريخ سكود في صحراء العراق، ومع ذلك فإن الحنكة السياسية في الحرب تتطلب استعداداً لتقبل التضحيات العسكرية من أجل تحقيق أهداف كبرى.

مرة أخرى نقرّر أن الاهتمام بالتفاصيل العسكرية يعتبر مسألة ضرورية. كان لنكولن يدرس بعناية البيانات الواردة من ميادين الحرب ويمعن النظر في كل برقية آتية إلى إدارة الحرب. وكان كليمنصو يقوم بزيارة الخطوط الأمامية ويتحدث إلى الجندي والقائد على حد سواء، حتى تحت طلقات الرصاص، وكان تشرشل يسائل رؤساء أركان جيشه دائماً، وكان بن غوريون يسجل بكل صبر وأناة في مذكراته الضخمة كل التفاصيل حتى عن آخر طلقة. هؤلاء رجال فهموا أنهم لا يمكن أن يقودوا إذا لم يعرفوا عن كثب كل يوميات وأعمال الحرب.

مع ذلك، فإن معرفتهم التفصيلية لم تأت من الدراسة العميقة وحدها. وكان على جميع هؤلاء القادة أن يفهموا طريقة تفكير مرؤوسيهم من العسكر، واحتاجوا، بالتأكيد إلى مساعدين مهرة لكي يترجموا رغباتهم إلى توجيهات، وأوامر وطلبات واقتراحات. وتحت ظل كل واحد من هذه الشخصيات يقف عسكري ما كمترجم مباشر - هالِك، وموردالك، إزماي ويادين - لكل منهم خصائص مشتركة مع نظرائهم: إنهم أذكياء جداً، بل مولعون بالقراءة، ومثقفون إلى أبعد الحدود وقادرون على التواصل الكتابي بوضوح، وليس لديهم أفكار سياسية يتعصبون لها، وليس لديهم (أو ربما تخلوا عن) التطلعات نحو قيادة ميدانية عالية، وهم على علاقة طيبة، وإن لم تكن دائماً حميمة، مع القادة الآخرين.

في أثناء الحرب العالمية الثانية، لعب الأدميرال وليام ليهي William Leahy هذا الدور بمثابة رئيس أركان للرئيس. لم تكن لديه مسؤوليات عملية، ولا مسؤولين يديرهم ولا مسؤولية اتصالات من أي نوع. كان مساعداً عسكرياً يخدم شخصاً واحداً هو الرئيس. ودور التنسيق العسكري هذا له أهمية وغالباً ما تكون غير رسمية. كبار القادة عادة يتفوّقون على مثل هؤلاء المساعدين، الذين قد لا يكون لهم حق التصويت في المجلس الاستشاري. ما يثير الدهشة هو أن نظم القيادة العسكرية /المدنية لا تسمح بمثل هذا الدور، وتقوم عادة بدمج هذا الدور في وظيفة رئيس هيئة الأركان العامة (أو كما في حالة أمريكا، رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة). هذا الدور إلى جانب غيره من الأدوار غير المتوافقة، بما في ذلك إدارة هيئة أركان مركزية،

والتوسّط في الخلافات مع قادة السلاح أو القادة الميدانيين، وتقديم وجهات النظر المؤسسة إلى كبار السياسيين. ويكون هذان الدوران بالضرورة في توتر مع بعضهما، لأن دمجهما لا يخدم بالضرورة القادة السياسيين بصورة جيدة.

ساعد جمع الآراء الواسعة التي تعتمد على الخبرات المتنوعة بصورة شاملة، في جعل هؤلاء القادة السياسيين أكثر نجاحاً. ولا بد للمرء أن يضيف أنهم يحتاجون، بالإضافة إلى ذلك، إلى آراء استثنائية من رجال آخرين. والكثير من القيادات تعرف من تختار ومن تشجع ومن تقيّد ومن تستبدل. وجميع هؤلاء القادة الأربعة كانوا أكثر استعداداً، مما هو عليه الوضع اليوم، لأن يطردوا أعلى الجنرالات رتبة. وحتى لا يعتقد البعض أن ذلك انعكاس لمزاجية من جانبهم، انظر إلى نتائج عدم استعداد الرئيس الأمريكي ليندون جونسون لاستبدال الجنرال وليام وستمورلند بقائد آخر أكثر قدرة على مواجهة التحديات السياسية والعسكرية المعقدة التي واجهت الولايات المتحدة في حربها مع فيتنام. فالجنرالات يمكن أن يكونوا، بل يجب أن يكونوا، قابلين للتخلص منهم. لكن لا يجوز للقادة السياسيين، بالطبع، أن يتخلصوا منهم بدون تمحيص وتفكير. مع ذلك أثبت جميع هؤلاء الساسة الأربعة أنهم قادرون على أن يعاملوا جنرالاتهم تماشياً مع المطلب الأول من مطالب غلادستون للنجاح كرئيس وزراء :

- يجب أن يكون المرء جزاراً طيباً.

وبالفعل كان لنكولن، الألين عريكة والأكثر طيبة من بين هؤلاء الرجال الأربعة، هو أكثر من أعفى القادة العسكريين.

إن طرد الجنرالات في زمن الحرب ليس أمراً سهلاً. وكما يعرف السياسيون الديموقراطيون جيداً، فان القائد الذي تم إذلاله اليوم قد يكون المنافس السياسي غداً: فقد خاص الجنرال جورج ماكليلان الانتخابات الرئاسية في عام ١٨٦٤، وكاد أن يقوم الجنرال دوغلاس مكارثر بنفس الشيء في عام ١٩٥٢. وقد أدرك كل من الرئيسين جورج بوش وكلينتون تماماً أن الجنرال كولن باول يمكن أن يفعل نفس الشيء في عام ١٩٩٢ أو ١٩٩٦. والأنظمة البرلمانية لها أيضاً مسار مماثل نحو السلطة كما أوضح عدد من الجنرالات الإسرائيليين (إسحاق رابين وإيهود باراك وأرييل شارون).

ما يثير الاستغراب فعلا، هو أنه قد يكون من السهل على الجنرال أن يصبح رئيساً، أكثر مما هو سهل بالنسبة لعمدة أو حتى عضو برلمان. لكن حتى في نظام برلماني مثل نظام بريطانيا العظمى، ليس من السهل أن ينتهي الأمر بجنرال إلى رئاسة حزب سياسي منظم تنظيماً جيداً. لكن بالرغم من ذلك يمكن لعسكري متقاعد أن يصبح قوة سياسية، وذلك عادة بمساندة سياسيين، يساندونه لدوافع مختلفة. على سبيل المثال أعلن سير إدوارد كارسون، كأول لورد لوزارة البحرية الملكية في عام ١٩١٧ :

- طالما كنتُ في وزارة البحرية الملكية، سيكون للبحارة، كل

الحرية الكاملة. لن أتدخل أنا في شؤونهم ولن أسمح لأحد أن يتدخل في شؤونهم.

لكن آراء كارسون قد تكون متعلقة أو ذات صلة بالمنافسات داخل مجلس الوزراء البريطاني وليست تعبيراً عن قناعة بأن الأدميرالات دائماً على حق.

أيا كان الأمر، فإن الجنرالات المتقاعدين يمكنهم أن يمارسوا تأثيراً سياسياً هاماً، خاصة بمجرد أن يتحرروا من الضغوط التي كانت مفروضة عليهم في أثناء الخدمة العسكرية. على أن مثل هذا التأثير قد يكون قصير الأمد نسبياً، كما اكتشف جورج ماكليلان، عندما خاض الانتخابات ضد أبراهام لنكولن في عام ١٨٦٤ أو كما اكتشف دوغلاس ماكارثر عندما عاد إلى الولايات المتحدة بعد سلسلة من المعارك الصعبة مع الرئيس هاري ترومان. مع ذلك، فإن احتمالات التأثير تمثل مصدراً للقلق بالنسبة للسياسيين خلال فترة الحرب.

ويعلق اللورد بيفربروك - الذي أتيحت له فرصة أن يستعرض العلاقات بين المدنيين والعسكريين البريطانيين عن قرب خلال الحربين العالميتين - على المزاج العام لتلك العلاقات في بريطانيا في أثناء الحرب في عام ١٩١٦. فقد كانت صورة الوزراء التي رسمها الجنرالات لأنفسهم، وانعكست إلى حد ما للجمهور توصف على النحو التالي:

- جلس الوزير على كرسي بذراعين، مبطنين بالجلد، في حجرة لا تصلها الضجة المنبعثة من تدفّق حركة المواصلات. جلس وهو

يسحب الدخان من سيجارة طويلة، وفي ذات الوقت، يشرف بفتور على نشاطات سكرتاريته. يعطي أمراً، وهو على استراحته، بتسريّع خُطى (الأبطال المكتئبين في أعلى الخط حتى لو ماتوا بالآلاف. كل ذلك وهو لا يعرف شيئاً عن الحرب). ومن ثم يقوم لتناول وجبة العشاء مع آخرين من زملائه الذين تم توظيفهم بنفس الطريقة. ولو حدث أن أظهر الوزير أي نشاط فهو نشاط من النوع غير المريح الذي يتدخل بموجبه مدنيٌّ جاهل ليقيّم الكفاءة العالية التي يبديها الجنرال. في نفس الوقت أيضاً، كان الجنرال، بدلاً من أن يدخن السجائر، يسعى يومياً ليتأهل، لكي ينال وسام الملكة فكتوريا كنتيجة للصعاب التي يتحملها والمخاطر التي يتعرض لها.

كل من يتكبد المشقة ليقرأ صحف لندن في تلك الفترة، والتي تعكس وجهة نظر الجنرالات، سوف يفهم الصورة.

لكن، كما لاحظ بيفربروك، إن أي شخص زار الجنرالات أو تواصل معهم يجدهم «أناساً دافئين وآمنين» كالسياسيين. بالرغم من ذلك، وحتى وقتنا الحاضر، يتم الاستهزاء من قبل «استراتجيي الكرسي» من القادة السياسيين المدنيين، كما لو أن الجنرالات لا يزالون يتخذون قرارتهم، وهم على صهوات الجياد يهرولون على امتداد خطوط المعارك. قد تعاني المنظمات العسكرية وقادتها من الإذلال أو الإهانات والتثبيط بصفة روتينية في زمن السلم، لكن بمجرد أن تبدأ الحرب ترتفع مكانتهم إلى درجة عالية. وحتى تاريخنا الحاضر

نلاحظ أن الجنرال في زمن الحرب يكون شخصية مؤثرة. على الأقل إلى أن تصمت البنادق (أو بعد أن تصمت بقليل).

يمكن أن تضاف مخاطر أخرى إلى المخاطر السياسية التي يسببها جنرال تم طرده من الخدمة في وقت الحرب. هل سيؤثر أو سيثبط طرده من الخدمة من معنويات القوات في ميادين المعارك؟ هل سيعطل استمراره في القيادة عمل المنظمة العسكرية بحيث تفقد قدرتها الحربية؟ ما هي النتائج التي ستتولد من الوقت الذي يلزم القائد الجديد ليتعرّف على المؤسسة ومسرح العمليات وممارسة مهامه؟ وفوق ذلك كله : هل يمكن أن يوجد الرجل الصحيح أو مجرد رجل أفضل ليحتل نفس الوظيفة المنهكة أو الصعبة؟

ليست هناك معايير متناسقة لاختيار الجنرالات. فالمدافع العنيد، والمهاجم الجريء، والمرتجل المرن واسع الحلية، والرجل المنظم ذو الأسلوب، والشباب والشيوخ ،وسريعي التهيج والقوي، وبارد الطبع ورابط الجأش، كل واحد من هؤلاء : له مكانته. القيادة مسألة ظرفية، وكثير من فنون القيادة المدينة خلال الحرب يكمن في القدرة على كيفية الحكم على الوضع والظرف والشخصية أيضاً. فعندما أرسل لنكولن وستانتون، تشارلز دانا لكي يتجسس على يوليسيس جرانت، اهتما بدرجة أقل بمهارة جرانت في المناورة، وركزوا على إكثاره من شراب المسكرات، والصفات الأخرى التي جعلته قائداً يتبعه الرجال. وكان من المعقول جداً أن يرسلوا صحافياً ماهراً، بدلاً من جندي، ليعرف أو يفحص هذه الصفات.

القادة الأربعة الذين ناقشنا خصائصهم هنا، يُظهرون مميزات أو صفات مشتركة، كالتصميم العنيد الذي لا يتراجع. بالفعل هذا ما يفسر لماذا ظل الخيال الشعبي يتذكرهم كثيراً ويحتفل بذكراهم : فالختام البليغ لخطبة تشرشل الذي لا يزال يرن في إسماع الشعب عندما قال في ١٨ يونيو ١٩٤٠ «لن نستسلم أبداً» خلق في الشعب تحدياً كبيراً ورفع معنوياته.

كذلك كليمنصو «النمر» لم يكن أقل عظمة في إصراره على «أنا أصنع الحرب». وقد حقق إصرار بن غوريون الشديد نجاحاً في الوقت الذي كان فيه العديد من رفاقه السياسيين مستعدين للتراجع عن الاستقلال في اللحظة الأخيرة. ربما كان لنكولن الرجل الرقيق الكئيب هو أصلبهم عوداً جميعاً، كان صامداً لا يلين في إصراره عند أزمة ديسمبر ١٨٦٠ عقب انتخابه حيث قال إن :

- الشدة العنيفة سوف تأتي، ومن الأفضل أن تأتي الآن وليس لاحقاً.

وظهر صموده في استعداده اليقظ بأن يستمر في الحرب حتى النهاية. وكانت كلمات خطاب انتخابه الثاني تتضمن يداً ممدودة للصلح كما شمل خطابه أيضاً الكلمات التالية :

- نأمل بلهفة ووله ـ ونصلى بإخلاص للرب ـ لكي يبعد عنا سوط الحرب القاسي بسرعة. مع ذلك، إذا شاء الله أن تستمر، إلى أن تزول تلك الثروة التي تم جمعها بواسطة عمل شاق أداه الأرقاء طوال مائتين وخمسين عاماً من الجهد غير مدفوع الأجر، فأن

كل قطرة دم سالت من الضرب بالعصا، سيتم دفعها بسحبة أخرى للسيف كما قيل قبل ثلاثة آلاف سنة مضت. وكذلك يجب أن يقال: «إن أحكام الرب حقيقية وعادلة كلياً».

إن العزيمة التي أظهرها هؤلاء الرجال لم تكن طيش شباب، إنها العزيمة القوية لرجال واجهوا مهمة عظيمة واحدة في حياتهم، رجال كبار السن (كما وصف أصغرهم سناً، لنكولن، نفسه قبل أن يتسلم السلطة) شاهدوا الكثير ولم يكونوا يتوقعون بالضرورة أن يبقوا أحياء خلال هذه الصراعات التي خاضوها.

إن الشعوب تقاد وتحكم بالكلمات، وكل واحد من هؤلاء الرجال، قرأ التاريخ والسياسة والأدب وتعمّق في ذلك وأجاد فنون الكلام والكتابة بمستوى يفوق الجميع لكنهم كانوا الخطباء والكتّاب الأكثر موهبة. ربما ساعدت هذه المهارات في تفسير جاذبية خطبهم المتحدية. ويمتلئ القارئ المعاصر بالدهشة، وربما بشوق وحزن على سيطرتهم المطلقة على الكلمة المنطوقة والمكتوبة. لقد اكتسبت كلمة «خطبة»، في زمننا الحاضر، معنى الكلام الفارغ بل المضلّل عن القصد، في الواقع. وقد انعكس معناها الحقيقي وهو الكلام السياسي القادر على الإقناع، في مهارة هؤلاء القادة الذين فهموا أن الجماعات والشعوب - الأمم الديمقراطية فوق كل شيء - تتم قيادتها بالكلمة المكتوبة بعناية. إنهم لم يتركوا كتابة خطبهم إلى المسؤولين من صغار الموظفين. وفهموا أفضل بكثير من نظرائهم اليوم، أهمية - ليس فقط الكلمات التي تثير المشاعر - لكن أيضاً تلك الكلمات التي تصوّر وتصف وتوضح وتشرح. إن المجلدات الضخمة للخطب التي ألقاها قادة الحروب هؤلاء تعكس

حقيقة مثيرة للدهشة، هي : أن الفقرات المشهورة والمعروفة لدى الجميع، ما هي إلا جزء صغير من تلك الأعمال. وقد استخدم هؤلاء الرجال، إلى درجة أكبر بكثير من سياسيي اليوم المدفوعين بواسطة التلفاز، الكلمة المكتوبة لكي يشرحوا إلى أقصى حدّ وفي بعض الأحيان بتفاصيل مدهشة معنى ومسار حروبهم.

قارن، على سبيل المثال، خطبة تشرشل : «أعطنا الأدوات وسوف نقوم نحن بإنجاز المهمة » في ٩ فبراير ١٩٤١، بقول الرئيس جورج دبليو بوش في ٧ أكتوبر ٢٠٠١، معلناً بدء العمليات العسكرية في أفغانستان. لقد استعار كُتّاب خطب الرئيس بوش، سطراً من خطبة تشرشل: «لن نفشل أو نتردد؛ لن نضعف أو نتعب»، لتصبح بعد ستين سنة لاحقة: «نحن لن نترنح، إننا لن نتعب أو نتعثر؛ ولن نفشل.» لكن كلام بوش يمثل فقط جزءاً صغيراً من تلك الخطبة ولا يقترب في مستوى التفاصيل كما في حديث تشرشل. فهو لم يعد بصعوبات واكتفى بوصف العدو بعبارات أو مصطلحات عامة فقط.

لم يفصح تشرشل - ورجال السياسة من نوعه - عن سر العمليات المستقبلية، ولم يحددوا المسار الذي ينوون اتخاذه، لكنهم تجشموا الصعاب ليشرحوا الطريقة التي اتبعوها إلى هذا الحدّ، والنوايا الرئيسية ونقاط الرجعة وطبيعة المأزق الوطني كما يفهمونه. هناك نوع من الاحترافية في وصفهم للحملات والمعارك، في قراءتهم للإحصاءات وفي إيجازهم الحكيم للتوجهات والأنماط. وقد رأينا أيضاً في فصول سابقة أن إجادتهم لفنون الاتصالات البارعة والمذكرات

الموجهة والبرقيات الدقيقة فضلاً عن القدرة على الإنصات التي تعتبر نادرة جداً في قمة أي مؤسسة عظيمة، والتي تعتبر مفتاح نجاحاتهم.

من دون الإجادة الكاملة للكلمة المكتوبة والمنطوقة، التي يتم عرضها بنفس القدر على مسرح أمام مئات الآلاف من الناس، أو برلمان به المئات، أو غرفة اجتماعات تضم أقل من اثني عشر شخصاً، من دون ذلك كله ما استطاعوا أداء مهامهم القيادية.

المهمة الصادقة

لا تزال الخطب العظيمة التي تدل على التصميم الذي لا يلين ترن في الآذان. لكنها لسوء الحظ، تخفي الميزة التي أظهرها القادة الأربعة والتي من دونها لم يكونوا لينجحوا : ألا وهي الاعتدال. قد تبدو تلك الكلمة غريبة عندما تطبق على مبارزين مثل بن غوريون أو كليمنصو. ومن بينهم جميعاً استطاع تشرشل - الذي كثيراً ما يُسخر منه على أنه متنمّر ومتهور - أن يدرك بوضوح شديد، مضمون الاعتدال السياسي :

- إن رجل الدولة، هو ذاك الذي يكون على اتصال بتيار الأحداث المتحرّك، والذي يكون متلهفاً لكي يحافظ على استواء السفينة، ويقودها في مسار ثابت قد يميل الآن إلى جانب ومرة أخرى إلى الجانب الآخر.

في بعض الأحيان يظهر الاعتدال بشكل طبيعي كمناصرة أو تأييد لإجراءات متحفظة أو كمجرد تسامح - فعلى سبيل المثال - علاقات

كليمنصو المعتدلة، بصفة عامة، مع الجنرالات الكاثوليك بالرغم من آرائه المناهضة لرجال الكهنوت.

جاء المسيو كليمنصو، في يوم من الأيام، إلى بومبون بطريقة غير متوقعة وطلب أن يقابل المُشير فوش. أخبره الكابتن بوتال بأنه في الكنيسة، مضيفاً «سأذهب فوراً وأخبره بأنك هنا». فأجاب الملحد العجوز، وهو قادر تماماً على أن يجرّب حظه مع الرب الرحيم : «لا تزعجه بأمور دنيوية. هذا يناسبه تماماً.» وفي كل الأحوال فرنسا ستكون هي المستفيدة.

عموماً، الشيء الذي لدى كل واحد من هؤلاء الرجال، هو ميزة أو صفة أكثر عمقاً، اعتدال لا يكمن في الكلام اللطيف بل في صفتين أو خاصتين: القدرة على ضبط العواطف، وفهم متى وكيف تبطل أو توقف الميول. ما ذكره كليمنصو وتشرشل بطريقة شبه تهكمية عن أرسطو وآخرون في معالجتهم الفلسفية للاعتدال، وأنه ليس مساراً واحداً كما يرى أرسطو، وإنما هو نتاج للميل أولاً باتجاه، ثم الميل باتجاه آخر.

الاعتدال قد يعكسه التناقض أو حتى الشذوذ البادي، وليس الملاحقة الشديدة للعقيدة أو مجرد العزيمة، وإنما هو أن يلقي الواحد بكل ثقله في الجانب المعاكس من السفينة الجانحة. ويمكن اعتبار إلقاء كليمنصو بثقله متنقلاً بين فوش وبيتان مثالاً نموذجياً على ذلك. ومثله، مساندة بن غوريون للمحاربين القدامى في الجيش البريطاني المعزولين سياسياً في أوساط يهود فلسطين. الشيء الأكثر أهمية هو أن أهداف الحرب لدى كل واحد من الرجال الأربعة تعكس

المبادئ الأساسية، وكذا المرونة وضبط النفس في سعيهم لتحقيق هذه الأهداف. فالرئيس لنكولن يخوض الحرب لكي ينقذ الاتحاد، لكنه في نفس الوقت يعرض على ولايات الجنوب استرداد امتيازاتها ومكانتها بشروط سهلة للغاية أسهل بكثير مما للجمهوريين المهيمنين على الأمور في الشمال.

كليمنصو يحارب ألمانيا حتى الموت لكنه لم يتوافق مع فوش والكثير من شرائح الرأي العام الفرنسي في محاولته انتزاع أمن فرنسا من عدو مهزوم، بقوة السلاح. وتشرشل الذي وصف معنوياته في مذكراته عن الحرب العالمية الثانية بأنها :

- في حالة الحرب : تصميم ؛ في حالة الهزيمة: تحدٍّ ؛ عند النصر: كرم وشهامة ؛ في السلم: نية حسنة.

كان مستعداً لتحقيق سلام سخي مع ألمانيا بالرغم من أنه رأى، قبل أي رجل دولة غربي آخر، التهديد المتزايد من قبل الاتحاد السوفياتي. بن غوريون، الذي لن يتساهل أو يستسلم فيما يخص إنشاء دولة يهودية، تجنّب رغبات الجنرالات الناجحين الرامية إلى إضافة مساحة أكبر لإسرائيل تضم الضفة الغربية للأردن.

في إدارة العمليات، كتب كلاوزفيتز ذات مرة :

- أن الجيوش تصل إلى ذروة النصر نتيجة لبذل أقصى القدرات، وبعدها تتعرض لخطر الإنهاك والهزيمة.

وجميع رجال الدولة الأربعة أدركوا حدسياً هذه الفكرة وطبقوها

بمستوى كبير. فالقادة الذين يُسكرهم النجاح العسكري، عادة ما يجلبون الكوارث على أنفسهم وشعوبهم، سواء أكانوا رجالاً عباقرة مثل نابليون بونابورت، أو مجرد مجرمين ناجحين مثل صدام حسين. على العموم، هذا شرَك يقع فيه السياسيون الأكثر جبناً وبنفس القدر أيضاً السياسيون الأقل تعطشاً للدماء ـ كما أثبتت القيادة السوفياتية في أفغانستان في ثمانينيات القرن العشرين.

ينعكس هذا الفهم للحدود، في الطريقة التي تعامل بها هؤلاء القادة الأربعة مع واحد من أصعب التحديات الاستراتيجية في حروبهم : أمن عواصم بلدانهم. فقد واجه كل واحد منهم احتمال رؤية عاصمته معزولة، بل وحتى محتلة بواسطة العدو. لاحت الأهمية الرمزية لكل من واشنطن وباريس ولندن والقدس بجلاء لقادة الحرب هؤلاء. وقد اعتقد كل من لنكولن وبن غورين أن فقدان هذه العواصم سوف ينهي فرصهم في الحفاظ على شعوبهم الفتية. لهذا السبب ـ وليس بسبب حالة عصاب أو عدم قدرة على أن يروا ما وراء أمنهم المباشر ـ فقد أجبروا قادتهم العسكريين بأن يكرسوا جميع الموارد اللازمة للدفاع عن العواصم. وبالرغم من ذلك، عندما تراجع المدّ أخيراً في الحرب الأهلية الأمريكية وحرب استقلال إسرائيل، تغيّرت مواقفهم.

غضب لنكولن بسبب حملة جوبال إيرلي على واشنطن في عام ١٨٦٤، لكن تنسيقه لردود الاتحاد عليها كان يهدف إلى تسريع دمار جيش لي وذلك بجعل وادي شيناندوا غير مفيد للكونفدراليين كمخزن للحبوب. وأن إزالة ذلك يعرض للخطر جزءاً من جيش شمال فرجينيا للخطر. وهو لم يكن خائفاً، كما كان يتمنى روبرت إ. لي، ولذلك سحب

قوات كثيرة من حصار بيترسبرج الذي كان يخنق ببطء، لكن بلا هوادة العاصمة الجنوبية وجيشها. بنفس القدر، كان بن غوريون قد اعتقد في البداية أن معظم القدس كانت آمنة في أيدي الاسرائيليين، وحوّل انتباهه وموارد قوات دفاع إسرائيل إلى عمليات في ميادين حرب أخرى.

بالنسبة لكليمنصو وتشرشل، من ناحية أخرى، وهما قائدان لدولتين وطيدتين، فإن احتمال فقدان عاصمتيهما كان أمراً فادحاً وبالغ الخطورة ولا يطاق. وقد أعلن كليمنصو في ١٤ يونيو، ١٩١٨ :

- سأحارب أمام باريس؛ سأحارب داخل باريس؛ سأحارب خلف باريس.

وفي ١٤ يوليو ١٩٤٠، أعلن تشرشل :

- أن السواد الأعظم من مدينة لندن نفسها سيحارب من شارع إلى شارع، وسيبتلع جيش العدو بكامله. بإمكاننا أن نشاهد لندن وقد تحوّلت إلى ركام ورماد، لكننا لن نقبل أن نراها في أيدي الأعداء ذليلة ومستعبدة.

لقد كانا على استعداد أن يضحيا بالمدينتين في المعارك، ولكن حتى أذا خسراهما، فإن ذلك لن يقرر نهاية الحرب. عموماً كان كلاهما مصمماً على أن يحافظ على الحياة كما هي عادية بقدر الإمكان في مدينة محاصرة من الجو، وفي حالة باريس، تحت نيران مدفعية بعيدة المدى أيضاً.

أخيراً، أظهر الاعتدال نفسه في أفعال جميع الرجال الأربعة هؤلاء، بالطريقة التي تتناقض فيها حالتهم العاطفية مع حالة أولئك الذين من حولهم. وقد أدرك لنكولن، فوراً وقبل معظم المحيطين به، بأن الحرب الأهلية ستدوم بالفعل مدة طويلة من الزمن. وكليمنصو كان ثابتاً في حربه لكنه كان حزيناً ومكتئباً في أواخر أيامه، متنبئاً بالمصيبة التي ستحل بفرنسا بعد رحيله. وكان ابتهاج تشرشل الذي لا يلين خلال الأيام المظلمة في أثناء معركة بريطانيا، قد رفع معنويات نخبة كانت عناصر كثيرة منها، قد أعدت نفسها للهزيمة. ومع ذلك، استهجن في عام ١٩٤٤ التفاؤل المفرط لزملائه في عام ١٩٤٥ ونظر إلى المستقبل بتشاؤم. كان بن غوريون «كئيباً في وسط أولئك المبتهجين» عندما صوتت الأمم المتحدة لصالح التقسيم وأعلنت دولة إسرائيل، مع ذلك كان هو أيضاً واثقاً جداً - أكثر من رفاقه - من النجاح في النهاية.

الاعتدال متوافق مع القسوة. وكل واحد من هؤلاء القادة يتمتع بسجية داكنة وعميقة من الاستعداد لعمل أشياء فظيعة. ففي يونيو عام ١٩٤٠، بعد أيام قليلة من استسلام حليف بريطانيا المحطم أمام الغزو الألماني، قرر مجلس الوزراء في بريطانيا وبإصرار من تشرشل، أن يدمّر الأسطول الفرنسي الراسي في وهران. وقد كتب تشرشل بعبوس:

- كان ذلك قراراً كريهاً، هو شيء غير طبيعي لأبعد الحدود ومؤلم. من ناحية أخرى، كانت حياة الدولة وخلاص مبادئنا في خطر. إنها المأساة الإغريقية. لكن لم يكن هناك أمرٌ أكثر

أهمية لإنقاذ حياة بريطانيا. وقد فعلنا ما فعلناه من أجل جميع أولئك الذي يعتمدون عليها. لقد كان واضحاً أن وزارة حرب بريطانيا لا تخشى شيئاً ولن تتوقف عند أي شيء.

مقتل حوالي ١٣٠٠ ملاح فرنسي قد طمأن الرئيس فرانكلين د. روزفلت الذي كان يتساءل ما إذا كانت بريطانيا سوف تتمسك بخيار الحرب وحدها. وبالرغم من كل تلك القسوة التي عاملوا بها أعداء بلادهم، كان الشيء المدهش حقاً هو القوة التي يتعاملون بها مع حلفائهم المترددين أو المعارضة الداخلية. لم يتردد كليمنصو في اعتقال المعارضين السياسيين في الداخل بل وحتى إطلاق الرصاص على أولئك المتجولين الذين ينشرون الهزيمة أو إعدام عملاء ألمانيا في باريس. وقد بقي بن غوريون حتى وفاته مقتنعاً تماماً بأن إغراق السفينة ألتالينا مع شحنتها من الأسلحة والموت الناتج عن ذلك في صفوف المحاربين اليهود المتوجّهين إلى دولة إسرائيل حديثة الاستقلال، كان صحيحاً بدرجة عالية. وكان أبراهام لنكولن، الذي كرّس جهده للدستور، مستعدا أيضاً لقمع أي حق يتعارض مع الأوامر التي تطالب بإحضار شخص للمثول أمام القاضي ومحاكمته، وفرض حالة الطوارئ، وإنشاء محاكم عسكرية مسيّسة لكي يخمد روح الانهزامية في جيش بوتوماك. إن الاعتدال، بمعنى آخر، متوافق تماماً مع صلابة الفولاذ.

إن هؤلاء الساسة ليست لديهم طباع أو سجايا هادئة. حتى لنكولن، الذي يعتبر أكثرهم رقة، كان يعاني من نوبات من الحزن والقنوط . وفي بعض الأحيان تأتيه لحظات مثل لحظات بن غوريون

عندما كان من حوله في حالة فرح. يفكّر المرء في ردة فعله تجاه معركة جتيسبرغ، أو تعليقه الحزين على سكرتيره في نهاية عام ١٨٦٢ عندما قال : «لقد نزعت قاعدة الحوض».

لكنهم ظلوا واثقين في أحلك الساعات، ولم يترددوا في أن يعبروا عن مخاوفهم من الفجر الزائف التي قد يحاول مخادعتهم. تشرشل كان له «كلبه الأسود» وبن غوريون له نوبات مرض؛ أما ما يختبئ خلف قناع التحدي الفظيع للنمر، فهذا ما لن نعرفه أبداً. إنهم كانوا يعرفون أفضل من معاصريهم، طبيعة الصراعات التي خاضوها. فقد واجهوا، فوق ذلك، معارضة حادّة من داخل معسكراتهم هم، التي كانت تأخذ شكل أصوات سحب الثقة (واجهها تشرشل في عام ١٩٤٢)، والإدانة في البرلمان (كليمنصو) والمؤامرات الداخلية (بن غوريون)، والمعارضة الفعالة في الانتخابات (لنكولن). وقد كانت قبضتهم على السلطة أبعد ما تكون عن التأكيد، حتى عندما كانت نتائج الحروب على وشك الإعلان.

إن الصفة التي ساعدت كل واحد منهم على البقاء هي الشجاعة. وقد قال كليمنصو، الذي كان يعرف المكان الذي منه يتحدث :

- إن الشجاعة هي ما يجعل الرجل عظيماً.

وقال تشرشل:

- إن الشجاعة تعتبر بحق أول الصفات البشرية، لأنها الصفة التي تضمن جميع الصفات الاخرى.

إنهم جميعاً لديهم بالطبع الشجاعة المادية التي يمكن أن تكون السلعة أكثر شيوعاً، أكثر مما يعتقد الواحد منا. كل واحد منهم كان مستعداً تماماً لأن يعرض نفسه للخطر المادي، وبصورة أكثر بكثير مما يسمح به موظفوهم. والشيء الأكثر أهمية، عموماً، كان نوع الشجاعة التي سماها نابليون «شجاعة الساعة الثالثة صباحاً» ووصفها بأنها صفة ضرورية في الجنرال. إنها ليست شجاعة المقامر المتهوّر أو الجرأة اللامبالية للرجل اليائس من الحياة، لكنها شجاعة رجل دولة حظي بالقدرة على أن يرى الأشياء كما هي «بدون خداع». تماماً مثلما كتب دانا عن لنكولن. أي أنه يرى في أتون الحرب، الأشياء كما هي، وليس كما يحب أن تكون. أن يثابر بالرغم من خيبة الآمال، أن يعرف الفرص العديدة التي ضاعت والأخطار التي لا تزال في المستقبل وأن يقود وهو يعرف أن مرؤوسه ورفاقه هم في بعض الحالات غير أكفاء، وفي أخرى أعداء.

إنها شجاعة من نوع نادر. هل هناك شجاعة أندر من الاستعداد لكي يعرض الواحد نفسه لرصاصة أو قذيفة طائشة؟ من دون الشجاعة تكون كل الصفات الأخرى بلا نتيجة.

الخاتمة

حرب رمسفيلد

انتهيت من مخطوطة هذا الكتاب بعد انقضاء فترة بسيطة من أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وظهر الكتاب في صيف ٢٠٠٢، ولم أتصور، ولم أكتبه برؤية تسعى لمناقشة دور القيادة العليا بعد الهجمات الإرهابية التي ذبحت أكثر من ٣٠٠٠ إنسان في تلك الهجمات المتزامنة، على برجي التجارة في مدينة نيويورك والبنتاغون وعلى طائرة تحلّق باتجاه واشنطن العاصمة.

الكتاب نفسه أصبح مثار جدل متوسط عندما أخبر الرئيس جورج دبليو بوش أحد الصحفيين، في أغسطس ٢٠٠١، بأن الكتاب سيكون ضمن قراءاته الصيفية. تم تفسير ذلك بأنه وصاية مني على الرئيس وعلى مستشاريه المدنيين الكبار، ومحاولة لإبعاد التردّد عن العسكريين الأمريكيين، والشروع في برنامج راديكالي لمغامرة عسكرية في الخارج. والحقيقة كانت، أنني برغم دعمي لمسار العمل: الحرب على أفغانستان ومن ثم على العراق، اللذين اختارتهما الإدارة الأمريكية، فإن كتابي لم يتوجّه إلى أي من خطتي العمل، في حد ذاتها، كما لاحظ ذلك بعض من استعرض الكتاب. مع ذلك، فالكتاب لعب دوراً، ما

حجم هذا الدور؟ لست أدري. لكنه لعب دوراً في تشكيل التصوّرات المتعلقة بالعلاقات بين المدنيين والعسكريين الأمريكيين في الفترة التي سبقت اندلاع حرب الخليج الثانية مباشرة.

تساءل عدد من قراء الكتاب، ومن ضمنهم أولئك الذين قرؤوه في تلك الفترة الحرجة، عما إذا كانت قضيته تنطبق على بحالة الدرجة الثانية من السلطة المدنية: وزير الدفاع تحديداً.

لكي أجيب عن هذا السؤال، قررت أن أسلط الأضواء على الدور الذي لعبه وزير الدفاع دونالد رمسفيلد في تلك الحقبة. وقد كنت محظوظاً، إذ قابلته وتحدثت معه ومع عدد من مساعديه. هذا أعطاني مزيداً من التبصّر في إدارته «للحوار غير المتكافئ» أكثر مما لو كنت لم ألقه. كما أنه لن يُقلل من أهمية القيادة الرئاسية، إذ إنه من الواضح أنه لولا تصميم الرئيس جورج دبليو بوش على الذهاب للحرب وانخراطه في دبلوماسيتها وإعداداتها لما تحقق شيء.

كما ظهر أيضا أهمية دور مستشاري الرئيس الأساسيين من خارج البنتاغون (من ضمنهم نائب الرئيس ومستشار الأمن القومي وآخرون). تسليط الضوء على دور الرئيس يجب أن ينتظر اختباراً ينطلق من روية أكبر للبيت الأبيض. لكن من المؤكد أن هناك أجزاء صغيرة محيّرة تتعلّق برصيد الرئيس الجديد، الذي تم تحذيره من خطر محتمل قد ينجم عن سيطرة مدنية على غرار ما حدث في فيتنام، فأجاب:

- هناك خط واضح يفصل بين السيطرة على كل شيء مهما كان

صغيراً في الحرب، وبين رسم الأهداف العريضة. لكن هناك الكثير مما هو معلّق على القضايا الصغيرة.

هذه الخاتمة إذاً، ليست نظرة كاملة إلى القيادة العليا في الولايات المتحدة، وهي تخوض آخر حروبها، إلا أنني آمل منها فقط أن تكون مكملة للفصول السابقة.

ظهر كتاب «القيادة العليا» في فترة يستطيع فيها أي مراقب لسياسات واشنطن أن يقول إن العلاقة بين العسكريين الذين لا يتم تزويدهم بالمعلومات بصورة كافية، والإدارة الجمهورية الجديدة، كانت علاقة صعبة بصورة مدهشة. وزير الدفاع الجديد، القريب من السبعين سنة، يحمل اسم دونالد رمسفيلد، قد أتى للمنصب بوعود تتعلق بتغيير الدفاع، وبزيادة متواضعة نسبياً في موازنة الدفاع قدرها ١٨ مليار دولار، كانت أقل بكثير مما توقّعه كبار القادة. والقادة المدنيون الجدد كانوا أقل انشغالاً بحساسية ضابط كبير ممن يعتقدون أنه قد تم استبعادهم عن صناعة بعض القرارات، وممن يعتقدون أنه قد تم اضطهادهم من خلال «عواصف ثلجية» تأتي على هيئة رسائل رسمية عاجلة تخرج من مكتب وزير الدفاع على هيئة ملاحظات صغيرة مكتوبة بخط اليد، وأحياناً على شكل بريد إلكتروني. وقد توقع جماعة، في صيف ٢٠٠١، أن رمسفيلد سيغادر مكتبه بسبب كثرة الإحباط.

إلا أن هذا لم يحدث. هذه الخاتمة تتناول قضايا القيادة الأمريكية في زمن الحرب، وتشمل الحربين الأفغانية والعراقية، وخصوصاً العراقية. إنها حالة جديرة بالدراسة، لسببين على الأقل:

الأول، أنها تلقي الضوء على دور وزير الدفاع في العصر الحديث، ممثلاً لقائد حكومة ما. الثاني، أنها تكشف عن «الحوار غير المتكافئ» في أثناء العمل. بطبيعة الحال، هذه الدراسة تفتقر إلى المنظور العام، والمعلومات التفصيلية التي لن يكشف عنها إلا الزمان، وإطلاق سراح التقارير التاريخية. من ناحية أخرى، أتيحت لي فرصة الحديث مع وزير الدفاع وبعض كبار المسؤولين المدنيين والعسكريين من حوله. إذن، فهذه الدراسة هي القطعة الأولى من تاريخ قريبٍ جداً.

رؤية هذه القائمة ستصيبك بالجنون

من العدل أن نقول إن العلاقة بين المدنيين والعسكريين الأمريكيين في أواخر سنة ٢٠٠١ كانت في حال توتر. ما يقارب ٨٥ من المحاربين القدامى صادقوا على تعيين مرشّحهم الجمهوري جورج دبليو بوش. قائدهم الجنرال تشارلز كرولاك Charles Krulak الذي تنحّى مؤخراً من منصب قائد المارينز، تبجّح أمام صحفي من واشنطن بوست بقوله: «سترى قائمة تصيبك بالجنون». وقد أصابتنا بالجنون فعلاً.

قائمة من ذوي الرتب العسكرية، شملت قادة من البحرية وقيادة مركزية حساسة من الناحية السياسية، ممن قضوا فقط أسابيع قليلة في العمل المدني، قبل أن يصطفوا في الانتخابات الرئاسية. الحملة السياسية التي جاءت نتائجها نصراً بهامش ضيّق للرئيس بوش، هامش أثار معارك قذرة حول الغائبين عن الاقتراع من العسكريين. يقال إن هذا كان في صالح الجمهوريين، وهذا ما عزّز الفكرة القائلة

إن الجيش قد تم تسييسه في العقود الأخيرة من بعد فيتنام. نتج ذلك عن عمليات مسح علمية، ودعمتها انطباعات صحفية.

ليس من المفاجئ أن يتوقع العسكريون الأمريكيون الكثير من الجمهوريين، وخصوصاً من الرئيس جورج دبليو بوش . بوش الأول خاض الحرب بالطريقة التي يفضلها العسكريون : «لقد قاتلوا بقوة تبهر الأبصار وبأيد غير مغلولة». وقد كانت حملة الجمهوريين شرسة بخصوص موازنة الجيش المتدنية والمتقلصة. وكان من الطبعي أن تأتي موجة من الاستثمارات إلى متناول أيديهم. وقد زادت بهجتهم كثيراً عندما علموا بأن رجل أعمال حازم وطيار سابق في البحرية – و يا للمفاجأة – هو أيضاً وزير دفاع سابق، سيقود البنتاغون. إلا أن بهجتهم لم تدم طويلاً على كل حال. في صيف ٢٠٠١ كانت الصحف تغص بالقصص عن جنرالات ساخطين يشتكون من مراقبة القيادة المدنية غير المتفهمة والفظّة والجاهلة. ما الذي حدث؟

كان عمر دونالد رمسفيلد ٦٩ عاماً عندما أصبح وزيراً للدفاع في ٢٠٠١، وكان قد خدم في هذا المنصب بين سنتي ١٩٧٥ و١٩٧٧، وتاريخه المهني يشمل مهام محددة في الكونغرس - في إدارتي نيكسون وفورد - ويشمل بعض الوقت الذي قضاه باعتباره كبير موظفي البيت الأبيض. وبعد مغادرته الحكومة في سنة ١٩٧٧ أصبح الرئيس التنفيذي لشركة صيدلانية، ومن ثم لشركة إلكترونيات. لقد مضت سنوات طويلة على انغماسه في سياسات الدفاع، بالرغم من أنه استمر في الخدمة في مجالات متعدّدة قريبة من الدفاع.

أول اهتزاز لعلاقة رمسفيلد بالعسكريين، نبع من إيمانه الواضح بأن العسكريين الأمريكيين قد ركدت هممهم في العشر سنوات الأخيرة – هذا الإيمان تجلّى بهدوء وبعمق في فترة بوش الرئاسية – فلم يعد هناك الجديد فيما يتعلق بالتكنولوجيا على الصعيد المؤسسي ولا على الصعيد المفاهيمي. بغض النظر عن كل ذلك الحديث عن الثورة في الشؤون العسكرية، مع استثناءات قليلة ملحوظة، بدت القوّات المسلحة الأمريكية كما هي في ١٩٩١، مبنية على نفس المنظومات (مجموعة حاملات الطائرات القتالية، والفصائل المسلحة، وما شابه ذلك) والأنظمة والطواقم، تحت قيادة ضباط كبار لا تبدو عليهم الرغبة في التغيير السريع للأشياء. صرح الرئيس الجديد بحماسة كبيرة في خطبته التي ألقاها في سيتاديل في ٢٣ سبتمبر ١٩٩٩ قائلاً:

- قواتنا العسكرية لا زالت، منظمة أمام تهديدات الحرب الباردة، أكثر من تنظيمها أمام تحديات القرن الجديد، ومنظمة أمام تحديات عمليات العصر الصناعي، أكثر من تنظيمها أمام معارك عصر المعلومات.

هذه الخطبة لم يتجاهلها العسكريون برغم تفضيلهم التركيز على الخطب المضللة، من نوعية: «سأجدد روابط الثقة بين الرئيس الأمريكي والعسكريين الأمريكيين».

أول ثمانية شهور لبنتاغون رمسفيلد. كانت بعيدة كل البعد عن النجاح. العمليات الطويلة التي كانت تأخذها الموافقة على الاجتماعات، معناها أن رمسفيلد لم يستطع جمع فريقه في مكان واحد، إلا في نهاية

الصيف. وكان هناك الكثير من الفِرَق التي تدرس عملية التحوّل (وقد تم استبعاد العسكريين من تلك الفِرَق) مما جعلها تثير الشكوك حول نفسها دون أن تُحدث أي نتائج. والعلاقة بين القيادات العسكرية من المحتفظين بمناصبهم بعد المدة القانونية، ممن خدموا الإدارة السابقة (خاصة الجنرال هيو شيلتون Hugh Shelton رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة) وبين المدنيين من جهة أخرى، كانت علاقة جامدة وأقبح ما فيها كان يتجلّى على أوراق الصحف.

في الحادي عشر من سبتمبر، تغير كل ذلك. بعد الاندفاع خارج البنتاغون المقصوف للمساعدة في إنقاذ الموظفين، عاد رمسفيلد إلى مركز قيادته تحت الأرض، داخل المبنى. لقد أتى ليلعب دوراً كبيراً مرئياً أكثر من كل الأدوار التي لعبها في كل حياته. داخل الإدارة، أصبح وبشكل متزايد، صوتاً فعالاً ومؤثراً من ضمن دعاة الحرب. أولاً، طالب بمسح نظام طالبان من أفغانستان، لأنه منح تنظيم القاعدة قاعدة آمنة في أرضه، ومن ثم انتقل للمطالبة بإسقاط نظام صدام حسين في العراق. الحرب الأفغانية، عملية «الحرية الدائمة» (OEF Operation Enduring Freedom) التي بدأت في ٧ أكتوبر ٢٠٠١ وانتهت بسقوط كابل في ١٣ نوفمبر ٢٠٠١، وحرب الخليج الثانية، بدأت في ١٩ مارس وانتهت في ٩ أبريل ٢٠٠٣، كلتاهما نجحتا نجاحاً كبيراً.

من الناحية العسكرية التقنية : الأمريكيون وقوات التحالف لم يعانوا من الأضرار إلا قليلاً، وتحققت الأهداف في وقت قصير. في كلتا الحالتين، تأتت للقوات الأمريكية مشاريع لبناء الدولة لفترة أطول، وبالنسبة لهذه الدراسة، فقد ظل الناتج النهائي لتلك المشاريع غير

واضح. مع هذا، فقد كان نمط تلك العمليات مختلفاً جداً عن مثيلاتها في العشر سنوات التي سبقتها، والتي تمثلت في تردد هائل بشأن استخدام القوّة (ترددٌ أجّلَ التدخل الذي قادته أمريكا في يوغوسلافيا سنوات طويلة)، سياسة توظّف القوّة وتركّز على منع الضرر، وتكتفي بفكرة المظهر، بدلاً من القوّة الفاعلة (مثل الغارات الجوية على العراق ما بين ١٩٩١ – ٢٠٠٣) أو النقل الثقيل. أو الانتشار ثم استخدام محدود للقوة يترك وراءها مشاكل جوهرية بلا حل (حرب الخليج الأولى). هذا التغيّر في الأسلوب العسكري، يُنسب بقدر كبير منه إلى قيادة رمسفيلد.

التراخي مخاطرة يجب وزنها

جاء رمسفيلد إلى منصبه بقناعات معينة تتعلق باستخدام القوّة، وقد استخدمها على نحو مميّز، على هيئة أوامر مكتوبة في مذكرات صغيرة. كان هذا، بقصد أو بغير قصد، رفض لكثير مما جاء في مبدأ واينبرجر الذي شكّل طريقة التفكير العسكري الأمريكي بعد نهاية حرب فيتنام. كان هناك تجاوز مؤكد من قبله. وقد نادى رمسفيلد بأهداف واضحة يمكن تحقيقها، لكنه حدّد الوضوح بقوله: «للحد الممكن». وقد ابتعد كثيراً عن أرثوذوكسية واينبرجر. على سبيل المثال، بدلاً من الإصرار على ضمانة التأييد الشعبي للعمل العسكري، أوضح رمسفيلد:

- إذا كان التأييد الشعبي ضعيفاً في البداية، فعلى قيادة الولايات المتحدة أن تكون قادرة على استثمار قوتها السياسية من أجل

الحصول على التأييد العسكري، للمحافظة على الجهود التي بُذلت، ومهما طالت المدّة التي قد تكون ضرورية.

وبدلاً من الإصرار على أن استخدام القوّة، لا يكون إلا بعد التفكير المتأني، رأى رمسفيلد أن على الولايات المتحدة أن «تتحرك مبكراً». بدلاً من الحديث عن «السحق» و «القوّة الحاسمة»، تحدث رمسفيلد عن «المجازفة المقبولة». ورفض الرطانة العسكرية الغامضة حول «حالات الإنهاء» و«استراتيجيات الخروج» مقرراً أن «على القيادة ألا تقبل بالنهايات المبتورة فيما يتعلق بانسحاب الولايات المتحدة، أو عندما ينتظر العدو- ببساطة - خروجنا». وفوق ذلك كله، بدلاً من أن ينظر للقوة على أنها الملاذ الأخير، صرّح وزير الدفاع الجديد قائلاً :

- بنفس الدرجة التي نقدّر فيها حجم المجازفات الناتجة عن العمل العسكري، كذلك المجازفة بالتراخي يجب أن توزن أيضاً.

أطلع رمسفيلد الرئيس المنتخب على رؤيته حول استخدام القوّة قبل قبوله المنصب، وقال بوش إنه يوافق على رؤيته. وزير الدفاع، بخلاف معظم أعضاء الإدارة الجديدة، لم يكن من أولئك الذين تركت فيهم فيتنام وشماً. لقد خدم في الجيش، لكنه كان من جيل ما قبل الهند الصينية. العدوانية العميقة الجارية بين الجنرالات الذين خدموا في فيتنام وبين المدنيين، لم تدر قط بالقرب منه. إذا كانت القراءة في كتب التاريخ شكلت وعيه حول موضوع استخدام القوّة، فلا شك أنه التاريخ القريب، حادثة الصومال على سبيل المثال التي قُتل فيها أقل من ٢٠ جندياً، عجّل بانسحاب أمريكي سريع من البلاد. لقد

كان مهموماً بشكل عميق بسبب الانطباع أن الولايات المتحدة غير راغبة في تحمل الخسائر، وكان مقتنعاً بأن «الضعف يدعو للغضب». هكذا شكّل رمسفيلد رؤيته حول استخدام القوّة، قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وبنفس الدرجة من الجودة، تشكل نمط إدارة رمسفيلد التي كانت خارجة عن دائرة الحوار غير المتكافئ :

- أنا أطرح الأسئلة لأسباب كثيرة. أتساءل لأحصل على الإجابات، أتساءل لأرى كيف سيجيب الناس، لأختبرهم، وأرى لأي درجة يمكن للناس أن يحلّلوا قضية ما. كم بقي من الطوابق وكم بقي من الخطوات؟ أنا أفعل ما أفعله مدفوعاً بشعوري بالواجب كوزير للدفاع، وأن أسأل السؤال الذي يحتاج الرئيس إلى معرفة جوابه. أنا أفعل ما أفعله لكي أقود، ولكي أزود من ألتقي بهم برؤية داخلية حول ما لم يفكروا به.

إنه أسلوب جديد نشأ، كما وصفه رمسفيلد، من حياة قُضيت :

- في القيام بأعمال لم يكن لي سابق خبرة بها. لقد أدرت شركة أدوية، برغم أني لم أدرس الكيمياء ولا البيولوجيا، في يوم من الأيام. وأدرت شركة إلكترونيات، برغم أنني لم أحصل على شهادة في هندسة النظم. تنقلت من الأمور المنزلية، إلى الأمور الاقتصادية، إلى قضايا السياسة الخارجية، إلى قضايا الأمن القومي.

تحقيقات رمسفيلد واختباراته المفاجئة، شملت اجتماعات وجهاً لوجه ووابل من المذكّرات المرتجلة (تعرف في البنتاغون باسم ندف

الثلج) كان لها وظيفة أخرى. «لا يمكنك أن تفوّض الصلاحية وتكون واثقاً في التفويض، دون أن تكون قد كونت معرفة عن الأشخاص الذي تفوّضهم». طرح الأسئلة كان أسلوباً لبناء الثقة بسرعة أو بسهولة.

وعلى الرغم أنه لم يصرح بذلك قط، يبدو أن رمسفيلد قد اعتقد أن الحقبة السابقة قد شهدت تآكلاً في السيطرة المدنية على العسكريين. من خلال تقديم المثال ومن خلال الفعل، كافح رمسفيلد للحفاظ على السيطرة المدنية التي ظهرت مهتزّة بسبب البروز الهادئ للأركان المشتركة، وانحسار ثقة المدنيين بأنفسهم، وبسبب الإجماع على مصطلحات مثل «القوّة الساحقة».

إن قراره، مثلاً، إلغاء إطلاق لقب (القائد العام) على كبار الضباط العسكريين في مسارح العمليات التي تقسّم وزارة الدفاع العالم بناء عليها، أثار أكثر بكثير من مجرد السخرية. «إدارة جزئية تافهة». قالها أحد محللي الدفاع وهو يظهر الاحتقار، إلا أنها كانت قضية مهمة : في النظام الأمريكي، كان هناك قائد عام واحد، ولأسباب معتبرة كان مدنيّاً : ألا وهو الرئيس.

صدارة القيادة المدنية تستند في النظام الأمريكي إلى الرئيس. ومن الناحية العملية، كان رمسفيلد قريباً من بوش، ومن نائبه ديك تشيني. ومع تطور العلاقة عبر السنين، أصبح وزير الدفاع في الواقع كما لو كان نائب القائد العام، يمارس سلطات عليا باسم الرئيس. في وقت الحرب أيضاً، ورغم أن الرئيس قد مارس أنواعاً متباينة من المراقبة، فإن وزير الدفاع كان أقرب ما يكون لسد الفراغ الذي تركه

القادة العسكريين، ولعب الدور الذي يلعبونه، كما في الفصول السابقة. لطالما اتكأ الرؤساء المعاصرون على وزراء الدفاع ليمارسوا ذاك النوع من القيادة المدنية التي يحددها الحوار غير المتكافئ، خصوصاً في الأزمنة التي تكون الحرب محدودة والمسؤوليات عالمية.

لن نتردد ولن نتعب ولن نترنح ولن نفشل

هذه شبه جملة من خطاب للرئيس بوش أمام الكونغرس في ٧ أكتوبر ٢٠٠١، وكأنما هي إعادة صياغة لجملة تشرشل : «أعطونا الأدوات، وسننجز العمل» في خطبة له في ٩ فبراير ١٩٤١: « لن نفشل ولن نتردّد ولن نضعف ولن نتعب». إلا أن تشرشل، قدّم تحليلا مطوّلاً للحرب التي كانت تزداد سوءاً، بينما كان بوش على وشك إطلاق محاولة لسحق المنظمات الإرهابية/الإسلامية، وإضعاف الدول التي تملك أسلحة الدمار الشامل في الوقت نفسه. لقد ألهم تشرشل العامة بدهاء، وطلب الدعم من المحايدين الأثرياء، بينما وقف بوش على رأس أغنى وأقوى أمّة على ظهر الكوكب.

خطبة تشرشل كانت من المواعظ الرسمية الكثيرة التي تعوّد على إلقائها. بينما خطاب بوش، مثل خطبته في الأمم المتحدة ١٢ سبتمبر ٢٠٠٢ لا تعكس إلا حالة رجل لم يكن يشعر بالراحة في إلقاء الخُطب العلنية. ومع ذلك، فقد أطلق الرئيس، الولايات المتحدة في عمل عسكري سيعكس القوّة الأمريكية على مناطق لم تصل إليها من قبل، طلباً لأهداف يُشكَك في صحتها في نواحٍ كثيرة من العالم. خلال سنتين سحقت القوّات الأمريكية نظام طالبان في أفغانستان، وشكلت

بنية قاعدية في آسيا الوسطى والخليج العربي (تحديداً، نقل القواعد التقليدية من السعودية) وإدارة حملة قصيرة، لكن ناجحة، لإسقاط نظام صدام حسين في العراق.

الحملة على أفغانستان كانت عملاً مرتجلاً مذهلاً. في أوائل أكتوبر، وفي أقل من شهر من حادثة ١١ سبتمبر، كانت القوّات الأمريكية تقوم بعملية انتشار من دول آسيا الوسطى إلى أفغانستان، لم تكن – حتى اليوم – مجالاً متوقّعاً لعمل عسكري يقوم به البنتاغون. مزيج من القوّة الجوية عالية الدقة وذات المدى البعيد، تديرها الاستخبارات المركزية، وعمليّات القوّات الخاصة، هي من سحق طالبان و جزءاً كبيراً من تحالف تنظيم القاعدة. بينما المليشيات الأفغانية غير المترابطة وعصابات أمراء الحرب وقوات تحالف الشمال هي من حقّقت النصر على الأرض. في ١٣ نوفمبر سقطت كابل. ثم كانت هناك عمليات تكميلية، تشمل هجمات على معاقل تنظيم القاعدة وطالبان في شاهي كوت في مارس ٢٠٠٢، ساعدت في إكمال سقوط النظام الإسلامي المتطرف في أفغانستان بقيادة الولايات المتحدة. بقيت حرب العصابات الأصولية، خصوصاً في المناطق الحدودية الخارجة عن القانون بالقرب من باكستان. إلا أن أفغانستان لم تعد معقلاً آمناً للمنظمة التي أطلقت عملية الحادي عشر من سبتمبر.

المشهد من الخارج إذاً يدل على نجاح مذهل. أما من الداخل فكان المشهد مختلفاً. الخطة التي أوصلت الولايات المتحدة للنجاح في أفغانستان كانت من جهد الاستخبارات المركزية بصورة أكبر من البنتاغون. ويقال إن رمسفيلد رأى أن العملية التي توضع للعمل والتي

ستنزل عدداً قليلاً من القوّات الخاصة على الأرض، هي عملية صعبة لا تُطاق.

لم يكن رمسفيلد سعيداً بالخطة المبدئية للحرب على أفغانستان، وهذا عكس مشكلته مع حالة التخطيط الأمريكي للحرب بشكل عام. ومع توليه للمنصب، اكتشف بنية تقوم بتطوير خطط الحرب، بصورة تعتمد على عمل تمهيدي، يأخذ عادة ما بين السنتين والخمس سنوات لكي يصل لمكتبه.

علاوة على ذلك، فإن تلك الخطط تركز على المفاهيم اللوجيستية أكثر من العمليّاتية، وقلبُ وجودها يتمثل في وثيقة مفصّلة تعرف باسم قائمة انتشار القوّات المرحلية (TPFDL) والتي تصف بتفاصيل دقيقة خطة إرسال المعدّات الضخمة الحديثة إلى مناطق حربية نائية. في هذا المضمار لم يتغيّر إلا القليل منذ حرب الخليج الأولى: الخطط العمليّاتية في سنة ١٩٩٠ احتوت على أسلوب ينطبق على حالة معينة (في هذه الحالة، هي الدفاع عن المملكة العربية السعودية) وخطة انتشار انهارت فوراً مع انفجار أحداث الغزو العراقي للكويت في أغسطس ١٩٩٠.

كان في عملية التخطيط عيوب أكبر من مجرد أنها أصبحت آيلة للسقوط. إنها لا تستحضر الحقائق السياسية، سواء على الأرض، أو في واشنطن. وبنفس الدرجة من السوء تقريباً، بَدا لرمسفيلد وللمحيطين به أن تلك الخطة قد فشلت في أن تأخذ في حساباتها، التغيّرات التي طرأت على العسكرية الأمريكية منذ سنة ١٩٩١. وقد أبرزت الحرب

الأفغانية بعض تلك التغيّرات: على سبيل المثال، التطوّر الهائل في القوات الجوية الأمريكية التي أصبحت في الغالب سلاحاً دقيقاً، والنمو الأُسّي في الاتصالات والشبكات التي سمحت لمكاتب القيادة وأفراد الوحدات بأن يتشاركوا المعلومات، وتقنية الكمبيوتر التي قدمت معرفة شبه فورية بما يحدث على أرض المعارك، مما كان خارجاً عن مدى الخيال في السابق.

تلك التغيّرات لم تأت كلها دفعة واحدة، كما أنها لم تكن نتيجة لتعديلٍ من الأعلى للأسفل للنظام العسكري، بل بالأحرى جاءت على دفعات نتيجة لتراكم بطيء وتطور التكنولوجيا الجديدة، وعملية ابتكار بالكاد تُفهم، وبالتجارب الحقلية. وفوق كل هذا، تجربة حرب الخليج الأولى التي أظهرت أن القوات الأمريكية التقليدية تمتلك الآن – بسبب تركيبة من التكنولوجيا والقدرات التنظيمية – تفوّقاً أكبر بكثير على الأعداء المحتملين مما كان مفهوماً في ١٩٩٠.

لا عجب إذاً من كون رمسفيلد عندما أطلع الرئيس بوش لأول مرة على خطة القتال في العراق (من المتوقع أن هذا حدث في ربيع ٢٠٠٢ إن لم يكن قبل ذلك) أخبر الرئيس أن هنالك خطة، لكن لا هو يثق بها ولا بكبار المستشارين العسكريين. قال إنها عاصفة الصحراء ٢، انتقام من حرب الخليج ١٩٩٠، وأن الأمر سيتعلق بعملية بناء شاملة منظمة لتجهيز نصف مليون جندي، وضربات جوية تمهيدية مدروسة، وهجوم بطيء نسبياً بالمدرعات على النظام العراقي. لقد كانت خطة غير مقبولة، وقد أمر بمراجعتها.

لا يمكن أن نقف مكتوفي الأيدي والخطر يتنامى

في ١٢ سبتمبر ٢٠٠٢ خاطب الرئيس بوش الأمم المتحدة، محاولاً أن يوضح موقفه في قضية الهجوم على العراق. ركزت خطبته على أن محاولة العراق الحصول على أسلحة الدمار الشامل تعني تحدي قرارات الأمم المتحدة وتهديداً للسلام العالمي، وللأمن القومي الأمريكي، على نطاق ضيق. لم يكن تحذيراً حقيقياً، لكن شيئاً يشبهه : «لا يمكننا أن نقف مكتوفي الأيدي بينما الخطر يتنامى. يجب أن نقف مدافعين عن أمننا القومي، ومن أجل آمال الإنسانية وحقوقها الدائمة. يجب على الولايات المتحدة أن تقف هذه الوقفة، لأن هذا هو إرثها، وهذا هو اختيارها».

كان المعنى الضمني واضحاً للمستمع : لدى صدام حسين فرصة أخيرة لكي يُعلن عن أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها وأن يقبل بالتفتيش غير المقيّد (الذي انهار في ١٩٩٨ بسبب مقاومة ماهرة من الجانب العراقي، والدعم الصامت من قبل دول مثل فرنسا وروسيا)، وإما أن يواجه عملية إسقاط نظامه. وإذا لم توافق الأمم المتحدة ولم تسِر مع رؤية الولايات المتحدة، فإن الولايات المتحدة ستسعى لتكوين تحالف مع من يرغب. جهد أقل بكثير من الذي بُذل في ١٩٩١، وقد تنقصه مصادقة الأمم المتحدة. خلال شهر، حصل بوش على دعم الأغلبية، عبارة عن تحالف نتج عنه تخويل الكونغرس له بأن يستخدم القوة في سبيل تحقيق الأهداف التالية :

(١) الدفاع عن الأمن القومي الأمريكي ضد التهديدات المتكررة التي يُمثلها العراق.

(٢) إنفاذ قرارات مجلس الأمن الدولي فيما يتعلق بالعراق.

الموقف الدبلوماسي والسياسي أصبح عكس ما كان في عام ١٩٩٠ عندما تعمّد أبوه أن يحرّك التأييدَين: العالمي والمحلّي لدعم الحرب. داخلياً، كانت مهمة الابن أسهل بكثير من أبيه: سنين من معاناة المواجهة مع العراق. سياسة تغيير النظام التي تم افتتاحها في الإدارة اللاحقة في عصر الرئيس بيل كلينتون، ثم الحساسية من التحوّل فيما يتعلق باستخدام القوة بعد ١١ سبتمبر، كل هذا جعل المهمة الداخلية سهلة جداً، بغض النظر عن رأي البعض من داخل إدارته نفسها، كوزير خارجيته كولن باول.

أما عالمياً، فالإجماع كان في حالة ضعف أكبر. وفي وسط نوفمبر صدر قرار عن مجلس الأمن الدولي مهّد الطريق لاستئناف التفتيش. إلا أنه كانت هناك معارضة حقيقية للحرب، على الأقل من قبل ثلاثة أعضاء في مجلس الأمن، تقودهم فرنسا. وبسقف أعلى، كانت هناك آراء للنُخب، حتى في تلك الدول التي تصطف وراء الولايات المتحدة (مثل بريطانيا وإسبانيا) ممن مارسوا معارضة الحرب على العراق، بكل مرارة.

الحقيقة أن الموقف كان يحتاج لحدث يؤدي إلى الضغط على الزناد، كما حدث في العراق ١٩٩٠ بغزوها للكويت. الحجة التي أظهرتها الولايات المتحدة – بقوة، على الصعيد العالمي فقط – كانت

تتعلق بطبيعتها تجاه التهديدات طويلة الأمد. الأسس كثيرة، لكن لا يوجد من يشعر بالحاجة الحثيثة للاستعجال: نعم، لقد خرق صدام حسين قرارات الأمم المتحدة، لكن هل يستحق الحرب على ذلك؟ نعم، كان طاغية سفاكاً، لكن هل ستشن الولايات المتحدة الحرب على كل ديكتاتور؟ نعم، ربما إنه قد خطط لتطوير أسلحة كيماوية وبيولوجية، لكن ألا يمكن لتحالف للردع والاحتواء، وفرق التفتيش، أن تقوم بمحاصرة القضية إلى أجلٍ غير مسمّى؟ بالإضافة إلى ذلك، أليست مخاطر الحرب أعظم بكثير مما يجري في الوقت الراهن، على صعوبته؟ ألن تشعل الحرب فتيل الغضب العربي ضد الغرب؟ ألا يمكن أن تؤدي لمعاناة المدنيين بشكل كبير؟ ألن ينقسم العراق متسبباً في خسارة كبيرة للاستقرار بعد الحرب، أكبر مما كان عليه الوضع قبلها؟ ألا يمكن أن يستخدم صدّام أسلحته الكيميائية والبيولوجية ضد عدد من الأهداف -أو ربما ضد شعبه – وتدمير ثروة العراق النفطية، أو توسيع نطاق الحرب بقذف الصواريخ على مدن إسرائيل؟

كانت هناك أجوبة عن كل تلك القضايا بالتأكيد، لكنها ما كانت لتُقنع أحداً في الخارج، خصوصاً أولئك الذين يخافون من تكريس الهيمنة الأمريكية. لذا شككوا في دوافع أمريكا. وكانوا يحتقرون ما يتخيلونه إدارة محدودة التفكير تقودها الأيديولوجيا تريد تحطيم أطر القانون الدولي الهشّة أصلاً. وبعض تلك الاحتجاجات كانت تعتمد على مشكلات كبيرة تتفهمها الإدارة الأمريكية.

في هذا السياق إذاً، بدأ التخطيط لتلك الحرب الخطيرة – لعله بدأ مبكراً في ربيع ٢٠٠٢، لكنه لم يصبح كثيفاً إلا في الصيف، أو في

أوائل الخريف من نفس السنة. وعلى الرغم من التقارير الصحفية عن الاحتكاك بين المدنيين والعسكريين، فقد حظي رمسفيلد - في هذا الوقت - بالثقة في الفريق العسكري من كبار الضباط الذين سيقودون الحرب : رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة، جنرال القوات الجوية ريتشارد مايرز Richard Myers ونائبه من البحرية الجنرال بيتر بيس Peter Pace والجنرال توماس فرانكس Thomas Franks من القيادة المركزية. كانت سمعة هؤلاء الثلاثة إلى تلك اللحظة تقوم على المهنية الصلبة، لا الموهبة أو الألمعية الاستثنائية. لكنهم كانوا معتادين على أساليب رمسفيلد، وهو قد اعتاد على رفقتهم. وقد اعترف مايرز بامتعاض قائلاً :

- لو طُلب مني ومن الجنرال بيس أن نقضي وقتاً أطول مع الوزير، أو طلب منا المزيد من المشورة، فسنضطر للذهاب معه إلى البيت في المساء، وإلى النوم معه في سريره.

أما بالنسبة لفرانكس، فحتى أوائل الخريف، كان حديثه مع رمسفيلد مقتضباً، مرة في الأسبوع عن حالة التخطيط للحرب على العراق. فيما بعد، تسارعت الاجتماعات لتشمل مزيجاً من اجتماعات ثنائية والاجتماعات المنقولة عبر الدوائر التلفزيونية المغلقة والفيديو. هؤلاء الرجال الأربعة، مع بول ولفويتز Paul Wolfwitz، نائب وزير الدفاع، هم مخططو الحرب الكبار.

كانت مشكلة رمسفيلد الكبرى هي ضمانة أن يصل مستوى الخطة إلى حدود معايير معينة. اهتمامه الأول هو خدمة رغبات

الرئيس، دون أن يغفل عن أن الولايات المتحدة، من الناحية الشكلية، ليست ملتزمة بإقامة الحرب، على كل الأحوال. جزئياً، هذا معناه أنها ليست ملتزمة بإرسال قوات كبيرة، بحيث تواجه قرارات صعبة فيما بعد لسحب قواتها إذا تم تأجيل الضربة العسكرية لأغراض سياسية. هذا يعني أنها ستقوم بانتشار جيد، ما قبل الحرب، وهذا من شأنه أن يسمح للإدارة بجمع الدعم، بينما ستحاول إقناع الأمم الأخرى بأن الولايات المتحدة كانت مستعدة لاتفاقية سلام بخصوص المشكلة العراقية.

إلا أنه كانت هناك أشياء لا بد من أخذها في الاعتبار بنفس القدر. ما حجم القوة التي ستحشدها الولايات المتحدة في الكويت (الدولة المجاورة الوحيدة القابلة لاستضافة القوات الأمريكية الأساسية على الأرض) والتي حين تفعل، ستكون ضعيفة أمام هجوم عراقي يستخدم الأسلحة الكيميائية والبيولوجية؟ كيف يمكن للولايات المتحدة أن توفر عنصر المفاجأة الكافي، حتى لا يتم تدمير آبار النفط العراقي، على غرار الخراب الذي حدث في الكويت عام ١٩٩١؟ ما هي الخطة التي يمكن أن تقلل الخسائر في المدنيين، ليس الأمريكيين فقط، بل في العراقيين أيضاً؟ كيف يمكن منع العراقيين من توسيع دائرة الحرب لتشمل إسرائيل فتدخلها في المعركة، كما كادت أن تفعل في عام ١٩٩١؟ كيف يمكن الإتيان بخطة تستحضر الشكوك في الدعم التركي، وربما من الممكن أيضاً، أن رئيس الوزراء البريطاني توني بلير، الذي يعاني من ضغط شديد يمارسه عليه حزبه، حزب العمال، قد يكون غير قادر على المشاركة بفعالية؟

وبدرجة أقل لكن بنفس الدرجة من الأهمية الأساسية، تأتي التكاليف المادية والخسائر والأضرار التي ستلحق القوات الأمريكية التي تعاني أصلاً بسبب الانتشار في الخليج قبل البداية الحقيقية للحرب بستة أشهر أو أكثر.

هذه القضايا نتجت عن خطة اختلفت بشكل حاد عن خطة «عاصفة الصحراء». لقد شملت انتشار ما يقارب خمسَي القوات – أقل من ربع مليون جندي – وتشمل فصيل ثقيل واحد (فرقة المشاة الثالثة)، بالإضافة إلى المارينز والفرق المنقولة جواً، وعدد من وحدات الدعم. وفرقة ثانوية ثقيلة، فرقة المشاة الرابعة، ظهرت عند نهاية الحرب : كانت الخطة هي نشرها على الجبهة الشمالية في تركيا قد فشلت بسبب رفض البرلمان التركي للطلب الأمريكي بالنزول هناك. على أي حال، كان التباين كبيراً مع انتشار «عاصفة الصحراء» وكان التباين الأوضح في المفهوم العملياتي. بدأت «عاصفة الصحراء» بعد أكثر من شهر من الضربات الجوية. أما عملية «حرية العراق» الاسم الرمزي لحرب الخليج الثانية (Operation Iraqi Freedom) فقد بدأت أرضاً وجوّاً في الوقت نفسه. وفي حين بلغت «عاصفة الصحراء» أوجها في وقت قصير، وحازت أرضاً محدودة لعملياتها، مستهدفة سحق القوات العراقية، أو العمل على تراجعها، فإن «حرية العراق» تركزت في الاندفاع نحو بغداد التي بلغتها القوات الأمريكية بعد أسبوعين من بداية الحرب. وفيما تجنبت «عاصفة الصحراء «لأقصى حدّ ممكن الاشتباك في مواضع العمران، فإن «حرية العراق» تورطت في القصف الدقيق المكثف للمدن العراقية وأعادت الاشتباك هناك. وشمل ذلك

اندفاع مذهل بالكتائب المدرعة في قلب بغداد، بغرض إحداث حالة من الإحباط عند المقاتلين العراقيين الأشداء. في «عاصفة الصحراء» كان التوجيه لقوات العمليات الخاصة بأن تكتفي بدور محدود في الصحراء الغربية، أما «حرية العراق» فقد استخدمت تلك القوات بكثافة، ليس فقط في غرب العراق، بل بطول وعرض البلاد.

إنه من العدل أن نقول إنه لم تشهد أي حرب استخداماً لقوات الكوماندوز ووحدات الاستطلاع الخاصة، في أدوار مختلفة، من القيام بالغارات، إلى تنسيق الضربات الجوية المدمرة، ضد البُنى العراقية، مثل هذه الحرب. وكانت النتيجة حرباً سريعة انتهت بخسائر مذهلة في قلّتها، لم يمت سوى ما يربو على المائتين من القوات الأمريكية والبريطانية. والأمر الذي لا يقل إدهاشاً، هو حجم السخرية التي تراكمت حول الخطة، وعلى القيادة المدنية قبل الحرب وفي أثنائها وبعدها إلى حدّ ما، وسبب السخرية هو التهمة القديمة: التدخّل.

إما أنهم لم يكونوا هناك وإما أنهم لا يعلمون وإما أن لديهم أجندة مختلفة

قبل أن تبدأ الحرب في ١٩ مارس، كان هناك محاولة مذهلة، تبدو الآن فاشلة، لقتل صدّام حسين وزمرته، بعملية تفجير دقيقة. وقد صُدمت الإدارة بسخرية شديدة من طرف العسكريين بسببها. وحتى قبل المعركة، كان هناك بعض الضباط الذين بثوا تذمّرهم للصحف. وعندما أعاقت عاصفة رملية القوات الأمريكية لمدة أسبوع، في حين

كانت الوحدات غير النظامية تثبت نفسها في معارك أعنف مما كان يُتوقع منها، عندها صارت صيحات الانتقاد أعلى.

«القوّة كانت صغيرة جدا» عبارةٌ قالها أفراد عسكريون مجهولون همساً للصحفيين، وهي وجهة نظر تردد صداها بواسطة جنرالات متقاعدين من خلال التعليق لدى مجموعة شرِهة من التلفزيونات وشبكات الأخبار. الجنرال المتقاعد باري مكافري Barry Mcffrey وهو من المحاربين القدامى في فيتنام، ومن الحائزين على أوسمة رفيعة، وهو القائد المقدام لفرقة المشاة الميكانيكية الرابعة والعشرين في «عاصفة الصحراء»، كان حادّا جداً في نقده. وقد صرح قائلاً إن بغداد وحدها كان يمكن أن توقع ٣ آلاف إصابة في القوات الأمريكية : «لقد أخبره الجميع أنها غلطة ألا يكون هناك المزيد من القوات على الأرض».

ووافق على ذلك محاربون قدامى آخرون في حرب الخليج، وأضاف نقداً آخر. «استراتيجيتنا كانت خاطئة. لقد كانت هناك مخاطرة بالأرواح، أكثر مما يجب ». هذا ما شدّد عليه الفريق بوستر غلوسون Buster Glosson وهو من قام بالتخطيط للحرب الجوية على العراق في ١٩٩١. وقد جمع الصحفي سيمور هيرش Seymour Hersh شريحة كبيرة من الضباط العسكريين الكبار الذين لم يُفصحوا عن هوياتهم، والذين اشتكوا من أن رمسفيلد يعتقد بأنه «يعرف أكثر». وأنه قد أوجد مساحة للسخرية والتحديات حيث «لا يسمح لكبار الضباط بتقديم أفضل نصائحهم». «هذا مأساوي»، هكذا علّق أحد المخططين، وهو جنرال متقاعد، مستحضراً من جديد أشباح فيتنام :

«هذا هو نفسه أسلوب ماكنمارا في ترهيب العدو بخلية صغيرة». لقد تخلّى رؤساء الأركان المشتركة عن سلطاتهم.

استاء رمسفيلد ومستشاروه العسكريون من كل ذلك، ففي مؤتمر صحفي عقد في ١ أبريل، ردّ رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة:

- رأيي في تلك التقارير، وخصوصاً أنني لا أعرف من هم أصحاب تلك الاقتباسات، من هم هؤلاء الأفراد؟ هل هم وهميون؟ لا أعرف كيف بدؤوا ولا أعرف كيف استفاضوا في الحديث، لكنهم ليسوا من الأعضاء المسؤولين في الفريق الذي أكمل هذا الإنجاز. إما إنهم لم يكونوا متواجدين حينها، وإما أنهم لا يعرفون، وإما أن لديهم أجندة أخرى، ولا أدري ما هي هذه الأجندة. إنه من غير المُتوقع أن توجد مثل تلك التعليقات في وقت يخوض فيه جنودنا الحرب. لأنه قبل كل شيء، كل تلك التعليقات كاذبة. إنها خاطئة قلباً وقالباً. إنها لا تقارب الحقيقة، إنها فقط .. إنها فقط، شيء ضارٌ لجنودنا الذين يقاتلون بكل شجاعة هناك. أنا أيضاً، كنت موجوداً في كل هذه العملية، ولا يوجد شيء واحد، طلبه الجنرال فرانكس، ولم يحصل عليه، بحسب الجدول الزمني الذي التزمنا به. وليس السبب هو تأخر الحصول، بل السبب كما تعلمون هو أننا لا نملك سفينة أو ما شابه ذلك. أقصد، بالنسبة لي، أن التأخر كان لأسباب فنيّة، وليس لأسباب تتعلق بالإدارة. أستطيع أن أضمن لكم هذا. كل عضو في رئاسة هيئة الأركان المشتركة بدأ في الالتزام بهذه الخطة، وبطريقة تنفيذها من اليوم الأول، وسوف يلتزمون بها

لآخر يوم، لأننا ما زلنا نعتقد أنها خطة جيّدة. كل عضو من عناصر قيادة الجنرال فرانكس ملتزم بهذه الخطة، مع تغيرها مع مرور الوقت، وكما صارت أخيراً لتصبح الخطة التي ذهبنا بها للحرب.

هذه الخطبة لم تقض على النقد، بالرغم من سقوط المقاومة العراقية في ٩ إبريل، بعد أقل من شهر منذ بدء الأعمال العدائية، مما جعل النقد أكثر خفوتاً بشكل ملحوظ. ما الذي حدث فعلاً؟ ولماذا كان أسلوب رمسفيلد في السيطرة المدنية جاذباً للعدائية الشديدة ضده؟

الخطة كانت خطة الجنرال فرانكس بالتأكيد. لكنها كانت خطة خرجت للنور بعد أن طرقها رمسفيلد بالمطارق، وبعد حفلة شواء استمرت لمدة أشهر، قام بها رمسفيلد مع معاونيه المباشرين. لقد كانت خطة تمّت الموافقة عليها - بحقد في بعض الأحيان - من قِبل القادة في السلاح ممن لا تصلهم المعلومات الكافية، وليس من مسؤولياتهم التخطيط للحرب، لكنهم يمارسون تأثيراً مهماً على رأي العسكريين وتأثيراً ممكناً على الرأي العام. الاتصال المباشر بين فرانكس ورمسفيلد كان مستمراً بشكل ملحوظ، بينما في الحروب السابقة كان التواصل وجهاً لوجه بين وزير الدفاع وقائد مسرح العمليات متقطّعاً في أحسن أحوله. أما في حالتهما، فقد كان متكرراً، وفي أثناء الحرب نفسها، كان يومياً. ساهم في ذلك ابتكار تكنولوجي. الدائرة التلفزيونية المغلقة وفرّت جاهزية التواصل بين المشاركين المتعددين الذين يمكنهم المشاهدة، لو قُدّر أنهم لا يستطيعون الكلام. ومن المثير للاهتمام أن أحد المسؤولين الكبار صرّح بأن عدداً من الأعضاء الذين

كانوا يشاهدون تلك المؤتمرات التلفزيونية، انتقلوا إلى التشارك في المال والأعمال بعد حوارات منفصلة من خلال خطوط هاتفية آمنة، بعد الحدث الرئيسي.

طريقة رمسفيلد في طرح الأسئلة لم تجعل العلاقة سهلة دائماً مع فرانكس، لكن في النهاية، يبدو أنه قد صارت حالة من الثقة المتبادلة بين الطرفين. وفقاً لحسابات رمسفيلد، يقول إنه أبعد تركيزه عن القيادة الفعلية للعمليات، مع بداية القتال، بالرغم من كونه على اتصال يومي مع قائد مسرح العمليات، ومع تقارير قيادة الحرب، وفوق كل ذلك، تقارير أعضاء الفريق. وكان يناقش بانتظام بعض القضايا الحساسة للعمليات، مثل تلك التي قد تتعلق بالأضرار الكبيرة المباشرة، مع كل من فرانكس، ومع الرئيس الذي بالإضافة إلى كونه يُبلّغ فيما يتعلق بالخطط، تبليغاً كاملاً، كان أيضاً يقوم بإجراء الاتصالات الخطيرة، مثل الاتصال لإطلاق الضربات الجوية في ١٩ مارس.

من المفترض أن مايرز وبيس وفرانكس دعموا بشجاعة أسلوب العلاقة بين المدنيين والعسكريين في هذه الحرب، ونتائجها الناجحة، فلماذا كل هذا النقد المرير لرمسفيلد ولقيادته للحوار غير المتكافئ؟ بعضه، بلا شك، خرج من الشعور بعدم الراحة الذي شعر به بعض العسكريين ممن وضعوا تحت وابل الأسئلة والتحقيق الذي لم يتلقوه من قبْل في الحقبة السابقة، من قبل رؤسائهم المدنيين. وبعضه، خرج من اختلاط بين متطلبات رمسفيلد العملياتية فيما يتعلق بالحرب، مع طلبه لتغيير هيئة الدفاع.

في هذا الصراع لم يكن الخطر يتعلق فقط بمستقبل العراق، ولكن أيضاً بالأسلحة العسكرية والمجتمعات في داخلها. وكان الخطر يتعلّق أيضاً بأساليب الحرب. أسلوبٌ في الحرب يستند إلى العمليات الخاصة والقوة الجوية والمدرّعات الثقيلة محدودة العدد التي تضرب بشدة على الأرض، مهدداً - ليس القدرة العسكرية فحسب - بل مهدداً التعاليم العسكرية كلها. بالفعل، لقد أشار بعض نقّاد تلك للحرب إلى السرعة التي تطور فيها فن الحرب في عشر سنين، مقدماً أحكاماً احترافية فصلية على ألسنة العسكريين الذين تقاعدوا مؤخراً، من المهمَلين ومن لا تصلهم المعلومات الكافية. ولعل الأكثر أهمية، مثل تلك الإشارة إلى ماكنمارا، فإن أشباح فيتنام لم تخلد للنوم بعد.

لو نظرنا إلى الماضي، لوجدنا أن النقد يبدو وكأنه نقد بلا معنى. المؤرخون، بلا شك، سيضخمون قصة «حرية العراق» بأساليب متعددة، وكثير منها سيلطف الانطباع عن اتجاه الحرب الماهرة الذي تمت قيادتها من خلال الحوار غير المتكافئ. الجانب العراقي من القصة لم يُروَ حتى هذه اللحظة، أخطاء قيادة النظام، ومجموعة كبيرة من نقاط الضعف المادية والنفسية جعلته خصماً أبعد ما يكون عن القوة، كما كان يبدو في خريف ٢٠٠٢.

سينال ضعف التخطيط الأمريكي حظه من الاهتمام أيضاً، خصوصاً فيما يتعلق بما حدث بعد الحرب، حيث ظهرت القوات الأمريكية، لمدة ستة أسابيع أو أكثر، وهي غير جاهزة لانهيار النظام في العراق، وبرزت الحاجة الملحة إلى الحكومة العسكرية الفاعلة. كما أنه لن يتضح، لبعض الوقت، ما هي نتائج تلك الحرب على المدى

البعيد، وهل سيكون العراق مثالاً واعداً لحكومة الحرّية في العالم العربي، أم عارٌ فوضوي للطموح الأمريكي؟ وهل ستتمكّن الولايات المتحدة من الانسحاب بلباقة من حالة الاحتلال والدور العسكري، أم ستجد نفسها ترمي بيديها تعبيراً عن اليأس والقنوط؟ وهل التأثير الأمريكي على العالم العربي في تزايد أم في تناقص؟ وهل ستتمكّن من إصلاح العلاقات مع حلفائها وأصدقائها السابقين؟ تلك العلاقات التي مزّقتها هذه الحرب. وهل نجحت في تهدئة التوتّر بين الشرق الأوسط والخليج من جهة، والغرب من جهة أخرى، أم أشعلته؟ ربما ستمرّ السنين قبل الإجابة عن هذه الأسئلة بيقين كافٍ. سوف يكون من المؤكد أن الأمر سيحتاج إلى كثير من الوقت قبل أن يظهر الوصف الدقيق لصناعة القرار الأمريكي خلال تلك الفترة غير العادية : الدور المحدد للرئيس ولمعاونيه المباشرين، ومقدار التخطيط أو الارتجال، ومدى جودة المعلومات، والأحكام التي أصدروها. لكن هناك شيء واضح هو أن التخطيط وقيادة الحرب على العراق في سنة ٢٠٠٣ قد سارت تبعاً لأنموذج الحوار غير المتكافئ. وحتى لو كان الأمر مؤلماً، فإنه أدى إلى نصر سريع ورخيص نسبياً. بهذا الخصوص، انتصر رمسفيلد في حربه على الأقل.

ملحق

نظرية سيطرة المدنيين

جماعة من الرجال المتميّزين عن جموع الشعب

تعتبر مسألة العلاقات بين المدنيين والعسكريين من أقدم موضوعات العلوم السياسية. فقد ناقشت «جمهورية» أفلاطون الصعوبات التي ينطوي عليها تكوين فئة من الحراس تكون في آن معاً «رحيمة فيما بينها شديدة على الأعداء»، رجال يشبهون «الكلاب النبيلة» وبمثابة الحرّاس المثاليين للمدينة. لقد أزعج الخوف من الديكتاتورية العسكرية، الفلاسفة السياسيين الإنجليز والأمريكيين الذين رأوا في كلٍ من التاريخ الكلاسيكي والحديث تهديدات للحرية المدنية يمكن أن تنشأ عن الجيوش ذات القدرات الكبيرة. وكما قال برلماني بريطاني في القرن الثامن عشر:

- الجنود مجموعة من الرجال المتميّزين عن جموع الشعب، وهم يخضعون لحكم الأنظمة بمختلف أنواعها، كما أن الطاعة العمياء والخضوع التام لأوامر قادتهم الضباط هو مبدأهم

الوحيد. والواقع أنه من المستحيل المحافظة على حريات الناس في أي بلد يوجد فيه جيش دائم كبير العدد.

كثيراً ما يرتدي الاستبداد زياً عسكرياً، وحتى في الجمهوريات مثل فرنسا في أوائل القرن العشرين، سرعان ما فكّر الساسة في طرق ووسائل للحدّ من الاستقلالية العسكرية، وضمان سيطرة مدنية كافية على القوات المسلحة للدولة. ورغم الحجم الصغير نسبياً للمؤسسة العسكرية في وقت السلم في الولايات المتحدة، فإن العلاقات بين المدنيين العسكريين في هذه الدولة مرّت بفترات أزمات متكرّرة كان أبرزها ما حدث خلال الحرب الأهلية، حيث وجد الرئيس أبراهام لنكولن نفسه في أكثر من مناسبة على خلاف عميق مع جنرالاته.

غير أن السجل العام للجيش الأمريكي يظهر «الخضوع والولاء» التام للدستور. بالنسبة للولايات المتحدة، بل بالنسبة لمعظم الديمقراطيات، لم تكن المشكلة المحورية للعلاقات بين المدنيين والعسكريين هي الأكثر جوهرية - أي منع الجيش من السيطرة على الدولة. ولأسباب عديدة، بما في ذلك التأثير الثقافي للجيش نفسه، ووجود العديد من القوات والمؤسسات المتوازية، فإن هذا الشبح لم يكن هاجساً مطلقاً للساسة الأمريكيين. أما ضبط العلاقات بينهما، فيما يتعلق بإعداد واستخدام القوة لخدمة أغراض السياسة، فقد ثبت أنها مسألة شديدة الاختلاف.

إن فكرة أنه إذا لم يكن هناك خوف من انقلاب، فليس هناك شيء يسيء على نحو خطير للعلاقات بين المدنيين والعسكريين، تعتبر

واحدة من كبرى العقبات أمام التفكير الجادّ بشأن هذا الموضوع. فالأدوار الصحيحة للجيش في تشكيل السياسة الخارجية، وفي تهيئة الظروف التي يتصرف بموجبها، وفي خلق نوع القوى الأكثر ملاءمة لمهامه، وفي حشد المجتمع المدني لدعم أنشطته. تعد هذه جميعاً قضايا مثيرة للجدل. غالباً ما يكون الجيش أكبر عنصر دائم في الحكومة الوطنية، وهو يطالب بحصة هائلة من الإنفاق الاختياري، ولديه احتكار للاستخدام المشروع للقوة، وليس هناك شيء واضح أو حتمي حول خضوع القوات المسلحة لرغبات وأغراض القيادة السياسية.

قبل نصف قرن تقريباً فيما أصبح عملاً كلاسيكياً للعلوم السياسية، وضع صموئيل بي هنتنجتون Samuel P. Huntington نظرية للعلاقات بين المدنيين والعسكريين بغرض إرشاد كل من المدنيين والجنود لإدارة علاقاتهم. ومنذ ذلك الحين، حدد كتابه «الجندي والدولة» (The Soldier and the State) شروط الجدل حول العلاقات بين المدنيين والعسكريين في هذه الدولة. ثم خرجت نسخة مبسطة من الكتاب، لتعتبر بصفة عامة النظرية «السائدة» للعلاقات بين المدنيين والعسكريين - هي المعيار النظري المقبول، والذي من خلاله يتم الحكم على الواقع الحالي. وكما في معظم الكلاسيكيات، يتم الاستشهاد بكتاب «الجندي والدولة» أكثر من قراءته فعلاً، فضاع الكثير من تفاصيله الدقيقة عن أشد المعجبين به، ومع ذلك يظل تأثيره قويّاً فوق العادة.

يبدأ هنتنجتون بتحليل مهنة الضابط العسكري كمهنة تشبه كثيراً مهنة الطب أو القانون. وكما في تلك المهن، فهو يقول إن مهنة

الضابط العسكري تتميز بالخبرة في مجال معين من الشؤون الإنسانية، وتحوي إحساساً بالمسؤولية يمنح أهمية تتجاوز المكافأة المالية لعمل الفرد، وخاصية المؤسسة، أو الشعور بالمجتمع والالتزام تجاه أعضاء جماعة الفرد. بالنسبة لهنتنجتون، فإن المهارة المحورية للجندي هي «إدارة العنف» وفنون التخطيط والتنظيم وتوظيف القوة العسكرية، وليس مجرد استخدامها. فعلى الأقل في الحروب البريّة والبحرية يقود الضباط وينسقون استخدام القوة وهم لا يقاتلون بأنفسهم فيما عدا حالات الضرورة القصوى. وبالتأكيد، قد يعني هذا أنه «ليس كل الضباط يمكن اعتبارهم ضباطاً عسكريين احترافيين» بالمعنى الضيّق للمصطلح. فمن يتخصصون في مجالات مهنية لا ترتبط مباشرة بإدارة العنف ليسوا حقاً محترفين، حسب هذه المجموعة من المعايير الضيّقة المسلم بها. ولا يدخل ضمناً من يتخصّصون في الاستخدام المباشر للعنف بدلاً من إدارته والتخطيط له.

يعتقد هنتنجتون بتميز العقلية العسكرية. وصفها في مقطع بارز بقوله :«متشائمة وجماعية وميّالة إلى التاريخ وذات توجه نحو القوّة وتتسم بالقومية والعسكرية ومسالمة وذرائعية في رؤيتها للمهنة العسكرية. والعقلية العسكرية باختصار واقعية ومحافظة».

قطعاً، هذا نوع مثالي من العقول، ولكنه يؤكد أنها قوية رغم ذلك، وأن هذه الأخلاقيات العسكرية مصدر لقوة هائلة ليس فقط للجيش، بل للمجتمع بصورة أوسع. في الصفحات الختامية من كتاب «الجندي والدولة» يصوّر هنتنجتون تناقضاً مذهلاً بين المظاهر والحقائق الواقعية الداخلية في الأكاديمية العسكرية الأمريكية في

وست بوينت، والبلدة المجاورة هايلند فولز، نيويورك. وهي المظاهر التي تعكس الفوارق الثقافية. فالصرامة والعزيمة التي يتسم بها النظام العسكري، تحوي شيئاً يمكن تعلّمه، ويكفي أن النظام العسكري يعالج عدم التجانس المذهل والفوضى في المجتمع الديمقراطي.

يقدم هنتنجتون وصفة لضمان السيطرة المدنية على القوات المسلحة، ويؤكد في أثناء ذلك على الانقسام الحادّ بين الأدوار المدنية والعسكرية. «السيطرة الموضوعية» عبارة عن شكل من أشكال السيطرة المدنية يقوم على أساس الجهود الرامية إلى زيادة السمات المهنية لفرق الضباط، وينحت لها مجالاً للعمل المستقل عن السياسات، يكون في رأيه، بمثابة الشكل المفضل للعلاقات بين المدنيين والعسكريين. وهو يقابل بين «السيطرة الموضوعية» وما يصفه بأنه «السيطرة الذاتية» الذي يهدف إلى ترويض الجيش بتمدينه، وبهذا يجعله واعياً سياسياً، أو بالسيطرة عليه من الداخل بنخب مدنية مزروعة فيه. في العالم المعاصر، مَن يؤيدون هذه الوسيلة الأخيرة للسيطرة هم «دعاة التكتّل» ممن يعتقدون أن الفئات القديمة للمسائل السياسية والعسكرية يصعب التمييز بينها.

في عصر سابق، كان دعاة التكتّل يسعون لتدعيم السيطرة المدنية بجعل مهنة الضباط المحافظة على الطبقة الاجتماعية الحاكمة؛ وفي الحقبة الحالية يسعون لطمس الطبيعة المستقلة للمهنية العسكرية. «فجوهر السيطرة المدنية الموضوعية» بالمقابل «عبارة عن الإقرار بالمهنية العسكرية المستقلة». ثمة نبأ سار هنا :

- الجنود ليسوا فقط ممن يحترمون حدود السياسات الديمقراطية حينما يتعرضون لتأثير السيطرة الموضوعية، بل إنهم يقاتلون بصورة أكثر فعالية. وحينما يترك السياسيون الأمور العسكرية تماماً للضباط، ويضعون خطوطاً تميّز بوضوح بين أنشطة العسكريين وأنشطة المدنيين، تظهر المؤسسات العسكرية البارزة. الضباط الذين يحفزهم التفاني لأنموذج العسكري الطاهر سياسياً والمحايد، مثل أنموذج «الجندي الطيّب» و«أفضل فوج»، سوف يقومون بأداء يفوق أداء من تحفزه الأيديولوجيات، أو مجرد الدوافع الشخصية مثل الطموح أو الزهو والخيلاء.

لهذه الرؤية تداعيات عميقة على الاستراتيجية. ويقتبس هنتنجتون باستحسان، من مطبوعة لكلية القادة والأركان صادرة في عام ١٩٣٦:

- السياسة والاستراتيجية، أمران مختلفان اختلافاً جذرياً وأساسياً. فالاستراتيجية تبدأ من حيث تنتهي السياسة. وكل ما يطلبه الجنود هو أن تكون الاستراتيجية والقيادة في مجال بعيد عن السياسة، بعد تسوية أمور السياسة. يجب رسم الخط الفاصل بين السياسة والاستراتيجية والإمداد والعمليات. بعد إيجاد هذا الخط، يجب على كافة الأطراف أن يُمسكوا عن تجاوز حدودهم.

هذا الفصل الحاد ممكن، لأن الخبرة العسكرية في الواقع

قابلة للتحديد والفصل. «معايير الكفاءة العسكرية محددة وصلبة وموضوعية نسبياً، أما معايير الحكمة السياسية فهي غير محددة وغائمة وذاتية إلى حد كبير». يُحكم الزعماء السياسيون سيطرتهم بجعل الجيش احترافياً بدرجة صارمة، فيما يحتفظون لأنفسهم وحدهم، بمهمّة إقرار الأحكام على المسائل السياسية، في مقابل المسائل الفنية العسكرية.

الكثير من السياسيين الديمقراطيين، وحتى الكثير من مواطنيهم، يجدون أن في فهم الاستراتيجية إثباتٌ للمهارة. الاعتقاد بأن الحرب فن احترافي، هو نفسه الاعتقاد بأنها ليست معرّضة للأخطاء والحماقات والمشاكسة والتفاهة والاضطرابات والتقلّبات التي تميّز السياسة. بناء على هذه النظرة، تصبح الخبرة العسكرية شيئاً ثابتاً.

المهارة الغريبة للضابط العسكري عامة. بمعنى أن جوهرها لا يتأثر بالتغييرات في الزمان والمكان. تماماً كما هو الحال في مؤهلات الجرّاح الجيد حينما تكون هي ذاتها في زيوريخ كما في نيويورك، ونفس معايير الكفاءة المهنية العسكرية تنطبق في روسيا كما في أمريكا، وفي القرن التاسع عشر كما هي في القرن العشرين.

هذا الاعتقاد يقدم الطمأنينة للسياسيين الحائرين والمواطنين القلقين. وكما يكون الجريح أو المريض الذي يعاني بشدة ويتشوّق إلى الثقة في أحد الأطباء أو لوجود مُسكّن إلى جانب السرير، كذلك الكثير من المدنيين يتشوّقون للاعتماد على جنرالات يغرسون الأمن،

أو يهيمنون على السلوك ويقفون موقف القيادة. وللمفارقة، فأن أكثر الناس في مسائل الحياة والموت، يصبحون أكثر - لا أقل - ثقة في الاحترافيين. والحق أن هذا في نظر هنتنجتون هو ما فعلته الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية: «طالما كان الأمر يتعلق بالقرارات الرئيسية في السياسات والاستراتيجية، فقد أدار الجيش الحرب». ويبدو أنه يضيف أن هذا أمر طيب أيضاً.

وبقي مفهوم هنتنجتون المبسط للاحترافية العسكرية، هو النظرة السائدة داخل مؤسسة الدفاع الأمريكية. في منتصف الثمانينيات أجرى الكونجرس مناقشة حول إصلاحات عسكرية أدت إلى قانون جولد ووتر نيكولاس لإعادة تنظيم وزارة الدفاع في عام ١٩٨٦، قانون أدّى إلى رفع كبير في مستوى سلطة هيئة رؤساء الأركان المشتركة ورئيسها، على حساب الأجهزة العسكرية، بل وإلى حدّ ما، على حساب سلطة منصب وزير الدفاع. لم يصادق واضعو هذا التشريع فقط صراحة على قراءة هنتنجتون للتاريخ العسكري الأمريكي، بل إنهم رأوا أن من واجبهم أن يقدموا مشورة عسكرية مستقلة أكثر وأفضل للقادة المدنيين.

كان لنظرية هنتنجتون أهمية خاصة في فترة وجدت الولايات المتحدة خلالها نفسها تلجأ، كحالة مزمنة، لاستخدام القوة. إن مفهوم «السيطرة الموضوعية» يقدم طريقة للتعامل مع المخاطر التي تفرضها المؤسسات العسكرية على الديمقراطيات . وهو ما وصفه توكفيل Tocqueville بأنه: «روح قلقة مضطربة» وهو شر ملازم لتكوين جيوش الديمقراطيات ويتجاوز الأمل في العلاج. تُقدم السيطرة الموضوعية

صيغة مبسّطة لإرشاد السياسيين وتعليم الضباط، وتَعِدُ - ليس فقط بالسيطرة المدنية والحوكمة الدستورية - بل وبالنجاح الاستراتيجي.

مع ذلك لا تكفي نظرية السيطرة الموضوعية كوصف لما يحدث أو ما يجب أن يحدث. لقد أخذ النقاد العلميين المسألة بافتراضاتها حول طبيعة المهنية العسكرية، وكما سنرى فإن هذه الرؤى لها بعض الأساس. إضافة إلى ذلك فإن دراسة التاريخ الحديث - بما في ذلك حرب الخليج الناجحة نسبياً - تشير إلى أن نموذج هنتنجتون للعلاقات بين المدنيين والعسكريين المرغوبة، لا تميّز الصراع. أنجح حالات القيادة وقت الحرب في دولة ديمقراطية - إدارة لنكولن لقضية الاتحاد في الحرب الأهلية الأمريكية، أو تصرف ونستون تشرشل في الشؤون البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية، أو تعامل ديفيد بن غوريون بمهارة مع سياسة الحرب الإسرائيلية خلال كفاح بلاده من أجل الوجود - لا تتناغم أبداً مع الفصل الصارم الذي اقتضته النظرية «السائدة» للعلاقات بين المدنيين والعسكريين.

نقاد النظرية السائدة

رغم القبول العام بالمفهوم القياسي للمهنية العسكرية عموماً، فإنه قد اجتذب نقاداً من عدد من المصادر. وقد اعتبر المؤرخ ألن جوتمان Allen Guttman أن هنتنجتون أساء تفسير التاريخ الأمريكي أثناء طرح قضيته. فبدلاً من انعزال الضباط الأمريكيين عن شؤون الكيان الأمريكي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وخلال سنوات الحرب الأهلية، يؤكد جوتمان أنهم كانوا في واقع الأمر

ممثلين له تماماً. وبدلاً من التمسك بالنظرة المحافظة المخالفة لنظرة المجتمع الأوسع. فإنهم يشاركون الرؤى البراجماتية والديمقراطية للمجتمع الأمريكي بصفة عامة. وفي حين يكشف هنتنجتون توتراً عميقاً بين القيم المدنية والعسكرية ويقرّ بوجوده ويؤكد قيمة فصل الجيش عن المجتمع، يرفض جوتمان هذا الفصل ويستنكر مصادقة هنتنجتون عليه.

ضابط هنتنجتون المثالي هو من نوع أرستقراطي جيد التعريف. هيلموت فون مولتكه كمثال من القارّة الأوروبية (وهو رجل وطني إلا أنه على نحو أو آخر، غالباً ما يتجاوز الوطنية في شعوره العميق بالعضوية في أخوية الأسلحة). وفي حين يلاحظ هنتنجتون ويحتفي بشرف الجنود كجانب محوري لطريق العسكرية، فإن جوتمان يشير إلى البراجماتية العنيدة للجنرالات الأمريكيين. الشكليات التي أعجب بها الضباط الأوروبيون والتي (في نظره) تصبغ نظرية هنتنجتون، يرى جوتمان أنها غير موجودة في الشخصيات الأمريكية الجوهرية مثل ستونوال جاكسون الذي كان لديه شعور ضئيل بروح الفروسية. حينما أبلغه عقيد كونفدرالي عن الصدّ الناجح والدموي لهجوم الشماليين معبراً عن إعجابه بشجاعة العدو وأسفه للاضطرار إلى قتل مثل هؤلاء الأعداء أبطال، رد جاكسون :

- لا. أقتلهم جميعاً. لا أريدهم أن يكونوا أبطالاً.

مراقبون آخرون للجيش الأمريكي اتخذوا مساراً مختلفاً نوعاً ما، ولكنهم وصلوا إلى نتيجة مماثلة. حين لاحظوا تقليدية فرق

الضباط، وهي طبقة متوسطة تمتاز بالصلابة في قيمها وتطلعاتها ،وبالتالي شديدة الارتباط بالمجتمع الذي أتت منه. غير أن آمال هنتنجتون في وجود توتّر خلّاق بين القيم المدنية والعسكرية، لا تجد صدى في جيش يشاهد نفس البرامج التلفزيونية ويستمع إلى نفس الموسيقى، ككل المجتمع.

قدم عالم الاجتماع موريس جانوفيتس (Morris Janowitz) وآخرون نفس الحجة، إن لم تكن حجته أكثر عصرية. وهو يؤكد أن الفكرة التقليدية للاحترافية قد ضعفت، كما أن الحرب نفسها قد تغيرت.

- ونتيجة لآلة الحرب المعقدة التي أذابت الخط الفاصل بين التنظيم العسكري وغير العسكري، فإن المؤسسة العسكرية تقترب أكثر فأكثر من إظهار خصائص تميز أي تنظيم كبير الحجم.

فيما يحمل مفهوم هنتنجتون عن «السيطرة الموضوعية» معنى في حقبة الحروب العالمية فإن الثورة النووية أدت إلى «التقاء التنظيم العسكري والمدني».

يشير جانوفيتس إلى ما يصفه بأنه «مفهوم شرطي» لمهنة الضباط - وهو مفهوم مخصص لاستخدام محدود للقوة في ظروف محددة بعناية. وهو يميز بين «الزعماء الأبطال الذين يجسدون التقليدية والمجد» و«المدراء» العسكريين المعنيين بالسلوك العلمي والمنطقي للحرب. هناك القليل من الشك في ذهنه في أن المدراء

العسكريين المعاصرين هم الذين يتفوّقون، والشيء الجيد أيضاً أنه فيما يبدو يعتقد ذلك فعلاً. ولهذا قبل جانوفيتس بتعريف هنتنجتون للمهنية العسكرية ولكنه هذّب جوانبه الخشنة: يتوقع هنتنجتون - بل يرحّب - بالاختلاف بين القيم المدنية والعسكرية كمنتج ثانوي للمهنية، إلا أن جانوفيتس لا يرى ضرورة لذلك.

ولا يقف الأمر عند هذا، بل يذهب بعض العلماء المتخصصين في الاجتماع العسكري إلى أبعد من ذلك. في عام ١٩٧٧ أشار تشارلز موسكوس Charles Moskos إلى أن الجيش قد بدأ تحولاً بطيئاً ولكنه ثابت من مؤسسة «مشروعة من حيث القيم والمعايير» - إلى وظيفة - «مشروعة من حيث السوق، بمعنى المكافآت المالية السائدة للكفاءات المعادلة».

التناغم المتزايد لسلم الرواتب العسكري والمدني، وتقلص المتطلبات العسكرية الخاصة المسبقة (مثل المتاجر العسكرية ومحال التجزئة لبيع اللوازم العسكرية) بدا له أنها تُقلل من تميّز طريقة الحياة العسكرية. وبشكل ضمني، في أي الأحوال، فإن جميع الجيوش تقوم على «السيطرة الذاتية» كما وصفها هنتنجتون. والواقع أن أحد العلماء المتفائلين يقترح نظرية «الانسجام» الذي ربما تكون فيه «فكرة 'المدني' غير ملائمة». إنها نظرية «الحوار والاستيعاب والقيم المشتركة أو الأهداف بين النخب العسكرية والسياسية والمجتمع»، على نحو ما تحدد هذا بصورة عملية : مشكلة العلاقات بين المدنيين والعسكريين.

ربما يكون هنتنجتون وهؤلاء النقاد لأفكاره على خلاف. إلا

أن كليهما يقدم طمأنة ما، وإن كانت رسائلهم متعارضة. بالنسبة لهنتنجتون يكمن النبأ السار في اكتشافه بأن العناصر الشخصية والمظهر العسكري، الذي تجده أمريكا الحرة مربكاً (يؤكد أن «الليبرالية لا تفهم المؤسسات والوظيفة العسكرية وهي في حالة عداء معها»).العسكرية، في الواقع، ليست مجرد أداة وظيفية بل أمراً مرغوباً فيه لذاته. وبالنسبة لجوتمان وجانوفيتس وموسكوس فإن النبأ السار هو العكس تماماً : الجيش يشبه أمريكا، ويشارك قيم نخبته وعلى نحو متزايد يوازي بين أصوله الاجتماعية وطريقة الحياة فيه. وكما أن جميع صراعات القرنين التاسع عشر والعشرين أفسحت الطريق إلى صراعات محدودة أكثر، فإن الجيش قد استلهم الرؤى المدنية لكيفية قيامه بالعمليات العسكرية. الفوارق القوية بين العقلية العسكرية والمدنية التي تعد محورية للغاية بالنسبة لنظرية هنتنجتون، قد أصبحت عندهما غامضة.

ومع ذلك لا يوجد، لا بالنسبة لهنتنجتون ولا لنقاده، شيء مربك جوهرياً بشأن الجمع بين السيطرة المدنية والفعالية العسكرية في السلام أو في الحرب. الحق أنه بالنسبة لأكثر من كاتب، فإن اصطلاح «السيطرة المدنية » يعد صدى واهناً سخيفاً لتخيلات شائعة مظلمة مثل فيلم «سبعة أيام في مايو» عام ١٩٦٤ حيث يُصوّر الجيش على أنه يريد الاستيلاء على الحكومة.

«مفهوم السيطرة المدنية على الجيش له أهمية محدودة فيما يتعلق بالمشاكل المعاصرة للأمن الوطني في الولايات المتحدة». كذا كتب أحد المؤلفين في عام ١٩٦١ ـ تأكيد ملتبس كما يبدو الآن في بداية عقد

من الزمان، قد أنتج بعض أكثر التوترات المدمرة بين المدنيين والجنود التي شهدتها الولايات المتحدة على الإطلاق. وبالمثل في عام ١٩٨٥ أعلن أعضاء الكونجرس الذين وضعوا تشريعاً يهدف إلى تحسين سلطة الجيش أن «حالات القادة الأمريكيين الذين تجاوزوا حدود سلطتهم كانت نادرة. لا شيء من هذه الحالات يمثل تهديداً خطيراً للسيطرة المدنية على الجيش».

يجب أن نلاحظ أنه لا جوتمان ولا جانوفيتس ولا موسكوس قد تعمقوا في دراسة العلاقات بين المدنيين والعسكريين في زمن الحرب. ومع ذلك فقد قبلوا كثيراً من، وليس كل، تصورات هنتنجتون للتاريخ العسكري الأمريكي في حال الحرب. الحق أن بعض أكثر الكتابات تأثيراً حول العلاقات بين المدنيين والعسكريين التي تنتقد هنتنجتون بالكاد تشير إلى الحرب على الإطلاق. وفي الواقع أن معظم الكتابات عن العلاقات المدنية / العسكرية باستثناء هنتنجتون قد ابتعدت بشكل غريب إلى حد ما، عن الفحص الدقيق لما يحدث أثناء زمن الحرب.

الاستثناء الوحيد هو العالم البريطاني إس إي فاينر (S. E. Finer) الذي يختلف انتقاده لهنتنجتون اختلافاً كبيراً عن نظرائه الأمريكيين. فهو يؤكد أن هنتنجتون قد قلل بشكل خطير من القيمة الحقيقية لمشكلة السيطرة المدنية. بالنظر إلى أن الجيش حظي بمزايا القيادة المركزية والتسلسل الهرمي والنظام والتماسك وتجسيد الفضائل (الشجاعة والوطنية والحفاظ على النظام على سبيل المثال) التي يجدها المجتمع المدني جذابة، فإنه يمكنه أيضاً مقاومة السيطرة المدنية بفعالية. ومع ملاحظة أن أحد الجيوش التي أشاد بها هنتنجتون

باعتباره الأكثر احترافية. الجيش الألماني. قد تدخل مراراً في السياسة، يشير فاينر إلى أن الاحترافية العسكرية استطاعت في الواقع، أن تميل بالعسكريين إلى الانخراط في السياسة وليس العكس.

في زمن الحرب تحديداً لا يشعر المدنيون غالباً بالثقة تجاه ما عندهم من علم، وهم أكثر خشية للرأي العام، وأكثر رهبة من تجربتهم العسكرية، من أن يمارسوا الكثير من السيطرة على الإطلاق. «الحرب أكثر أهمية من تركها للجنرالات؟! يبدو أن القليل من المدنيين يوافقون على هذا، وعدد أقل من الجنرالات» كذا كتب فاينر.

الفارق في حجم التجربة الوطنية قد يكون مفيداً هنا أيضاً. في الولايات المتحدة كان الصراع النموذجي بين المدنيين العسكريين يظهر في الجنرال المتغطرس دوجلاس ماك آرثر والرئيس الشجاع هاري ترومان، وهي المواجهة التي حُسمت بصورة هشة عندما طرد الرئيس للجنرال.

بالنسبة للمؤلفين البريطانيين فإن تمرد كوراغ (أو كما يفضل أن يسميه البعض «الحدث») عام ١٩١٤ يقدم تهديداً أكثر نمطية وأكثر إزعاجاً للسيطرة المدنية، حيث قام فيه مجموعة من الضباط الفرسان (سبعة وخمسون من سبعين في كتيبة واحدة) بتقديم استقالاتهم، بدلاً من قمع موالين بمقاطعة (ألستر) صمّموا على المحافظة على إيرلندا الشمالية كجزء من المملكة المتحدة.

ومع ذلك فإن ما هو أكثر تعليماً في التجربة البريطانية هو الصراع بين القيادة المدنية والعسكرية خلال الحرب العالمية الأولى.

فقد مر برئيس الوزراء ديفيد لويد جورج David Lloyd George وقتٌ اعتقد بأنه سيخسر، بل وأنه شخصياً معرّضٌ للخطر، من قبل فرقة عسكرية تستند إلى تحالف بين رئيس هيئة الأركان الإمبراطورية السير ويليام روبرتسون، وقائد القوات البريطانية في فرنسا المُشير السير دوجلاس هيج، مدعومَين من قبل سياسيين مدنيين متجاوبين وصحفيين.

يؤكد فاينر أن تفسير السيطرة المدنية بطريقة ضيّقة جداً، كخضوع الجيش رسمياً للسلطة المدنية، وخاصة وقت السلم، يقلل من تقدير صعوبة السيطرة على استخدام السلطة العسكرية في زمن الحرب. ولأنه على عكس معظم الدارسين للعلاقات بين المدنيين والعسكريين، فقد نظر فاينر إلى الحرب نظرة أكثر تشاؤماً فيما يتعلق بفرص السيطرة المدنية.

رأي معارض : العدمية الاستراتيجية

ثمة مدرسة فكرية أخرى نادراً ما يتم تدريسها في الكليات الحربية، أو أن تحظى بالتأييد في دهاليز السلطة التي ترفض النظرية السائدة جملة وتفصيلاً. وإذا قبلنا بها فإن هذه النظرة من شأنها أن تقوّض احتمال القيادة الميدانية للحرب لأنها عقيدة العدمية الاستراتيجية التي تنكر عزيمة الحرب والتصميم الأنثروبولوجي، حيث يَحُل فهم الضابط كمقاتل، محل فهمه كاحترافي. إن هنتنجتون ومنتقديه يفهمون استخدام القوة كنشاط يخضع للسيطرة المنطقية. وهم يختلفون حول أهمية الاحترافية التي يتم فهمها بمعزل عن

المجتمع المدني وطبيعة العنف الخاضع للسيطرة، في العصر النووي. هذه المدرسة الفكرية الثالثة ترفض بالكامل: فرضية المنطقية.

ليو تولستوي Leo Tolstoy هو أشهر العدميين الاستراتيجيين. رغم أن الكثير من قرائه قد وجدوا فلسفته مجرد تحوّل عن قصته عن البولكونسكيين والروستوفيين، إلا أن عمله الشهير (الحرب السلام) يمثل تأملاً جاداً ومتماسكاً في الحرب، من وجهة نظر من شهد الحرب عن قرب ودرسها باستفاضة. حينما يواجه أبطال تولستوي المعركة فإنهم يعلمون أنها لا تشتمل على شيء من الانتظام والنمط الذي توقعوه. يأتي بطله بيير بيزوخوف إلى ميدان بورودينو ويتحير: إنه «لم يستطع حتى تمييز جنودنا عن جنود الأعداء». وسرعان ما يعلم من الوهلة الأولى أن القتال الفعلي أكثر فوضوية في نهاية المطاف، من الفوضى الأولية التي تشير إليها عمليات الانتشار الأولى.

صديق بيزوخوف، هو الأمير المنكوب أندريه بولكونسكي، جندي محترف تذبل أحلامه في القيادة العليا حين يعلم الحقيقة بشأن الحرب. فبعد التطلع، إلى حدّ ما، إلى تقليد بطله وعدو بلاده نابليون، يدرك أندريه تدريجياً أن العبقري العسكري خدّاع وماكر. ثم أعلن أنه «لم يكن ولا يمكن أن يكون هناك علِم للحرب وبالتالي ليس هناك شيء يسمى بالعبقري العسكري». وحينما يتم توجيه السؤال له فإنه يجيب:

- ما هي النظرية والعلم الممكن، حينما تكون الظروف والأحوال غير معلومة ويتعذر تقديرها. لا سيما حينما لا يمكن التيقّن من قوة أي من القوى الفعالة. لا يمكنك التنبؤ بأي شيء. في بعض

الأحيان. حينما لا يكون هناك شخص جبان في المقدمة يصيح : «لقد استؤصلنا» ويبدأ في الجري، ولا رجل شجاع يصيح «حي هلا » . فإن كتيبة من خمسة آلاف تساوي خمسين ألفاً كما حدث في شونجرابن، بينما في أوقات أخرى يفر خمسون ألفاً أمام ثمانية آلاف كما حدث في أوسترليتز ، ما العِلم الذي يمكن أن نحصل عليه من هكذا مسألة؟ وكما في كل مسألة عملية، ليس هناك شيء يمكن تحديده. كل شيء يعتمد على ظروفٍ لا تعدّ ولا تحصى كثرة، والتي تصبح أهميتها ظاهرة في لحظة معينة، لكن لا يعرف أحد متى ستأتي تلك اللحظة.

تولستوي في بعض الأحيان يستغني عن شخصياته ويخاطب قرّاءه مباشرة حول هذه الخلاصة، ويخبرهم بأن نابليون وألكسندر الروسي لم يكن لديهما قط، سيطرة حقيقية على الحرب الشنيعة بين فرنسا وروسيا :

- لأن إرادتهما اعتمدت على إرادة ملايين الرجال الذين كان عليهم في الواقع أن يفعلوا شيئاً. ذلك أن المُلك عبدٌ للتاريخ.

فكرة أن ملايين الجنود قتلوا أو شوّهوا بسبب السياسة، غير معقولة في رأي تولستوي، لأن الأسباب تافهة للغاية والأحداث الفعلية فظيعة للغاية.

قبل وفاته بوقت قصير يقرر الأمير أندريه أن الجنرالات يوصَفون بالعبقرية فقط نظراً لمكانة مناصبهم وبسبب نزوع البشر الكاسح لإطراء من هم في السلطة. «أفضل الجنرالات الذين عرفتهم

كانوا في الواقع حمقى أو مغيبي العقل»، كذا ختم أندريه حديثه. والحق أن أكثر الجنرالات نجاحاً من بينهم - وهو كوتوزوف - برز في رأي تولستوي أساساً بسبب عدم استعداده للتصرف على أي نحو يسير فيه الاستراتيجيون التقليديون أصحاب العزيمة.

بالنسبة لتولستوي يكمن بُطلان التاريخ العسكري في تبسيطه الضروري ومحاولته المخادعة لدمج ما لا يحصى من الأفعال، من قبل الأفراد أو الجماعات الصغيرة جداً، في مجاميع أكبر، متماسكة ومثالية. وهو يلاحظ بمرارة أن هناك «ضرورة للكذب» حينما يناقش المرء أفعال آلاف الرجال المرتعبين المنتشرين على عدة أميال من الأرض. رواية مسار المعركة الحقيقية، لا تقل عن مسارها كما يصفها المؤرخون العسكريون. ليست أكثر أو أقل من خداع يفرضه أصحاب المنطق على عالَم يهرب من الفهم. ولكن المؤرخين والمعاصرين يتشابهون في اعتبار المعارك كأحجار بناء يستخدمها الساسة والجنرالات لبناء صرح استراتيجي. وبإظهار العنصر الأساس للاستراتيجية - المعركة بوحداتها : الزمن والمكان والأفعال - على أنها نسيج من الأكاذيب. وهكذا فإن تولستوي يعود من جديد، ليطرح للتساؤل فكرة الاستراتيجية ذاتها.

قد يقول قائل إن تفسير أحد الروائيين للحرب يهدف إلى التهوين من شأن الاستراتيجية فقط، إذ ركزت روايته بشدة على المأزق الفردي وليس الجماعي. ومع ذلك فإن وجهة نظر تولستوي يتردّد صداها في كتابات مؤرّخين عسكريين كبار أيضاً. جيرهارد ريتر Gerhard Ritter المؤرخ الألماني العظيم للعلاقات بين المدنيين

والعسكريين وتخطيط الحرب، وراسل ويجلي Russell Weigley أحد أبرز المؤرخين العسكريين الأمريكيين في النصف الأخير من القرن، وجون كيجان John Keegan الذي ربما يكون المؤرّخ العسكري الأكثر قراءة في أواخر القرن العشرين. كل منهم تساءل بطرق مختلفة، أو حتى رفض فكرة الاستراتيجية بالمعنى الذي يخصنا، في استغلال الحرب لأغراض سياسية. وبفعلهم هذا، فإنهم يجعلون مشكلة القيادة المدنية في وقت الحرب عسيرة جداً. إن رأيهم مشورة يائس، ولكنها تستحق النظر بالرغم من ذلك.

ريتر في عمله الفذّ «السيف والصولجان: مشكلة النزعة العسكرية في ألمانيا» (The Sword and the Scepter: The Problem of Militarism in Germany)، يتعاطف مع رغبة كلاوزفيتز في إخضاع الحرب للسياسة، ولكنه يذهب إلى أن المنظّر البروسي قلّل إلى حدّ كبير من حجم الصعوبة في تحقيق هذا الهدف. يتّفق ريتر مع فاينر في هذا قائلاً :

- في وقت الحرب يمرّ السياسيون دائماً بوقت عصيب لاكتساب السلطة والحفاظ عليها، ضد الجنرالات الناجحين.

وهو يعزو بعض التوتّر الداخلي بين الجنود والساسة من (مولتكه) إلى (بسمارك)، للخلاف في وجهات النظر. مع سعي الأول إلى تحقيق أقصى ما يمكن بوسائل متاحة، وسعي الأخير لبناء النظام والحفاظ عليه، وإن كان من خلال الوسائل العسكرية. تكمن مشكلة العلاقات بين المدنيين والعسكريين في جلب الانسجام إلى كلٍ من

«الموقف العسكري ومبدأ السلام البناء» وهما متناقضان في جوهرهما، ويبدي ريتر تحفّظاً أقل اتساعاً وأكثر تجريبية أيضاً. تناغم الحرب والسياسة يسير متعارضاً مع الطبيعة البشرية التي تعتبر إلى حد كبير أقل رفعة وأكثر فتوراً من فرضيات كلاوزفيتز.

نظرية كلاوزفيتز عن الحرب تؤكّد على مكانة الساسة الذين تتخلّل شخصياتهم - صراحة - دوافع العظمة والبطولة والسلطة الوطنية والحرية. أولئك الرجال الذين تحفزهم العقلية السياسية الهادئة ويسمون على الإثارة التافهة أو المنفعة، بدلاً من أولئك الذين لا يحركهم إلا مجرد الكراهية العمياء. كما أنه يَفترِض مسبقاً أن الجنود معتادين على اعتبار أنفسهم خدماً موالين لقائدهم الأعلى، وليسوا في خطر أن تتحكم فيهم الطموحات أو الغيرة السياسية على الإطلاق. إنهم الرجال العسكريون الذين لا تخطر على بالهم حتى فكرة الاعتراض على «سيد الحرب» أو استغلال التأييد الشعبي لأغراضهم الخاصة. لا نجد تلميحاً لكلاوزفيتز، ولا في سطر واحد، بأن الموقف قد يكون مثيراً للجدل وعرضة للاختلاف. هنا قضية مختلفة تماماً عن قضية هنتنجتون، الذي أسند لسلك الضباط نظرة متحفظة، وإلى السياسيين (الديمقراطيين) نظرة متحرّرة بوجه عام. في نهاية المطاف، هي وجهات نظر مختلفة للعالم بالتأكيد، ولكنها مواقف متماسكة فكرياً، وذات التزامات أخلاقية.

في المفهوم الأساسي عند الألمان لمراحل افتتاح الحرب العالمية الأولى، في خطة شليفين، رأى ريتر حالة مأساوية وأكثر نمطية لاستراتيجية تجرّ السياسة وراءها. كان لدى السياسيين مفهوم

غامض لما يترتب على الخطة (رغم أن وزير الخارجية الألماني لم يعلم بها من الأركان العامة حتى ديسمبر ١٩١٢ - بعد سبع سنوات على الأقل من بدئها) ولم يكن قادراً أو مستعداً للتعامل مع تداعياتها السياسية. وفي قضية مروّعة مثل خطة شليفين، فإن مسار العلاقات الألمانية بين المدنيين والعسكريين طوال الحرب العالمية الأولى كان شهادة أكثر دراماتيكية على صعوبة صياغة الاستراتيجية. الفطنة السياسية المعتدلة والطبقة العسكرية ضيقة الأفق والعدوانية هما القاعدة، حسب ما يقول ريتر، وهو ما يعني أن استراتيجية كلاوزفيتز ليس من المرجح أن تنجح.

أما ويجلي، فقد تابع ريتر، حيث يرفض الاستراتيجية باعتبارها تقارب المستحيل. والحق أنه يقرّ مفهوم ريتر ويقتبسه «طبيعة السلطة الشيطانية أساساً» كعقبة لا يمكن تجاوزها في سبيل التنفيذ العملي للسيطرة السياسية في الحرب. يعتقد ويجلي أن «المنطق الذي يقود الحرب في اتجاه الكفاح الثوري القاسي» لا يمكن استخدامه في تطبيق السياسة. والحق أنه في القرن العشرين «حدّدت الحرب أغراضها». يؤكد ويجلي أنه لا يوجد نظام ديمقراطي أو ملكي أو شمولي استطاع أن يجعل من الحرب «أداة منضبطة للسياسة وليست مجرد قوة ذاتية».

بالتأكيد كان هناك قادة مدنيين استثنائيين مثل لنكولن الذي اقترب من النموذج الكلاسيكي للسياسي الذي استطاع أن يجعل الحرب تخدم الأغراض السياسية. ولكن حتى هو، كان مشدوداً إلى أقصى حدّ، محملاً بأعباء المسؤوليات «ليقضي كثيراً من وقته يمارس فن الاستراتيجية العسكرية». الأكثر نمطية، هو النزوع المشؤوم للحرب

في عسكرة المدنيين لتجعلهم خاضعين لمنطق العمليات العسكرية، يخسرون حسابات سياسية طويلة المدى لأولويات الحرب اليوم. وهكذا فحتى حالات السيطرة الفعالة فيما يظهر للسياسيين المدنيين على ممارسة القوة العسكرية تعتبر مخادعة : فالسياسيون لا يُجاوزون كونهم متحدثين باسم أرباب الحرب.

لا يستنكر ريتر وويجلي بالضرورة محاولة صياغة وتنفيذ الاستراتيجية. فبالنسبة لويجلي، البحث عن الاستراتيجية في القرن الثامن عشر، ظهر في صورة رغبة مفهومة ولكن عقيمة، لتجنب مصائب الحرب المزمنة التي شيطنت أوروبا في القرن السابع عشر :

- في البحث عن معركة، كان غرض الجندي المنطقي المتعلم هو: جعل الحرب معقولة التكلفة، و سرعة اتخاذ القرار، بشرط منع الاستنزاف الزائد لموارد الدولة.

ومع ذلك فإن هذا البحث في القرن الثامن عشر الذي امتد خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، قد أخفق تماماً. الاستنزاف والإنهاك وعدم التناغم وانفلات الأغراض والوسائل، كل هذه الأسباب حددت نتائج الحرب. قد تتحاشى الحرب بعض التطورات السلبية - استطاعت الحرب أن تعيق محاولات فرنسا أو ألمانيا لتحقيق الهيمنة على القارة مثلاً - ولكنها لا يمكن أن تحقّق غرضاً إيجابياً. إنها أغلظ الأدوات في يدي الحُكم. قال فون كلاوزفيتز ذات مرة إن الحرب لها قواعدها (القتال) أما (السياسة) فليست منطقها. وفي نظر العدميين الاستراتيجيين، هذه القواعد تنتصر على كل شيء، إلا المنطق البسيط.

لسبب آخر، يرفض جون كيجان احتمال أن تقوم الاستراتيجية على العلاقة التي طرحها هنتنجتون بين الأهداف والوسائل، وهو أن الاستراتيجية لا تتوافق مع طبيعة الرجال الذين يقومون بها. كيجان أكثر انتقاداً وجزماً من زملائه المعارضين للاستراتيجية :

- أنا أميل بشكل متزايد نحو الاعتقاد بأنه ليس هناك شيء اسمه (الاستراتيجية) على الإطلاق. كما أرفض القول (أن السياسة لم تمارس دوراً في سلوك الحرب العالمية الأولى، يستحق الملاحظة).

إلا أن أسبابه لرفض الاستراتيجية تختلف عن أسباب تولستوي أو ريتر أو ويجلي :

- الحرب لا تشبه على الإطلاق الدبلوماسية أو السياسة لأن الذين سيخوضونها رجال قيمهم ومهاراتهم لا تشبه قيم ومهارات السياسيين أو الدبلوماسيين.

يؤكد كيجان أن هناك طريقة عسكرية حاسمة، طريقة يحترمها الجميع في كل الثقافات، هي ثقافة المحارب العدائية تجاه السياسة. وعلى نحو مغاير تماماً للجنود أنفسهم، يؤكد كيجان أن المجتمعات قد حاولت ترويض الجنود، بوضعهم في ما يصفه بأنه «الجندي الكتائبي». هذه «الفرق من المحاربين المحفوظين اصطناعياً» قد مارست دوراً هاماً في الدول الحديثة، ولكن كيجان يعتقد أن زمنهم قد انحسر. ولقد قال الكثير في كتابه الأول والأفضل «وجه المعركة» (The Face of the Battle) حيث أوضح أن المعركة الكلاسيكية - ومعها المحارب

الكلاسيكي – قد انحدرا في طريق الزوال. الجملة الأخيرة في كتابه قالت إن هناك «شك يتصاعد بأن المعركة قد أزالت نفسها».

يرفض كيجان ما يصفه بنموذج كلاوزفيتز للحرب. النموذج الذي يتضمن السيطرة المنطقية على العنف لخدمة الأغراض السياسية، لأنه يعتقد أن البشر المنفذين للاستراتيجية، ليسوا – ببساطة – أدوات للمعركة، ولا يتلاءمون جوهرياً مع مهامها. روح المقاتل ستتعارض حتمياً مع السياسات، وسوف تأخذ الحرب في اتجاهات ليست ذات مغزى، سياسياً.

يدرك كيجان الصفات الجديرة بالإعجاب في المقاتل ويسعى للاحتفاظ بأفضل فضائله، ولكنه يعتقد أنه يمكن عمل ذلك فقط بتحوير الوظيفة العسكرية التقليدية. ولأجل هذا، يعود كيجان إلى تقليد طويل يحتفي بالفضائل القتالية فيما يستنكر مظاهر القتال في الحرب، ويؤكد الحرص على الاحتفاظ بقيم مثل الشجاعة والوفاء والجرأة، ولكنه يعيد توجيهها. مثلما دعا ويليام جيمس William James إلى «المعادل الأخلاقي للحرب» والذي يتمثل في الخدمة العامة النشيطة، أو الطلاب العصريين للفنون القتالية الذين يحتفون بـ «المحارب الجديد» كل على طريقته، كلهم قد حاولوا المضي في مشروع كيجان.

ينظر كيجان إلى كلٍ من مفهوم هنتنجتون وجانوفيتس للاحترافية العسكرية باعتباره : «متفائل حد السذاجة». وتنطلق كثير

من حجج كيجان في الهجوم على، بل يمكن أن نقول : وبكراهية عميقة، لوجهة نظر كلاوزفيتز الكلاسيكية للعلاقة بين الحرب والسياسة :

- الحرب ليست بحاجة لأن تشتمل على السياسة، حيث أن قيم الكثير من أولئك الذين يقومون بالحرب . فنون الحرب والمحاربين على التوالي . ترفض الردع والدبلوماسية لتوجيه عملهم.

ووفقاً لكيجان فإن كلاوزفيتز يرى السلطة العسكرية مجرد مشرط في يد جراح (رجل السياسة) ولكنه يفشل في الفهم، أن «قيم المحاربين يمكن – وهي بالفعل كذلك – أن تحل محل قيم الساسة».

العدميون الاستراتيجيون مثل العدميين عامة، لا يقدمون وصفات يمكن الاستفادة منها عمليّاً، ولكن ما يحدث كتداعيات لوجهات نظرهم القائمة، هو تقويض الافتراضات المطلوبة لنجاح وصفة هنتنجتون للعلاقات بين المدنيين والعسكريين الصحيحة.

المهنة الاستثنائية

رغم التفنيدات العديدة هذه، لنظرية هنتنجتون إلا أن مفهومه العام لا يزال قائماً ويحتفظ بشعبيته. شهدت الحياة العسكرية الكثير من التغييرات، ولكن رغم ذلك بقيت بعيدة عنها، نقطة تم تقديمها لإدارة كلينتون في عام ١٩٩٣ حينما حاول الرئيس رفع حظر الجيش الأمريكي عن مثليي الجنس الذين يخدمون مرتدين الزي الرسمي.

ربما يكون الصحفي توم ريكس Tom Ricks قد عبر عن القضية أفضل تعبير حينما وصف الحياة في الجيش اليوم بأنها :

- تشبه ما كان عليه مجتمع ليندون جونسون العظيم. إنها تقريباً النسخة اليابانية لأمريكا . المتجانسة نسبياً والمتسلسلة هرمياً بشكل مبالغ فيه - ودائماً ما تضع الجماعة فوق الفرد.

ومع طريقتها المميزة في الحياة على قواعد محافظة وربما التزام عفا عليه الزمن - تجاه الخدمة والنظام والشرف - فلا زالت مستمرة في الهيمنة على المؤسسة التي قد تُعاقب ضابطاً كبيراً على الزنا، وهي خطيئة عادة ما يتم التغاضي عنها من قبل المجتمع المدني.

أولئك الذين توقعوا دور شرطي مجرداً للجيش، ومن ثم تحويله إلى نوع من القوات الشرطية المسلحة تسليحاً ثقيلاً، ثبت خطؤهم أيضاً. هناك حربان حقيقيتان هما الحرب الفيتنامية وحرب الخليج، جرى القتال فيهما في الوقت الذي ظهرت فيه هذه التنبؤات. إن ندرة الحروب الكبيرة ليس في حد ذاته مؤشراً على تقادم المهنة العسكرية التي تُفهم على أنها عمل إداري لقوة كبيرة الحجم. هناك تفسيرات أخرى تشمل ترتيب السياسة الوطنية التي تهيمن فيها دولة واحدة، الولايات المتحدة، على الآخرين جميعاً، وامتلاك سلطة كاسحة بفرض الأمر الواقع للدول المهيمنة. وحتى مع هذا الأمر، فإن إعلان كيجان المثير بأن «الشك يتزايد بأن المعارك قد أزالت نفسها بالفعل» ثبت عدم صحته لاحقاً، كما في الصراعات التقليدية مثل حروب فوكلاند ولبنان

والخليج ويوغوسلافيا، وهذه فقط بعض أسماء الحروب الكبيرة وليست كلها.

علاوة على ذلك، وعلى عكس ما يشير به أنصار «وظيفة الشرطي» للجيش، فإن التدخلات المحدودة وإظهار القوة وعمليات حفظ السلام اليوم لا تختلف عن قواعد ومعايير الماضي. فالجنود ومشاة البحرية في عصر مضى قمعوا المتمردين الهنود ومتمردي نيكارجوا، وزملاؤهم عادوا إلى هايتي وغزوا جرينادا وأطاحوا بديكتاتور بنما، وتنازعوا مع رجال القبائل الصوماليين، وقمعوا القوات الصربية شبه العسكرية. لا تبدو الفوارق بينهم بحجم كبير.

وجهة النظر هذه مثيرة للاهتمام، مثل حجج العدميين الاستراتيجيين، لكن ثبت أيضاً، أنها في نهاية المطاف غير مقنعة. من الواضح أن بعض الحروب والاستخدام الأقل للقوة قد حققت أهدافها (على سبيل المثال حملة مصر في أكتوبر ١٩٧٣ التي كسرت مأزق السلام العربي الإسرائيلي، أو حرب الخليج). فيما عدا هذا، العدمية في نهاية المطاف هي عقيدة انعدام المسئولية ولا تقدم أي معايير سلوكية للسياسي، ولا للجندي.

وحتى خلاف فاينر مع هنتنجتون يبدو أنه مرتبك بعض الشيء، مع الفرق الظاهر بين القادة العسكريين ورؤسائهم المدنيين. ومع الاستثناء الوحيد لخلاف ماك آرثر وترومان، وربما أنه ليس استثناء، فإن العالم الغربي لم يشهد مؤخراً نوع الكراهية الضارية بين «القبعات النحاسية» و «الفساتين»، تلك الكراهية التي ميزت العلاقات بين

المدنيين والعسكريين في كل من بريطانيا وفرنسا خلال الفترة من ١٩١٤ – ١٩١٨.

ومع ذلك فإن هناك نقداً محتملاً آخر لنظرية هنتنجتون يستند إلى تصوّره وتصوّر منتقديه للاحترافية. للتبسيط، على الرغم من أن مهنة الضباط هي مهنة، إلا أنها تختلف في جوانب عديدة عن مهن الآخرين جميعاً : في بعض جوانبها الأكثر أهمية لا تشبه الطب ولا القانون. والحق أن البناء العقلي لفكر هنتنجتون يُشكل مفهوماً للاحترافية كان سائداً في الخمسينيات، ولكنه واجه تحدياً منذئذٍ في مجالات عديدة باعتباره مخالفاً للواقع : «أساس الاحترافية هو عجز العامة عن فهمها، وليس عقلانيتها» هذا تعبير لاذع لأحد العلماء الأكثر سخرية ممن كتبوا في السبعينيات.

مهنة الضابط تختلف، من عدة وجوه هامة، عن المهن الأخرى. وبخلاف القانون أو الطب أو الهندسة، فإنها تربط أعضائها بصاحب عمل واحد هو الحكومة. ولها بنية أساسية واحدة فقط : هي فرع الخدمة الكبير. إلا أن الاختلافات الأخرى تعتبر أكثر أهمية ولاسيما تلك المتعلقة بأهداف النشاط الاحترافي وطبيعة الخبرة المعنية.

تقدم جميع الأنشطة الاحترافية لمن يمارسونها، صعوبات الاختيار الأخلاقي والغرض النهائي لها. الخيارات المؤلمة التي ينطوي عليها علاج المرضى الميؤوس من شفائهم معروفة جيداً. وهكذا أيضاً المأزق الأخلاقي للمحامي الذي يصبح مطلعاً على الأنشطة الإجرامية لموكله. ولكن بشكل عام في مهنتي القانون والطب اللتين يقوم عليهما

المفهوم الكلاسيكي للاحترافية، فإن الأهداف النهائية لهما تعتبر مباشِرة نوعاً ما. فهي بالنسبة إلى الطبيب معالجة مرضاه من الأمراض أو على الأقل تخفيف الألم الذي يعانون منه، وقد يتعارض هذان الدافعان في بعض الأحيان. أما بالنسبة لمهنة المحامي، فهي على الأقل ضمن النظام القانوني الأمريكي، تقوم لتحقيق أفضل نتيجة ممكنة (سواء كانت البراءة، أو في القضايا المدنية أقصى تعويض مالي أو الأشكال الأخرى من التعويض) لموكليه.

لكن إذا أتينا على الأغراض النهائية للجندي، نجد انها غامضة تماماً. بإصرار، يُعرّفها كلاوزفيتز وآخرون، بأنها تحقيق الغايات السياسية التي وضعها الساسة. ولكن لأن الأهداف السياسية هي مجرد سياسة في النهاية، فإنها غالباً ما تكون غامضة ومتناقضة وغير مؤكدة. أحد أكبر مصادر الإحباط لدى الجنود يكمن في أن سادتهم السياسيين يجدونه من الصعب (أو غير مريح فقط) أن يفكروا مسبقاً في الأغراض التي من أجلها لجأوا إلى عمل عسكري، أو الظروف التي بموجبها يعتزمون الحد منه أو إنهاءه.

مفهوم «الاحترافية» في النشاط العسكري يصور الغرض السياسي من الحرب كمسألة سياسة خارجية بحتة. وفي الممارسة، تصطبغ السياسة «العليا» للحرب بسياسات عليا «متدنية». يريد الرئيس لنكولن انتصاراً في أتلانتا في صيف عام ١٨٦٤ لسحق الكونفدرالية، ويريده أيضاً لزيادة فرصه في إعادة انتخابه، وهذا في المقابل ضروري للنصر النهائي للاتحاد. يرفض الرئيس روزفلت المشورة العسكرية المهنية ويأمر بغزو شمال إفريقيا في عام ١٩٤٢ بدلاً

من الهبوط في فرنسا عام ١٩٤٣ وقد برر ذلك بأنه يهدف لإشراك الرأي العام الأمريكي في القتال من خلال المسرح الأوروبي بدلاً من تفلّت الآمال في تحقيق نهاية مبكرة للحرب. يحد الرئيس جونسون من الضربات الجوية على هانوي وهايفونج في الفترة من (١٩٦٥- ١٩٦٨) من أجل إطلاق العنان لحركة المجتمع العظيم، ولكنها أيضاً للحد من فرص دخول الصين في الحرب.

التصور التقليدي للاحترافية العسكرية يفترض أنه من الممكن الفصل بين المجال المستقل للعلوم العسكرية والأغراض السياسية، وأن هذا الفصل ممكن وبطرق متعددة. ومع ذلك فإنه كثيراً ما يذوب هذا الفصل الحاد، حينما يصادف المشاكل الحقيقية للحرب. فكّر للحظة في السؤال الذي واجه الحلفاء في أواخر صيف وخريف عام ١٩٤٤ في فرنسا :

- ما إذا كان التقدم سيتم على جبهة واسعة، أو تركيز الموارد اللوجستية الشحيحة خلف قوة دفع شمالية على طول السواحل الفرنسية والبلجيكية والهولندية (بتوجيه جنرال بريطاني) أو قوة دفع جنوبية إلى وسط ألمانيا (بتوجيه من جنرال أمريكي)؟

قد يقول قائل إنه كان هناك «أفضل إجابة» عسكرية تفترض أن الهدف النهائي كان ببساطة (هزيمة ألمانيا). لكن في المقابل يفترض على نحو صحيح أن كلمة «هزيمة» ذات تعريف بسيط. أما الواقع، فيقول إن الأهداف السياسية للحرب العالمية الثانية كانت أكثر تعقيداً وبكثير، من هذا التبسيط. لقد تضمنت مسائل الخسائر في

الأرواح والمال وتقليص الأضرار للسكان المدنيين من الحلفاء (بما في ذلك سكان لندن تحت تهديد صواريخ V2 التي تنطلق من ألمانيا) ومشكلات ومسائل السيادة الوطنية. لم تكن هذه تعديلات سياسية على هدف «عسكري» لهزيمة ألمانيا ولكنها كانت أساسية لتحقيق تلك الهزيمة.

- التمييز بين الأبعاد السياسية والاستراتيجية يتقلص، ككل وجهة نظر نثيرها ثم تتقلص. في القمة تكون السياسة الحقيقية والاستراتيجية واحدة.

القراء المتهاونون بهنتنجتون فاتهم أن يدركوا أن هذه الأنواع من القرارات السياسية /العسكرية المختلطة تحدث فعلاً، بل إنها تحدث أكثر مما تفترضه النظرية «السائدة».

إن حاجة الضابط العسكري الجيد إلى الخبرة الفنية أمر لا يمكن إنكاره. ولكن هل حقاً أن «المهارة المميزة للضابط العسكري عامة» عابرة للزمن والجنسية والمكان؟ بالتأكيد، سوف تختلف مؤهلات ضابط مشاة فيتنامي/شمالي جيد في الهند الصينية في عام ١٩٦٥ في بعض النواحي الهامة، عن مؤهلات ضابط أمريكي يقابله. الفيتنامي بحاجة إلى القسوة بصرف النظر عن معاناة رجاله وإصاباتهم. هذه القسوة ستجعل الأمريكي - ليس فقط غير ملائم أخلاقياً للقيادة - بل مرشحاً محتملاً للاغتيال «السريع» من قبل رجاله. ببساطة، يجوز للفيتنامي أن يبقى جاهلاً بمجالات كبيرة من المعرفة الفنية (على سبيل المثال توظيف الدعم الجوي القريب أو

إجراءات التخطيط للتحركات المحمولة بالمروحيات) التي يحتاج إليها الأمريكي. أشار أكثر من مؤلف إلى أن فشلنا في فيتنام كان مصدره - ولو جزئياً على الأقل - المقاومة العنيدة للضباط الأمريكيين لتكييف تصورهم للاحترافية مع الحرب الماثلة أمامهم. وحيرة الأمريكيين عند مواجهة خصم غير تقليدي مثل محمد فرح عيديد الصومالي، يعكس جزئياً تردد الجيش الأمريكي في الابتعاد عن تصوره الأساسي التقليدي لما يمكن أن يكون عليه «الاحترافي».

تأكيد هنتنجتون أنه في العصر الحديث :»تكون الجيوش الاحترافية أفضل جيوش» قد يحتاج - على الأقل - إلى بعض المراجعة. رغم أنه اعتقادٌ ترتاح إليه الكثير من الجيوش العادية. كلما أجري المزيد من البحث حول أكثر آلات القتال هولاً في كل الأوقات، برز الفيرماخت الألماني، وظهر عظم دور الأيديولوجية التي ينتمي إليها. وعلى مدى أجيال، بعد الحرب العالمية الثانية، أسند العلماء القدرات القتالية للألمان في الحرب العالمية الثانية لخصائص احترافية محايدة : تماسك الوحدة الصغيرة والعناية باختيار وتجنيد الضباط وضباط الصف. كشف البحث الطويل أن تغلغل الأيديولوجية النازية في الجيش الألماني قد جعلته قوة قتالية أفضل. إنها لم تغرس فقط في قسم كبير من رجالها التصميم المتعصب للقتال، ولكنها أيضاً ساهمت بصورة غير مباشرة في المحافظة على الفعالية التكتيكية. قسوة النازي أفسحت المجال لأشد قمع ممكن للفكر المعارض، أو مجرد الشك في صحة النازية. الألمان الذين أعدموا ثمانية وأربعين من رجالهم خلال الحرب العالمية الأولى أطلقوا النار على ما يتراوح

بين ١٣،٠٠٠ و١٥،٠٠٠ جندي منهم خلال الحرب العالمية الثانية؛ والأرقام المقابلة للجيش البريطاني كانت ٣٥٦ في الحرب العالمية الأولى و٤٠ فقط في الحرب العالمية الثانية. في نفس الوقت قدم شبّان هتلر احتياطياً من الضباط الشباب والقادة، فيما عزّزت إيديولوجية النازي الفضائل المحورية للقيادة العسكرية، بما في ذلك إنكار الذات والشجاعة الجسدية والمبادرة. وربما كان الدليل الأكبر على مساهمة الإيديولوجية في سجل وحدات Waffen-SS وافين إس إس التي شكلت في نهاية الحرب ما لا يقل عن ربع الجيش الألماني وقامت بأداء قتالي بارز. وعن تيودور آيك Theodor Eicke قائد إحدى أنجح كتائب وافين إس إس (رأس الموت)، يلاحظ أحد المؤرّخين:

- أسلوب آيك في القيادة يختلف قليلاً في الممارسة عن الطرق التي استخدمها في إدارة النظام في المعسكر. ما كان ينقصه في التدريب الرسمي والرؤية والبراعة، حاول أن يتغلب عليه من خلال الاجتهاد وبذل الطاقة والجهد المستمر لإتقان التعقيدات الفنية المحيّرة للحرب الآلية.

كان آيك قائداً عسكرياً ناجحاً، ليس رغماً عن تلك الخصائص التي كانت ستتسبب في محاكمته على جرائمه العديدة ضد الإنسانية لو بقي حياً بعد الحرب، وإنما بسببها.

التجربة الألمانية ليست فريدة. فالجيوش الأيديولوجية : جيش التحرير الشعبي الصيني، الكتائب الدولية في الحرب الأهلية المدنية، والبالماخ قبل الاستقلال في فلسطين، كلها أمثلة قدمت في الغالب أداء

تكتيكياً رفيعاً ضد قوات نظامية أكبر حجماً وأفضل تجهيزاً. المقاتل الذي تحفزه الإيديولوجيا قد يخرج منه ضابط صغير جيد. وفي الغالب سيكون تجسيداً للتضحية بالذات والنزاهة وسيكون نفسه مُحفزاً للجنود الذي تحتاج إليهم المعركة. فوق ذلك، إن أكثر من بضعة قادة رفيعي المستوى أيضاً مثل آيك، قد أظهروا في حالات شديدة الاختلاف، كمّاً هائلاً من القدرات الكامنة.

إذا كان مضمون الاحترافية العسكرية كما يؤكد هنتنجتون هو «إدارة العنف». وهو تعريف يستبعد مجالات كبيرة من النشاط العسكري (اللوجستيات على سبيل المثال) والتي لها نظائر مدنية كبيرة، ومع ذلك تكون لا غنى عنها للعمليات العسكرية. يمكن نقل الكثير من هذه المهارات بسهولة، من وإلى العالم المدني. ليس مصادفة أن كبير اللوجستيين في الجيش الأمريكي في حرب الخليج الفريق جوس باجونيس Gus Pagonis أصبح فور تقاعده مديراً ناجحاً كل النجاح في شركة سيرز، على نفس المنوال الذي قام فيه الجيش سريعاً بترقية مدراء مدنيين إلى مناصب عسكرية عليا خلال الحروب العالمية. ورغم أن المؤسسات العسكرية الحديثة الجادّة تكرّس جهداً كبيراً للتعليم والتدريب، فإن التاريخ مليء بأمثلة لجنود تم أخذهم من الحياة المدنية فأتقنوا أساسيات الشؤون العسكرية سريعاً. تقدم الحروب العالمية أمثلة على جنود عظام أمضوا فترات محدودة من حياتهم في وقت السلم، في منظمات عسكرية نظامية، ثم ظهروا بشكل مزدهر في أوقات الحروب الفعلية. الجنرال سير جون موناش John Monash، أحد أفضل جنرالات الحرب العالمية الأولى كان مهندساً مدنياً تكوّنت

تجربته قبل الحرب في الميليشيا. ومع ذلك فقد ترقى إلى قيادة ربما أكثر الوحدات الهائلة لدى جميع الحلفاء، وهي القوة الإمبراطورية الأسترالية. وبالكاد تجد كلاماً - حتى منذ قرن - عن أطباء علّموا أنفسهم أو مهندسين ظهروا بصورة تشبه هذه الصورة.

الاحترافية العسكرية مختصة بالوظيفة، كما هو الحال مع إدارة الأعمال. فأصحاب الأعمال اللامعين قد يثبت عدم قدرتهم على التكيف مع مشكلات إدارة الشركات التي أدت عبقرياتهم الخلاّقة إلى إنشائها. المدراء المهرة لشركة أسست منذ عهد طويل للتقنية العالية مثل آي بي إم (i.b.m) ربما تجد أنه من الصعب عليها تحمّل مسؤوليات مساوية لشركة ترفيه مثل ديزني. وبالتأكيد هناك قواسم مشتركة كافية في تجربة الإدارة تجعل من المقبول وضع صانع سابق لبنادق متكرّرة الطلقات مسؤولاً عن شركة كبيرة لإنتاج الآيس كريم (بين أند جيري) ولكن ذلك لا يضمن النجاح. الهزات القاسية للإدارة العليا في الكثير من الشركات تعكس ما قد يشبه ظروف «زمن الحرب» حيث التقلّب المستمر للمدراء الذين رغم تأهلهم بالتدريب والخبرة لأعلى المناصب، يثبت رغم ذلك، عدم ملائمتهم لمهامهم وإنهاكهم من عملهم السابق، أو ربما كان مجرد سوء حظ، لكنه سوء حظ قاتل. إنهم في كل ما ذكر أعلاه يشبهون جنرالات في حرب شرسة. لا ينبغي أن يفاجئنا هذا الأمر لأنه بمعنى ما، تشن الشركات «حروبها» كل يوم على عكس طريقة المؤسسات العسكرية.

تشير هذه الملاحظة إلى مشكلة أعمق حول فكرة الخبرة في إدارة العنف كجوهر للمهنة العسكرية. وحيثما يظهر المحامون باستمرار

في المحكمة أو يصيغون حججاً قانونية، وحيث يدير الأطباء بصفة روتينية أو يصفون الدواء، وحيث يبني المهندسون الجسور أو أجهزة الحواسيب، فإن الجنود نادراً ما يديرون العنف، أو على الأقل ليس العنف كبير المستوى. إنهم يعدّون لإدارة العنف، ويتوقّعون متطلباته، إنهم يدرسون الاستخدامات الماضية للعنف ولكنهم نادراً ما ينخرطون في النشاط المحوري الذي يحدد مهنتهم. وبتعبير جنرال بريطاني كتب بعد الحرب العالمية الأولى:

- تخيل نظاماً هائلاً للسكك الحديدية تم إنشاؤه ولكن لم يستخدم، وتم الاحتفاظ به احتياطياً لظرف طارئ معين قد يظهر في أي تاريخ غير محدد، تاريخ مؤكد (لدى البريطانيين) يتم تحديده بواسطة مديري نظام آخر ومنافس بدلاً من مديريه. يُسمح للسكك الحديدية بالافتتاح جزئياً مرة واحدة في السنة ومرة واحدة فقط في السنة أمام الحركة لمدة أسبوع (المناورات): بالنسبة للأسابيع الواحد والخمسين الباقية ليس هناك خدمة قطارات، ولكن يتم تجريد القاطرات وتكديس الكثير من قطعها الأساسية في أماكن بعيدة عن الطريق في المملكة. ومع ذلك، مع إعطاء الإشارة، وفي غضون أربعة أيام، يجب تجميع أجزاء المحرّكات وتثبيت العجلات إلى القاطرات المفكّكة، ويجب تثبيت الوسائد إلى عربات الدرجة الأولى ويجب على الأفراد أن يكونوا في مواقعهم ويجب أن يكون الفحم - جبال منه - في المكان المناسب، وتأتي عمليات نقل ضخمة معقّدة وحركة فائقة السرعة ومزدحمة مباشرة إلى الوجود، بشرط أن

الشركة المنافسة لا تقوم بعرقلة حركة المدير، أو إسقاط بضع قنابل على المحطة.

الكثير من الضباط، وربما معظمهم، يقضون كل حياتهم العسكرية دون مشاركة في حرب على نحو حقيقي. وحتى أولئك الذين يقاتلون في الحروب فإنهم يفعلون ذلك لفترات قصيرة جداً من حياتهم المهنية، ونادراً ما يشغلون نفس المنصب في أكثر من صراع واحد. ربما يجرب المحامي مئات القضايا أو يعالج الطبيب مئات أو حتى آلاف المشاكل الطبية ذات النمط المتشابه أساساً طوال عدة عقود، ولكن الجندي لديه فرصة واحدة فقط للخدمة في وظيفة معينة. هناك القليل من الجنرالات الذين خاضوا تجربة شغل منصب قادة كتائب أو قادة سلاح، ناهيك عن قادة مسرح العمليات أو رؤساء أركان في أكثر من حرب واحدة. ونتيجة لذلك ولا سيما في بداية الحرب، فإن أبرز قادة الدولة، وهم تحديداً أكثرهم خبرة من المخضرمين، يكونون في منصب احترافي شبيه بمنصب محام أو طبيب جديد، في حين يُفترض أن يكون أحدهم شريكاً كبيراً في شركة محاماة أو كبير جراحين في إحدى المستشفيات.

إن نقص تمرّس العسكريين في مهنتهم على أعلى مستوى عبارة عن عامل واحد فقط من الأخطاء الكارثية المذهلة والمتكرّرة التي ترتكبها مؤسسات عسكرية يفترض أن تتميز بالكفاءة. أخطاء خطة شليفين لم تكن سياسية بحتة بل لوجستية : هؤلاء الذين وضعوها استبعدوا مشاكل الإمداد، وتحمل الزحف الذي جعل التنفيذ يشبه المستحيل. خبراء التخطيط التكتيكي في ألمانيا شنوا في مارس ١٩١٨

هجوم (مايكل) المدمّر الذي حطم جيش ألمانيا وجعل هزيمة بلادهم حتمية. جنرالات الجوّ الرواد في القوات الجوية الأمريكية في الحرب العالمية الثانية شنوا حملة قصف دقيقة مدمرة، في ضوء النهار وبدون حراسة، ضد ألمانيا التي انهارت في انكسارات شفاينفورت عام ١٩٤٣. التزم الإسرائيليون في عام ١٩٧٣ بعقيدة حرب الدبابات التي ثبت عدم ملاءمتها إطلاقاً ضد الأسلحة الحديثة المحمولة يدوياً والمضادة للدبابات، ونتيجة لذلك فقد تعرضوا لخسائر فادحة في الأيام الأولى من القتال ضد قوات المشاة المصرية المسلحة بصواريخ محمولة والقنابل ذات الدفع الصاروخي. الجيش الأمريكي في فيتنام بقيادة مخضرمين محنّكين من الحرب العالمية الثانية تبنوا إستراتيجية «البحث والتدمير» القائمة على افتراضات كاذبة تماماً بشأن قدرتها على السيطرة على معدلات خسائر الفيتناميين الشيوعيين. نبعت هذه النكبات وغيرها، ليس من عدم الكفاءة كما يفهم عادة، بل من المظاهر التي تجعل من شن الحرب شيئاً يختلف عن المهن الأخرى : التأثيرات النفسية المشوهة من الخوف والكراهية والرغبة في المجد؛ وطبيعة الخصوم المتفاعلين وغياب القواعد التي تقيد النشاط المقصود. وكما لاحظ كلاوزفيتز :

- كل حرب غنية بحوادث فريدة. كل منها عبارة عن بحر مجهول مليء بالشعاب المرجانية. كل عصر لديه نظرية للحرب، حتى وإن كان الدافع دائماً وبصفة عامة، موجوداً لتنفيذ الأشياء على مبادئ علمية.

الحرب نشاط شديد التنوع لا يندرج تحت طائفة وحيدة من القواعد والمعايير المهنية.

الحوار غير المتكافئ

لا ينبغي للمرء أن يحمل مثل هذه الحجج ضد التقسيم الجامد «مهني» و«سياسي» إلى حدّ بعيد. من الواضح أن المستجد القادم من المكتب أو الفصل، لن يستطيع قيادة حاملة طائرات أو كتيبة مسلحة ولا قيادة طائرة مقاتلة أو إصلاح عربة مشاة مقاتلة. إن السياسي الذي يخطط عملية كوماندوز خاصة به، سوف يندم عليها بالتأكيد. أكثر من مجموعة من الزعماء الثوريين من المفوّضين البلاشفة في عام ١٩١٩ إلى الملالي الإيرانيين بعد ذلك بما يزيد عن نصف قرن لجؤوا، طوعاً أو كرهاً، إلى (خبراء) لجأوا لضباط ربما، لم يكونوا يثقون بهم ولكن كانوا بحاجة إلى خدماتهم. وسيبقى ما يكفي من أنظمة الضباط – رغم جاذبية الثقافة المادية - لجعل مفاهيم مثل الشرف، خصائص مميزة للأسلوب العسكري. «شرف الضابط له أهمية بالغة» كما كتب أعضاء مؤسسون في مركز الجيش للأخلاقيات المهنية العسكرية.

تلك المهنة للجيوش باقية حتى رغم أنها مهنة غير متبلورة كغيرها، وربما عند التفكير، وللوهلة الأولى لا يمكن لأحد التشكيك في ذلك. وحتى في ذروة الحرب الباردة استطاع ضابط بريطاني رفيع الشأن فصل أغراض الحرب عن الاحترافية :

- افترض أنه أصبح في الدول الغربية، مقاتلين احترافيين في

مجال قتال الشيوعيين، رغم أنني لا آمل ذلك.

إنها ملاحظة مفهومة على الفور للجنود الاحترافيين الآخرين، وإن لم تكن ربما مفهومة لمعظم المواطنين.

إضافة إلى ذلك فإن إنكار «السيطرة الموضوعية» يحمل معه مخاطر شديدة. إن رفض فكرة هنتنجتون حول عزل قضايا السياسة عن قضايا الإدارة أو العمليات العسكرية يفتح الطريق أمام جيش مسيّس، وبفضل حجمه ونظامه يكون لاعباً محتملاً مسيطراً في تسيير الشؤون الخارجية والداخلية. في الدول ذات التقاليد الديمقراطية الأقل رسوخاً، فإن مثل هذه التغييرات تفتح الطريق أمام التدخّل العسكري المباشر في السياسة. هنتنجتون محقّ في زعمه أن مثل هذا التحزّب سوف يقلص في نهاية المطاف من الكفاءة العسكرية.

ولكن النظرية «السائدة» تظل بحاجة إلى تنقيح في فهمها للمهنة العسكرية، ومن ثم في فهمها للسيطرة المدنية. وبناءً على ما سبق إذا كانت مهنة الضابط مهمة فريدة فإن الخبرة العسكرية متغيرة وغير مؤكدة وإذا كانت الحدود بين الغايات السياسية والوسائل العسكرية غير مؤكدة أكثر مما يشير إليه هنتنجتون، فإن السيطرة المدنية يجب أن تتخذ شكلاً مختلفاً عن شكل «السيطرة الموضوعية». على الأقل في فهمها الأصلي.

تقدير وعرفان

استغرق تأليف هذا الكتاب زمناً أطول مما يجب، لأسباب لا يجدر بي نقاشها. وعلى كل حال، فقد رأى النور أخيراً. ويُعزى ذلك لمساندة وتعاون كثير من الأصدقاء والزملاء ورفاق العمل على وجه الخصوص. وقبل هذا وذاك، أدين بالشكر والعرفان لزوجتي، جودي، التي ظلت تدعمني دون كلل ولا ملل، والتي مثّلت قوة إيمانها بهذا الكتاب وبمؤلفه، دفعة كبيرة لتأليفه. كما أن كوكبة من مساعدي البحث لم يدخر أفرادها جهداً في سبيل مساعدتي لإكمال هذا الكتاب بعد أن أعانوني كثيراً في تتبع المصادر، والملحوظات، والتحرير. كما أخص بالشكر السادة لولي أكويليرا، وإيه هذر كوين، وريتشارد دو، وسكوت دوغلاس، ودانيل جنسبيرغ، ولايل غولدستين، ولورانس كابلان، وجال لوفت، وبيتر ماكورميك، وسين ماكدونالد، وجوانا موهرنغ، وتامي شولتز (المصحح النشط الذي لا يَكل ولا يمل)، وجوناثان شوارز، وكيفن تيهان، ووليام يونغ، وكمبرلي زيبنو، ولورانس زوريف. وقد بذل كل من دونا فانديش، وجينا جونسن، وثايرماكيل - وجميعهم من منسقي برنامج الدراسات الاستراتيجية - ما في وسعهم لكي أستثمر معظم وقتي في المنحة الدراسية.

وأشكر طلابي وأخص منهم الذين أخذوا أدوار « الجنود،

ورجال الدولة واستخدام القوة» وأجدني مديناً لهم بالشكر والعرفان، على حثهم إياي واختلافاتهم البناءة. خاصة توم دونيلي، وتوم إرهارد ومايك فيكرز الذين كانوا مقنعين جداً مع قوة في الحِجاج.

«لقد تعلمت كثيراً من أساتذتي ومعلميَّ، ومن زملائي، بل وتعلمت الأكثر من طلابي»، هذه عبارة قالها أحد حاخامات اليهود في الزمان السابق، وبسبب هؤلاء وآخرين يمكنني تأكيد صحة تلك العبارة.

الكتابة مهمة معزولة وفردية، لكن لا ينطبق ذلك على الإسهام في المنح الدراسية. فقد اطلع على هذه المخطوطة كل من: مايك أبراموفيتز، وأندي بيسفتش، وديك بتس، وتامي بيدل، وتوم كيني، وديك كوهن، وبيل كريتول، وويك موراى، ودوغ بورش، وتوم ريكس، وألكس رولاند، واتيفن روزن، ثم ناقشوا الأفكار التي فيها معي وأدخلوا عليها تحسينات من جهات عدة، من باب النقد والاقتراحات التي قدموها. وقد كنت محظوظاً أن يكون بجانبي مثل هؤلاء الزملاء بل والأصدقاء.

وقد قدم مركز وودرو ويلسون العالمي للمنح، المصادر المطلوبة، وهيّأ لي أوقات الفراغ لأكتب جزءا كبيراً من هذا الكتاب، وأقدم أجزل الشكر والتقدير للسادة لي هاميلتون، وروبرت ليتواك، وسام ويلز. كما أن مؤسسة سميث ريتشاردسن الخيرية موّلت جزءاً لا بأس به من هذا البحث. وقد كان ديفون كروس ومارين سترميكي صديقين دائمين ومعاونين لي في كل تلك الأوقات. كما أن عدداً كبيراً من

المؤسسات الخارجية دعمتني، أخص منها بالذكر: مكتب السجلات العامة البريطاني، مركز ليديل هارت للمحفوظات العسكرية في مكتبة كنجز كوليدج، وكان فيها كل من كيت أوبراين وماتريشيا ميثفن اللتان دعمتاني في خطوات أبحاثي الأولى. ومعلوم أن مكتبة الكونغرس تعدّ كنزاً ضخماً للإنسانية جمعاء، وقد كان لموظفيها والعاملين فيها إسهامهم السخي بمد يد العون والمساعدة، كما أن مصادرها كانت ينابيع دهشة مستمرة. وقد دعمني مركز أبحاث بن غوريون في سدي بوكر بمواد نادرة، ولم يكن مديره توفيا فرايلينغ (الذي يعمل حالياً مسؤول محفوظات في دولة إسرائيل) والعاملون معه مساعدين فقط بل كانوا مضيافين كذلك في منزلهم الصحراوي.

وقد عايشت في «فري برس» محرّرين اثنين. بوب والاس الذي عانى زماناً طويلاً في سبيل استلام المخطوطة، وكذلك تشاد كونواي الذي أمَّن سرعة نشرها. وقد استفدت من إرشادات بروس نيكولز - مع مساعديه والمنقّحين - في مراحل الإنتاج النهائي، وكانت سعادتي غامرة أن أعمل مع جميع هؤلاء.

وكانت كلية بول اتش نيتزي للدراسات العالمية المتقدمة في جامعة جون هوبكنز مكاناً طبيعياً ومثالياً للتفكير في كل الصعاب والمشاكل التي تناولتها هنا بالحوار والنقاش. وقد أثرت خصائص عديدة لا تقدر بثمن، في تشكيل طريقة تفكيري في الموضوعات التي نوقشت هنا، منبعها علماء كلية الدراسات العالمية المتقدمة في مختلف فروع المعرفة والملمّين بالتاريخ، وضرورة الالتزام بالتحليل التفصيلي الدقيق للسياسة المتبعة، والتعرّض للمواضيع السياسية اليومية للحكومة

الأمريكية. وأجزل شكري وتقديري لزملائي وعمداء الكليات: جورج باكارد وبول وولفوتز، والعميد المؤقت ستيفن سزابو الذين بثوا حولي الطمأنينة والراحة النفسية المطلوبة لإتمام المخطوطة. وإنني ممتن جداً لمنسوبي المكتبة برئاسة بيتر برومن ولندا كارلسن لكفاءتهما وتعاونهما معي.

قمت بعمل تمهيدي لهذا الكتاب في مؤسستين بارزتين: الكلية الحربية البحرية في نيوبورت، رودآيلاند، ومعهد أولين للدراسات الاستراتيجية في جامعة هارفارد. وقد ألهمت في معهد أولين، كطالب وكباحث حديث عهد بالبحوث العلمية، بالسيد صموئيل بي هنتنجتون، الذي كان مرشداً عاقلاً لم يبخل عليَّ بأي معلومة، برغم أن هذا الكتاب يتحدّى، أو بالأحرى يقترح تعديلاً كبيراً في إحدى نظرياته؛ وهذه هي روح أمانته في تدريسه للعلوم، كما أنها طريقة حياته الأكاديمية، التي دأبت على البحث عن الحقيقة بوصفها خيراً محضاً، وحواراً قوياً يشمل في نفس الوقت كيفية للوصول إلى نقطة النهاية؛ وهذا مصدر بهجة وسرور بحد ذاته. فهذا الكتاب، في أكثر جوانبه، تكريم للسيد صموئيل بي هنتنجتون.

وقد رسمت صورة ذهنية لهذا الكتاب عندما كنت في الكلية الحربية البحرية، حيث ساعدني وشجعني الزملاء وطاقم التدريس (خاصة قدامى أمناء المكتبة برئاسة بوب شنير) في أن أبدأ هذا المشروع. وأكثر من لعب دوراً فاعلاً ومهماً في طرح هذا الكتاب هو آل بيرنشتاين، رئيس إدارة الاستراتيجية، الذي استمالني إلى مدينة نيوبورت واستوحيت منه الجلَد كمعلم وكقائد. وقد عملنا معاً في

واشنطن، وكان دائما يسأل عن مسيرة الكتاب، خاصة فيما يتعلق ببعض القضايا المهمة التي هي مكان تفكير عميق لديه. وقد تشاطرت معه واحدة من أنبل الصداقات الإنسانية، التي اختصر عمرها، موته المفاجئ. لذلك أهدي هذا الكتاب لروحه ولذكراه.

نبذة عن مؤلف كتاب القيادة العليا

إليوت أشر كوهين (١٩٥٦)، حائز على الدكتوراه شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة هارفارد في سنة ١٩٨٢.

عمل أستاذاً مساعداً في هارفارد ما بين سنتي ١٩٨٢ و١٩٨٥. ثم درّس في قسم الاستراتيجية في الكلية الحربية البحرية لمدة أربع سنوات. وفي سنة ١٩٩٠ انتقل إلى جامعة جونز هوبكنز حيث يعمل أستاذاً في كلية الدراسات الدولية المتقدّمة وكلية كاري للأعمال.

عمل في منصب مستشار لوزارة الخارجية في حقبة كونداليزا رايس ٢٠٠٧ – ٢٠٠٩. كما عمل مستشاراً خاصاً للسياسات الخارجية والدفاعية في حملة مت رومني.

له الكثير من الكتب ذات الصبغة السياسية العسكرية التي تنتمي لخط المحافظين الجدد.

نبذة عن المترجم

الاسم : خالد بن عاذي بن عيد الغنامي

مترجم كتاب (قدمي اليسرى) للأديب الإيرلندي كرستي براون وكتاب (مشكلات الفلسفة) للفيلسوف البريطاني برتراند راسل.

معلم للغة الإنجليزية في المملكة العربية السعودية.

يعمل كاتباً في الصحف السعودية منذ سنة ٢٠٠١ وله الآن عمود أسبوعي في صحيفة الشرق.

من مؤلفاته :

١- جواز صلاة الرجل في بيته: دراسة فقهية حديثية لصلاة الجماعة.

٢- الفلسفة الوجودية (روح القرن العشرين) - بحث منشور ضمن الكتاب الثاني للحلقة الفلسفية بالنادي الأدبي بالرياض.

٣- السعادة الأبدية بين الدين والفلسفة.


رحلة الابتعاث


جواز سفر


العامية الأمريكية
American Slang


هشام ناظر

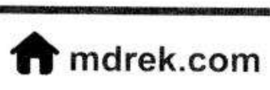



مدارك


محمد صبح


سيرة "ذاتية"..
وانفتحت!
CV


DarMadarek

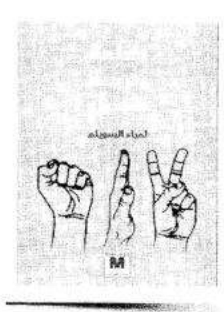

mdrek.com


حلم العيون السود


إيران




أحبك
لأن الله
اختار ذلك




أربعة عقود
مشاري الإبراهيم


يكاد يضيء

على شفا سفرة
مفرح المحمل

سعيد الأحمد


كيف أحمي طفلي

الزبدة

التابوت النبيل


طين بلادي

تجاوز

قهوتي مُرّة
نورة شنار


حيث الأفق

دليل الأوزان النبطية


القلب يقظان
M

M

M

سفر الذاكرة
M

الصومال
و
الحركات الإسلامية
المسبار

الصوفية
المسبار

السودان
بين الدين
و
السياسة
المسبار

الأقباط
في
مصر بعد الثورة
المسبار

الخليج
و
الربيع العربي
الدين والسياسة
المسبار

الحركات الإسلامية
في
الجزائر

الجهاديون
في
مصر
المسبار

القاعدة
في اليمن
المسبار

ثورة النساء
مخاوف من الربيع العربي

القاعدة
بعد ابن لادن

الإخوان وإيران
خارج المذهب داخل السياسة

الفضائيات الدينية
دعوة أم تسويق!

إصدارات 2015

































إصدارات 2015


































النمرة غلط


سكون


أسطورة داعش
إرهاب الخلافة وعالم التمويل

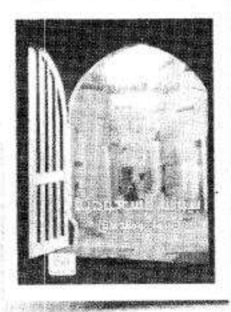



أنثى لرجل واحد


أحزان المرايا ومسراتها


مطر لشجر الذاكرة


نهاية عصر




سبحة الكهرمان
من أخبار الإنس والجان


مذكرات معلمة


المذهل من ذكريات
طالب تنبل


المربع الثاني


عزيزة


الحرية ثورة


نوازف


الإخوان المسلمون
أسرار رسالة التعاليم

ديوان
عبدالله بن نايف بن عون

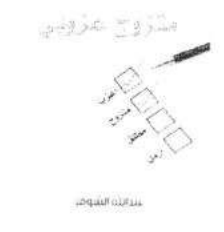
الهوية والذاكرة
محمد الحرز


ما وراء الوجوه
(2)
حليمة مظفر

لماذا تناصر ايران القضية الفلسطينية؟!

قصائدي

تل زاحر



جلطة.. وماتت

عبدالله النعيمي
قمر الرياض


الأقليات الدينية
الاثنية

اياد عاشور
كلوديوس
رواية

مدائن اللهفة

اسم الكتاب	المؤلف	سنة النشر	الرقم الدولي	التصنيف
لست نصفا	ايمان حمد	2014	9789948466307	رواية
ما علمك صوت المطر	فهد المساعد	2014	9789948496847	شعر
الطب النبوي بين الفقيه والطبيب	عمر عبد الرحمن الحمادى	2014	9789948209607	توجيه صحي
العبيد الجدد	ياسر حارب	2014	9789948496700	رواية
يردن المشرب مرتين	عبد الله ثابت	2014	9789948496991	مقالات
بوب مُب عمي	وليد أحمد الشملان	2014	9789948496977	رواية
ب ٤٠ يوم بالبيجامة	بدور الحامد	2014	9789948466154	ميثولوجيا الحمل و الولادة
حتى الملوك يبحثون عن الحب	زهرا موسى	2014	9789948425793	مجموعة قصصية
كائن كالظل	محسن سليمان	2014	9789948209614	قصص
ماذا فعل بنا الانترنت	عبدالله الشنبري	2014	9789948496366	فكر - تنمية
سلسلة الدروس فى علم الاصول	على الامين	2014	9789948496878	الفكر الديني
دور ايران فى محاولة الانقلاب الفاشلة عام ١٩٨١ بالبحرين	حمد العيسى	2014	9789948466147	دراسة تاريخية -سياسية - وثائقية
جراحة التجميل بين الحقيقة والخيال	نادية بندقجي	2014	9789948496373	طب
عاشق من العالم الثالث	ثامر عدنان شاكر	2014	9789948466031	شعر
قزم و عملاق و وطن	ثامر عدنان شاكر	2014	9789948466024	مقالات
إنما أنت حبيبها	سارة مطر	2014	9789948496946	يوميات و مقالات
ايران والاخوان علاقات ملتبسه	فريدريك هالداي	2014	9789948466260	دراسة تاريخية -سياسية - وثائقية
ليبيا (الدين - القبيلة - السياسة)	مجموعة باحثين	2014	9789948425847	دين وسياسة
الأزهر (مرجعية التقليد السني في أزمنة التغيير)	مجموعة باحثين	2014	9789948220077	دين و سياسة
السلفية المتحورة	مجموعة باحثين	2014	9789948496748	دين و سياسة
الأعمال النقدية الكاملة ثلاثة اجزاء	جورج طرابيشي	2014	9789948496151	ادب - نقد
الإنتخابات الرئاسية الإيرانية (مؤشرات و النتائج ٢٠١٣ نموذج)	سلطان محمد النعيمي	2014	978-9948-466-21-5	دين سياسي
تجارب كونية فى تدريس الأديان	محمد الحداد	2014	9789948208426	دين سياسة - فكر سياسي
الاعمال النثرية الكاملة(مكابدات الأمل و نقده - قهوة العائلة -نثر ماثل شعر وشيك)	قاسم الحداد	2014	9789948496939	مقالات
عن عاشق لا يموت	محمد جمال	2014	9789948224426	مجموعة قصصية
تجديد الاسلام (معالجة حديثة لفهم نصوص الشريعة)	عبد الله العلويط	2014	9789948496892	فكر ديني

اسم الكتاب	المؤلف	سنة النشر	الرقم الدولي	التصنيف
ب ٥٢ تكاتكا	عبد الرحمن سلطان السلطان	2014	9789948224433	مقالات
كيف تتحول الى زومبى	عبد المجيد تمراز	2014	9789948223092	مقالات قصيرة
الانسان النوراني	مهدي الموسوي	2014	9786144290002	فلسفة
سمفونيّة عشق	أحمد الغزي	2014	9789948206590	نثر - شعر
هى مجرد فكرة	حسن خالد	2014	9789948496410	مقالات
من يعرف جنيا يتلبسني	فهد عامر الأحمدي	2014	9789948496786	مقالات
جسر من ضوء	خالد الراجحى	2014	9786030116894	مقالات
احلام يناير خيبات ديسمبر	علي زعلة	2014	9789948224440	مقالات
نحن على كرة بلياردو	ابراهيم بن عبد الله العمار	2014	9789948496380	معلومات عامة
كود بلو	سلطان الوجيه	2014	9789948496601	مذكرات
عندما تغفو المدينة	نايف محمد الواعيل	2014	9789948206637	مجموعة قصصية
شقشقات	عبده خال	2014	9789948206606	مجتمع - انترنت
ما ينقصك	منيرة الازيمع	2014	9789948496915	قصص قصيرة
في عتمة الضباب	محمد إبراهيم الشريف	2014	9789948496427	قصص فلسفية
اتيكيت الكتاكيت	فاطمة فهد المويشر	2014	9789948225850	قصص اطفال
احلام لا تموت	فهد عريشي	2014	9789948496021	قصص
حلمي ألبس صندل	هيفاء السهلي	2014	9789948496571	قصة
ميادين التغيير	شتيوي الغيثي	2014	9789948496618	فكر سياسي
محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي الجزء الاول	جورج طرابيشي	2014	9789948223245	علم نفس
جنان حنايا	محمد جبر الحربي	2014	9786030040353	شعر - نثر
لا يمكن البكاء مع احد	جلال الأحمدي	2014	9789948496212	شعر
كأنك لم	محمد عبدالباري	2014	9789948496960	شعر
ظل قصيدة	نادين الاسعد	2014	9789948466246	شعر
طفولة قلب	محمد جبر الحربي	2014	9786030040353	شعر
خالد الفيصل و غازي القصيبي عن الخمسين فى الخمسين قالا	عبد الله العميل	2014	9789948496908	شعر
الهواء الطويل	أحمد الملا	2014	9789948206576	شعر
زهرة و قاص	رحمة العتيبي	2014	9789948202561	سيرة ذاتية
من أي شيء خلقت	ميثاء المهيري	2014	9789948206552	رواية
مبتعث إلى سوريا	عبد المجيد الفياض	2014	9789948202547	رواية

اسم الكتاب	المؤلف	سنة النشر	الرقم الدولي	التصنيف
رائحة التانجو	دلع المفتي	2014	9789948225737	رواية
لولوة فى باريس	فارس الروضان	2014	9789948466161	رواية
في الخامس من يناير	فاطمة الحمادي	2014	9789948496632	رواية
عشب و سقف و قمر	خولة السويدي	2014	9789948206545	رواية
سجينة العشق	موضي الزهراني	2014	9789948466000	رواية
تذاكر العودة	عمرو العامري	2014	9789948496687	رواية
بانتظار ولادة	حليمة الرولى	2014	9789948496588	رواية
ايها الامريكيون لست ارهابيا	عبد الله المعلم	2014	9789948496557	رواية
البحريات	أميمة الخميسي	2014	9789948206569	رواية
الأيام لا تعود	سعيد شهاب	2014	9789948496403	رواية
شموس التهائم و النجود بعد النفط	رشيد الخيُّون	2014	9789948496472	رحلات
حزب الله الحجاز	حمد العيسى	2014	9789948209591	دراسة سياسية
السعودية و المشهد الاستراتيجى	حمد العيسى	2014	9789948209621	دراسة سياسية
تمرد شيعة القطيف	حمد العيسى	2014	9789948223238	دراسة تاريخية -سياسية - وثائقية
اثر الصحافة المحلية	مها الوابل	2014	9789948425786	دراسات مجتمع
قبل سقوط الشاه	حمد العيسى	2014	9789948206583	دراسات سياسية - معربة
ملامح أخرى	مشاري حمدان الماهل	2014	9789948220169	خواطر - إرشادات
طوق الكلام	عمر عناز	2014	9789948496809	حوارات ادبية
اسطوري	عبد العزيز ال ثانى	2014	9789948206620	تنمية ذاتية
مفاتيح النجاح	فهد بن صالح السلطان	2014	9789948496397	تنمية ادارية
التنمية و عربة الكرو	ابراهيم العواجى	2014	9789948496854	تنمية
من قتل رفيق الحريري	حمد العيسى	2014	9789948466178	تحقيق استقصائى
قطار الحياة	ناصر بن عبد العزيز العرفج	2014	9789948496281	تاريخ - مجتمع
التشيع فى سوريا ليس خرافة	حمد العيسى	2014	9789948466192	بحث ميدانى
التهديد الايراني الاقليمي من منظار سعودي	حمد العيسى	2014	9789948496694	بحث فى السياسة و العلاقات الدولية
النَمَسُ في النمسا	نبيل المعجل	2014	9789948496953	أدب الرحلات
اهمية خليج العقبة ودور الجوار العربي فى مواجهة الاطماع الاسرائيلية	محمد بن سعد البلوي	2014	9789948466239	الجغرفيا السياسية

اسم الكتاب	المؤلف	سنة النشر	الرقم الدولي	التصنيف
علمني كيف اتواصل	لمى العوهلي	2013	9789948425953	تربية
انا سنية و أنت شيعي	سارة مطر	2013	9789948496199	يوميات
الرقص مع الحياة	مهدي الموسوي	2013	9789948425748	تنمية ذاتية
الفكر الصوفي	يوسف زيدان	2013	9789948425861	فلسفة
همزة بلا أخطاء	عواطف العلوي	2013	9789948425663	تعليمي
اخوان الصفا	رشيد الخيُّون	2013	9789948496465	فكر فلسفي
صرح مصدر غير مسؤول	ثامر عدنان شاكر	2013	9789948425960	مجتمع - تربية
هنا تويتر	ثامر عدنان شاكر	2013	9789948425731	مجتمع وتربية
الترنتيون سعوديون	عبد الله المغلوث	2013	9789948496236	سير ومذكرات
قبيلة تدعى سارة	سارة مطر	2013	9789948425823	يوميات
العاطلون عن الحب ينامون مبكرا	فائق المنيف	2013	9789948201830	شعر - نثر
لعيون سيف	ميثاء الهاملي	2013	9789948425946	مقالات
تفاحة الدخول الي الجنة	سلطان العميمي	2013	9789948425069	قصص قصيرة
عيناك يا حمدة	امنة المنصوري	2013	9786144290538	رواية
حكايات سعودي في أوروبا	عبد الله الجمعة	2013	9789948425359	أدب رحلات
الديناصورات	صموئيل كينج	2013	9789953566849	قصص أطفال
خمسون عاما في الإدارة التنفيذية	ابراهيم المنيف	2013	9789948425458	سير ومذكرات
العاصفة و العمامة	الهادي الخناشي	2013	9789948496045	فكر سياسي
ضوضاء السكينة	خالد مكدي	2013	9789948444909	أدب - خواطر
مناطحة فى جدار العناد	محمد فاضل	2013	9789948425090	مقالات
محاولة ثالثة	محمد الرطيان	2013	9789953566832	مقالات
ما وراء الوجوه (الجزء الأول)	حليمة مظفر	2013	9789948202554	سير ومذكرات
شواهد لا مشاهد بعيون أنثي	سوكينة المشخيص	2013	9789948425762	مقالات
حلقات اولمبية	احمد العلى	2013	9789948425441	مقالات
كويتية فى غوانتنامو	ريم الميع	2013	9789948496182	مشاهدات و يوميات
غورنيكات سورية	نجاة عبد الصمد	2013	9789948425922	مجتمع
يوميات باحث في مهد الانترنت	باسل السدحان	2013	9789948425175	سير ومذكرات
هالات	هالة الناصر	2013	9786030121878	مقالات
وهابي خارج الدائرة	عبدالله الرشيدي	2013	9789948496021	سياسة
كابتشينو	عبد الله الشعيلى	2013	9789948425809	مجتمع وتربية

اسم الكتاب	المؤلف	سنة النشر	الرقم الدولي	التصنيف
جياد بلا صهيل	مصطفى الأغا	2013	9789948496007	قصص قصيرة
نورة والماء	مها الوابل	2013	9789948496519	قصص أطفال
نظارات لولوة	مها الوابل	2013	9789948496526	قصص أطفال
مسرحية النبع الذهبي	هدى النعيمي	2013	9789948425977	قصص أطفال
لانك بنت	أميمة الخميسي	2013	9789948443919	قصص أطفال
فراس الأسد الشجاع	أميمة الخميسي	2013	9789948443926	قصص أطفال
سلسلة حكايات ريما	منصور العلوي	2013	9789948496458	قصص أطفال
سلسلة المها	مها الوابل	2013	9789948496533	قصص أطفال
سارق اللون	أميمة الخميس	2013	9789948443933	قصص أطفال
اميرة الموج	امل سليمان	2013	9789948425472	قصص أطفال
القطة ميو	مها الوابل	2013	9789948496502	قصص أطفال
القرد قرود	مها الوابل	2013	9789948496496	قصص أطفال
الساعة ٧:٤٦	عبد الله المغلوث	2013	9789948425908	تطوير الذات
انستقرام	عائشة ناصر	2013	9789948496670	قصص قصيرة
فوائح الجمال	يوسف زيدان	2013	9789948496311	فلسفة
عبد الكريم الجبلي	يوسف زيدان	2013	9789948496335	فلسفة
شعراء الصوفية	يوسف زيدان	2013	9789948496328	فلسفة
حي بن يقظان	يوسف زيدان	2013	9789948496359	فلسفة
المقدمة فى التصوف	يوسف زيدان	2013	9789948496298	فلسفة
كيف يفكر الفلاسفة	على الديري	2013	9789948425397	فلسفة
اسرار الصندوق الاسود	زهير بن خشين	2013	9789948496168	علم نفس
حق العيش المشترك	محمد محفوظ	2013	9789948425373	فكر و مجتمع
هل حقا ارتحل	أبو القاسم التجاني بابكر	2013	9789948496762	شعر
ما كان البحر رهوا	غسان الشهابي	2013	9789948496175	فكر سياسي
في أصل العنف و الدولة	علي حرب	2013	9789948425625	فكر سياسي
حقوق الإنسان (مفاهيم و الايات)	معتوق عبدالله	2013	9789948496229	فكر سياسي
حديث الأموات	فوزي بن عمران	2013	9789948425328	علوم
ضد الطمأنينة	محمد الحرز	2013	9789948425335	فكر فلسفي
الخليج ليس نفطا	محمد الرميحي	2013	9789948425816	تاريخ
عقل طه في قلب نزار	محمد السحيمى	2013	9789948425434	أدب

اسم الكتاب	المؤلف	سنة النشر	الرقم الدولي	التصنيف
موعد الساعة ثمانية	فارس الروضان	2013	9789948425410	شعر
قلبي يكبر امامي	عبد الرحمن بن ثامر	2013	9789948425892	شعر
الغناء علي ابواب تيماء	عبد الله الصيخان	2013	9789948425502	شعر
ماما سارة أوباما	دافني باراك	2013	9789948496014	سير ومذكرات
حبيبتي بينظير	دافني باراك	2013	9789948425793	سير ومذكرات
مسألة كردية	بدرخان علي	2013	9789948496380	سياسة-مجتمع
هواجس الامل الجريح	عبد الله الحلاق	2013	9789948425397	فكر سياسي
هزيم ألم	رباب حسين	2013	9789948425274	قصص قصيرة
الطائرة الخامسة	محمد العمر	2013	9789948425885	رواية
فراشة النسيان	عبير بو حمدان حرب	2013	9789948496564	رواية
سيمازا	انتصار العقيل	2013	9789948425984	رواية
سرايبفو	آدرين كريهيتش	2013	9789948425489	رواية
زيارة سجي	أميمة الخميسي	2013	9789948425656	رواية
رقصة الموت في فرانكفورت	سميرة السلماني	2013	9789948496106	رواية
خيانة السيد وقت	احمد البشري	2013	9789948425380	رواية
انت طالق	كمال عبد القادر	2013	9789948425632	رواية
الطير الأبابيل	عبد الوهاب الحمادي	2013	9786144290439	رواية
ارغبة رجل يا ابي	روان محمد	2013	9789948496175	رواية
الركض فوق بساط بلور	زكريا عبد الجواد	2013	9789948425755	أدب رحلات
زمن الإخوان	جمال خاشقجي	2013	9789948425496	سياسة
اضاءات (2004 - 2011)	تركي الدخيل	2013	9789948425533	حوارات تلفزيونية
خواطر مغردين	سعود صالح	2013	9789948425724	أدب - خواطر
الإدارة المدرسية بين النجاح و الفشل	احمد كريري	2013	9789948425649	مجتمع وتنمية
عيوبنا بدون مكياج	وليد اسامة خليل	2013	9789948425687	مجتمع وتنمية
المستقبل يبدأ الأن	معن القطامين	2013	9789948496113	مجتمع وتنمية
فاشل و لكن	سعد الحمودي	2013	9789948496014	تنمية الذات
الخبر و ما جاورها	عبد الله المدني	2013	9789948202530	تاريخ
احتلال السوق السعودي	جمال خاشقجي	2013	9789948444893	أقتصاد
ستيف بين بيل ونبيل	نبيل المعجل	2013	9789948425427	أدب ساخر
اماراتي فى نيجريا	طلال سالم	2013	9789948496489	أدب رحلات

اسم الكتاب	المؤلف	سنة النشر	الرقم الدولي	التصنيف
ملحمة التطور البشري	سعد العبدالله الصويان	2013	9789953566825	انثربولوجيا
وصايا	محمد الرطيان	2013	9786144290231	مجتمع وتربية
اذكريني كل ما فاز الهلال	فارس الروضان	2013	9789948425465	أدب
اوهام الحداثة	عز الدين صغيرون	2013	9789948425694	أدب
الخطاب بين الإلقاء و النص	خالد بن مسفر المالكي	2013	9789948425069	أدب
ثقافة التحريم	عبد الله بن سليمان العتيق	2013	9789953566832	فكر ديني
تغريد في السعادة والتفاؤل والأمل	عبد الله المغلوث	2012	9786144290026	مجتمع وتنمية
ثمانون عاماً في إنتظار الموت	عبد المجيد الفياض	2012	9789948425281	رواية
متي تقود السعودية السيارة	عبد الله العلمي	2012	9789948425182	مجتمع وسياسة
كلمة و كلمتين	ساجد العبدلي	2012	9789948425038	مجتمع وتربية
حيث ينام الاطفال	جيمس موليسون	2012	9789948443773	بانوراما فوتغرافية
الإسلام السياسي بـ العراق (الشيعة - السنّة)	رشيد الخيُّون	2012	9789948443582	فكر سياسي
الملوك المحتسبون	منصور النقيدان	2012	9789948443759	سياسة
اسلاميوا لبنان	عبد الغني عماد	2012	9789948443834	دراسات اسلامية
سعودى و لكن لقيط	سمير محمد	2012	9789948425083	سير ومذكرات
الجماعات الاسلامية و لا عنف	سعود المولى	2012	9780333990933	دراسات اسلامية
العاتكة و الغريب	بدر المحيلبي	2012	9789948425137	رواية
المحيط العطلنطي	زياد الدريس	2012	9786144290095	مجتمع وتنمية
أبوظبي	رشيد الخيُّون	2012	9786144290040	سير ومذكرات
الكويت قبل النفط	محمد الرميحي	2012	9786144290347	تاريخ
ثلاثية الحلم القرمطي	محيي الدين اللاذقاني	2012	9789953566658	فكر فلسفي
اسئلة الحقيقة	علي حرب	2012	9789948425298	فكر فلسفي
قصة اهل قطر	منى عبدالله	2012	9789948443803	قصص أطفال
رصيف الطهارة	أميرة محارب	2012	9786144290477	قصص قصيرة
تهافت ابي يعرب المرزوقي	رائد السمهوري	2012	9786144290309	فكر فلسفي
محركات السياسة الإيرانية في منطقة الخليج العربي	عادل على عبدالله	2012	9786144290491	سياسة
سورية شرعنة الجريمة	هيثم المالح	2012	9786144290330	فكر سياسي
أشخاص حول القذافي	عبد الرحمن شلقم	2012	9789953566924	فكر سياسي
اشكالية العلاقة	عبد السلام طويل	2012	9789948443964	سياسة

اسم الكتاب	المؤلف	سنة النشر	الرقم الدولي	التصنيف
اشكالية الدولة	عبد السلام طويل	2012	9789948425199	سياسة
ثقافة الكراهية	عبد الحميد الأنصاري	2012	9786144290118	فكر اسلامي
الحوار الأخير مع نصر حامد أبي زيد	فهد الغريري	2012	9786144290125	فكر اسلامي
الاستيلاب و الارتداد	علي حرب	2012	9789948443971	فكر فلسفي
الكينونة المتناغمة	عبد الله حميد الدين	2012	9786144290484	فلسفة
الثقافة العربية فى عصر العولمة	تركي الحمد	2012	9789948443865	فكر سياسي
الثقافة العربية امام تحديات الغير	تركي الحمد	2012	9789948443872	فكر سياسي
انت تفكر اذن انت كافر	سلوى الوباني	2012	9789948425618	مقالات
الحب يقرئك السلام	عبد العزيز خوجه	2012	9789948425366	شعر
لا تقرأوا قصائدي	مصعب الصحطاني	2012	9786144290460	شعر
صباح الثلاثاء	خالد الباتلي	2012	9789953566450	شعر
تجربتي في المرحلة الثانوية	حسام الدين خليل	2012	9786144290507	سير ومذكرات
همسة فرح	فرح البشيري	2012	9786144290439	قصص قصيرة
عندما فقدت حنجرتي	نوال يعلى	2012	9786144290453	قصص قصيرة
نزهة الدلفين	يوسف المحيميد	2012	9789953566870	رواية
نحو انعتاقي	ريم عبد الرحمن	2012	9789953566610	رواية
كارما	نادية بوهناد	2012	9789948425021	رواية
فخاخ الرائحة	يوسف المحيميد	2012	9789953566887	رواية
صلوات على نهر دجلة	فوزية الدريع	2012	9789948425243	رواية
ريح الجنة	تركي الحمد	2012	9786144290422	رواية
حكاية موعد	عبد الله بن عمر	2012	9786144290279	رواية
جروح الذاكرة	تركي الحمد	2012	9789948443889	رواية
النخيل و القرميد	يوسف المحيميد	2012	9786144290200	رواية
اللون و الحصاد	بهاء جميل	2012	9789948443957	رواية
القارورة	يوسف المحيميد	2012	9789953566900	رواية
الحمام لا يطير في بريدة	يوسف المحيميد	2012	9789953566931	رواية
دراسة ايدولوجية في الحالة العربية	تركي الحمد	2012	9789948425151	فكر سياسي
فسح سهواً	سعد العبدالله الصويان	2012	9789953566016	مجتمع وتنمية
حوار الاديان	محمد محفوظ	2012	9786144290378	فكر ديني
النصيرية العلوية	رشيد الخيُّون	2012	9789948425038	فكر ديني

اسم الكتاب	المؤلف	سنة النشر	الرقم الدولي	التصنيف
السياسة بين الحلال و الحرام	تركي الحمد	2012	9786144290149	فكر سياسي
شوق (قراءة فى اركان الاسلام)	ألفة يوسف	2012	9789948443797	فكر ديني
قال لي القصيبي	تركي الدخيل	2012	9789953566207	سير ومذكرات
عن الانسان اتحدث	تركي الحمد	2012	9786144290248	فكر سياسي
مهارات رجال	محمد الفارس	2012	9789948425106	تطوير الذات
إرهاصات الوعي ونكساته	خالد العويس	2012	9789953566993	مجتمع وتنمية
لعبة المعنى	علي حرب	2012	9789948425342	فكر فلسفي
تاريخ عرب الاهواز	عبد النبي القيم	2012	9789948425304	تاريخ
ومضات من آسيا	عبد الله المدني	2012	9789948425212	تاريخ معاصر
ويبقى التاريخ مفتوحا	تركي الحمد	2012	9789948425076	تاريخ
أمالي السيد طالب الرفاعي	رشيد الخيُّون	2012	9789953566993	تاريخ - سيرة ذاتية
محاضرات فى تاريخ العرب	عبد المالك خلق التميمي	2012	9789948443902	تاريخ
الفورمولا		2012	9789948443674	بانوراما فوتغرافية
يا زيني ساكت	نبيل المعجل	2012	9789953566856	أدب
الشعرية الروائية (احلام المستغامي)	خالد بن مسفر المالكي	2012	9789948425113	أدب
كن كما تود ان تكون	بركات الوقيان - مروة عجيزة	2012	9789948425205	مجتمع - تنمية
حكايات رجال	زياد الدريس	2012	9786144290163	مجتمع - تنمية
بين مجتمعين	عبد الله غلوم - و مها ناجي	2012	9789948443827	إجتماعي سياسي
ثقافة العاطفة	بدر المحيلبي	2012	9789948425120	أدب
الاستبداد المعاصر	خالص جلبي	2012	9786144290071	أدب
المحافظون والليبراليون في الاقتصاد الاماراتي	حبيب الملا	2012	9789948425311	اقتصاد
صديقي سائق الفورمولا		2012	9789948443681	اطفال
قيل وقال ومقال	عبد المجيد تمراز	2012	9786144290545	مجتمع - تنمية
حجر احمر فى منهاتن	يوسف المحيميد	2012	9786144290132	أدب رحلات
نورس بلا بوصلة	محيي الدين اللاذقاني	2012	9789953566634	أدب رحلات
اعرابي في بلاد الإنجليز	عبد الرحمن الإبراهيم	2012	9786144290446	أدب رحلات
علي الطنطاوي وآراؤه في الأدب والنقد	رائد السمهوري	2012	9786144290354	أدب - نقد
علي الطنطاوي واعلام عصره	رائد السمهوري	2012	9786144290316	أدب - نقد

اسم الكتاب	المؤلف	سنة النشر	الرقم الدولي	التصنيف
الشميسي	تركي الحمد	2012	9786144290101	رواية
شرق الوادي	تركي الحمد	2012	9789953566986	رواية
العدامة	تركي الحمد	2012	9786144290156	رواية
رحلة الشهرستاني إلى الهند	جواد البيضاني	2012	9789953566818	رحلات
كليلة ودمنة الجزء الثاني	خالص جلبي	2012	9786144290361	أدب
كليلة و دمنة الجزء الأول	خالص جلبي	2012	9789953566955	أدب
فى النقد الذاتي	خالص جلبي	2012	9786144290064	أدب
حديث الطمأنينة	بدر المحيلبي	2012	9789948425144	أدب
المختصر من سيرة المندي المنتظر	أحمد العرفج	2012	9786144290262	أدب
الفوضى مفهومها وأشكالها	جبريل السبعي	2012	9786144290217	أدب
السير على خطى الإنسان	خالص جلبي	2012	9786144290057	أدب
اباء الحداثة العربية	محيي الدين اللاذقاني	2012	9789953566665	أدب
الحركات الاسلامية فى الجزائر	الطاهر سعود	2012	9789948425014	سياسة
بيكاسو وستاربكس	ياسر حارب	2011	9789953566238	مجتمع وتنمية
الثوار الجدد في السعودية	علي الرباعي	2011	9789953566139	سياسة
النزاع على الدستور بين علماء الشيعة	رشيد الخيُّون	2011	9789953566603	فكر اسلامي
اليهود في الخليج	يوسف المطيري	2011	9789953566672	تاريخ
بعد إذن الفقيه	رشيد الخيُّون	2011	9789953566122	فكر ديني
كخة يا بابا	عبد الله المغلوث	2011	9789953566177	مجتمع وتنمية
الى كراكاس بلا عودة	محمد ديريه	2011	9789953566481	رواية
هناك رجل	أميرة علي عامر	2011	9789953566757	قصص قصيرة
دفاع عن العلمانية ضد المسيري	حمد الراشد	2011	9789953566412	فكر فلسفي
الانثى مصباح الكون	محيي الدين اللاذقاني	2011	9789953566641	نقد اجتماعي
المناهج الحديثة في الدرس القرآني	مجموعة مؤلفين	2011	9789953566351	تعليمي
الاحرار الملثمون	مصطفى الانصاري	2011	9789953566429	أدب رحلات
معارك التنويريين السعوديين لمحو الظلام	يعقوب إسحاق - محمد بترجي	2011	9789953566559	مقالات
خارج الطائفة	علي الديري	2011	9789953566320	مقالات
تغطية العالم	أحمد السيد عطيف	2011	9789953566191	فكر ديني
تلخيص البيان	رشيد الخيُّون	2011	9789953566078	مذاهب - فرق و نحل

اسم الكتاب	المؤلف	سنة النشر	الرقم الدولي	التصنيف
الشارع يا فخامة الرئيس	سليمان الهتلان	2011	9789953566764	مجتمع
مكانة السلطات الأبوية	زياد الدريس	2011	9786144290187	مجتمع وتربية
انما نحن جوقة العميان	تركي الدخيل	2011	9789953566153	مجتمع وتنمية
اللغة العربية و آدابها - الجزء الاول	كمال عبد الملك	2011	9786144110331	أدب
كنا في إسرائيل	كمال عبد الملك	2011	9789953566375	فكر سياسي
ولاية الدولة ودولة الفقيه	علي الأمين	2011	9789953566030	فكر ديني
لا إسلام بلا مذاهب	رشيد الخيّون	2011	9789953566092	فكر ديني
رسالة في العلمانية والخلافة	رشيد الخيّون	2011	9789953566061	فكر ديني
تشيع العوام وتشيع الخواص	أحمد القبانجي	2011	9789953566344	فكر ديني
المرأة والولاية العامة	رياض الصيخان	2011	9789953566337	فكر ديني
مسافات في ذاكرة رجل من بريدة	موسى النقيدان	2011	9786144290286	فكر سياسي
الحب و الفراق ... إنة محمد عبدة يماني	كمال عبد القادر	2011	9789953566382	شعر
Fires of Love and Mirages of time	محمود العوديد	2011	9786030072958	شعر
جدل التنزيل	رشيد الخيّون	2011	9789953566054	سيرة ذاتية - فكر
حكاية اسمها غازي القصيبي	كمال عبد القادر	2011	9789953566399	سيرة ذاتية - تاريخ
سلمان العودة من السجن الى التنوير	تركي الدخيل	2011	9789953566184	سير ومذكرات
في قلب بن لادن	مصطفى الانصاري	2011	9789953566474	سير ومذكرات
صفحات من سيرة جدي	سليمان التويجري	2011	9789953566016	سير ومذكرات
همسات فراشة	شيماء المزروع	2011	9786144290422	قصص قصيرة
الكراديب	تركي الحمد	2011	9789948443858	رواية
ما تبقّى من أوراق محمد الوطبان	محمد الرطيان	2011	9789953566849	رواية
شلالات الشهوة	شاهر النهاري	2011	9789953566689	رواية
بوح ونواح في حكاية ضادية	شاهر النهاري	2011	9789953566009	رواية
ايام مع المارينز	فضيلة الجفال	2011	9789953566542	رواية
النهاريون	مصطفى الانصاري	2011	9789953566436	رواية
عمائم سود بقصر آل سعود	رشيد الخيّون	2011	9789953566115	فكر ديني / سياسي
هل السعوديون أعداء الدين ؟	علي الرباعي	2011	9789953566764	دين ومجتمع
نقد الخطاب السلفي	رائد السمهوري	2011	9789953566719	فكر ديني / سياسي
اليمن السعيد وصراعات الدين والقبلية	سعود المولى	2011	9789953566443	حركات اسلامية
المجتمع الاحسائي المعاصر	أحمد اللويمي	2011	9789953566160	دين و مجتمع

اسم الكتاب	المؤلف	سنة النشر	الرقم الدولي	التصنيف
الدنيا امرأة	تركي الدخيل	2011	9789953566252	دين و مجتمع
ضد الطائفية	رشيد الخيُّون	2011	9789953566085	فكر ديني
الصندوق الأسود	عبد الله المغلوث	2011	9789953566146	سير ومذكرات
اقرأ	ساجد العبدلي	2011	9789953566580	تنمية ثقافية - تربية
من المعلقات إلى الفيس بوك	كمال عبد الملك	2011	9789953566504	تنمية - مجتمع
الديانية المندائية	رشيد الخيُّون	2011	9789953566528	فكر ديني
العلوم الإسلامية	عبد السلام طويل	2011	9789953566597	فكر ديني
شبكات التواصل الاجتماعي	خالد محمود	2011	9789953566467	تنمية - مجتمع
الأحزاب الدينية	علي الأمين	2011	9789953566047	فكر ديني
بكاريلوس في حكم الشعوب	علي سالم	2011	9789953566313	مجتمع - تنمية
أعمدة الضحك السبعة	علي سالم	2011	9789953566276	مجتمع - تنمية
الضحك في عز النكد	علي سالم	2011	9789953566283	مجتمع - تنمية
التطرف وثقافة السلام	علي سالم	2011	9789953566290	مجتمع - تنمية
اعترافات زوج	علي سالم	2011	9789953566269	مجتمع - تنمية
رحلتي مع السرطان	كمال قبيسي	2011	9789953566498	مجتمع
معتزلة البصرة و بغداد	رشيد الخيُّون	2011	9789953566108	رحلات
أمريكا في مرآة عربية الجزء الثاني	كمال عبد الملك	2011	9789953566221	أدب - لغة عربية
أمريكا في مرآة عربية الجزء الأول	كمال عبد الملك	2011	9789953566214	أدب - لغة عربية
الزلزال العربي السعودية	عبد العزيز الصويغ	2011	9789953566702	رواية
صورة اوروبا في الأدب العربي الحديث	كمال عبد الملك	2011	9789953566368	أدب
نازح من جازان	هادي فقيهي	2011	9789953566245	فكر ديني
المرأة السعودية بين الفقهي و الاجتماعي	فوزية باشطح	2011	9789953566405	مجتمع - فكر ديني
الاخوان المسلمون في الغرب	لورينزو فيدينو	2011	9789948443643	فكر ديني/سياسي
المملكة من الداخل	روبرت ليسي	2010	9789948443438	تاريخ
اللغة العربية و آدابها - الجزء الثاني	كمال عبد الملك	2010	9786144110348	لغة عربية - أدب
حكايات الرسول السعودي	حمد الرشيدي	2010	9789953566023	قصص قصيرة
الإرهاب والسينما	مجموعة مؤلفين	2010	9786144110324	فكر
كرونولوجيا الثورة العربية الكبرى	خالص جلبي	2010	9786144290002	سياسة
جوهرة في يد فحّام	تركي الدخيل	2010	9786144110300	أدب رحلات

المملكة من الداخل	روبرت ليسي	2010	9789948443438	تاريخ
اللغة العربية و أدابها - الجزء الثاني	كمال عبد الملك	2010	9786144110348	لغة عربية - أدب
حكايات الرسول السعودي	حمد الرشيدي	2010	9789953566023	قصص قصيرة
الإرهاب والسينما	مجموعة مؤلفين	2010	9786144110324	فكر
كرونولوجيا الثورة العربية الكبرى	خالص جلبي	2010	9786144290002	سياسة
جوهرة في يد فحّام	تركي الدخيل	2010	9786144110300	أدب رحلات





هذا الكتاب (القيادة العليا: الجنود ورجال الدولة والقيادة في زمن الحرب) من افضل الكتب السياسية التي كتبت في الألفية الثالثة. وهو كتاب يعلّم فن التحليل التاريخي وفن التحليل السياسي، في بضع مئات من الصفحات. وتكمن أهميته وخطره، في أنه يتحدث عن قضية في غاية الحساسية، ألا وهي تلك العلاقة شديدة التعقيد بين الحاكم المدني والقائد العسكري الميداني. ويخص المؤلف زمن الحرب بالحديث، لأنه الزمن التي تبرز فيه الخلافات وتكون على أشدها بين الطرفين المذكورين. زمن الحرب يختلف عن زمن السلم، حيث تُحبس العلاقة بين الطرفين في إطار المجاملات، وبقاء الخصومات - إن وقعت - حيث تُكنها الصدور، كالنار القابعة تحت الرماد


9786144299050



